الأعمال الفكرية

الانتفاضة الفلسطينية

والأزمة الصهيونية



مهرجان القراءة للجميع
2000
عشر سنوات

دراسة فى الإدراك والكرامة

د. عبدالوهاب المسيرى



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الانتفاضة الفلسطينية
والأزمة الصهيونية

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني: أطفال الحجارة والعلم الفلسطيني
التقنية: صورة فوتغرافية ومعالجة كمبيوتر
المقاس: ٢٠×٣٠سم

هذا الغلاف كسر لقاعدة أغلفة هذا العام، فالأرضية تمثل العلم الفلسطيني وبداخله صورة من صور الانتفاضة لأطفال الحجارة يتوسطهم العلم الفلسطيني مرفوع الهامة. وكنا نتمنى تجسيم كل تفاصيل الغلاف لنحيله إلى مشهد حي ناطق بالصوت والصورة، مشهد يتجاوز شرائط الفيديو إلى الواقع الحي، فنحن أمام أبطال المستقبل، وموقعي شهادات كرامتنا، والتعبير الحي لصحوة العروبة ولم الشمل، التحدي الحقيقي لغطرسة النظام العالمي الجديد وفرض سياسة الأمر الواقع،، يا وطني الجريح.. أنت أقرب إلينا من حبل الوريد.. لنغني معك دوماً بصوته الجميل (محمود درويش): أموت إشتياقاً.. أموت احتراقاً.. وشنقاً أموت.. وذبحاً أموت.. ولكنني لاأقول مضى.. حبنا وانقضى.. حبنا لايموت.

محمود الهندي

الانتفاضة الفلسطينية
والأزمة الصهيونية

دراسة فى الإدراك والكرامة

د. عبدالوهاب المسيرى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

الانتفاضة الفلسطينية
والأزمة الصهيونية
دراسة فى الإدراك والكرامة
د. عبدالوهاب المسيرى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الأثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب الدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

الاهـــداء

إلى أبطال الانتفاضة المستمرة حتى النصر وقيام الدولة. الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس الشريف

عبد الوهاب المسيري

«سأل صحفي انجليزي امرأة فلسطينية: ما الذي يحتاجه الأطفال في المخيم؟ فأجابت قائلة: انهم يحتاجون إلى دولة. ثم مضت تقول: نفضل الموت جوعا على ان نستسلم».

مجلة نيوستيتسمان (البريطانية)

عن القبس 28 يونيه 1988

هذا الكتاب ليس دراسة في الانتفاضة وحسب، وإنما هو أيضا دراسة في النماذج المعرفية والادراكية الكامنة وراء كل من الانتفاضة الفلسطينية، والمحاولة الصهيونية لقمعها..

والانتفاضة لحظة تاريخية نادرة... تحوّلت الى حدث تاريخي يومي.

الانتفاضة لم تكن تعبيرا عن يأس عقيم وإنما تجلّ لامتلاء عربي فلسطيني، واكتشاف للذات واسترداد لها.

د. عبد الوهاب المسيري

مقدمـــة

بعد اندلاع الانتفاضة المباركة وجدت نفسي مستوعبًا تمامًا فى أحداثها الأمر الذي اضطرني إلى ترك مشروعي البحثي الأساسي «موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية والصهيونية» لأكتب دراسة عن الانتفاضة، نشرت معظم اجزائها في الصحف والمجلات العربية مثل الشعب (المصرية) والقبس (الكويتية). ومجلة كلية الملك خالد العسكرية (السعودية). واليوم السابع (فرنسا).

وهذا الكتاب ليس دراسة في الانتفاضة وحسب وإنما هو أيضا دراسة في النماذج المعرفية والادراكية الكامنة وراء كل من الانتفاضة الفلسطينية والمحاولة الصهيونية لقمعها.بل هو بمعنى من المعاني جزء من المحاولة الجارية بين علماء الانسانيات في العالم العربي لتأسيس علوم عربية إنسانية مستقلة أكثر قدرة على تفسير واقعنا وعلى توجيهه وتحريكه من النماذج الجاهزة المستوردة.والانتفاضة لحظة تاريخية نادرة ـ بالنسبة لي كدارس للظاهرة الإنسانية فى العالم العربي وخارجه ـ أرى فيها النموذج المعرفي الذي ادافع عنه وقد تحول إلى حدث تاريخي يومي.

وقد تناولنا في الفصل الأول من هذا الكتاب أهمية النماذج المعرفية في تحديد ادراك الانسان وخطورة التبعية الادراكية. واشرنا إلى النموذجين المتصارعين في فلسطين المحتلة وقد سميناهما نموذج الانسان / المادة ونموذج الانسان / السر أو نموذج الالتحام العضوي في مقابل التكامل غير العضوي. وقد طرحت فكرة أن الانتفاضة ليست تعبيرا عن اليأس وإنما هي تعبير عن أمل عربي فلسطيني، وإيمان بالانسان / السر الذي لا يقهر. ثم تناولنا بعد ذلك أزمة الصهيونية وأهمية دراستها لفهم الانتفاضة، وقد طرحنا فكرة أزمة الشرعيتين: الشرعية الصهيونية، أي شرعية الصهيونية أمام يهود العالم وأمام العالم الغربي وأمام الصهاينة أنفسهم، وشرعية الوجود وهي شرعية وجود الصهاينة في أرض العرب.

وقد تناولنا في الفصول الثلاثة التالية (الثاني والثالث والرابع) جوانب مختلفة من أزمة الصهيونية وكيفية استجابة الفلسطينيين لها وكيف ادركوا ابعادها بسبب ثقتهم في انفسهم

وإيمانهم بالله والانسان، وكيف ان هذا الادراك شدّ من أزرهم فانتفضوا وزادوا أزمة الصهيونية تفاقما. ويتناول الفصل الخامس (أهم فصول الكتاب في تصوري) تآكل الجيش الاسرائيلي وأشكال الابداع المختلفة عند المتفضين ويؤكد أن النموذج النضالي الذي ابتدعوه (الترابط غير العضوي) نموذج جديد كل الجدة يضيف إلى التراث النضالي العالمي. وقد بينت أن الحجارة ليست مجرد سلاح وإنما نموذج كامل لكل أشكال النضال في الانتفاضة.

ونحاول في الفصل السادس رصد استجابة المستوطنين الصهاينة للانتفاضة، وفي نفس الوقت نحاول ان نوسع نطاق المصطلح السياسي العربي ليصبح اكثر تركيبية وشمولا ودقة وتفسيرية (بما يتفق مع رؤيتنا للانسان / السر).

وفي الفصل السابع نرصد استجابة يهود العالم للانتفاضة، ونحاول أيضا وضع مصطلح جديد يتلاءم مع تركيب وضعهم وإبهامه.

أما الفصلان الثامن والتاسع فيتناولان الاعلام وموقفه من الانتفاضة وموقف الصهاينة منه. ويتناول الفصل العاشر أزمة الصهيونية كما تعبر عن نفسها من خلال القصائد والأغاني والنكت ونشير الى ما سمّيناه تآكل العقد الاجتماعي الصهيوني. اما الفصل الحادي عشر والأخير فقد قمنا بتلخيص ما ورد في فصول الكتاب من نتائج للانتفاضة وتناولنا أهم النتائج على الاطلاق وهي وضع شرعية الوجود الصهيوني ذاتها موضع التساؤل.

ماحدث ـ ويحدث ـ في فلسطين المحتلة أمر تاريخي وإذا كان استخدامنا لهذه لكلمة قد ابتذلها تماما (حتى أصبح خطاب أحد الوزراء يسمى «حدثًا تاريخيًا»)، فإن الحركة الثورية ستعيد للكلمات دلالتها وبراءتها الأولى. . وستعود المعاني للغة بإذن الله، حتى تصبح مرة أخرى طريقه للوصول إلى الحكمة لا أداة خداع الذات والتدليس على الجماهير. ولا أزعم أن هذه الدراسة شاملة أو أنها تعطي لهذه الانتفاضة حقها، فهذا أمر مستحيل، خاصة أن العجلة لا تزال تدور والبطولات العادية الخارقة لم تتوقف بعد. كل ما أرمي إليه هو أن أبين بعض الدلالات العامة والثابتة لهذه النهضة المباركة، خاصة أنني كنت قد بدأت في رصد احداثها منذ عام 1984.

وانتفاضة الحجارة قد أكدت للجماهير مرة أخرى أن متتالية (سيناريو) الكرامة ممكنة، وأن العقلاء بيننا الذين يدعون للتعقل إنما هم تجار يودون بيع الوطن أو على الأقل تأجيره مفروشًا. ولذا فالانتفاضة خلقت مناخا جديدًا في النفوس ويمكن لمن يريد أن يحرك هذه الأمة أن يفعل: لقد علمتنا الانتفاضة كيف يذوب جليد اليأس الذي يخلق الاحساس بالعدمية وكيف تولد البراعم في النفوس فينهض الناس ويحملون حجرا ويعلون كلمة الحق ويحولون المعرفة إلى فضيلة.

كيف حدث ما حدث؟ وما هي طبيعة هذه الانتفاضة؟ ما هي الأسباب والنتائج والاستجابات؟ هذا ما ستحاول صفحات هذا الكتاب الاجابة عليه.

الفصل الأول

بين الإدراك والواقع

لا يمكن لنا أن ندرك أبعاد الانتفاضة الحقيقية إلا بالغوص في أكثر مستويات التحليل عمقا - أي النماذج المعرفية أو الادراكية الكامنة، التي تترجم نفسها إلى خرائط معرفية ومقولات إدراكية ينظم بها الانسان واقعه ويصنفه،وإلى صور إدراكية يكونها الإنسان عن نفسه وعن واقعه وعمن حوله من بشر ومجتمعات واشياء. ونحن نضع النموذج المعرفي (أو الخريطة المعرفية أو الصورة الادراكية) في مقابل الواقع في حد ذاته - أي الواقع الخام الموجود خارج حواس الانسان والذي لم يتشكل بادراكه. وازعم أن الخرائط المعرفية والصور الاداركية التي يحملها الانسان في عقله ووجدانه تحدد ما يمكنه أن يراه في هذا الواقع الخام، كما أنها تستبعد بعض التفاصيل فلا يراها. ولعل أكثر الأمثلة درامية على ما نقول هو الطريقة التي تتعامل بها كل حضارة مع الألوان. فهناك حضارات لا يوجد في نموذجها المعرفي سوى لونين (أبيض وأسود)،وحضارات أخرى لا يوجد فيها سوى أربعة ألوان، وهناك الحضارات الأكثر تركيبًا التي يضم نموذجها ألوان الطيف الأساسية وبعض التنويعات الأخرى عليها. هذا لا يعنى ان الواقع الخام غير موجود بدون الادراك، فهو ولا شك هناك يمكن قياسه وفحصه، ولكنه لا يحدد سلوك من لا يتفاعل معه. ولذا اذا كنا بصدد دراسة سلوك الانسان الحي، فاننا يجب الا نرصد الواقع في حد ذاته، وانما نرصد الواقع كما يدركه الانسان ويتأثر به، أي ان رقعة الدراسة الحقيقية ليست الواقع وانما التفاعل الانساني معه.

ويقال : إن أعضاء الحضارات التي لا يضم نموذجها المعرفي سوى أربعة ألوان وحسب لا يرى ابناؤها سوى أربعة ألوان. وقد يبدو هذا أمرا متطرفًا، ولكن حاول أن تنظر إلى صورة زيتية ملونة بصحبة ناقد محنك وستجد أنه سيكتشف من التنويعات اللونية ما لم يطرأ لك على بال لأن نموذجك المعرفي قد حدد ادراكك، وهو نموذج قام الناقد باضافة مقولات جديدة له فأدركت من التنويعات اللونية ما لم تدرك من قبل. ونحن هنا لا نتحدث عن «عمى الألوان»، وهو عيب فسيولجي قد يصاب به إنسان، وإنما نتحدث عن حدود إدراكية ناجمة عن حدود النموذج المعرفي ذاته. فالادراك يتم من خلال الأداة، أي النموذج، ويتحدد الإدراك بمقدار مدى ضيق النموذج / الأداة، أو اتساعه.

التبعيّة الادراكية

وأزعم أن الأمة العربية الإسلامية تعاني الآن من حالة تبعية إدراكية كاملة اذ أننا نستورد نماذجنا المعرفية فيما نستورد من أشياء من الغرب. بل إننا بدأنا ننظر إلى أنفسنا من خلال عيون غربية ونحكم على أنفسنا بمعايير مستقاة من «بلاد بره» هذه التي ملكت علينا شغاف قلوبنا. والنتيجة أننا أصبحنا كلنا منكسرين من الداخل، حتى حينما نطرح أكثر الشعارات ثورية وانتصارا. وهذا ما سماه أحد علماء الاجتماع الغربيين «بامبريالية المقولات» - أي أن تكون مقولات المرء الادراكية مستقاة من الآخر، فيرى الانسان نفسه متخلفا مهما بذل من جهود ومهما انتج من روائع ويحكم على نفسه بالهزيمة حتى قبل دخول المعركة. وهذا ما يسميه الأستاذ / عادل حسين في دراساته بالتبعية، وهي ليست تبعية اقتصادية وحسب كما قد يظن البعض، بحيث تنتفي التبعية مع تحقيق الاكتفاء الذاتي الاقتصادي ومع التصنيع وما يتبع ذلك من ارتفاع بالمستوى المعيشي، وإنما هي تبعية عميقة كامنة تنصرف إلى أسلوب الحياة وإلى رؤية الذات ورؤية الآخر.

وقد ضرب الاستاذ عادل حسين مثلا طريفا على ذلك (استقاه من كتابات الأستاذ أحمد حسين رحمه الله) فأشار إلى أن بعض «العلماء» يتبنون استخدام الكرسي كمؤشر على التقدم والتخلف، فمن استخدمه كان متقدمًا ومن لم يستخدمه كان متخلفا. ولكنه يشير بعد ذلك إلى حقيقة في غاية الأهمية وهي أن الكرسي جزء من التشكيل الحضاري الغربي، استخدمه الغربيون حينما كانوا في أدنى مراحل تخلفهم يقدمون الضحايا البشرية التي استمرت في بعض اجزاء أوروبا، مثل البلاد السلافية، حتى القرن العاشر الميلادي وسجلها بعض الرحالة العرب. وقد استخدموه لا لتقدم احرزوه وإنما بسبب برودة الأرض، ولعلهم قدموا بعض الضحايا البشرية جلوسا على الكراسي. وهناك شعوب أخرى مثل اليابانيين والعرب لم يستخدموه وهم في أقصى تقدمهم. ولا يمكن الزعم مثلا إننا أصبحنا أكثر تقدما من عرب العصر العباسي الأول لأننا نجلس على الكراسي من طراز لويس السادس عشر أو حتى الخامس عشر، بينما كانوا هم يفترشون الأرض، كما لا يمكن أن نزعم أن وكيل وزارة الصناعة

مثلا أكثر تقدما من مدير شركة «سوني» اليابانية لأن الأول يعود إلى منزله ويجلس على كرسي، بينما يعود الثاني فيخلع رداءه الأوروبي ويرتدي رداءه الياباني التقليدي ويجلس على الحصير ويستريح. وقد سمعت مرة بحثًا لأحد علماء الاجتماع المصريين استخدم «عدد ساعات الاستماع للموسيقى السيمفونية» كمعيار للتقدم والتخلف ـ وياله من معيار هزلي سخيف يؤدي إلى نتائج عنصرية كريهة، إنه يشبه من بعض الوجوه عالما غربيا يحكم على فنون بلده بالتخلف لأنها لا تضم فن الخط *Calligraphy*، ولأن المباني العامة فيها لا تزينها حكم مكتوبة بخط جميل، ففن الخط فن مقصور على الحضارات الشرقية وقد وصل هذا الفن إلى قمة ازدهاره عند العرب والمسلمين لأسباب دينية وحضارية خاصة بهم وحدهم ولا يصلح كمعيار عالمي لقياس التقدم والتخلف.

ولأضرب بعض الأمثلة على تبعيتنا الادراكية وفشلنا في أن نسمى الأشياء بأسمائها، ومن يُسمي شيئًا فقد صنَّفه ووضعه داخل خريطة ادراكية كبرى. حينما نكتب تاريخ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نتحدث كلنا عن «المسألة الشرقية» وعن «رجل أوروبا المريض» مما يجعلنا ننظر إلى الدولة العثمانية (التي كانت تحمي شعوبها ـ رغم ضعفها واستبدادها ـ من الهجمة الأستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره) فننظر لها باعتبارها «رجلا مريضا» وحسب، وننسى «رجل أوروبا النهم المفترس» أي الامبريالية الغربية التي كانت تبيد سكان أفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت اعدادا هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين وبعد أن أبادت سكان استراليا ونيوزيلندة، والتي كانت تقوم باستعباد سكان آسيا، وتخوض حربا لتسويق الأفيون في الصين لنشر التقدم في ربوعه! ننسى هذا الرجل النهم الذي دس السم في طعام الرجل المريض، كما ننسى أنه لو ترك الرجل المريض وشأنه لربما شفاه الله وعافاه على يد رجل مصر الفتى (في شكل محمد على ثم عرابي) الذي كان بوسعه أن يحقنه ببعض المقويات محافظا بذلك على تماسك أكبر دول الشرق وأعظمها.ولكنه النموذج الادراكي المستورد الذي يجعلنا ننظر الى أنفسنا وتاريخنا من خلال عيون غربية.

الصهيونية العالمية ام الغربية؟

ولأضرب مثلاً آخر على التبعية الادراكية. نصف الصهيونية بأنها «الصهيونية العالمية»، وهي ترجمة لعبارة *World Zionism* (ونحن نترجم حتى حينما نفكر) ولو نظرنا حولنا بضعة دقائق وتخلينا عن المقولات الادراكية المستوردة لوجدنا أن الصهيونية لا أثر لها في الصين أو الهند او افريقيا (باستثناء جنوب افريقيا) ولا في كل آسيا (باستثناء الجيب الاستيطاني في فلسطين) ولا في أمريكا اللاتينية (إلا في داخل الجيب اليهودي في الأرجنتين) ـ أي أن الصهيونية (وهي افراز لحركيات التاريخ الغربي ولا يمكن فهمها إلا داخل هذا الأطار) توجد أساسا في العالم الغربي. ولذا كان من الضروري أن نسميها «الصهيونية الغربية»، فهذه هي التسمية الوحيدة الدقيقة التي تستند إلى رؤية عميقة للواقع. ولكننا لم ندرك هذه الحقيقة

البديهية لأننا وقعنا صرعى ما صُدّر لنا من مصطلحات تجسد نموذجا معرفيًا غربيا، والتصقت كلمة «عالمية» بالصهيونية وأحرزت شيوعًا لا نظير له. وكلمة «عالمية» تضفي على الصهونية هيبة لا تستحقها ورهبة لا تنبع منها وقوة لا تملكها. كما أن الكلمة تعبر عن مضمون عنصري كامن. فحينما نُحت مصطلح «صهيونية عالمية» كانت كلمة «عالمية» مرادفة في العقل الغربي لكلمة «غربية»، ومن هنا مطالبة هرتزل مثلا بإنشاء «دولة يحميها القانون العام (أي الدولي)» وهو يعني في واقع الأمر القانون الغربي أي القوة الغربية. ويمكن القول إننا نقول «الصهيونية العالمية» مثلما نقول «الامبريالية العالمية»، ونحن في هذا نكون قد تجاوزنا الحقيقة أيضا. فمجال الصهيونية ليس العالم، إذ تظل فلسطين ساحتها الأولى والأساسية. وإن قامت الدولة الصهيونية بنشاط عالمي فهي تفعل ذلك بهدف تأمين الجيب الاستيطاني في فلسطين.

ونفس الشيء ينطبق على اصطلاح «التاريخ اليهودي»، فهل يوجد تاريخ يهودي مستقل يفسر سلوك اليهود أينما وجدوا، ام ان هناك تواريخ مختلفة للجماعات اليهودية يمكن تفسيرها بالعودة للتشكيلات الحضارية والسياسية المختلفة التي يتواجدون فيها. وبالتالي هل يمكن تفسير الصهيونية كظاهرة بالعودة لهذا «التاريخ اليهودي» ام بالعودة لتاريخ الاستعمار الغربي؟ وهل يمكن تفسير ما حدث لليهودي في التشكيل الحضاري الاسلامي بالعودة «للتاريخ اليهودي» ام بالعودة لتاريخ الدولة العربية الاسلامية؟

الرواد والمسكوب

ومن اكثر الامثلة درامية على فشلنا في تسمية الاشياء وادراكها من منظورنا «نحن» لا من منظورهم «هم» تسميتنا للمستوطنين الصهاينة، فنحن نسميهم «روّادا» ويتفلسف بعضنا ممن يعرفون العبرية ويقولون «حالوتسيم» مستخدمين الكلمة العبرية «حالوتسيوت» - اي الريادة. وهكذا تتوارى الحقيقة، ويضيع المتلقي العربي في محاولة نطق كلمة أعجمية مخارجها الصوتية غريبة عليه. كما ان كلمة «رواد» تحمل فخامة غير عادية وايحاءات ايجابية، فالرائد دائما في المقدمة يرتاد الصعب والمجهول. نقول هذا ونحن نعرف فيما بين انفسنا انهم مغتصبون لارضنا، وانهم لا يرتادون مجهولا وانما يستولون على ارض مأهولة بالسكان وعلى مزارع مترعة بالثمار وانهم استولوا عليها بقوة السلاح الغربي، لا بسلاحهم هم، وبدعم من العالم الاستعماري لا بجهودهم الذاتية. اما الفلاحون الفلسطينيون، في أواخر القرن الماضي فكانوا ينظرون الى هؤلاء الرواد/الحالوتسيم ويسمونهم «بالمسكوب» نسبة الى موسكو (مسكفا او مسكبا) وهي تعني عندهم الاجانب او الدخلاء - ويالها من تسمية بسيطة دالة تصل الى جوهر الظاهرة كما نخبرها نحن، لا كما سماها صاحبها الذي يود اخفاءها وتعميتنا.

وتظهر سخافتنا غير العادية في قولنا «معاداة السامية» وهي ترجمة للعبارة الغربية *anti-Semitism* وهي عبارة بلهاء تعادل اولا بين اليهود والساميين وتقرن بينهما مع ان العبرانيين القدامى كانوا لا يشكلون سوى خلية حضارية صغيرة، تابعة بشكل يكاد يكون

كاملا للتشكيلات السامية الكبرى مثل تشكيلات البابليين والاشوريين والاراميين، وهي التي ورثها التشكيل العربي/الاسلامي. وتعد اللغة العربية اهم اللغات السامية على الاطلاق حسب راي علماء اللغات السامية، فلو صح استخدام المصطلح للاشارة الى احد فانما يجب ان يشير لنا نحن العرب. ولكن الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر لم تكن قد وصلت الى هذا المستوى المعرفي بعد، ولهم عذرهم فالمعرفة لا تأتي مرة واحدة. كما انَ الفكر العنصري الغربي المعادي لليهود كان يحاول استبعادهم كعناصر داخل التشكيل الحضاري الغربي ففرق بين الآريين والساميين وفضل الفريق الاول على الثاني. فكأن عبارة «معاداة السامية» هذه تعبير عن جهل غربي وعن عنصرية غربية وعن صهيونية غربية كامنة تهدف الى التخلص من اليهود والالقاء بهم في ارض فلسطين. ونقوم نحن بموضوعية بلهاء بترجمة المصطلح ونقول «معاداة السامية» ـ مع انه كان من الممكن ببساطة شديدة ان نقول «معاداة اليهود» دون ان نستورد المصطلح المتحيز ضدنا، الخاطىء في حد ذاته.

والصراع العربي ـ الاسرائيلي يعد في شكل من اشكاله صراعا على تسمية الاشياء، فنحن نسمي تلك الارض الواقعة بين سوريا والاردن ومصر «فلسطين» بينما يسميها الصهاينة «اسرائيل»، ونسمي نحن سكانها «الفلسطينيون» ويسمونهم هم «سكان المناطق» اذ انه لا وجود لفلسطين ولا للفلسطينيين في المصطلح الصهيوني. ونحن نسمي الوجود الصهيوني في فلسطين «استعمار استيطاني احلالي» واغتصاب، ويسمّونه هم «عودة لأرض الميعاد، أو أرض الأجداد». وقد تنبّه الصحفي الاسرائيلي روبرت روزنبرج لهذا الجانب في الصراع فقال في مقال له في الجيروساليم بوست بعنوان «ينامون بعمق في اسرائيل» : «قل لي كيف تصف المناطق وراء الخط الاخضر سأقول لك من انت : محتلة ؟ محررة ؟ مهزومة ؟ مدارة ؟ يهودا والسامرة وغزة ؟ قل لي كيف تصف الاحداث التي تقع هناك وسأقول لك من انت ؟ اضطرابات عادية ؟ شغب ؟ هيجان ؟ قمع ؟ مبالغة ؟ اعلامية مؤقته ؟ حرب ؟».

انتفاضة أم ثورة ؟

المصطلحات لا توجد في فراغ وانما داخل اطر ادراكية تجسد نماذج معرفية. وقد تمت آخر محاولة لسلب الانسان العربي حقه في تسمية الاشياء بحسن نية بالغة. اذ حاول بعض الكتاب اسقاط كلمة «انتفاضة» ذاتها واحلال كلمة «ثورة» محلها. وانا لا اعترض على كلمة ثورة كتسمية عامة لما يحدث هناك، وتجمع بينها وبين الظواهر المماثلة كجزء من تراث عالمي، ولكن مع هذا يظل للانتفاضة خصوصيتها التي يجب ان نعبر عنها. ونحن لو حللنا تفكير الكتاب الذين يعترضون على كلمة «انتفاضة» لاكتشفنا انهم متأثرين ولا شك بالتراث اللغوي الغربي، حيث قسمت المحاولات الانسانية لرفض القهر ترتيبا هرميا يستند الى تجربة الانسان الغربي التاريخية بحيث يوجد في قاعدة الهرم الاضرابات *riots* تعلوها التمردات أو

insurrection، وتعلوهاالـ rebellion وهي ثورة غير مكتملة، ثم اخيرا في قمة الهرم توجد revolution اي الثورة الكاملة بكل ما تحمل من معاني الانقطاع الكامل والرفض التام للنظام القديم وطرح رؤية جديدة.

وهذه التقسيمات اللغوية نابعة لا من عبقرية اللغات الاوروبية وحسب وانما من التجربة الحضارية التاريخية الغربية ذاتها حيث توجد عدة انقطاعات كاملة. فعصر النهضة كان رفضا للعصور الوسطى ورفضا للدين والكنيسة، وهناك كذلك الثورتان الفرنسية والبلشفية وهما تجربتان تاريخيّتان ليس لهما ما يشبههما في التشكيلات الحضارية الشرقية فهما يشكلان ما يشبه الانقطاع الكامل عما سبق وهدما كاملا للنظام القديم، ورفضا جذريا للدين وللقيم الاخلاقية المرتبطة به وطرح رؤية جديدة للعالم والانسان. وكل هذا امر مفهوم داخل التاريخ الغربي، وعلينا فهمه واحترامه (*).

ولكن يبدو ان التغير داخل التشكيلات الحضارية الشرقية ياخذ شكلا مغايرا يحتفظ بقدر من الاستمرارية (ربما بسبب امتدادها الزمني). فالثورة الماوية في الصين، رغم كل ديباجاتها الماركسية اللينينية، احتفظت بكثير من التقاليد الصينية، سواء على مستوى العقيدة أو السياسة. وانتقال اليابان الى العصر الحديث تم في اطار الحفاظ على التراث والهوية (مما حدا ببعض علماء الاجتماع ان يطرح مصطلح «رأسمالية اقطاعية» ليصف النظام الاقتصادي الياباني). واعتقد ان الشرق الاسلامي ظل يتمتع بقدر كبير من الاستمرارية حتى نهايات القرن التاسع عشر.

وكلمة «انتفاضة» مناسبة تماما لوصف هذه الاستمرارية وهي مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» يعني حركه ليزول عنه الغبار او نحوه. ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يضرب جذورا في تربتنا الجغرافية والتاريخية فهو مثل الغبار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس الجوهر. ويقولون ايضا «نفض المكان» اي نظر جميع ما فيه حتى يعرفه، وهذا تكتيك معروف لدى شباب الانتفاضة، ويقولون ايضا «نفض الطريق» اي طهره من اللصوص. ويقال «النفضة» وهي الجماعة يبعثون في الارض متجسسين لينظروا هل فيها عدو او خوف، وهذا ايضا تكتيك آخر للمنتفضين. وتحمل الكلمة ايضا معاني الخصوبة فيقال: «نفض الكرم» اي تفتحت عناقيده. ويقال ـ وهذا هو الاهم ـ «نفضت المرأة» اي كثر اولادها، و«المراة النفوض» هي المراة الكثيرة الاولاد ـ اي المراة التي لا تكف

(*) اشار احد المعلقين السياسيين الى المنتفضين باعتبارهم الديسمبريين ولعله يفكر في مؤامرة الديسمبريين في روسيا القيصرية عام 1825 وهي مؤامرة خاصة قامت بها مجموعة صغيرة من الضباط (حوالي 120) بتأييد من بعض النبلاء في جنوب روسيا. وكانت مؤامرتهم خائبة تفتقد الى الرؤية والتخطيط ذات طابع رجعي وكانت لا تربطهم رابطة باي جماهير وقد تم القضاء عليها بسهولة ولم تترك أثرا على مسار التاريخ الروسي. ان كان يفكر الكاتب في هذا الانقلاب الفاشل فتلك مصيبة، اما ان كان لا يفكر فيه وينسب الحدث العظيم الى التاريخ المحايد اي شهر ديسمبر و«السلام» فالمصيبة اعظم!

عن الانجاب تماما مثل الانثى الفلسطينية. وانظر كذلك الى تعبير مثل «نفض عنه الكسل» و«نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض واقفا» وهي كلها اصطلاحات تعني ان ما يحدث الان كان هناك دائما.

ونحن هنا لا نرفض كل المصطلحات والكلمات الغربية ولا نطالب بضرورة اتخاذ «بدائل» عربية لها، فهذا في تصوري تـردّ كامل وتقبل غير مشروط للنموذج المعرفي الغربي، بل ويساهم في ترويجه، اذ انه يعطيه وجها عربيا اسلاميا يخبىء واقعا غربيا. وهذا الموقف يشبه من بعض الوجوه مهندس الديكور الذي يبني شقة غربية في جميع الوجوه، ثم يضيف لها «حته أرابيسك» او «ركن عربي» ليمسك بتلابيب هوية آخذة في التآكل. انا لا اتحدث عن بدائل (وكأن المصطلحات قطع غيار)، وانما اطالب بنموذج معرفي متكامل ونسق لغوي يعبر عنه، ونقطة ابتداء مغايرة لرصد واقعنا وواقعهم. وهذا النموذج الجديد لا يرفض النماذج الاخرى بل على العكس ينفتح عليها كلها دون خوف او وجل، لانه واثق من نفسه.

وظاهرة «الثورة» يمكن دراستها داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل التشكيلات الاخرى وندرك مضامينها العديدة وقوانينها المتنوعة (فالثورة ليست ظاهرة طبيعية بسيطة لها قانونها المادي العام) ونتفاعل معها ونأخذ منها دون التخلي عن خريطتنا المعرفية. انني احترم خصوصيتي مثلما احترم الخصوصية الغربية وكل الخصوصيات الاخرى التي سأدركها. وفي تصوري انني من خلال ادراكي لخصوصيتي سأدرك خصوصية الآخرين. واصطلاح «ثورة» كما هو متداول يتسم اما بكثير من العمومية او بكثير من الالتصاق بالتجربة الغربية في التمرد على الظلم، ولذا فهو لا يصلح لوصف التجارب المغايرة بسبب عموميته الزائدة وخصوصيته المتطرفة اي انه ليس اصطلاحا علميا بالمرة، ويمثل محاولة فرض مفاهيم واصطلاحات من التاريخ الغربي على احداث التاريخ العربي. يجب ان ندرس، منطلقين من خصوصيتنا، التجربة الغربية في الثورة (وفي النكوص عنها، والا بم نفسر ما يحدث في الاتحاد السوفياتي ؟). ويجب ان نتفاعل مع هذه التجربة دون ان نضطر الى تسمية «الانتفاضة» (بما تحمل من معاني الخصب والاستمرار والتجذر الواثق من نفسه) «ثورة» (بكل ما تحمل من معاني الاحتراق والبدايات الجديدة). نفعل ذلك دون ان نفصل الانتفاضة عن التراث الثوري العالمي الذي لا تشكل التجربة الغربية فيه سوى جزء من كل.

ان الثورة انقطاع،اما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاع الهوية التي سلبت حتى تصبح «اسرائيل» مرة اخرى «فلسطين» كما كانت دائما عبر التاريخ وكما ستكون باذن الله في المستقبل. ولا يمكننا ان ننسب لشباب الانتفاضة الذين اختاروا المصطلح معرفة بكل هذا وادراك واعٍ له. ولكن لا يمكن ايضا ان ننكر احساسهم الحضاري السليم بلحظتهم التاريخية او ارتباطهم المباشر بتراثهم او اعراضهم النفسي والمعرفي عن النموذج الهرمي الغربي. فقد آثروا ان يحملوا علم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة الدالة والتي لا نظير لها في اللغات الاوروبية (ومن هنا يكتبون في الصحف الغربية كلمة «انتفاضة» بحروف لاتينية مما

ينم عن ادراكهم لخصوصيتها). ان المناضلين الفلسطينيين في اختيارهم لكلمة «انتفاضة» قد وضعوا ايديهم على واحدة من اهم خصائص تحركهم التاريخي المبارك : وهو انه تحرك يتم داخل اطار الهوية التي تمتد من الماضي عبر الحاضر الى المستقبل باذن الله.

الواقع والفاعل الانساني

الانسان اذن لا يتحرك في فراغ ولا يدرك الواقع بشكل حسي مباشر. والواقع قد يكون موجودا بشكل عام خام مطلق، ولكن الانسان حينما يسلك لا يسلك كرد فعل لهذا الواقع وانما كرد فعل للواقع كما يدركه هو. وادراكه مرتبط برؤيته لنفسه وللكون وللاخر. والانسان المدرك ليس مجرد مجموعة من الرغبات والدوافع المادية او الدوافع التي يمكن تفسيرها بشكل مادي فهو ايضا ليس واقعا خامًا وانما هو كل مركب لا يمكن رده في كليته الى الملابسات المادية المحيطة به، اي ان الانسان يمكن تفسير بعض جوانب وجوده باستخدام المنهج المادي الذي يستخدم في تفسير الاشياء والطبيعة ولكن يظل هناك داخله شيئا ما يتحدي هذا التفسير المادي، اذ يظل باطنه سرا لا يمكن ان تسبر كل اغواره (ونحن نسمي التصور الاول الانسان/المادة والثاني الانسان/السر) (انظر الملحق). ونحن لا ننكر اهمية العناصر المادية في فهم سلوك الانسان بل نرى انها ضرورية ولكنها ليست كافية. ولذا أوردنا في نفس الدراسة قدر استطاعتنا كل ما وصلنا من حقائق وارقام تساهم في تفسير الانتفاضة، ولكن مع ذلك لم نر الحقائق والارقام في حد ذاتها وكأنها هي السبب وانما رايناها في تفاعلها داخل الفاعل الانساني الذي تحركه مجموعة من الدوافع المركبة التي لا يمكن ردها لعالم المادة البسيط.

إن ما يحرك الفلسطينيين في فلسطين المحتلة ليس قوانين الميكانيكا (الفعل ورد الفعل) وكأن الفلسطينيين اشياء او كائنات غير انسانية افعالها مشروطة. وما يحرك الصهاينة كذلك ليس العنصر المادي المباشر وانما ادراكهم لهذه العناصر وتفاعلهم معها وتقييمهم لها. فادراكهم هو الذي يحدد كيفية تعاملهم مع العناصر المادية المختلفة. وقد بيّن كثير من المعلقين بعد الانتفاضة مثل الكاتب يحزقئيل درور ان ظهور جيل جديد في الضفة والقطاع هو الذي ادى الى اندلاع الانتفاضة، بينما كان الجنرال بن اليعازر يتصوّر ان هذا العنصر ذاته يشكل الاساس المادي للقضاء على اي تمرد. وهكذا نجد أن نفس العنصر المادي قد فُسّر تفسيرين متضادّين تماما،والتضاد مصدره نموذجين معرفيين ورؤيتين مختلفتين للانسان،واحدة ترى ان الانسان ينسي تاريخه وتراثه وذاته فهو مادة محضة تعكس الواقع المادي المتغير،والاخرى ترى ان الانسان لا ينسى تاريخه ولا يخضع للظلم. ومن هنا رأى واحد ان هذا العنصر هو مصدر الثورة ورأى الآخر انه نقطة الابتداء للقضاء عليها!

لهذا السبب ارى ان الرصد العلمي للظاهرة الصهيونية («علمي» بالمعنى المركب الذي نطرحه) يبدأ باستعادة مفهوم الطبيعة البشرية كمفهوم تحليلي تفسيري مما يؤكد اهمية الدوافع والمعنى (انظر الملحق). فنرى الصهاينة والعرب يتحركون لا كأشياء صماء ترصد من الخارج

وإنما كبشر يحسّون بما حولهم بطريقة محددة ويسقطون عليها معنى داخليا هو الذي يحدد اهميتها بالنسبة لهم ويحدد مدى نجاحهم وفشلهم، وهم كبشر

قابلين ايضا للتماسك والنمو دون حتميات مسبقة تثبط الهمم دون مبرر او تشحذها دون اساس - اي علينا ان نستعيد الانسان العربي والانسان الاسرائيلي كفاعلين قابلين للانتصار والانكسار - من الداخل ومن الخارج.

ويجب ألاّ نهوّن من قدر العدو وقدر أنفسنا، وألاّ نهوّل منهما، بل نرصده ونرصد انفسنا بكل ما نضم داخلنا من قوى ايجابية وسلبية مادية وروحية، حقيقية وكامنة، ونحن لو فعلنا ذلك نكون قد نزعنا عن الاسرائيلي اية هالات ميتافيزيقية يكون قد خلعها على نفسه (والعظمة «في نهاية الامر» لله وحده) ودون ان ننكر قوته الذاتية الحقيقية. ونكون ايضا قد استعدنا للانسان العربي امكانيات الحركة الكامنة داخله وادركنا ان ما قد علانا من غبار المزيمة يمكن ان ننفضه وان ننطلق لنعلي كلمة الحق والفضيلة في زمن الكذابين والصحفيين المأجورين والاعلام المصقول وادوات القمع الكفء.

القاء الحجارة في الضفة الغربية منذ عام 1984

ويبدو أن هذا هو ما قمت به في مقالي الذي كتبته في 24 فبراير 1984 في جريدة «الرياض» (بالمملكة العربية السعودية).

(وقد قامت مجلة صوت البلاد بنشر المقال ذاته في تاريخ لاحق بعد ان نسبته الى كاتب يدعى الدكتور عبد القادر ياسين، وقد أرسلت الى رئيس تحرير المجلة احتج على ذلك ولكن لم يصلني رد حتى الان). وقد حاولت في هذا المقال ان ادرس ظاهرة القاء الحجارة وان أؤكد اهميتها كشكل من اشكال النضال الذي يجب تطويره.فبدأته بالاشارة الى الوهم الاسرائيلي الذي يستند الى الرؤية المادية بان «المقاومة قد اجتثت تماما من جذورها» وان هناك علامات وقرائن على ما سماه الجنرال بنيامين بن اليعازر منظم الانشطة في الضفة الغربية وحاكمها العسكري اتجاها مترددا او حذرا نحو البرجماتية التي تعني في نهاية الامر «التكيف مع الامر الواقع وتقبله» (الجيروزاليم بوست 4 - 1 نوفمبر 1983). والامر الواقع هو اشباع بعض الحاجات، والخضوع للقهر. وحتى ابين للقارىء ان الشعب المصري وحده ليس المستهدف بالتطبيع (بمعنى الترشيد والتدجين ورؤية الانسان كـكم مادي وكجزء من الطبيعة) (انظر الملحق)، وانما هو الشعب العربي بأسره، بل كل الشعوب الاسلامية، اقتبست بعض اقوال الجنرال بن اليعازر الذي اكد ان 55 ٪ من كل الفلسطينيين في المناطق المحتلة ولدوا بعد 1967 ولا يعرفون الاردن ولكنهم يرتبطون بالمنظمة، و40 ٪ منهم يذهب للمدارس والجامعات. وهو يرى ان هذا الخلل - اي الارتباط بالمنظمة - يمكن علاجه عن طريق انشاء عدد اكبر من البنوك والشركات الاستثمارية - اي عن طريق اشباع حاجاتهم واغراق هويتهم

واستغراقهم في التفكير في امور الدنيا والمال بدلا من قضايا الوطن والارض والهوية والروح ! وكانت محاولة انشاء روابط القرى ترمي الى تكريس هذا الاتجاه.

ولم تكن الولايات المتحدة ـ كما أشرت ـ بعيدة عن هذا الاتجاه التطبيعي البرجماتي ومحاولة تحويل اهتمام المواطن العربي عن الكرامة والقتال وتركيزه على الاستثمارات والاموال. ففي مقالي هذا ذكرت ان الولايات المتحدة قامت بمد يد المساعدة الى الجنرال بنيامين بن اليعازر فدعي الى الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الامريكية وكبار موظفي الوزارة ليبحث معهم عن كيفية تحسين مستوى معيشة العرب في الارض المحتلة (اي مزيد من البنوك) وكيف يمكن للولايات المتحدة ان تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الاسرائيلي عن طريق المساعدات الفنية والتنموية. وقد اتت زيارة بن اليعازر هذه ردا على زيارة وفد امريكي رسمي قا م بزيارة الضفة الغربية وبدراسة المشاكل التي يواجهها الاحتلال الاسرائيلي هناك (الجيروزاليم بوست 1 ديسمبر 1983).

(حدد ديان وغازيت الهدف الاسرائيلي في الضفة والقطاع بانه اتاحة «فرصة حياة عادية للسكان، بل وتحسين مستوى معيشتهم حتى لا تكون لهم مصلحة في مد يد العون لمحاربي حرب العصابات"وهذا ما سماه ديان الاحتلال المتنور(يورام بيري، الحرب السابعة داقار 11 ـ 12 ـ 14 ـ 15 ـ 16 مارس 1988 الملف 49»). وهذه الاخبار تدل على ان التطبيع بالمعنى العام والفلسفي للكلمة شكل من اشكال القمع من الداخل وان العدو الصهيوني،تحت ارشاد العدو الامريكي، مستمر في هذه العملية.

وانطلاقا من محاولة الرشوة قام العدو بتحسين الوضع الاقتصادي،فدخل الفرد في الضفة الغربية زاد من 300 دولار عام 1968 الى 1400 دولار في الضفة والف دولار في غزة. وزاد متوسط عمر الفرد من 48 الى 62 عاما. وقد تم كل ذلك عن طريق السماح للفلسطينيين بالتنقل والعمل في البلاد العربية وبالعمل داخل الاقتصاد الاسرائيلي ـ اي ان الهدف كما يقول الدكتور فضل النقيب (القبس 29 مارس 1988) هو ان يحسّن الفلسطيني وضعه المعيشي في «اسرائيل» او في البلاد العربية ولكن ليس في اراضيه، اي ان «التحسن الاقتصادي» كان يهدف في واقع الامر الى شل الاقتصاد الفلسطيني ودفع السكان لترك اراضيهم والهجرة والتخلي عن الكفاح المسلح. ان العنصر الاقتصادي المادي في حد ذاته او إن تمّ النظر اليه من منظور مادي محض يرى الانسان مجموعة من الحاجات المادية وحسب، هو عنصر ولا شك ايجابي،ولا تظهر سلبيته الا اذا تم النظر اليه من منظور انساني مركب، اذ يصبح تحسين مستوى المعيشة هو ذاته الوسيلة لتصفية الهوية والقضاء على اسلوب الحياة.

وبعد ان عرضت للرؤية الصهيونية للعرب حاولت ان احدد الحالة العقلية والنفسية للصهاينة والاهداف المحددة التي يرمون الى انجازها فوصفت الاستعمار الصهيوني بانه استعمار استيطاني احلالي لا يود استغلالنا او استغلال مواردنا الطبيعية وحسب (كما كان

الحال مع الاستعمار الانجليزي في مصر) وانما يرمي الى مايلي :

1 ـ استلاب الارض.
2 ـ العيش فيها ينعم براحة البال والهدوء.
3 ـ كما انه يود ان يسلبنا اسباب الحياة والاستمرار حتى نرحل من الارض ليحل محلنا فيها.

و«المستوطنون» الصهاينة هم اساسا مرتزقة ولكن بينما كان القدامى منهم على استعداد لتحمل شظف العيش في مقابل المكافأة المادية المؤجلة، نجد ان المستوطنين الجدد، مع تزايد معدلات العلمنة بين يهود الغرب، يصرون على مستويات معيشية وامنية عالية مباشرة. ولذا فالمنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشاوي الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق معبدة خصيصا لهم ومدارس لاطفالهم وحراسة مشددة حتى ينعموا بالعيش في هواء «ارض الميعاد المكيف».

ان نموذج الصهاينة الادراكي آلي مادى، وبالتالي كانت رؤيتهم للعرب ولانفسهم الية مادية.

في مقابل ذلك رصدت موقف العرب فلاحظت انهم يرفضون الانصياع للنموذج المادي الذي يطبق عليهم.فالجنرال بن اليعازر نفسه لاحظ ان العرب يلقون بالحجارة على الاسرائيليين وصرح لمعاريف (14 نوفمبر 1983) عن قرار بوضع حد لظاهرة القاء الحجارة. ثم بعد يومين اثنين اصطحب الجنرال الاسرائيلي البرجماتي احد مؤسسي روابط القرى لافتتاح مبنى بلدية جديد في احدى مدن الضفة (والنموذج الدنيوي لا يستبعد اشباع الرغبات المعنوية مثل لعب كرة الطاولة او كرة القدم او حتى مشاهدة الافلام السينمائية الراقية)! ولكن الجماهير الفلسطينية العنيدة لم تبد اي برجماتية او اعتدال او تقبل للقانون الطبيعي المادي، ولم تقابل ابطال البنوك والاستثمارات بالزهور وانما بالحجارة (الجيروزاليم بوست 16 نوفمبر 1983). وقد وردت في المقال وقائع عديدة اخرى عن القاء الحجارة ادت الى غضب المستوطنين الصهاينة والى مطالبتهم الجيش الاسرائيلي بالتدخل لوضع حد لهذه الظاهرة. بل ان رئيس وزراء الكيان الصهيوني (كما ورد في الجيروزاليم بوست 24 يناير 1984) اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة هتحيا واخبرهما ان القاء الحجارة من اسباب قلقه العميق ووعد بان يدرس القضية شخصيا.

بعد ان رصدت ما تصورته النموذج العرب الادراكي وتصورهم لانفسهم، حاولت ان ارصد ادراكهم لحالة الاسرائيليين النفسية والعقلية ولنموذجهم الادراكي، فقلت بالحرف الواحد: «ان مواطني الضفة الغربية ادركوا ان كل ما ينغص على المستوطنين (مكيفي الهواء) حياتهم هو في نهاية الامر احباط للمخطط الصهيوني»،ومن هنا اصبح القاء الحجارة سلاحا اساسيا في الضفة الغربية، «ومن هنايبدو ان هذا السلاح، رغم ضعفه وبدائيته، قد اصبح سلاحا فعّالا سيتزايد في أهميته»لقد وصلت الىماتوصلت اليه من نتائج لا من خلال عملية رصد خارجية لاحداث لا معنى داخلي لها تتم على مساحة وانما رأيت بشرا لهم رؤية محددة

تحدد استجابتهم وتوقعاتهم وبالتالي سلوكهم. فالصهيوني الذي يحاول ان يرفع مستوى معيشة العرب حتى ينسوا الوطن والهوية هو نفسه الذي يودّ أن يتمتع بحمام السباحة في المستوطنة والذي يصر على مستويات عالية من الراحة والمتعة.والعربي الذي يرفض الانصياع للرؤية البرجماتية التي تود تطبيعه هو نفسه القادر على ان يدرك تآكل المستوطنين الداخلي وتحولهم الى شخصيات شرهة مستهلكة غير منتجة.ومن هنا الحجر الذي قد لا يقتل ولكنه يعكر صفو المستوطنين ويسقط معنى حياتهم.

وما سأحاول انجازه في هذا الكتاب لا يختلف كثيرا عما فعلت في المقال، اذ سنرصد في كل فصل مايلي :

1) الاسباب المادية الموضوعية.
2) الحالة العقلية والنفسية للعناصر البشرية.
3) تفاعل البشر مع العناصر المادية وكيفية ادراكهم واستبطانهم لها.
4) تفاعل العناصر البشرية بعضها ببعض.

ومن هنا سنرصد الانتفاضة لا باعتبارها رد فعل ميكانيكي لاسباب مادية وانما باعتبارها تعبيراعن امتلاء انساني فلسطيني وعن الهوية المتماسكة (انجاز المنظمة الاعظم). هذا الوضع هو الذي ولّد الثقة في النفس وخلق لدى الفلسطينيين احساسا داخليا راسخاًمعرفيا ونفسيا، بتجذرهم. وهو علاوة على هذا جعلهم في حالة نفسية لادراك تفاقم ازمة المجتمع الصهيوني.

الملك يحتضر

من المعروف أن التجمع الصهيوني يعيش حالة أزمة منذ بدايات الاستيطان عام 1882، وهي أزمة لم يحلها إنشاء الدولة وإن ظلت في حالة كمون، ولكنها ظهرت إلى الواقع عام 1967 وزادت حدتها مع حرب عام 1973 ووصلت إلى لحظتها الحرجة مع الهزيمة في لبنان ـ وهي أزمة من العمق بحيث وضعت شرعية التجمع الصهيوني موضع التساؤل أمام جماهيره في إسرائيل وأمام مناصريه في الخارج. ولا تخلو صحيفة اسرائيلية من عبارات مثل «أزمة الصهيونية في الثمانينات» و«هل نغلق دكان الصهيونية» (دوق بارنير، عل همشمار 2 ديسمبر 1982 وصبري جريس «المؤتمر الصهيوني الثلاثون» شؤون فلسطينية يناير 1983). و«الملك يحتضر» (دافار 16 يونيه 1987 لاستير هوليتس في الملف يولية 1987). ويتحدث ناحوم سولن عن «صهيونية دون روح صهيونية» (عل همشمار 30 يونية 1986) ويشير إلى ما سماه «انحسار الصهيونية». هذه الأزمة الحقيقية هي واقعة لا يمكن أن يدركها إلا من يتمتع بشيء من الثقة بالنفس والامتلاء الداخلي — وهذا ما يتمتع به الفلسطينيون.

ولفهم مدى عمق أزمة الصهيونية قد يكون من المفيد أن نشير إلى ما أسميه بالمسافة بين القول والفعل (انظر الملحق). فطبيعة القول الانساني عامة أنه لا يتفق تماما ولا يتطابق مع

الفعل، ولكن في حالة القول الصهيوني نجد أنه يتصف بصفتين :

(1) أن المسافة التي تفصله عن الواقع شاسعة، حتى يصبح القول كله ديباجة أحيانا لا علاقة لها بأي واقع، تهدف إلى الاعتذار والتسويغ لا لتحديد الواقع أو انارته.

(2) أن ثمة تناقضات عديدة داخل القول الصهيوني ذاته فالتناقض ليس بين القول والفعل وحسب وإنما بين قول صهيوني وآخر. فدعاة القول الصهيوني لم يتفقوا فيما بينهم على الحد الأدنى بخصوص كثير من القضايا الأساسية، وإنما اتفقوا على الحد الأدنى من الفعل وحسب.

وقد كُتب لهذا القول بكل متناقضاته الاستمرار لعدة أسباب،من بينها:فشل العرب في التمييز بين التيارات المختلفة داخل الحركة الصهيونية،بل وفي التمييز بين اليهود من الصهاينة، واليهود الذين لا يكترثون بها،واليهود الذين يدّعون الصهيونية على مستوى القول ويتملصون منها على مستوى الفعل،واليهود الذين يناصبونها العداء صراحة وعلانية، قولا وفعلا. كما أن التراجع العربي أمام الصهاينة قد خلق تربة يمكن للأساطير أن تنمو فيها وتترعرع، ويمكن للتناقضات أن تستمر دون تحد. ولكن أكثر العناصر أهمية دون شك هو الدعم الاستعماري، وصهاينة الخارج أو الصهاينة التوطينيون (أي الصهاينة الذي يدعون الصهيونية ويرفضون الاستيطان في فلسطين ولكنهم يساعدون علىتوطين الآخرين فيها)، للمستوطن الصهيوني فهذا الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري (الذي ليس له نظير في العصر الحديث) من شأنه أن يخفف من حدة كل التناقضات ويسمح لها بالتعايش ربما إلى مالا نهاية.

ولكن كما أسلفنا أخذت كل هذه التناقضات الكامنة في الصعود إلى السطح الى أن وصلت الى درجة عالية من الحدّة. وتفاقم الأزمة في المجتمع الصهيوني — كما أسلفنا — أمر ادركه عرب فلسطين تماما، وهو يشكل أحد العناصر الأساسية في خلفية الانتفاضة. وكما قال زئيف شيف، المعلق العسكري : «لقد عاش العرب بيننا بما فيه الكفاية. ولذا فهم يفهمون كيف يعمل مجتمعنا» (نيوزويك 8 فبراير 1988). وكما قال لي أحد طلبتي من الأراضي المحتلة : إن تغلغل العمالة العربية في المجتمع الاسرائيلي جعل بوسع العربي أن يرى العملاق الورق من الداخل.

ويمكننا القول لترجمة ما قلناه إلى المصطلح السياسي الشائع : إن ما حدث في اسرائيل أن النخبة الحاكمة وجماعة المستوطنين تعاني من عملية انقسام وتآكل، في مقابل ازدياد الثقة بالنفس من جانب المقهورين. ومن المعروف في تاريخ الثورات أنها لا تندلع بسبب القهر وإنما على العكس تندلع الثورة أساسا انطلاقا من الثقة بالنفس ومن ادراك أن ثمة شكوك وإحساس بعدم اليقين يساور أعضاء النخبة ومجتمع أو تجمع المغتصبين.ولعله ليس من قبيل الصدفة أن سبارتاكوس قائد ثورة العبيد في روما كان يونانيا أي أنه كان عبدا متميزا، متماسك الهوية، غير مسحوق. وليس من قبيل الصدفة أيضا أن الشخصيات التي طرحت نفسها على أنها قيادات الطبقة العاملة في العصر الحديث (ماركس وإنجلزولينين وماوتسي تونج) كانت لا

تنتمي إلى هذه الطبقة وإنما إلى طبقات أخرى ليست معرضة للقهر بنفس الدرجة. وأن الثورة البلشفية لم تقع في الدول الصناعية المتقدمة، على عكس ما كان يتصور ماركس، وإنما في أكثر حلقاتها تخلفا في روسيا القيصرية بعد أن خاضت مرحلة من التحديث والليبرالية النسبية أي مرحلة من عدم القهر النسبي، ظهر خلالها الكثير من المفكرين والثوريين، وحينما تعثر التحديث في روسيا كانت هذه النخبة الجديدة قد وصلت إلى شكل من أشكال الثقة بالذات. هذا على عكس ما كان يحدث في الأوساط القيصرية إذ كان هناك انقسام بخصوص كيفية الاستجابة للتوترات الاجتماعية، كما أن راسبوتين كان قد قضى على كثير من العناصر الفاعلة الذكية داخل النخبة الحاكمة. كما أن أداة القمع القيصرية ذاتها — رغم بطشها — كانت متخلفة وغير كفء. وقد أخبرني أحد أساتذة تاريخ مؤسسة العبودية في الأمريكتين أن كثيرا من قيادات ثورات العبيد في البرازيل كانوا من المسلمين الذين احتفظوا بقدر من الهوية والتماسك رغم الأسر والاذلال، على عكس العبيد الذين كانوا ينتمون إلى قبائل وثنية مرتبطة بطقوس محددة في أرض محددة الذين فقدوا هذه الطقوس وفقدوا الهوية ففقدوا الثقة في النفس والمقدرة على الثورة.

الشرعيتان

وأزمة الصهيونية لها وجهان، تماما مثل وجهي العملة أو نفس الورقة، مرتبطان ببنية القول والفعل الصهيونيين. فالصهيونية ترمي إلى نقل اليهود من «المنفى» إلى فلسطين ونقل العرب من فلسطين إلى المنفى. فهي تتضمن عمليتي نقل سكاني، تتطلب كل واحدة منها ديباجات مختلفة وشرعية مختلفة. وقد عبر أحد الكتاب الاسرائيليين وهو البروفسور يحزقئيل درور في دفار (نقلا عن الانتفاضة عدد 2 جامعة الدول العربية) عن نفس الفكرة بشكل مغاير، إذ قال: إن الصهيونية «محاولة لتحويل مزدوج للتاريخ» إذ أنها ترمي إلى تغيير مسار تاريخين : مسار تاريخ اليهود ومسار تاريخ فلسطين. وقد نجم عن ذلك ما نسميه قضية الشرعيتين :

(1) أما الشرعية الصهيونية فهي الشرعية التي يسبغها الصهيوني على نفسه أمام نفسه وأمام يهود العالم والعالم الغربي ككل. وهو يحقق هذه الشرعية من خلال نجاح مشروعه في عدة مجالات من بينها تحديد الهوية وتطبيع الشخصية والتوسعية والاستيطان.

(2) شرعية الوجود فهي الشرعية التي يود تأكيدها في مجابهة العرب وتعبر عن نفسها في تزايد القمع وترحيل العرب والاستيطان. وكما نرى تتداخل الشرعيتان في منطقة مثل الاستيطان،وترتبط محاولات تسوية ما يسمى «بالشخصية اليهودية» أي جعلها «سوية» بمدى نجاح الاستيطان. أما القمع العسكري فهو الآخر مرتبط بالشخصية اليهودية ففي تآكلها تخثر للمادة القتالية الصهيونية مما يعني تراخي قبضته، ويعني أيضا تصاعدا للمقاومة — أي أن الشرعية الصهيونية وشرعية الوجود مرتبطتان تماما. وبالتالي فظهور الشرعية الفلسطينية لا

يقوض من دعائم الشرعية الصهيونية، ومدى نجاح الصهاينة أو فشلهم في الاستيطان والانتاج وحسب، وإنما يقوض من شرعية الوجود الصهيوني ذاته.

وفي بقية فصول هذا الكتاب سندرس تفاقم أزمه الصهيونية وتزايد الامتلاء العربي كعمليتين تاريخيتين منفصلتين ولكنهما مع هذا تؤثر الواحدة في الأخرى، وأن ثمرة هاتين العمليتين هي الانتفاضة التي تؤدي بدورها إلى تزايد الامتلاء العربي وتعميق حدة الأزمة والقلق داخل التجمع الصهيوني.

الفصل الثاني

الانتفاضة وقضية "الهوية اليهودية"

لعل اول الخطوات التي تتخذها اية حركة بعث قومية او حركة تحرر وطني هي تحديد «النحن والهم»، من يقع داخل نطاق الهوية ومن هو خارجها. وهذه الخطوة ليست أكاديمية او حماسية او مجرد «قول» بمعنى «ديباجة» وانما هي قول من صميم الفعل السياسي، اذ انها خطوة ضرورية لصياغة «المشروع» بجميع جوانبه الحضارية والسياسية والاقتصادية ولتعريف من سيتم تجنيده ومن سيتم استبعاده، ومن هو الصديق ومن هو العدو. ولكن الصهيونية ليست حركة قومية او تحررية او حركة تحرر وطني (كما بدأت في الادعاء في الستينات، مما يبين ان الصهيونية تتلون بالبيئة التي تتواجد فيها دون ان تصبح منها). وانما هي مجموعة من الاقوال افرزتها الظروف الخاصة المؤقتة بالتحديث المتعثر/المتوقف في شرق اوروبا من 1882 ـ 1917، وتبناها التشكيل الاستعماري الغربي وجندها لصالحه. وقد كان لكل قول صهيوني تعريفه «لليهودي» (الى جانب القول اليهودي غير الصهيوني الذي كان له تعريفاته الخاصة به). ولعل انفصال الصهيونية عن الواقع يظهر في هذا الجانب منها اكثر من اي جانب آخر.

عدم التجانس بين اليهود

فاصطلاح «يهودي» في نهاية القرن التاسع عشر كان يضم عشرات الهويات والانتماءات الدينية والاثنية والطبقية :

1) يهود اليديشية (يطلق عليهم عادة يهود شرق أوروبا) : وهم اكبر القطاعات اليهودية في العالم. وهؤلاء كانوا يوجدون في أوكرانيا ومنطقة الاستيطان اليهودية في روسيا وبولندة.وقد كانوا ينقسمون بدورهم الى قسمين أساسيين :

أ - يهود متدينون يعرّفون يهوديتهم على أساس ديني.

ب - يهود تم علمنتهم ويعرفون يهوديتهم على اساس اثني.

وهذا التجمع اليهودي كان يتحدث معظم اعضائه اللغة اليديشيه (وقد حملوها معهم الى انجلترا والولايات المتحدة والارجنتين وجنوب افريقيا). ولكن كان بينهم قطاعات تتحدث البولندية والأوكرانية والروسية والالمانية بلهجات مختلفة.

2) يهود العالم الغربي المندمجون الذين كانوا يتحدثون لغة بلادهم،وهؤلاء كانوا ينقسمون الى عدة اقسام فمنهم الارثوذكس والاصلاحيون والمحافظون واللادينيون واكبر تجمع لهؤلاء يوجد في الولايات المتحدة.

3) يهود الشرق والعالم الاسلامي، وكان من بينهم اليهود العرب (المتحدثون بالعربية) واليهود السفارد (المتحدثون باللادينو والذين كانت توجد منهم جماعات كبيرة في العالم الغربي) ويهود ايران وافغانستان.

وكان يوجد كذلك عدد ضخم من الجماعات اليهودية الصغيرة مثل يهود الجبال ويهود جورجيا في روسيا ويهود كردستان واليهود القرّاؤون في شبه جزيرة القرم وليتوانيا وغيرها من البلاد (مثل مصر) واليهود المتخفون (الدونمة فى تركيا وبقايا المارانو في اسبانيا) ويهود بني اسرائيل في الهند ويهود الفالاشاة في الحبشة. والصورة كما هو واضح مركبة وثرية وغير متجانسة على المستويات الثقافية والدينية بل وعلى كافة المستويات. وكانت هذه الجماعات غير المتجانسة تتحدث عشرات اللغات وتقع ضمن تشكيلات اجتماعية لا حصر لها ولا عدد ابتلاء بيهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم الرأسمالية وانتهاء بيهود الفالاشاة في اثيوبيا الذين كانوا ينتمون لتشكيل قبلي بسيط يتحدثون الأمهرية لغة غالبية اهل اثيوبيا ويتعبدون بالجعيزية - لغة الكنيسة القبطية فيها ! ولذا لم يتردد احد مندوبي الوكالة اليهودية في الخمسينات ان ينصح الفالاشاة آنذاك بألا يهاجروا الى فلسطين المحتلة وان يتنصروا حلا لمشكلتهم !

ولكن القول الصهيوني يشير الى كل هؤلاء باعتبارهم «اليهود» بل و«الشعب اليهودي». وفي محاولة صياغة تعريف ماءبدأ الصهاينة بالحديث عن اليهودية باعتبارها انتماء عرقيا على نمط الدولة القومية في أوروبا بل واشاروا الى اليهود باعتبارهم اعضاء في الجنس الابيض والى المشروع الصهيوني باعتباره جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي الابيض. واليهودي في نهاية الامر - حسب هذا التعريف - هو الاشكنازي اي اليهودي الابيض من شرق أوروبا (الذي يتحدث اليديشيه) ولا مانع من ضم يهود غرب أوروبا الذين كانوا لا يشكلون سوى نسبة مئوية صغيرة لا يعتد بها، وهم على كل كانوا لا يفكرون في الهجرة. هذا

اليهودي قد يؤمن وقد لا يؤمن باليهودية، ولكن هذا امر لا يهم فالتعريفات القومية لا تستند الى قيم روحية او اخلاقية. وقد انضمت للحركة الصهيونية منذ البداية بعض جماعات اليهود الارثوذكس الذين يدركون الهوية في اطار ديني اثني،ويرون ان اليهودية ليست مسألة عرق وحسب،وإنما مسألة عرق ودين اي ان اليهودي لا يمكنه ان يكون يهوديا الا بكل من الميراث العرقي والايمان الديني. وقد آثر المفكرون الصهاينة التزام الصمت بخصوص هذه التناقضات واستمر الجميع في الاشارة الى «اليهود» والى «الشعب اليهودي».

الدولة وتفجر مشكلة الهوية

وقد ظل الوضع قائما حتى اقامة الدولة حين صدر قانون العودة الذي يعطي لأي «يهودي» الحق في الاستيطان في فلسطين استنادا الى «يهوديته» التي لم يتم تعريفها. وبذا تم وضع قضية الهوية على المحك (بل وتم وضع قضايا اخرى مثل «الشخصية اليهودية» و«وحدة الشعب اليهودي»). وقد بدأت المشاكل في التفاقم على التو بهجرة يهود الهند المعروفين باسم بني اسرائيل،إذ لم تعترف دار الحاخامية بيهوديتهم. وقد حاول بن غوريون ان يحسم القضية فكتب لعدة شخصيات يهودية (على اساس ديني واثني) في انحاء العالم يستفتيهم في الامر، فجاءت الاجابة تعبيرا عن الواقع غير المتجانس،إذ تبنى بعضهم مقياس الشريعة اليهودية (اليهودي هو من ولد لأم يهودية او من تهود) وتبنى البعض الاخر المعيار الشخصي (اليهودي هو من يعتبر نفسه كذلك)،بل وتبنى نفر ثالث معيار القسر الخارجي (اليهودي هو من يعتبره الاخرون كذلك) ! ومساحة الاختلاف هنا واسعة لأقصى حد لانه لا ينصرف الى مضمون التعريف وانما الى اساسه الفلسفي ايضا. وقد فجّر الموقف الاخ دانيال (اليهودي البولندي الذي تنصر وتحول الى راهب كاثوليكي)،إذ هاجر الى اسرائيل وطلب اعتباره يهوديا بمقتضى قانون العودة والشريعة اليهودية (من ولد لام يهودية حتى ولو تحول عن الديانة اليهودية). وقد رفضت المحكمة العليا طلبه واعترفت ان حكمها مناف للشريعة ! وقد تم تعديل قانون العودة بحيث عرف اليهودي بانه من ولد لام يهوديه بشرط الا يكون على دين اخر كما نص على ان اليهودي هو المتهود. ولكن هذا الحل لم يرض المؤسسة الدينية التي تريد اضافة عبارة «تهود حسب الشريعة»وهي عبارة تعني «تهود على يد حاخام ارثوذكس».

تفاقم ازمة الهوية

والراصدون لما يحدث داخل التجمع الصهيوني يعرفون ان ازمة الهوية آخذة في التفاقم فقد ظهرت مشكلة شوشانا ميلر الامريكية التي تهودت على يد حاخام اصلاحي ورفضت وزارة الداخلية الاسرائيلية تسجيلها كيهودية وأرادت تسجيلها كمتهودة (الامر الذي لا يسمح به القانون الاسرائيلي)، ولكن المحكمة العليا اصدرت قرارها بضرورة تسجيلها كيهودية وقد وعدت وزارة الداخلية بالرضوخ. (الجيروزاليم بوست فبراير 1988) ثم تقدم اخرون تشبه

حالتهم حالة شوشانا ميلر مما يعني ان الحكم الانف الذكر سيفتح الباب على مصراعيه وسيصعد من حدة الصراع بين الارثوذكس والفرق اليهودية الاخرى كافة. وقد هدد الارثوذكس بسحب دعمهم للمشروع الصهيوني بأسره لان الصهيونية حسب تصورهم تتهدد اليهودية ذاتها ان استمرت في هذا الاتجاه.

وقد حدث تطور هام للغاية داخل الحركة الصهيونية ستظهر آثاره فيما بعد، وهو ان المؤتمر الصهيوني الاخير انتخب اغلبية من العمال (من اسرائيل) واليهود الاصلاحيين والمحافظين والعلمانيين الذين قرروا ان يغيروا وجه اسرائيل ويكبحوا جماح الارثوذكسية (يهود بارو، «الصهيونية تجاه ايديولوجية واقعية» الجيروزاليم بوست 24 فبراير 1988). وقد صوت المؤتمر الحادي والثلاثون بأغلبية 291 ضد 271 صوتا بضرورة المساواة الكاملة بين كل اتجاهات اليهودية مما ادى بحركة المزراحي (وهي اكثر الحركات الدينية اليهودية صهيونية) بالتهديد باعادة النظر في وضعها داخل الحركة الصهيونية.

وكأن مشاكل الهوية لا تنتهي، فقد طرحت القضية من جديد وبحده بالغة في فبراير الماضي (الجيروزاليم بوست 5 فبراير 1988) اذ حضر يهوديان اسمهما جيري وشيرلي بيرسفورد وهما ينتميان الى جماعة دينية مسيحية تبشيرية اسمها رامات هاشارون، وحالتهما تشبه حالة الاخ دانيال من بعض الوجوه وتختلف عنها من البعض الاخر. فهما يهوديان بالمعنى الاثني،وهما يؤمنان بالمسيح تماما مثل الاخ دانيال،ولكنهما يختلفان عنه في انهما لم يتنصرا اي لم يعتنقا الديانة المسيحية (لا يبين المصدر ما معنى هذه العبارة وفي الغالب ستعني انهما آمنا بان عيسى هو المسيح المنتظر دون الايمان ببنوته لله ودون التخلي عن انتمائهما اليهودي).

وقد عرضت القضية على الرأي العام الاسرائيلي فقال 78 ٪ منهم انهم يجب ان يمنحا الجنسية الاسرائيلية ان كانوا صهاينة (اي ان الاسرائيليين استخدموا معيار القول القومي لا الديني). ولو تم الاخذ بهذا الرؤى فسيظهر نوع جديد من اليهود الذين يؤمنون بالمسيح عيسى ابن مريم ! وتحاول الحكومة الخروج من المأزق باعتبارهما مهاجرين الى اسرائيل بمقتضى قرار حكومي دون العودة لقانون العودة !

معنى قضية الهوية

وقد يقول قائل ان هذه الاشكالية من مخلفات الماضي، وانها من الامور الشكلية التي لا تمس الجوهر وانها لن تؤثر في سلوك المستوطن الصهيوني من قريب او بعيد. ولكن هذا سيكون من قبيل تطبيع النسق السياسي الصهيوني للاسباب التالية :

١) اذا كان تعريف المسيحي في الولايات المتحدة مسألة شكلية فهذا يعود الى أن حكومة الولايات المتحدة لا تبحث عن شرعية مسيحية، فمصادر شرعيتها تقع خارج نطاق الديانة المسيحية والتراث المسيحي ككل. أما الدولة الصهيونية فهي تدّعى أنها يهودية، وانها استمرار

للدولة اليهودية القديمة (ولذا يطلق عليها الصهاينة اصطلاح «الهيكل الثالث»). وهي انطلاقا من هذا تطلب من اليهود الالتفاف حولها ودعمها، واستنادا لهذا التعريف للهوية تقوم بضم الاراضي. فالفشل في تعريف من هو اليهودي يضعف من مقدراتها التعبوية ويضرب في صميم أسطورة الشرعية.

2) تدّعي الدولة الصهيونية انها دولة كل اليهود في كل انحاء العالم. ومن المعروف ان المؤسسة الارثوذكسية كما اسلفنا تصر على ان التهود يجب ان يتم على يد حاخام ارثوذكسي. وهذا يعني في واقع الامر استبعاد 80 ٪ من يهود العالم (وربما اكثر من ذلك) الذين يعرفون اليهودي على اسس لا دينية او لا يقبلون باليهودية الارثوذكسية. فغالبية يهود الاتحاد السوفياتي قد تحولوا الى يهود اثنيين، والمهاجرون منهم حينما يصلون الى اسرائيل يواجهون الكثير من المتاعب بسبب اصرار المؤسسة الارثوذكسية على تعريفها. كما ان كثيرا منهم متزوج زيجات مختلطة (اي من غير اليهود) وبالتالي لا تعترف المؤسسة الارثوذكسية بأولادهم كيهود. اما يهود الولايات المتحدة فاعداد كبيرة منهم من الاصلاحيين والمحافظين الذين لا يعترف الارثوذكس بيهوديتهم. وقد طرح مؤخرا حل صهيوني اسفنجي باعتبار قانون العودة قانونا سياسيا لمن يشاء وقانونا دينيا لمن لا يرضى بهذا الحل، ويمكن لكل فريق ان يفسره بالطريقة التي يراها على ان تحتفظ السلطة الارثوذكسية بسلطتها كاملة في امور الاحوال الشخصية وفي عمليات التهويد التي تتم داخل اسرائيل، وفي هذا عودة للابهام الصهيوني الاول.

3) تفجرت القضية داخل اسرائيل ذاتها في المعركة بين الدينيين واللادينيين. فالمؤسسة الدينية ترى ان الدولة اليهودية لابد وان تتبع القيم الدينية/الاثنية فتقيم شعائر الدين اليهودي وتمنع الاباحية وتغلغل الممارسات اللادينية (مثل البغاء والصور الفاضحة واكل لحم الخنزير). اما العناصر اللادينية فهي لا تكترث كثيرا بالمضمون الديني لهذه الشعائر وتراها على انها شكل من اشكال الفولكور والموروث القومي. وقد قام اللادينيون بحرق احد المعابد اليهودية ؟ وهذه واقعة مرتبطة في وجدان اعضاء الجماعات اليهودية بالنازية ومعاداة اليهود. ويظهر انقسام التجمع الصهيوني في ظهور عاصمتين له : تل ابيب والقدس. ففي الماضي كانت الشعائر تترك اثرا محسوسا على تل ابيب، الا انها اصبحت بالتدريج مدينة لا دينية بمعنى الكلمة لا تفرق بين السبت وغيره من الايام. وظهرت دور عرض الافلام الاباحية وانتشرت المخدرات (في شارع ياكرون ودزنجوف وغيرهما من الشوارع). ولم يعد يشير سكان تل ابيب للحم الخنزير بأنه اللحم الابيض (كما كانوا يفعلون حياء في الماضي). اما القدس فهي على العكس اذ يزداد نفوذ الارثوذكس فيها على مر الايام، فيرجمون السيارات يوم السبت ويقومون بأعمال العنف ضد اليهود اللادينيين.

4) عرّفت الصهيونية في اولى ايامها اليهودي على انه اليهودي الابيض (اي الاشكناز) وهي في هذا كانت متسقة تماما مع نفسها فهي كانت تقدم نفسها على انها تجربة تتم داخل اطار

التشكيل الاستعماري الغربي ولذا كان على الصهاينة اثبات بياض جلد اليهود حتى يتسنى للمستوطنين ان يشاركوا في حمل عبء الرجل الابيض الشهير ويستفيدوا ـ في ذات الوقت بطبيعة الحال ـ من الامن العسكري والدعم الاقتصادي الذي كان يوفره القائمون على المشروع الاستعماري، وحتى يمكنهم ان يحلوا محل احدى شعوب آسيا وافريقيا. وقد بذل آرثر روبين، واحد من اهم علماء الاجتماع الصهاينة والمسؤول عن الاستيطان في فلسطين لفترة طويلة قبل انشاء الدولة، بذل جهدا «علميا» فائقا لاثبات مقولة ان اليهودي هو الاشكنازي وحده، وان الشرقيين ليسوا يهودا. وهناك العديد من البيانات والتصريحات تعبر عن هذا الموقف (ابتداء من مذكرات هرتزل حتى تضريح جولدا مائير بانها لا تتصور كيف يمكن لليهودي ان يكون يهوديا دون ان يعرف اليديشيه لغة الاشكناز في شرق أوروبا). ولكن نظرا لملابسات الاستيطان ذاتها وطبيعة التكوين الاثني للمهاجرين فقد تم اخفاء هذا التعريف الذي يعادل بين اليهودي والاشكنازي عن الانظار. ولكن اخفاءه عن الانظار لا يحل المشكلة اذ ان القضية تثار باشكال متفاوتة في الحدة.

وعلى الرغم من ان المؤسسة الحاكمة الاشكنازية قد كفت عن اطلاق التصريحات العنصرية ضد اليهود السفارد ويهود البلاد الاسلامية الا ان الرؤية الكامنة التي توجه الدولة الصهيونية ماتزال اولا واخيرا رؤية اشكنازية تحاول القضاء على الاشكال الحضارية الشرقية التي احضرها اليهود الشرقيون معهم (من السفارد واليهود العرب ويهود البلاد الاسلامية). وقد ادى وصول الفالاشاة الى طرح القضية مرة اخرى، اذ لم تعترف دار الحاخامية بيهوديتهم وطلبت منهم ان يتهودوا! كما ان لونهم الاسود قد اثار العنصرية البيضاء القديمة بين الاشكناز (خاصة بين اليهود السوفيت). (والطريف ان بعضهم قبل التهود عن طريق عملية ختان مبسطة فسارع ممثل المؤسسة الحاخامية السفاردية بتختينهم قبل ان يقوم ممثل الحاخامية الاشكنازية بذلك. ولكن حينما حضر ذلك الاخير قام بنفس العملية اي انه تم تهويدهم وتختينهم مرتين خلال يومين).

5) مما يزيد مسالة الهوية تعقدا ظهورا «هوية اسرائيلية» جديدة بين جيل الصابرا من الاشكناز تتسم بسمات عديدة من بينها احتقار عميق ليهود العالم («وعقلية المنفى») وعدم الاكتراث بالقيم التي تنعت «باليهودية» في القول الصهيوني. وقد وسم عالم الاجتماع الفرنسي جورج فريدمان الصابرا بانهم «اغيار يتحدثون بالعبرية». ويجد البعض صعوبة بالغة في تصنيف هوية هؤلاء على انها «يهودية».

كل هذه العناصر والتوترات والتناقضات تجعل من العسير على اليهود انفسهم تصديق مقولة «الشعب اليهودي» الذي يتجاوز الازمنة والامكنة والذي يتسم بجوهر يهودي ازلي والذي ينطلق منها القول الصهيوني. فالفعل اثبت انه لا يوجد جوهر واحد وانما سمات عديدة متنوعة تنوع التشكيلات الحضارية والتاريخية التي تواجد فيها اليهود. ويرى بعض

المحللين ان الاعوام القادمة ستشهد ظهور شعب يتحدث العبرية في اسرائيل لا يربطه باعضاء الجماعات اليهودية سوى روابط واهية (مثل علاقة اليونانيين المحدثين بالاغريق القدامى). اما في خارج فلسطين فستتزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط بحيث لا يبقى سوى جماعات يهودية تعرّف نفسها على اساس ديني. ومعظم المؤشرات تشير الى هذا الاتجاه.

حرب إرادة

في مقابل هذا التخبط والتآكل اخذت الهوية الفلسطينية في التنامي والتطور من خلال جهود منظمة التحرير الفلسطينية وعملها الدؤوب الصامت خلال عشرات السنين الماضية لتطوير الهوية والذي تمثل في عشرات الاحتفالات والمعارض والكتب المصورة وغير المصورة والكاسيتات وشرائط الفيديو التي تحتفي بالهوية العربية في فلسطين. وقد ادى ظهور عشرات الشعراء الفلسطينيين المبدعين مثل محمود درويش الى تعميق هذه الهوية وتماسكها. وقد انضم عرب المناطق التي احتلت عام 1967 الى عرب المناطق التي احتلت عام 1948، فاكتشف كل هويته من خلال الاخر فازدادت الهوية وضوحا وازدادوا هم التصاقا وتماسكا وتزاوجا (حرفيا ومجازيا). ويجب ان نؤكد الطبيعة الثورية لهذا الجهد للحفاظ على الهوية وان ندرك اهمية النجاح الفائق الذي حققته المنظمة في هذا المجال على الرغم من تشتت الفلسطينيين في كل انحاء العالم. فاذا كان المستهدف هو هوية فلسطين عن طريق تطبيع الفلسطينيين وتحويلهم الى عمالة رخيصة وإلى مستثمرين فان النضال الثوري الحق لابدّ أن يأخذ شكل تأكيد الهوية المستهدفة وتصبح تلك العجوز التي تجلس في المخيم تغزل فستانا او شالا فلسطينيا تقليديا رمز هذا النضال الصامت الخلاق الذي نما وترعرع ثم تفجر في الانتفاضة. ولا اظن ان الانتفاضة الفلسطينية في الضفة والقطاع كان يمكنها ان تحقق ما حققت لو ان المنظمة خسرت معركة الهوية. كما انها لو ظلت حبيسة الاشكال التقليدية (العامة) للكفاح لما انجزت ما انجزت.

عرب 1948 وتقسيم فلسطين

وقد كان العدو يحس دائما ان عرب القطاع والضفة لهم هوية فلسطينية واضحة كان ينوي القضاء عليها بالتدريج من خلال نشاط مصرفي واستثماري (انفتاحي) مكثف ولكنه كان يظن ان الوضع جد مختلف بالنسبة لعرب 1948 وقد قالت الجيروساليم بوست (11 افريل 1988):ان سياسة اسرائيل والتي تبناها الحزبان الحاكمان تهدف الى منع عرب 1948 من ان يكونوا كتلة سياسية متماسكة ذات قيادة سياسية عربية خالصة. كما ان الحزبين كانا يعتقدان انه لا داعي للاهتمام الزائد بالاقلية العربية طالما انهم لا يثيرون اي قلاقل وقد نجح العدو في تصديق الاكاذيب التي يروجها اذ تصور ان عرب 48 قد تم استيعابهم بالفعل في اطار الدولة الصهيونية وانه قد تم تطبيعهم حتى اصحبوا جزءا عضويا من الدولة، وجزء طبع

من الالة يقوم بالوظيفة الموكلة له. وقد قالت مجلة تايم: ان عرب 48 عاشوا في سلام (اي استسلام) لمدة اربعين عاما، وحصلوا على حقوقهم كمواطنين اسرائيليين ـ اي انهم تم اشباع حاجاتهم وفرض الهيمنة عليهم، ولذا تكاثروا حتى وصل عددهم 840 الف عربي.

هذه الصورة المشرقة قد تبددت تماما مع الانتفاضة التي شحنت عرب 48 ونبهتهم لواقعهم ووضحت هويتهم لهم ووحدتهم بعرب 67 (جورج موفيت «الحزب العربي الديمقراطي يدعو لحل الدولتين في فلسطين» «كريستيان ساينس مونيتر، القبس 1988/7/9».

وقد اعلن عرب 48 يوم 21 ديسمبر 1987 «يوم السلام» للاحتجاج على القمع الصهيوني ضد مواطني الضفة والقطاع وللتضامن معهم. وقد امتنع كثير من العمال العرب عن العمل في ذلك اليوم.

وقد قالت دافار: ان عرب 48 اختاروا اكثر الخيارات تطرفا وانتصرت هويتهم الفلسطينية على مواطنيتهم الاسرائيلية، وكأنه كان هناك احتمال حقيقي ان تنتصر المواطنية الاسرائيلية. ولنلاحظ ان الكاتب لم يستخدم كلمة «هوية»؛ وهو دقيق في اختياره للكلمات فالمشروع الصهيوني يهدف الى افقاد الفلسطيني هويته وتحويله الى مواطن اسرائيلي دون هوية ـ اي قطعة غيار في آلة الانتاج الصهيونية.

وقد أشارت الجيروزاليم بوست (1 ابريل 1988) ان يوم السلام الذي نظم يوم 21 ديسمبر والذي عبر فيه عرب 48 عن تضامنهم مع الانتفاضة قد بين فشل السياسة الصهيونية تجاه الاقلية العربية. وفي تقييم ما حدث في ذلك اليوم قالت هارتس (نقلا عن تايم) ان الكتابة على الحائط ومشاركة عرب 48 اكثر خطورة من الانتفاضة الدموية ذاتها في المناطق المحتلة. اما دافار فقد كانت اكثر افصاحا اذ انها ادركت الأبعاد الجذرية للانتفاضة وللتضامن اذ قالت ان يوم السلام يعيدنا الى خارطة التقسيم وانه غير الخريطة الجغرافية والديموغرافية (اي السكانية) لاسرائيل ليوم واحد على الاقل.

ثم جاء يوم الارض وكان هذا قرينة نهائية على ان قيادة الاقلية العربية نجحت (على حد قول الجيروزاليم بوست) في ان تجسد الخلافات الداخلية وان تضبط سلوك الجماهير. وقد لخصت الجريدة الوضع (في افتتاحيتها بتاريخ 31 مارس) بان هناك مسالة فلسطينية داخل حدود اسرائيل، وان عرب 48 لا يتوحدون بدولتهم وانما مع الفلسطينيين عبر الخط الاخضر والآخذ في التآكل بل ان تآكل هذا الخط اصبح هو ذاته رمزا لتبلور الهوية العربية ووحدة الفلسطينيين داخل حدود الدولة الصهيونية.

وحتى لا اتهم بالغيبية وعدم العلمية لتركيزي على الهوية كحلبة للصراع لنرى ما نشر في جريدة الهيرالد تريبون في مقال بعنوان «الصراع في الاراضي المحتلة يتحول الى حرب سكان» بقلم جلين فرانكل (نقلا عن القبس الكويتية 23 مارس 1988). يقول كاتب المقال: ان

الحرب تحولت الى «حرب ارادة» ومن سيشعر بالارهاق قبل الاخر. ويورد المقال، نقلا عن احد الفلسطينيين قوله:انه لم يحدث قط ان شعرنا بقوة الرباط الذي يشدنا كما هو حالنا الان، كما لم يسبق ان شعرنا بمثل هذا الاحساس بالهوية وبالزهو بالشعور الموحد.

ان الانتفاضة شأنها شأن كل حركات التحرير الوطنية حرب هوية،وفكرة الهوية فكرة مركبة تعني اسلوب حياة، وهذا الاسلوب يضم عناصر مادية كمية مثل الدخل وعلاقات الانتاج، وعناصر معنوية كيفية مثل طريقة الحياة وطريقة التفكير. وقد يضم عناصر روحية مثل العقائد الدينية وتمسك الانسان بهويته (وقيمة وعقائده) وهو تعبير عن ظاهرة الانسان/السر التي اسلفنا الاشارة اليها والتي اقترحنا انها وحدها قادرة على تفسير الظاهرة الاكبر اي ظاهرة الانتفاضة. ويكمن خلل العدو الادراكي الاساسي (وخلل المعلقين السياسيين العرب) في انهم اسقطوا العناصر المعنوية الكيفية، وركزوا على ما يقاس (وهذه هي احدى سمات العلوم الطبيعية في مستوياتها المتدنية). ونحن ان قبلنا فكرة الهوية المركبة هذه كحلبة صراع مع العدو امكننا ان ندرك مدى اهمية منظمة التحرير الفلسطينية التي حمت الفلسطينيين من الزمان الرديء ومن الحكومات العربية الاكثر رداءة.

الفصل الثالث

الانتفاضة وتقويم "الشخصية اليهودية"

طرح الصهاينة فكرة اليهودي المثالي الذي سيقومون بتخليقه على هيئة المستوطن الصهيوني ليحل محل يهود المنفى (اي يهود العالم) ثم قاموا بعد ذلك بطبيعة الحال بتوجيه سهام نقدهم لهم باعتبارهم شخصيات مريضة شاذة غير سوية. وهذا الشذوذ من وجهة نظرهم له مظهران اساسيان واحد اقتصادي والاخر سياسي.

هرم بوروخوف المقلوب

اما المظهر الاقتصادي فيتضح في عدم انتاجية اليهود وفي اشتغالهم باعمال السمسرة والمضاربات والاعمال الهامشية غير المنتجة مثل التهريب والاعمال المالية والعقارات وتجارة الرقيق الابيض. اما المظهر السياسي فيختص فيما يطلق عليه اشكالية *Powerlessness* اي افتقاد السلطة او السيادة. فالصهاينة يرون انه بعد تحطيم الهيكل عام 70 ميلادية اصبح اليهود جماعات مشتتة توجد خارج مؤسسات صنع القرار ولا تساهم في صياغته، وتفتقد الى اي سيادة سياسية مستقلة، مما كان يعني - من وجهة نظر الصهاينة - توقف مسار «التاريخ اليهودي». وقد عبر بوروخوف المفكر الصهيوني العمالي عن نفس القضية بطريقة اخرى اذ لاحظ ان الهرم الاجتماعي عند اليهود مشوه تماما فبدلا من وجود قاعدة عريضة من العمال والفلاحين والطبقات المنتجة وقلة من المفكرين والاطباء والمحامين والوسطاء، كما هو الحال في

معظم المجتمعات، نجد العكس تماما عند اليهود، فالهرم الانتاجي مقلوب على راسه اذ ان معظم اليهود من الوسطاء.

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (اي المجتمع الصهيوني). كجزء من مشروع حضاري متكامل يهدف الى «تقويم» *normalize* «الشخصية اليهودية» واصلاحها (كنا نترجم هذه الكلمة بالتطبيع» ولكننا عدلنا عن ذلك ونفضل الان هذه الكلمة) اي الى تحويل اليهود الى شخصيات سوية قويمة (قوم الشيء اي ازال اعوجاجه). والانسان السوي الطبيعي هو الذي ينتج ويتحكم في مصيره السياسي ويشعر بالولاء نحو دولته ويعمل من اجل صالحها. والتقويم في الخطاب الصهيوني يعني شفاء اليهود من امراض المنفى التي تتمثل في عقلية الاستجداء من الغير او الاغيار وفي الاعتماد السياسي عليهم وفي ازدواج الولاء. وبالتالي على اليهود هؤلاء الا ينغمسوا في اعمال السمسرة والمضاربات والاعمال الهامشية غير المنتجة مثل أبناء ملتهم او جلدتهم من يهود المنفى، وعليهم ان يتحولوا الى «شعب يهودي» منتج بمعنى الكلمة يسيطر على كل مراحل العملية الانتاجية وبالتالي على مصيره الاقتصادي والسياسي. وقد عبر بوروخوف عن نفس القضية بقوله: إن الحل الصهيوني هو ان يقف الهرم على قاعدته بحيث يتركز اليهود في العمليات الانتاجية في قاعدة الهرم فيعملون بأيديهم وتصبح اغلبيتهم من العمال والفلاحين اما المهنيون والعاملون في القطاع التجاري والمالي فيصبحون قلة على قمة الهرم، شأنهم في هذا شان اي مجتمع آخر. وهذا ما يطلق عليه اصطلاح «العمل العبري» و«غزو العمل» ـ اي ان يستولي الصهيوني على الارض ويعمل فيها بيديه ويسيطر على كل مراحل الانتاج. وهو ان فعل، يكون قد انجز الثورة الصهيونية الحقة فاستولى وتحكم فيه، ثم تحول هو ذاته من شخصية هامشية لا سيادة لها، الى شخصية منتجة ذات سيادة قومية ـ اي انه يكون بذلك قد تم «تقويمه». ومن هنا يكون «الاستيطان الاحلالي» (الاستيلاء على الارض وطرد سكانها والعمل فيها) ليس فعلا خارجيا يحمل مدلولا اقتصاديا محدودا، وانما فعلا شاملا له ابعاد سياسية وقومية، وفي نهاية الامر نفسية، وهو ايضا يحل مشكلة المعنى بالنسبة للصهاينة ويعقلن وجودهم في فلسطين التي تلفظهم والتي يقاتل اهلها ضدهم. اي ان هذه العملية تحل مشكلة الشرعيتين : الشرعية الصهيونية وشرعية الوجود.

تزايد الطفيلية الاقتصادية

ولكن بعد مرور اربعين عاما على تأسيس الدولة الصهيونية، وبعد مرور مئة عام على الاستيطان الصهيوني، من الواضح ان اليهودي لم يشف تماما من طفيليته غير السوية. فثمة احساس عميق في الكيان الصهيوني ان الصهيونية قد فشلت فشلا ذريعا في هذا المجال. اذ يلاحظ مثلا ان معدل النمو الاقتصادي في اسرائيل بين عامي 48 ـ 73 كان 10 ٪ انخفض

الى 2 ـ 3 ٪ عام 1973 ثم الى 8،1 ـ 1 ٪ في الفترة من 82 ـ 87 (الايكونومست 20 يوليه 1985) ولايزال الاقتصاد الاسرائيلي يعاني من هذا الانكماش.

وحجم ديون الدولة الصهيونية يجعل المواطن الصهيوني من اكثر الافراد مديونية في العالم (6200 دولار بالنسبة للشخص الواحد). والمواطن في الكيان الصهيوني لم يتحول الى شخصية منتجة كما كان مقدرا له. فانتاجيته تعادل نصف انتاجية العامل الامريكي، وهي اقل انتاجية من عمال الدول الصناعية كلها (باستثناء ايطاليا) (الجيروساليم بوست 24 ديسمبر 1985).

وسنقتبس من مقال ناحوم سولن «صهيونية بدون روح صهيونية» الذي جاء فيه: ان «الاقتصاد الاسرائيلي لم يعد اقتصادا يعتمد على التخطيط ويتطلع الى التنمية الاقتصادية والنمو الاقتصادي، وخلق اماكن عمل لاستيعاب الاف المهاجرين الجدد [اي انه لم يعد الاقتصاد الريادي الذي يمكن من خلاله استيعاب المادة البشرية المهاجرة ودمجها وتحويلها الى مادة قتالية] بل حل مكانه اقتصاد مضاربات غير منتج، يبتعد باعماله عن جوهر الحلم الصهيوني الذي يتطلع الى اقامة مجتمع يهودي عامل ومنتج. ويبدو احيانا ان اقتصاد المنفى والصفقات الهوائية [اي كما نقول نحن بالعامية المصرية «يكسب من الهواء» بمعنى انه يحقق أرباحا من لا شيء عن طريق الغش والسمسرة] قد دخلت من جديد الى تخوم دولة اسرائيل. ولم يعد الاقتصاد مبنيا على اساس التطوير والنمو ولا يلائم استيعاب المهاجرين [اي انه لم يعد اقتصادا استيطانيا يلائم ظروف الاستيطان والقتال]. عل هشمار 30 يونيه 1985).

فقد تغلغلت العمالة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي ويبلغ عدد العمال الذين يعملون وراء الخط الاخضر 120 الف، كما يظهر ما بين 20 ـ 30 الف في الاحصائيات الرسمية حسب اقوال الصحفيين الاجانب. ولكن يخبرني طلبتي الفلسطينيون من الارض المحتلة ان العدد اكبر من ذلك بكثير وان العدو يخفي الارقام الحقيقية خوفا من ان تتحطم اسطورة العمل العبري تماما وهي اسطورة الشرعية الاحلالية.

ولذا فثمة تضارب في الاحصائيات. ويشكل العرب 40 ٪ من كل عمال البناء (21 الف عامل بناء وفي احصائية اخرى 51 الف) وحوالي 30 ٪ من مجمل العاملين في الزراعة (20 ـ 25 الف عامل) و15 ٪ في اعمال النظافة والمطاعم ومضخات الوقود وجرسونات في المطاعم (حوالي 20 الف عامل). كما توجد نسبة لا باس بها في الصناعة خاصة في الصناعات الاسرائيلية الخفيفة والوسيطة كالنسيج. بل ويقال ان العمالة العربية قد تغلغلت في الصناعات الحربية الخفيفة.

وقد تقلص القطاع الانتاجي في الاقتصاد الاسرائيلي، وأصبح قطاع الخدمات (وهو قطاع غير انتاجي) من أضخم القطاعات على الاطلاق (في مقابل الزراعة التي لا يعمل فيها الآن سوى 6 ٪ من القوة العاملة في أسرائيل، والصناعة التي لا يعمل فيها سوى 24 ٪).

وكما يقول الاقتصادي الاسرائيلي ناداف هاليفي: إن نصف العاملين في إسرائيل موجودون في قطاع الخدمات العامة والخاصة والتجارة والمال وكلها قطاعات غير منتجة. ويذكر آمنون روبنشتاين، الوزير الاسرائيلي السابق، احصائية أخرى إذ يلاحظ أنه في عام 1945 كان 24 ٪ وحسب من اليهود المهاجرين يعملون في وظائف انتاجية، وبعد استيطانهم فلسطين أصبح 69 ٪ منهم يدخلون مجال الأعمال الانتاجية. ولكن بحلول عام 1975 انخفضت نسبة العاملين في القطاعات الانتاجية إلى 23 ٪ فقط — أي أقل مما كانت عليه قبل الاستيطان. وقد انغمس المستوطنون الصهاينة في أعمال المضاربة والسمسرة، كما اتضح في فضيحة سندات المصارف (عام 1983).

بل ظهر أن حركة الكيبوتسات ـ رمز الطهر الاشتراكي الصهيوني والانتاجية والريادة ـ قد دخلت خلبة المضاربات والسمسرة. فقد تراكمت أرباح الكيبوتسات على مر السنين ولكن بدلاً من إعادة استثمارها في الاقتصاد وبشكل انتاجي راح أعضاء النخبة الاشتراكية في إسرائيل يبحثون عن الأرباح السريعة والثروة الفورية عن طريق المضاربات وشراء السندات المضمونة حتى أصبح هذا النوع من الاستثمار يشكل ثلث دخل الكيبوتسات. وفي عام 1983 حينما وقعت أزمة الأسهم الأولى أفلست شركة الاستثمارات الخاصة بالكيبوتسات ولكن مديرو الكيبوتسات أعادوا استثمار أموالهم في سندات البنوك (كما فعل معظم الاسرائيليين). وقد تحولت مؤسسة الكيبوتس إلى مؤسسة مرابية بكل معنى الكلمة، إذ بدأ المديرون يعرضون أموال الكيبوتس في السوق الرمادي (أي في منطقة تقع بين ما هو شرعي وغير شرعي) نظير فوائد عالية. واستخدموا في ذلك وسطاء سيئي السمعة أفلس أحدهم وكان مدينا للكيبوتس بمبلغ مئة مليون دولار (جويش ويك 6 يونيه 1986).

ومن مظاهر تآكل عملية التقويم وتزايد الطفيلية تحول إسرائيل إلى واحد من أكبر مصدري السلاح في العالم، وقد أصبحت هذه التجارة أكبر مصدر لإسرائيل من العملات الأجنبية. وتصريف السلاح وإيجاد عمل للعاملين في الصناعات الحربية (وهم حوالي ربع مجموع القوى العاملة) يستلزم بيعه إلى من هب ودب، بحيث تذكر وكالة صحفية يهودية أن إسرائيل باعت الزوارق الحربية إلى سوموزا دكتاتور نيكاراغوا السابق، وأرسلت إلى غواتيمالا أسلحة قتلت بشهادة يهودي من غواتيمالا اسمه فيكتور بيريرا نحو 22 ألف هندي أحمر فيها حتى عام 1985. كما أنها تبيع الصواريخ لشيلي وجنوب افريقيا وتايوان، وتبيعه لطرفي أي نزاع (تركيا واليونان مثلا) ولأعدائها (ايران). وصادرات إسرائيل تضاعفت سبع مرات خلال السنوات الأربعة التي أعقبت حرب 1973 بحيث أصبحت تدر عليها الآن حوالي بليون دولار، حتى أصبحت كما يقول شمعون بيريز عندما كان وزيرا للدفاع «تنتج الآن 1977» أسلحة أكثر من بريطانيا، وتستطيع أن تقدم لفرنسا سلاحا تعجز عن مضاهاته».
ووصف يوسي سريد نائب الكنيست هذا بأنه تحول عن «الزراعة الخضراء إلى الأسلحة

الدموية الحمراء». (محمد رمضان). إسرائيل ومصير الانسان المعاصر، (دار الكرمل، 1988).

ويلاحظ «تركز قوة العمل الفلسطينية في فروع معينة من الاقتصاد الإسرائيلي دون غيرها حيث تتضاعف نسبتها في هذه الفروع أضعافا عديدة عن نسبتها العامة في الاقتصاد. ويصبح تغيبها أساسا لانبثاق مشاكل صعبة الإحتواء في المدى القصير على الأقل». (اليوم السابع 11 أبريل 1988). فعلى سبيل المثال تبلغ نسبة العمال العرب في صناعة تعبئة الحمضيات 30٪ من مجموع العاملين، علاوة على نسبة مهمة من عمال عرب 1948 («العمالة الفلسطينية شلت الاقتصاد الإسرائيلي» دراسة دار النقب القبس 14 أبريل 1988). ويتواجد هؤلاء بكثافة في قاعدة الهرم الإنتاجي، «فالاقتصاد الاسرائيلي لم ينتج احتياطا من القوة العاملة، قادرا أو مستعدًا لاحتلال تلك الوظائف. ورغم أن ذلك لا يشكّل تهديدا على الاستقرار الاقتصادي، إلا أن وجود مئة ألف وظيفة شغلها عرب في قاعدة الهرم سيؤدي إلى زعزعته إلى حد ما» (يوناثان شيرمان في هآرتس 22 يناير 1988 نقلا عن اليوم السابع). وقد قال لي أحد طلبتي من الأرض المحتلة: أينما تمد بصرك تجد عربا يعملون، وعملهم هذا يملأهم فخرا. فهم يتفوقون على العمال اليهود في الأداء والإنتاجية ولا يقلون عنهم إلا في الأجر وهم يبنون على أرض وطنهم التي لا ينوون النزوح عنها. ولذا كتب عامل فلسطيني يدعى أحمد رسالة قصيرة للمستوطن الصهيوني بعد أن فرغ من بناء منزله: «لقد بنيت أنا هذا البيت ـ وسأعيش أنا هنا بعد الثورة» (الجيروساليم بوست جوشوا برليانت «الحرب دائرة» 19 فبراير 1988).

وقد ساهم وضع يهود الشرق في تفاقم قضية الانتاجية، إذ أنه بدخول العمالة العربية لقاعدة الهرم الانتاجي «اليهودي» حقق اليهود الشرقيون شيئا من الحراك الاجتماعي وأصبحوا مقاولين أنفارا (فهم يجيدون التحدث مع العرب) كما أنهم تركوا كثيرا من الأعمال اليدوية لهم. ويواجه التجمع الصهيوني اختيارا مريرا بين أن يحقق العدالة الاجتماعية بين المستوطنين اليهود (بغض النظر عن كونهم شرقيين أم غربيين) مما ينتج عنه مزيد من الهامشية والطفيلية للعنصر اليهودي ككل في التجمع الصهيوني، أو أن يحتفظ بعدم التكافؤ الطبقي والاجتماعي والاثني ويدفع بالشرقيين إلى قاعدة الهرم مرة أخرى مما يفاقم الصراع الطبقي.

الاقتصـــاد التسولي

وإذا كان العامل العربي قد سلب الصهاينة جزءا كبيرا من احترامهم لنفسهم وهيمنتهم على الأرض والانتاج، فإن الدعم الأمريكي قد سلبهم السيادة الاقتصادية والسياسية وأية بقية باقية من انتاجية أو احترام للذات. فالمعونات الأمريكية التي تصب على الكيان الصهيوني فتضمن له الاستمرار رغم ضعف الانتاج، قد أفرزت في ذات الوقت نمطا اقتصاديا سياسيا اجتماعيا جديدا، دينامياته وآلياته مختلفة عما هو مألوف لدى دارس المجتمعات الانسانية.

ولعله لم يجر تسميته حتى الآن، وعبارة الاقتصاد التسولي وهو الاسم الذي نقترحه هي عبارة من نحتنا استنادا إلى كتابات بعض الصحفيين الاسرائيليين (وإلى تجربة يهود شرق أوروبا في القرن التاسع عشر حين كان حوالي 10٪ من كل اليهود من المتسولين).

وقد وصف الصحفي الإسرائيلي ب. سبير (في مقال له باسم «مجتمع يتغذى على الهبات الخارجية» على همشمار 29 أبريل 1986 نقلا عن الأرض السنة 13 العدد 17، 21 مايو 1986)، وصف المجتمع الإسرائيلي باعتباره مجتمعا يعتمد اعتمادا كليا على الهبات الخارجية، وأشار إلى الإسرائيليين باعتبارهم أكبر زبون في العالم للمساعدات الأجنبية، فالمجتمع الصهيوني «مجتمع يمد يده لاستجداء الكرماء»، مجتمع «يأكل وجبات مجانية» و«تعتمد قائمة طعامه على الزيت الذي يقطر من الخارج».

وينتهي المقال بالحديث «عن اليد الممدودة إلى الأمريكيين» وعلى كل وصفت إسرائيل بأنها «ذراع قتالية ممتدة»، لحساب الأمريكيين فلا بأس إذن أن يكون في آخرها يد مفتوحة لتناول الأجر منهم.

تستند تسميتنا إذن لرؤية الفاعل لنفسه، ولكن رؤية الفاعل لنفسه ليست هي الواقع كله، ولذا سنحاول أن نتعامل مع بعض الحقائق والسمات التي يتصف بها الاقتصاد الإسرائيلي التسولي. ومن المعروف أن الولايات المتحدة تغدق على إسرائيل العطاء كما لم تغدق على أحد من قبل او بعد، وأن المجتمع الصهيوني يعتمد في أمنه، بل وفي وجوده واستمراره، على الولايات المتحدة اعتمادا شبه كلي وكامل. وقد أخذت المساعدات الأمريكية في التصاعد الرهيب من 60 مليون دولار سنويا معظمها مساعدات اقتصادية، في الفترة بين 48 ــ 1971، إلى 18 بليون في الفترة من 73 إلى 1981 (ثلاثة أرباعها مساعدات عسكرية). وابتداءً من عام 1984 أصبحت كل المساعدات منحا مباشرا، وعام 1985 أصبحت هذه المنح لا تصل بالتقسيط وإنما دفعة واحدة. وتزيد المساعدات في العام الآن عن 3 بليون دولار. ويقول مقال الايكونومست (20 يوليه 1985) (الذي اعتمدنا عليه في احصائياتنا) أنه إذا ما أضيفت المساعدات الأخرى من يهود العالم (وأكثرهم في الولايات المتحدة) فإن حوالي ثلث ميزانية التشغيل يعتمد على المساعدة الخارجية. وقد لاحظ سبير أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي يتم دفع كل ما ينقصها من عملة صعبة من قبل دولة أجنبية.

تساقط السيادة الاقتصادية

يبين سبير أن هذا الدعم السخي يفسّر الدور غير العادي الذي يلعبه وزير الخارجية الأمريكي في توجيه السياسة الاقتصادية الاسرائيلية وعلى حد قول شموئيل شنيتسر ــ في مقال له بعنوان «كم بقي لنا من الاستقلال».

إن السياسات الاجتماعية للمجتمع الصهيوني وعلاقاته الدولية، وانفاقه الأمني كلها أمور أصبحت تقريبا تقع خارج نطاق القرار الإسرائيلي المستقل. إن الأمر قد وصل في

إسرائيل إلى حد أن الفقد الاجتماعي هناك قد أصبح مؤسسا على حقيقة الهبات الأمريكية الضخمة. وقد قامت المساعدات بتغطية كل المستوردات الأمنية والعسكرية. وكل المستوردات من الوقود والمواد الاستهلاكية وكذلك كل الجولات والرحلات التي يقوم بها المواطنون (المقاتلون) إلى الخارج في خلال الثلاث سنوات المنتهية في ديسمبر 1986.

إن الهبات تتدفق على المستوطنين الصهاينة وعلى تجمعهم «دون أية عوائق في حدود 13 مليون دولار في اليوم ــ أي أقل بقليل من ثلاث دولارات للفرد الواحد يوميا» (وهذا أكثر من دخل الفرد في كثير من الدول العربية). ويجب أن نضيف إلى ذلك رأس المال الثابت أي الأرض وما عليها من منازل استولى المستوطنون عليها بمساعدة الامبريالية. كما يجب ألا يفوتنا أن نذكر المساعدات غير المنظورة مثل «الخبرة اليهودية» التي تصب في المستوطن دون مقابل والمساعدات العديدة لبرامج اجتماعية محددة. وإذا أضفنا إلى كل هذا العمالة الفلسطينية الرخيصة لاكتشفنا أن أجر المستوطنين الصهاينة أجر مجز ولا شك يساعدهم على الإستمرار في الإستهلاك والقتال، على الرغم من عدم إنتاجيتهم، وحينما يتفاوض العمال مع أرباب الصناعات، فإن «كل ما يمكن احرازه من خلال إجراء مفاوضات مع ممثلي العاملين ومع أرباب العمل هو إيجاد أساس من الاتفاق القومي لضرورة تنفيذ السياسة التي يمليها جورج شولتز».

وافتقار إسرائيل إلى حرية القرار «للسيادة والسلطة» يظهر وبشكل أكثر وضوحا في علاقات إسرائيل الدولية التي لا يمكن تفسيرها أو فهمها إلا من منظور التبعية الإسرائيلية للولايات المتحدة. فعلاقة الدولة الصهيونية مع جنوب افريقيا تسقط من شرعيتها في علاقاتها مع الدول الافريقية التي تشكل مجالا للانتشار الإسرائيلي في مواجهة الرفض العربي. وعلاقاتها مع الدول الفاشية المختلفة، مثل النظام العسكري في الأرجنتين، التي تضطهد أعضاء الجماعات اليهودية وغيرها من الأقليات والطبقات تسقط شرعيتها كدولة يهودية تشكل ملجأ ليهود العالم. وتزويدها السلفادور بالسلاح يسقط من شرعيتها كدولة ديموقراطية صغيرة تدافع عن مثل المساواة والعدالة. وتتدعم الصورة السلبية التي تقوض كل أساطير الشرعية الإسرائيلية / الصهيونية حينما تتورط إسرائيل في قضايا مثل الكونتراجيت وإيران جيت وحينما تقف «إلى جانب كل إجراء سياسي أمريكي في العالم مهما كان زائدا عن اللزوم ويستحق الانتقاد». لا يمكن تفسير أو فهم كل ذلك من منظور مصلحة إسرائيل أو «رغبتها في البقاء» وإنما يمكن تفسيره وفهمه في إطار دورها الاستراتيجي ومصالح الولايات المتحدة.

بل إن ميزانيات إسرائيل العسكرية لا يمكن تفسيرها هي الأخرى إلا في نفس الإطار، وقد قام سبير بتحليل ما سماه «استهلاك إسرائيل الأمني» وخلص إلى أن الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية والنفقات الأمنية الإسرائيلية لا تحددها المتطلبات الأمنية الذاتية الحقيقية لإسرائيل «وإنما تحددها الاحتياجات الأمنية والعسكرية الدولية للممول الموجود في واشنطن ومانهاتن».

ومن هنا تصب المساعدات، وما يهم ليس أداء المجتمع الاقتصادي وإنما أداؤه العسكري. ولذا نجد أن ثمة فرق بين المتسوّل التقليدي والمتسوّل الإسرائيلي، فبينما كان الأول يمد يده في إطار ديني يعد المتصدقين بالثواب وجنات النعيم، فإن الشحاذ الإسرائيلي سميك الجلد، كل همه هو استهلاك المساعدات، يأخذ دون خجل ودون أن تعلو خدوده أية حمرة، «لن يحرم نفسه من المآكل والملذات ما دام هناك شخص آخر يقوم بتسديد الحساب» «يأخذ بكلتا يديه من صحن المساعدات»، وبدلا من أن يطلب للمحسن جنات النعيم فإنه يعد باطلاق ألسنة الجحيم على المجتمعات المستهدفة.

إن التجمع الصهيوني لم يعد كيانا قوميا مستقلا منتجا، يستمد احترامه لنفسه من انتاجيته فقد أصبح كتجمع المماليك يستمد رزقه من مقدرته على القتال فهو ذراع تقاتل وكف تقبض لا يد تنتج وتزرع وتحصد. وبالتالي أصبح الحديث عن الشرعية التي يكتسبها المشروع الصهيوني من خلال الانتاجية وتحويل المستنقعات والصحراء إلى أرض خضراء، كلاما أجوفا يعرف المستوطنون أنفسهم مدى كذبه، ويعرف يهود العالم أنه أضحوكة، فالجميع يرى العرب يزرعون ويحصدون في أرض الميعاد.

العبرية ولغة القوادين

ومن مظاهر شذوذ الشخصية اليهودية ـ حسب الأدبيات الصهيونية ـ انقسامها على نفسها، لازدواج الولاء، وعدم ثقتها في نفسها بل وأحيانا اضلالها. ولكن يبدو أن الصهاينة لم ينجحوا في هذه الجبهة أيضا. ولنضرب مثلا على ذلك.

نشرت صحيفة الشيكاغوتربيون (مقالين في 3 يونية و28 يولية 1986 على التوالي) عن حالة الإسرائيليين النفسية ورد فيها أن ثلث الإسرائيليين (الاشكناز) الغربيين (أي أعضاء النخبة) بين 25 ـ 35 سنة يعانون من الارهاق النفسي، وأنه لوحظ زيادة في عدد المصابين بالسكتات القلبية والذبحات الصدرية والضغط العالي والارهاق العصبي. وجاء في المقالين: ان الصيدليات تبيع من المهدئات أكثر من أي نوع آخر من الأدوية. وعلى الرغم من أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم خارج فلسطين المحتلة لا يعرفون ظاهرة الادمان على الكحول إلا بنسب ضئيلة فإن هذه الظاهرة آخذة في الانتشار في إسرائيل.

ويقال إن الطعام لا يشكل سوى 50٪ من السلع التي تباع في السوبر ماركت في بعض المدن الصغيرة في النقب أما النصف الآخر فهو أنواع البراندي الرخيصة. وقد ذكر مدير معهد الارهاق النفسي التابع لجامعة حيفا أن سبب الاختلال العصبي عند الإسرائيليين هو ما سماه «الرفض العربي». وأضاف قائلا: إن الاسرائيليين لو عرفوا عام 1948 أن الرفض العربي سيستمر طيلة هذه المدة (أي ما يزيد على أربعين عاما) وأنه سيكون بهذه الحدة لما أمكنهم كسب الحرب أو الاستمرار في البقاء، أي أن الاستمرار والبقاء الاسرائيليين يستندان إلى وهم.

وقد تزايدت معدلات الجريمة في إسرائيل بشكل مذهل ويلاحظ انتشار المخدرات والأمراض النفسية والبغاء (تعد إسرائيل الآن من أهم مصادر البغايا في أوروبا، وقد أصبحت لغة القوادين هي العبرية في بعض المدن الأوروبية خاصة في امستردام). ولا يمكن الزعم بعد كل هذا أن الحركة الصهيونية، عملا بالقول الصهيوني، قد جعلت اليهود اسوياء اقتصاديا أو أنها نجحت في تحويلهم من شخصيات هامشية طفيلية إلى شخصيات منتجة سوية. ومن الواضح أن الانتفاضة عمقت وستعمق من كل جوانب أزمة التجمع الصهيوني.

تزايد تكلفة التجمع الصهيوني

فعلى سبيل المثال زادت الانتفاضة المباركة من أبعاد الأزمة الاقتصادية وبالتالي من أزمة السيادة، فقد زادت الانتفاضة من تكلفة ادارة الكيان الصهيوني واستمراريته. وقد ذكرت مجلة اليوم السابع والقبس عدة محاور تعطي صورة مبدئية عن التكلفة العامة للانتفاضة. أما المحور الأول فهو الأضرار التي أصابت الانتاج في فروع معينة نتيجة لتغيب العمال.

فبعد أن أضرب العمال العرب توقفت أعمال البناء لا سيما في قطاع الإسكان الخاص. وتوجد مئات الأطنان من الخضروات في الحقول، وتوقفت تقريبا مصانع النسيج، وألغى 30٪ من كل الحجوزات في الفنادق، والنسبة آخذة في الزيادة. ويحاول الكيان الصهيوني أن يحل أزمته عن طريق استيراد العمال، ويمكنه من الناحية النظرية أن يفعل ذلك، فهو على أية حال يطلق على العمل العربي كلمة «العمل الغريب» وهي صياغة عامة تفترض امكانية أن يحل أي غريب محل العرب. فالعربي هنا مجرد وحدة اقتصادية غير يهودية ـــ وحدة انتاجية استهلاكية. ويقال إنه يوجدبالفعل حوالي عشرة آلاف عامل أجنبي في إسرائيل (القبس 14 أبريل 1988 «العمالة الفلسطينية شلت الاقتصاد في إسرائيل»). ويتميز العامل الأجنبي بأنه لن تكون له مطالب وطنية على أرض إسرائيل / فلسطين (معاريف ودافار وهآرتس 22 يناير 1988 الملف 48، مارس 1988).

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه كيف سيتأتى للتجمع الصهيوني أن يجد 150 ألف عامل بين يوم وليلة؟ وكيف يمكنه إيواءهم؟ وهل يمكنه حل المشاكل التي ستنجم عن وجودهم داخل مجتمع مهتز أخلاقيا مثل المجتمع الصهيوني؟ وأخيرا أين سيجد عمالا على استعداد أن يتقاضوا من 12 ـــ 20 دولار في اليوم (يديعوت أحرونوت 15 يناير 1988 ويوإس نيوز آند ورلد ريبورت 1 فبراير 1988) كما أنه لو استغنى تماما عن العمالة العربية ألا يزيد هذا من الضفة والقطاع اشتعالا؟

ويبدو أن البروليتاريا الصهيونية ليست سعيدة بالعمال الأجانب فهم يشكلون خطرا عليهم فهؤلاء العمال انتاجيتهم عالية وأكثر انضباطا وأقل أجرا. كما أن العمال الإسرائيليين لن يستطيعوا خوض نزاعات عمل بعد ذلك، أو المطالبة برفع أجورهم، وبذا يتحول العمال الأجانب لسيف مسلط على رقابهم (معاريف ودافار وهآرتس 22 يناير 1988 الملف 48).

والجميع لا يزال يذكر حينما قامت إسرائيل بالسماح لبعض المهاجرين الفيتناميين بالاستقرار في إسرائيل من قبيل تحسين الصورة الاعلامية وحينما عمل بعض هؤلاء في المصانع الإسرائيلية بمعدلات انتاجية عالية هددهم زملاؤهم الإسرائيليون بالضرب، إذ أن هذه الانتاجية ستكشف لعبة الطفيلية والتسوّل.

ولكن المهم أن التجمع الصهيوني لم يحاول أن يحل مشكلة العمالة من الداخل أو حتى بالتوجه «للضمير اليهودي العالمي» وإنما بمحاولة استيرادها، وكأن كل الحديث عن الريادة والانتاجية والعمل العبري قد تبخر تماما حتى على مستوى الديباجات اللفظية. وقد كتبت قارئة إسرائيلية تدعى آن كي خطابا للجيروزاليم بوست (8 فبراير 1988) تسخر فيه من وزيري الزراعة والصناعة لأنهم بدؤوا يبحثون عن عمال من تركيا والفلبين والبرتغال لا في إسرائيل ذاتها، واقترحت أن الحل يكمن في رفع الأجور.

وقد حاولت المؤسسات الصهيونية شيئا من هذا القبيل فبعد أن تسببت الانتفاضة في توقف معظم عمليات جني الحمضيات، اقترحت وزارة العمل والرفاه الاجتماعي دفع نصف مخصصات البطالة للجنود المسرحين علاوة على رواتبهم، إذا التحقوا بالعمل في هذا القطاع، غير أن ورثة دعاة العمل العبري يفضلون رسوم البطالة على العمل في هذه الأعمال (هآرتس 18 يناير 1988).

ولعله كان بوسع الاقتصاد الإسرائيلي أن يستوعب جزءا كبيرا من الصدمة الاقتصادية لو كان هناك نمو اقتصادي عادي «ولكن، حتى قبل الاضطرابات، كان الاقتصاد يمر بمرحلة انكماش اقتصادي غير عادي»، فالانتفاضة تزيد من وتيرة الانكماش (يديعوت أحرونوت 26 فبراير 1988 نقلا عن الملف 48).

ولعل تشابك العناصر الآنفة الذكر في حالة مصنع ديان للمعدات العسكريةمثل جيد على ما يحدث في الاقتصاد الإسرائيلي. فالانتفاضة من الناحية النظرية يمكن أن تشكل فرصة ذهبية للمصنع «نظرا لحاجة الجيش لبعض المعدات مثل الخوذات. ولكن بسبب عدم وجود عدد كاف من العمال (بعد اضراب العمال العرب) فإن الجيش يضطر إلى طرق أبواب مصانع أخرى». وقد حاول المصنع أن يحول بعض الانتاج إلى داخل حدود 1948 ولكن تكاليف العمالة باهظة. وعلى صاحب المصنع أن يسدّد قرضا قيمته 500 ألف دولار وهو يطالب البنك بالتريث إلى حين أن يتحسن الحال «فإن لم ينتظر قد لا أمكث هنا طويلا» (وول ستريت جورنال، القبس 13 يونيو 1988).

إن صاحب مصنع ديان مثل القارئة الإسرائيلية والعمال الإسرائيليين لم يعد يقترح أي ديباجات صهيونية ولا يذكر أرض الميعاد أو الشعب المختار أو «التاريخ اليهودي» وإنما يتحدث عن العرض والطلب والأجور وتعظيم الربح وتأجيل دفع القروض. وارتباطهم بالأرض لم يعد رباطا أزليا عضويا مقدّسا (كما كان الادعاء) وإنما هو ارتباط نفعي مفهوم.

ولذا فالعمال لا يعملون إلا بعد دفع الأجور وصاحب العمل يهدد باغلاق مصنعه وبالهجرة إن لم يحقق الأرباح التي يطمح لها حتى في زمن الانتفاضة، وكل هذا يدل على مدى تآكل الصهيونية كعقيدة وكمصطلح وكإطار للسلوك.

وثاني المحاور هو التكلفة المباشرة لعمليات القمع والاحتواء من أذرع الأمن الاسرائيلية لمظاهر العصيان. وهذه من الصعب بعض الشيء حسابها بدقة ولكننا نعرف أن أكثر من 3000 شرطي و3000 جندي من حرس الحدود و110 ألف جندي من الجيش يشتركون في قمع الانتفاضة. وتكلف الأدوات القمعية من سلاح مستهلك وقنابل غاز ورصاص مطاطي وذخيرة حية وكذلك الوقود وأيام العمل التي يخسرها جنود الاحتياط بمبالغ تتراوح بين 60 ـ 80 مليون دولار منذ بدء الانتفاضة (اليوم السابع 11 أبريل 1988) ـ أي أن معدل التكلفة اليومية لهذا المحور يتجاوز المليون دولار يوميا. وكشف جاد يعقوبي بأن نشاطات الجيش والشرطة كلّفت إسرائيل حتى أواخر مارس مبلغا قدره نصف مليار شيكل (أي حوالي 300 مليون دولار).

وحتى ندرك حجم الانتفاضة وحجم الخسائر التي تلحقها بالعدو ومعدلها، يمكنني الاشارة إلى مقال يورام بري «الحرب السابعة» (دافار 11/ 13/ 14/ 15/ 16 مارس 88 ـ الملف 48 أبريل 1988) الذي ذكر أن في ديسمبر 87 (أي بعد إندلاع الانتفاضة بشهر واحد) اضطر الجيش إلى زيادة قوته بأربعة وخمسة أضعاف، ونفذ مخزون الجيش من المعدات المجهزة للتصدي لأعمال الشغب المخصصة لعام كامل في عدة أسابيع وأصبحت هناك ضرورة لنقله جوا من الخارج. ثم يضيف كاتب المقال عبارة دالة : «وفي ذلك مادة للتفكير، لكل من يتباهى بعدم تبعيتنا السياسية، ولا يعتبر ذلك بمثابة جسر جوي. . . مثلما حدث في حرب يوم الغفران» (أي حرب أكتوبر أو العاشر من رمضان).

وتزايد تكاليف الانتفاضة لا يهدد الاقتصاد الاسرائيلي وإنما يهدد برنامج تجهيز الجيش الإسرائيلي الذي أصبح في حاجة إلى اعتمادات اضافية خاصة وأن الجيش، كما اعترف الجنرال مناحم ايتان، رئيس ادارة التموين والامداد، فوجىء بضخامة المظاهرات. ومع تصاعد إبداع المنتفضين تتصاعد التكاليف فبدخول الانتفاضة من مرحلة الحجارة إلى مرحلة حرب النيران والزجاجات الحارقة بدأ الجيش الاسرائيلي بابتكار أنظمة للحماية من هذه الزجاجات.

وقد قالت إذاعة الجيش الاسرائيلي في 12 يوليه 1988 (الشرق الأوسط، 14 يوليه 1988) : إنه «تم توزيع ملابس عسكرية مضادة للنيران على جميع الوحدات العسكرية الإسرائيلية العاملة في الضفة الغربية وقطاع غزة لحماية الجنود الاسرائيليين من الزجاجات الحارقة».

وأضاف المذياع : إن هذه الأزياء العسكرية تشبه الملابس المخصصة لجنود القوات

المدرعة في الجيش الإسرائيلي وهي مصنوعة من قماش غير قابل للاشتعال.

وأضاف: انه تم أيضا تركيب «وسائل خاصة» على المركبات العسكرية الإسرائيلية لحمايتها من الزجاجات الحارقة وهي عبارة عن أغطية غير قابلة للاشتعال مصنوعة من الاسبست ومطلية بمادة الألومنيوم كما تم تزويد السيارات العسكرية التي تقوم بأعمال الدورية ومواجهة المظاهرات بأجهزة كبيرة لاطفاء الحريق».

أما المحور الثالث فهو توقف المردود من الضرائب والأموال العائدة من الجمهور إلى خزينة الدولة. وقد قال مدير شعبة الضرائب والضريبة الاضافية بأن انخفاضا بنسبة 20٪ قد طرأ في الأسابيع الأخيرة على جباية الضرائب في الضفة والقطاع بسبب الاضراب التجاري المتواصل في هذه المناطق.

أما المحور الرابع فيغطي تأثر فرع السياحة وكذلك الاستثمارات والاعتمادات المالية والتصدير بالوضع السياسي والأمني. والسائح شخصية باحثة عن اللذة والمتعة ولذا فهو لا يتحمل أي شيء يعكّر صفوه ولذا كان من المتوقع أن يتأثّر هذا القطاع بالانتفاضة بشكل حاد. ففي داخل إسرائيل ذاتها هرب المصطافون الإسرائيليون من القدس إلى تل أبيب وشاطىء البحر الأحمر في إيلات ولكن في منتجع نتانيا الذي يطل على البحر المتوسط قال مسؤول في احد الفنادق: إن النشاط هناك شبه معدوم (القبس 25 يونيو 88). وقام 6000 بحار من الأسطول السادس، وهم من أكثر الباحثين عن المتعة كفاءة في بحثهم،. بالغاء زيارتهم بسبب الأحداث (القبس 14 أبريل 1988). كما أن وزارة الخارجية الأمريكية قد أعلنت للمواطنين الامريكيين أن ذهابهم للدولة الصهيونية قد يعرضهم للخطر، مما يعني أن كثيرا من السياح الأمريكيين سيبحثون عن المتعة في أماكن أكثر أمنا، تماما مثل بحارة الأسطول السادس.

ويقال: إن الأفلام التليفزيونية عن الانتفاضة كانت من أهم الأسباب. وكانت وزارة السياحة الإسرائيلية قد أعدت فيلما دعائيا تأتي فيه عبارة أن تل أبيب على مرمى حجر من القدس *at Stone-Throw* واضطرت لالغائه لان ايحاءات العبارة أصبحت مغايرة تماما، والسواح قوم يحبون نسيان الهموم.

وبغض النظر عن تغيّر المجال الدلالي للعبارة فقد ظهر أن قصر المسافة بين الأماكن السياحية في إسرائيل الذي كان يعتبر ميزة ــ كما قيل من قبل ــ أصبح في غير صالحها، حيث يخشى السياح أن يلتقوا، خلال تنقلاتهم بين هذه الأماكن، مع المتظاهرين الذين قد يتعرضون لهم (على همشمار 1 فبراير 88، الملف 48).

ومن المتوقع أن تنخفض عائدات السياحة إلى أكثر من 30٪ لتصل إلى مليار دولار بدلا من 1,6 (1987). وبالفعل على الرغم من أن انخفاض السواح كان ضعيفا في البداية إلا أنه بدأ يرتفع بشكل ملحوظ ابتداءً من شهر مايو الذي وصل فيه 86 ألف في مقابل 110

ألف العام الماضي (القبس 22 يونيو 88)،أما في شهر يونيه فوصل إلى 84 في مقابل 108 (القبس 7 يوليو). واتهم شامير اليهود الأمريكيين باهمال الدولة الصهيونية (القبس 25 يونيه 88) وكأن المطلوب منهم أن يحضروا للسياحة ويجرعون الويسكي في الشيراتون مساءً ويتلقون الاحجار في وجوههم في الصباح من أجل عيون الدولة الصهيونية التي قامت للدفاع عنهم وعن أمنهم!

وقد تركت الانتفاضة بعض الأثر على علاقات إسرائيل التجارية مع دول أوروبا إذ تواجه الدولة الصهيونية مصاعب متزايدة بسبب عملية القمع في الداخل. وقد أرجأ توقيع البروتوكول الزراعي من قبل البرلمان الأوروبي بسبب سياسة القمع هذه.

أما المحور الخامس والأخير فهو الميزان التجاري بين إسرائيل والمناطق المحتلة وما نتج عن الانتفاضة من هبوط حاد فيه.

«أما مجمل التبادل التجاري بين إسرائيل والمناطق المحتلة، فتقدره دائرة الاحصاء المركزية الاسرائيلية بمليارين وربع المليار من الدولارات سنويا لكن التقديرات غير الرسمية تقول: إن المبلغ أكبر من ذلك بكثير نتيجة لتفشي «التجارة السوداء» المتمثلة بالبضائع التي لا تعلن عنها الشركات الإسرائيلية تهربا من دفع الضرائب، وهذا المبلغ يضع المناطق المحتلة في الموقع التالي في قائمة المستوردين من إسرائيل بعد الولايات المتحدة، ويجعل قيمة استيرادها 10 في المئة من مجمل الصادرات الإسرائيلية، و25 في المئة إذا استثنينا صادرات السلاح».

في هذا السياق يمكن إيراد بعض أرقام الهبوط في إنتاج صناعات معينة، يعزوها المسؤولون في هذه الصناعات إلى انخفاض الاستهلاك في المناطق المحتلة. فشركة «عليت» للحلويات والقهوة، وهي أكبر شركات المنتوجات الغذائية في إسرائيل، أشارت إلى انخفاض مقداره 10٪ من إنتاجها، وإلى مخاوف من استمرار الأوضاع التي تؤدي إلى هذا الانخفاض. مصانع غذائية أخرى مثل «تليا» و«أوسم» تحدثت عن انخفاض لم تذكر مقداره وشكت مصانع البلاستيك والنسيج من صعوبات مماثلة. ووصل الأمر بأحدها إلى اغلاق مصنعه «انوال إسرائيل» في «بيتح تكفا» قرب تل أبيب. أما الفروع الأخرى مثل الأثاث والكيماويات والمنتجات الكهربائية، وباقي فروع المواد غير الأساسية، فلا تخفي أن سوق المناطق المحتلة توقف عن استهلاك منتجاتها تماما. إذ أعلن تجار المواد الكهربائية عن تباطؤ شديد في المبيعات يتجاوز الـ 30٪ في فبراير،وعزا بعضهم ذلك إلى توقف سكان المناطق المحتلة عن شراء الأدوات الكهربائية المستعملة من العائلات اليهودية، (اليوم السابع).

ومن المتوقع أن ينقص حجم ما يستهلك من بضائع اسرائيلية في الضفة الغربية مع تصاعد العصيان المدني ومع تزايد المقاطعة الاقتصادية وتنامي القطاع الاقتصادي العربي الموازي والمستقل (انظر الفصل الخامس).

وقدّر جاد يعقوبي وزير الاقتصاد والتخطيط «المعراخي» في 23 فبراير، أي في منتصف

الشهر الثالث للانتفاضة، مجمل تكلفة الأحداث بنصف مليار دولار تشمل المحاور الخمسة المذكورة أعلاه، لكنه لم يقدم تفاصيلا عن طبيعة الخسارة وحجمها في كل مجال على حدة. أما الناطقون باسم وزارة المالية فقالوا: إنهم لا يملكون من المعطيات ما يؤهلهم لتأكيد أو نفي ذلك. (اليوم السابع).

وقد جاء في وول ستريت جورنال، القبس 13 يونيه 88: أن مجمل تكاليف الانتفاضة حتى شهر مايو (التي تتجسد في ضياع الفرص الاقتصادية وانخفاض معدلات السياحة وزيادة النفقات العسكرية) أصبحت قريبة من الرقم 700 مليون دولار وذلك استنادا لمصادر في وزارة الاقتصاد الإسرائيلية.

وفي سبيل تغطية هذه التكاليف ستعمل إسرائيل على تقليص الخدمات أو رفع معدلات الضرائب الأمر الذي سيؤثر على المستوطنين مكيفي الهواء. ولكن كما هو معروف سيرسل أعضاء الاقتصاد التسولي الإسرائيليين بهذه الفاتورة إلى الولايات المتحدة فهناك افتراض دائم لدى الإسرائيليين بالذهاب إلى الولايات المتحدة والحصول على المزيد متى دعت الحاجة إلى ذلك «ولم يحدث أبدا أن خيبت الولايات المتحدة أملهم» (وول ستريت جورنال، القبس 12 يونيه 88). وقد تؤدي زيادة تكلفة الآلة الصهيونية القتالية إلى دراسة جدواها من قبل الراعي الأمريكي في المستقبل البعيد. ولكن في المستقبل القريب ستؤدي هذه التكلفة إلى تزايد اعتماد الآلة الصهيونية المذل (العسكري والسياسي والاقتصادي) على الولايات المتحدة.

ازدواج الـولاء

ويرى الصهاينة أن مظاهر مرض الشخصية اليهودية انقسامها على نفسها وازدواج ولائها نظرا لعدم الانتماء العضوي لدولة يهودية ذات سيادة. وقد طرحت الصهيونية نفسها على أنها ستشفي هذا المرض فيما ستشفي من أمراض. ولكن الدولة الصهيونية قامت بتجنيد جوناثان بولارد ليتجسس على الولايات المتحدة لحساب وطنه، وهي بذلك لم تساهم في تقويم الشخصية اليهودية وإنما في تعميق ازدواجيتها. وقد كان رد فعل الدولة الصهيونية للغضبة الأمريكية مظهرا آخر من مظاهر تآكل السيادة والتراجع غير المنظم.

وقد ادعت الصهيونية أن يهود العالم معرضين دائما للبوجروم (الهجمات) والهولوكوست (المحرقة) وأن يهود العالم لا يمكنهم أن يشعروا بالأمن إلا في وجود دولة يهودية ترفع رأسهم عاليا وتزودهم بالحماية. ولكن دلت الاحصائيات مؤخرا أن احساس أعضاء الجماعات اليهودية بعدم الأمن قد ازداد وتعمق بعد ظهور دولة إسرائيل. وقد ثبت أن الانتفاضة بفضحها ادعاءات الكيان الصهيوني الديموقراطية جعلت يهود العالم يشتكون من أن الدولة الصهيونية بسلوكها قد زادت من مشاعر معاداة اليهود ضدهم (انظر الفصل السابع).

بل إن أمن الدولة الصهيونية ذاته مهدد مما يضطرها إلى إرسال اشارات ليهود العالم عن أنها «مهددة بالفناء» وتطلب منهم التبرع لها والالتفاف حولها والضغط على حكوماتهم لمساندتها

ومؤازرتها والدفاع عنها. ويعرف كل اعضاء الجماعات اليهودية في الغرب أن الدولة التي كانت ستضمن أمنهم أصبحت معتمدة تماما في أمنها على الولايات المتحدة وعليهم!.

انقســام المجتمع الاسرائيلي

وتآكل السيادة الاقتصادية وإبتعاد يهود العالم عن الدولة الصهيونية يواكبه انقسام عميق في المجتمع الاسرائيلي، وهو مجتمع - كما اسلفنا يعاني من تآكل سيادته السياسية بسبب الدعم الأمريكي، وقد عمقت الانتفاضة من معدل التآكل اذ قسمت المجتمع الاسرائيلي على نفسه، فاندلعت المظاهرات التي نظمتها حركة «السلام الان» ضد الاحتلال ونشرت الصحف عشرات العرائض ضد اجراءات القمع. وقد اتخذ الكيبوتس القطري قرارات حول الوضع في المناطق المحتلة أنه لا يوجد سوى حل سياسي للصراع الاسرائيلي الفلسطيني وضرورة الاعتراف المتبادل بين الفلسطينيين والاسرائيليين (عل همشمار 25 يناير 1988، الملف 48).

ووقع 620 أستاذا جامعيا، عريضة بعنوان : «إن استمرارنا في السعي لفرض هيمنتنا على الاراضي المحتلة يهدد اسرائيل بخطر جدّي» (الهيرالد تربيون» يناير، الشرق الاوسط «القلق على الوجود» 3 يونيه 1988). وانضمت لحركات الاحتجاج مجموعة كبيرة من الادباء والمفكرين. وقد نشطت جمعيات السلام مثل «هناك حدود (ييش جيفول)» وظهرت حركة «العام الحادي والعشرون ضد الاحتلال» وهي جمعيات صغيرة ولكنها نشطة وتبين عمق الانقسام في المجتمع الصهيوني (نيوزويك، ميلان كوبيك، الانتفاضة اوجدت جيلا اسرائيليا جديدا يعارض استمرار الاحتلال «القبس»). وكلما ازدادت الانتفاضة نشاطا كلما اكتسبوا هم قسطا اكبر من الحياة والحركية، فتحرك المنتفضين يعطي شيئا من المصداقية لمنطقهم فهم يقولون ان لا جدوى من الاحتلال ولا بد من الانسحاب. ولكن حركة «السلام الآن» الاسرائيلية تواجه ورطة حقيقية هذه المرة،فالانسحاب من لبنان كان انسحابا من ارض غريبة، كما أن اللبنانيين لا يتحدون شرعية الوجود الاسرائيلي، وانما يتحدون شرعية الاحتلال الاسرائيلي. أما الانسحاب من الضفة فهو انسحاب امام الفلسطينيين الذين يتحدون بوجودهم الوجود الاسرائيلي ذاته. ولذا اعتقد ان حركات السلام الاسرائيلية رغم دلالتها على مدى انقسام المجتمع الاسرائيلي لن تكلل جهودها بكثير من النجاح.

وقد انعكس الانقسام على النخبة الحاكمة ذاتها ويتضح هذا فيما يطلق عليه اسم حكم الرأسين في اسرائيل، فلكل حزب رؤية خاصة لكيفية حل الصراع والقضاء على الانتفاضة، فرابين وزير الدفاع، أداة حكومة الرأسين في التعامل مع الانتفاضة يتفق مع بيريس فهو يؤيد اجراء انتخابات للادارة الذاتية الفلسطينية في اطار المبادرة الامريكية. كما أنه على استعداد لتأييد جدول زمني مقلص للفترة الانتقالية (دافار 11 فبراير 1988). أما جاد يعقوبي وزير

الاقتصاد والتخطيط فيؤيد مبدأ «الاراضي مقابل السلام» (هآرتس 15 فبراير 88) ويطالب باجراء مفاوضات مع تمثيل فلسطيني من المناطق يعترف باسرائيل (يديعوت احرونوت، 31 يناير 1988، الملف 41).

ومن يقرأ محاضر جلسات مجلس الوزراء الاسرائيلي سيرى تجسيدا لهذا الخلاف، فبينما يرى فريق ان الحل هو حل عسكري قمعي إجرائي وحسب، يرى الآخر أن الحل عسكري وسياسي. ولا شك ان في الدول الديموقراطية نرى تحالفات بين الاحزاب المختلفة، ولكن التحالف يفترض اتفاقا على الخطوط الاساسية، أما في اسرائيل فنجد ان بيريس يصف نظرية الليكود السياسية بأنها «افلست برمتها» وان المحافظة على الوضع الراهن كارثة ثقيلة، لانه لا وجود لوضع راهن (على همشمار 15 يناير 1988، الملف 48). ثم لخص الموقف بعد اسبوع واحد بقوله «ان من يقول بعدم وجود شيء ملح، ومن ينادي باستئناف الاستيطان، ومن يؤكد للعرب أنه لن يتخلى عن اي شبر من الارض، ومن يتطلع الى الضم، ومن يتجاهل السكان، ويقترح عليهم حكما ذاتيا دون مياه او ارض، إنما يقود اسرائيل، عمدا، الى فقدان امكانية السلام في المنطقة كلها (هآرتس، 21 يناير 1988).

ان زعيم حزب ما لا يمكنه ان يتحالف مع زعيم حزب آخر ان كان هذا الاخير مفلسا ويؤدي الى كارثة ويضيع إمكانية السلام في هوّة واسعة. ولعل هذا يفسر بعض السمات الخاصة لحكم الرأسين في إسرائيل حيث يقوم رئيس الوزراء بمناقضة وزير خارجيته ثم العكس، ويرسل كل بمبعوثيه الخاصين دون استشارة الآخر، بل لا يطلع الواحد منهما الآخر على المعلومات الهامة بخصوص أمور مركزية في السياسة الاسرائيلية (الشرق الأوسط ترجمة لمقال حكم الرأسين «الأئتلاف» في هارتس 27 مارس 1988). ولكن لعل الفريقين يراهنا على التدخل الامريكي الذي يحسم الامور «في نهاية الأمر».

وقد وصل الانقسام الى داخل الليكود كما حدث في قصّة موشيه عميراف الذي طالب بالاعتراف بمنظمة لتحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للفلسطينيين، وكما حدث حين أرسل اثني عشر عضوا من حيروت يطلقون على أنفسهم إسم «منبر التقاسم» برسالة الى شامير يطلبون فيها الدخول في حوار مع الفلسطينيين ومحاولة الوصول لحل وسط (يديعوت احرونوت، يناير 1988، الملف 48).

ونحن هنا لا نؤيد فريقا ضد الآخر فاطارنا المرجعي مختلف تماما عن كليهما، فالحل السلمي سيفرضه العرب من خلال اشكال الكفاح المختلفة، ولكن مع هذا من الهام للغاية رصد الانقسامات داخل النخبة وداخل التجمع المغتصب كمؤشر على استجابة التجمع الصهيوني للمنتفضين وجهادهم،وهي انقسامات لا بد من الاستفادة منها حتى لو رأينا أنها لا تعبر عن خلافات جذرية.

السيادة من خلال هيئة الامم

حسب معلوماتي تكاد تكون الدولة الصهيونية هي الدولة الوحيدة التي خلقت بقرار من هيئة الامم. ومن البداية كان الصهاينة يتحدثون عن تأسيس دولة يضمنها القانون العام او القانون الدولي باعتبار ان «الشعب اليهودي» شعب عالمي، وكلمة «دولي» هنا ـ كما اسلفت ـ تعني «غربي»و«قانون» تعني في واقع الأمر «قوة السلاح». ولكن مع هذا يظل قرار هيئة الامم بتقسيم فلسطين هو احد مصادر الشرعية للدولة الصهيونية على الاقل في علاقتها بكثير من دول العالم (ومن هنا خوفهم من عرب الجليل الذين يتكاثرون، فالجليل ليس جزءا من «الدولة اليهودية» حسب قرار التقسيم) وقد نجحت الانتفاضة في فرض القضية على العالم مرة أخرى وبدأ شولتس يتحرك على الطريقة المكوكية وغير المكوكية وبدأ الحديث عن المؤتمر الدولي، واستيقظ ضمير العالم الذي ينام ولا يصحو إلا على صوت المدافع وانهار الدماء. وقد أصبح واضحا للجميع ان المنطق الاسرائيلي يترك الامور على ما هي عليه يدل على ضيق أفق الاسرائيليين وأنه لا بد من وجود حل. ولا يهمنا الدخول في التفاصيل بخصوص موقف الدول الغربية ولكن ما يهمنا رصده هنا هو ان الانتفاضة ـ حسب المصطلح الشائع ـ قد نجحت في «تحريك الموقف». وهو مصطلح بذيء للغاية لأنه يتحدث عن الحركة كما لو كانت شيئا ايجابيا في حد ذاته، دون تحديد الاتجاه، كما انه يفترض ان الجماهير تحرك المواقف ثم تقوم الدول (عادة العظمى) بتسويتها والهيمنة عليها. ومع هذا فالمصطلح يصف جانبا هاما من الموقف الدولي من الانتفاضة.

اذا ما قارنا كل هذا بالموقف الفلسطيني فاننا سنجد أنه على الرغم من كثير من المحاولات الرامية للقضاء على النخبة الفلسطينية القائدة واحلال محلها قيادات اكثر مرونة وتأقلما، وهي محاولات تشارك فيها بعض الدول العربية، إلا ان القيادة في الخارج قد صمدت واثبتت مقدرتها على دعم الداخل وتوجيهه (انظر الفصل الخامس).

وقد اكتسبت منظمة التحرير الفلسطينية شرعية عالمية عبر السنين كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني واصبح لها سفارات ومندوبين وممثلين في كل دول العالم تقريبا ـ اي ان المصير الفلسطيني لم يعد نسيا منسيا يغطيه التراب كما كان يتمنى الصهاينة وإنما اصبح أمرا يناقش في المحافل الدولية، واصبحت المنظمة هي الكيان السياسي الذي يتحدث عن هذا المصير وتتخذ القرارات باسمه ومن اجله ويساندها في هذا الكتلة البشرية الفلسطينية داخل وخارج الارض المحتلة، واصبحت عبارة «الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني». مقولة ثابتة تقابل بها كل محاولات عزل النخبة القائدة او ضرب المنظمة التي تشكل اطار التماسك وسبيل البقاء.

الفصل الرابع

الأزمة السكانية والأكذوبة الاستيطانية

من أهم أسباب (ومظاهر) تآكل الشرعية الصهيونية الازمة السكانية العميقة التي تجعل من المشروع الصهيوني اكذوبة عقيمة دخلت في طريق مسدود. فمنذ ظهور الحركة الصهيونية وهي تعاني من ازمة سكانية تتهددها في الصميم. فالمشروع الصهيوني مشروع استعماري وعد ـ كما اسلفنا ـ بتقديم المادة البشرية المطلوبة للاستيطان والقتال.

موت الشعب اليهودي

ولكن منذ عام 1882 حتى الوقت الحالي حدثت التطورات التالية :

1 ـ استؤنف التحديث المتوقف في شرق أوروبا عام 1917 (عام توقيع عقد بالفور) مما ادى الى فصل الكتلة البشرية اليهودية الضخمة في روسيا عن المشروع الصهيوني، اذ ان المجتمع السوفيتي الجديد الذي جرّم معاداة اليهود فتح امامهم فرص الحراك الاجتماعي. وقد كان هناك مفكرون يهود كثيرون تنبّؤوا بذلك وراهنوا عليه وانخرطت اعداد كبيرة من الجماهير اليهودية (اليديشية) في صفوف الاحزاب الثورية الاشتراكية في روسيا وغيرها.

2 ـ قام هتلر بإبادة أعداد كبيرة من الكتلة البشرية اليهودية في بولندة ووسط أوروبا (ضمن من اباد من اقليات وكتل بشرية أخرى).

3 ـ ظهر ان الولايات المتحدة تشكل نقطة جذب لا تقاوم بالنسبة للمهاجرين اليهود من أوروبا ومن كل انحاء العالم. وقد بدا هذا الاتجاه في الاتضاح مع تعثر التحديث وتوقفه في

شرق أوروبا. وقد رصده المؤرخ الروسي اليهودي دوبنوف وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها. وقد تزايد الاتجاه بعد الحرب العالمية الثانية. ومن المعروف ان بضعة الالاف التي اتجهت الى فلسطين للاستيطان فعلت ذلك لان أبواب الولايات المتحدة كانت موصدة دونها. بل انه يمكن القول ان الولايات المتحدة كانت ولا تزال منذ أواخر القرن التاسع عشر هي مركز الجذب الحقيقي لاعضاء الجماعات اليهودية. ولذا بينما هاجر بين 1882 وثلاثينيات القرن الحالي ما يزيد عن اربعة مليون يهودي استقرت غالبيتهم الساحقة في الولايات المتحدة، لم يستوطن سوى اقل من 700 الف يهودي في فلسطين، بما في ذلك ضحايا الابادة النازية الذين اوصدت دونهم ابواب الولايات المتحدة. ولم يزد عدد المهاجرين اليهود الذين هاجروا من الولايات المتحدة الى الدولة الصهيونية عن 2500 مستوطن كل عام. ومنذ ان فتحت ابواب الولايات المتحدة منذ الستينات والهجرة اليهودية تتجه اساسا نحو المنفى البابلي الجديد اللذيذ (او اي منفى لذيذ اخر بعيدا عن النضال في ارض الميعاد).

وقد تكرس هذا الوضع في الأونة الاخيرة «فحتى حينما تنشأ ضائقة يهودية في اماكن مختلفة مثل ايران والأرجنتين والاتحاد السوفياتي، وعلى الرغم من ان الاحداث المحلية تسبب هجرة من بلد المنشأ الى البلدان الاخرى، فان معظم المهاجرين اليهود يفضلون الاستقرار في منفى جديد بدلا من الهجرة الى دولة اسرائيل، اذ ان قوة الجذب التي تتمتع بها دولة اسرائيل ليست كافية لحمل اليهود على الهجرة»(على حد قول ناحوم سولن). بل ان يهود جنوب افريقيا المشهورون بانهم صهاينة جيدون لا يتجهون الى اسرائيل الان اذ هاجر منهم 4000 عام (1985) ولكنهم لم يستقروا في اسرائيل (مقال رندة شراره في نشرة المؤسسة، مرجع سبق ذكره). وقد صدر مؤخرا كتاب للمؤرخ الصهيوني هوارد ساخار عن الدياسبورا اي اعضاء الجماعات اليهودية في العالم، ولا يضم فصلا عن الولايات المتحدة او كندا، وكأنهما وطن قومي اخر لليهود، وكأن لليهود عدة اوطان قومية - مما يحول المصطلح الى لغز او نكتة !

4 - يلاحظ التناقص المستمر في اعداد اعضاء الجماعات اليهودية في العالم (خارج اسرائيل) ويتوقع ان يصل عددهم الى 9 ملايين عام 2000 والى 8 ملايين عام 2015. وتتحدث ادبيات علم الاجتماع التي تتناول هذه القضية عن «موت الشعب اليهودي» اي اختفاء الجماعات اليهودية او اعداد كبيرة من اعضائها للاسباب التالية «التي ذكرها البروفسور روبرت باكي الخبير في الشؤون الاحصائية والسكانية في محاضرة القاها في تل ابيب» :

أ - قلة الانجاب لدى العائلات اليهودية اذ تبلغ نسبة الولادة بين النساء اليهوديات 6،1 فقط في الألف (نشرة مؤسسة الدراسات سنة 14 عدد 11، نوفمبر 1987).

ب - كثرة وقوع الطلاق وتفسخ الاسرة اليهودية.

جـ - بلوغ عدد كبير من اليهود سن الشيخوخة من الاجيال القديمة مما زاد في نسبة الوفيات بين اليهود.

د ـ الزواج المختلط والاكثار منه خلال السنوات الاخيرة ولا سيما زواج الفتيات اليهوديات من غير اليهود، وقد كان الزواج المختلط في الماضي يكاد يكون قاصرا على الذكور (هآرتس 19 اغسطس 1987).

ويبدو ان الزواج المختلط في الاتحاد السوفياتي مرتفع بشكل عال. وقد توفرت اخيرا الاحصائيات بخصوصه، اذ نشرت هارتس (21 اكتوبر 1987) ان ما بين 40 و50 ٪ من كل الزيجات اليهودية في الاتحاد السوفياتي مختلطة وتصل النسبة في بعض المناطق الى 80 ٪. والاهم من هذا ان 90 ٪ من اولاد المتزوجين زواجا مختلطا يعرفون انفسهم بانهم غير يهود (حسب تقرير قدم للمؤتمر العالمي للديموغرافيا اليهودية) (نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية سنة 14 عدد 11 نوفمبر 1987).

5 ـ بعد ان قامت الدولة الصهيونية بتهجير ما امكنها تهجيره من يهود الشرق (وهم على اية حال كانوا اقلية لا تتجاوز 10 ٪ من يهود العالم)، لم يبق سوى جيوب يهودية متفرقة في امريكا اللاتينية واستراليا وجنوب افريقيا وايران. ويلاحظ ان اعضاء هذه الجماعات اليهودية اخذين في الاندماج، وحينما يهاجرون فانهم عادة ما يهاجرون اساسا الى الولايات المتحدة.

6 ـ يبقى بعد ذلك الاحتياطي البشري الوحيد للكيان الصهيوني في الاتحاد السوفياتي. وتشير الدلائل انه لو فتح باب الهجرة فان ما يزيد عن مائتي الف يهودي سيتركون الاتحاد السوفياتي بسبب مجموعة من العناصر خاصة بالمجتمع السوفياتي. (في تقرير اخر يقال ان العدد سيصل الى 400 الف) ولكن لا يتوقع ان يهاجر منهم الى اسرائيل سوى 20 ٪ كما صرح اسرائيل فاينبلوم المهاجر السوفياتي المقيم في اسرائيل (30 افريل 1987 الجيروساليم بوست)، الذي بين ايضا انه ضمن الـ 63 الف مهاجر سوفياتي الذين استقروا بالفعل في اسرائيل حضر 6 ٪ منهم وحسب بسبب الدوافع الدينية او النفسية اما الاخرون «فقد وجدوا انفسهم في اسرائيل»، على حد قوله. وبالفعل تدل اخر الاحصائيات على صدق توقعاته، اذ بلغ عدد المهاجرين في يناير 1988 (722) مهاجر لم يصل منهم الى اسرائيل سوى 210 اي 29 ٪ من المجموع الكلي (الجيروساليم بوست 4 فبراير 1988). اما في شهر مارس من نفس العام فقد غادر الاتحاد السوفياتي الف لم يهاجر منهم الى اسرائيل سوى 19 ٪ (على همشمار 25 ابريل 1988).

أما في شهر أبريل فقد غادر الاتحاد السوفياتي 1088 وصل منهم الى اسرائيل 180 مهاجر فقط اي 18 ٪ (هارتس مايو 1988 نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية عدد 5 مايو 1988) وقد سمي شهر مايو شهر «الذروة في التساقط» فقد غادر الاتحاد السوفياتي في هذا الشهر 1169 يهوديا وصل فيهم الى اسرائيل 110 فقط اي 9،9 ٪ (هارتس 1 يونيه 88 نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية عدد 6 يونيه 1988). ولعل تزايد معدل التساقط هو احد نتائج الانتفاضة، فمن المعروف ان دوافع هجرة اليهود السوفييت ليست دوافع عقائدية وانما

هي تعبير عن رغبة في الحراك الاجتماعي الذي لا يمكن تحقيقه في ظروف الانتفاضة.

ولوقف التساقط تحاول اسرائيل الان ان يكون خروج المهاجرين السوفييت عن طريق بوخارست حتى تحكم قبضتها عليهم.وقد اضطر هذا الموقف الرئيس ريجان ان يحتج على موقف اسرائيل الذي لا يعترف بحق اليهود السوفييت ان يستقروا في اي بلد يشاؤون، وان كان من الملاحظ انه نشر خبر في 10 يوليه 88 (القبس) مفاده ان الازمة الاقتصادية ستضطر الولايات المتحدة الى خفض عدد اليهود السوفييت الذين سيسمح لهم بالهجرة لامريكا،ولعل المؤسسة الامريكية كشأنها دائما قررت هنا التعاون مع الصهاينة.

وقد كان بن جوريون مدركا لابعاد الازمة السكانية حتى قبل اعلان الدولة فقد طالب المستوطنين اليهود عام 1943 ان يؤدوا واجبهم السكاني مؤكدا ان 2،2 طفلا لكل اسرة ليس كافيا وان تعداد اليهود في فلسطين وفي البلدان الاوروبية على حد سواء يواجه حالة من الفساد السكاني والاخلاقي (الكسندر شولن واخرون، ترجمة محمد هشام، الفلسطينيون عبر الخط الاخضر دار الفكر القاهرة 1981).

حلم طائش

لكل هذا يمكن القول ان مصادر الطاقة البشرية للمستوطن الصهيوني آخذة في النضوب. وقد لخص يهودا باور الموقف السكاني (في الجيروساليم بوست 4 فبراير 1982) في مقال بعنوان «الصهيونية نحو ايديولوجية واقعية» على النحو التالي: «لا توجد جماهير يهودية تدق بواباتنا بل العكس فغالبية اليهود السوفيت تدق على بوابات امريكا. اما يهود آسيا وافريقيا فهم اما هنا في اسرائيل او في فرنسا. ولم يبق سوى بقايا صغيرة منهم، ولن ياتي يهود الغرب لا الان ولا في المستقبل القريب، اللهم الا اقلية صغيرة».

وخلاصة القول انه بعد ما يزيد عن مئة عام من الاستيطان الصهيوني لم يهرع إعضاء «الشعب اليهودي» لوطنهم القومي المزعوم وآثرت اغلبيتهم البقاء خارج حدود ارضه دون ان يحرك ساكنا، منفيا بارادته متمتعا بمنفاه. او لعل اعضاء هذا الشعب، اذا ما نفضنا غبار القول الصهيوني، ليسوا اعضاء فيه وانما هم بشر عاديون يعيشون في اوطانهم الفعلية ينتمون اليها، لا يفكرون في الهجرة لانه ليس هناك ما يدعو لذلك. وحتى حينما يفكرون في ترك اوطانهم فهم كبشر يدرسون البدائل والفرص وتتجه غالبيتهم نحو الولايات المتحدة، مما يدل على انهم ابناء عصرهم، وان حساباتهم دقيقة وسليمة، فمن ذا الذي يترك الامن في الولايات المتحدة والمستوى المعيشي المرتفع،ويشيد بيته بجوار البركان في الضفة الغربية والجولان والنقب؟ ويبدو ان هذه الازمة اخذة في التفاقم فقد بلغ معدل الهجرة الى اسرائيل الى ادنى مستوى له عام 1985 اذ وصل 11،298 مهاجر وحسب، بانخفاض 14٪ عن العام الذي سبقه (حينما وصل 19،330؛ كان من بينهم 7،807 يهودي اثيوبي). وقد ذكر يعقوب تسور

ان الرقم لعام 1985 كان في الواقع 716،10 وحسب (هارتس 10 يونيه 1986 «الهجرة والوضع الديموغرافي» اعداد رنده شرارة، نشره مركز الدراسات الفلسطينية).

وقد بلغ تراجع الصهيونية في مجال الهجرة انها اصبحت لا تضمن اعلاناتها عن الهجرة اي حديث عن ارض الميعاد او عن ارض الاجداد بل تتحدث الاعلانات الان عن البيت الرخيص الثمن الملحق به حمام سباحة وعن طريقة الدفع بالتقسيط المريح. كما تطرح مشروعات عديدة عن تحويل اسرائيل مجال للاستثمار من قبل يهود العالم بحيث يحضرون لإسرائيل عدة شهور لتفقد استثماراتهم. وقد طالب يهودا باورفي المقال الذي اسلفنا الاشارة اليه،بتبني سياسة واقعية في الهجرة وهي مطالبة يهود العالم بهجرة 5، 0 ٪ وحسب منهم - اي 28 الف من الولايات المتحدة (التي لا يزيد عدد المهاجرين منها في الوقت الحالي عن 2500 سنويا) و1600 من انجلترا و2500 من فرنسا، وهو يسمى ما ينادي به «حلم طائش يمكن تحقيقه». ونحن نتفق معه في الوصف، وان كنا نختلف معه في تمنياته بخصوص امكانية التحقق، اذ ان كل المؤشرات تدل على العكس.

خروج صهيون

ومما يزيد من حدة المشكلة السكانية عدة عناصر اساسية من اهمها تزايد اعداد النازحين في الاونة الاخيرة. وقد بلغ عددهم 882،17 عام 1984 ويتراوح عدد الاسرائيليين الذين هاجروا من اسرائيل (أو «ارتدوا عنها» حسب الاصطلاح الصهيوني) الى الولايات المتحدة اساسا (وغيرها من البلدان) ما بين 400 و500 الف (وفي بعض التقديرات او التخمينات يصل الى 700 الف).وحسب ما جاء في مجلة كوتيريت راشيت (الحقائق تتحدث 2 فبراير 1981) هاجر في السبعة اعوام الماضية 100 الف من بينهم 35 الف بين 20 - 30 وقد جاء في هارتس ان 19 ٪ من الشبان الذين تتراوح اعمارهم بين 18 - 29 سنة يرجحون نزوحهم عن اسرائيل (16 ديسمبر 1986). ومعدل النازحين من بين ابناء الكيبوتسات التابعين لاكبر حركتين (الحركة الكيبوتسية الموحدة والكيبوتس القطري) في فئة العمر 25 - 45 هي 6 ٪ في المتوسط، وهذا المعدل يساوي معدل النزوح لهذه الاجيال في المجتمع الاسرائيلي. (هارتس 16 ابريل 1986 نقلا عن رندة شرارة، في نشرة المؤسسة الفلسطينية). وهذا يدل على ان مؤسسة الكيبوتس لم تعد بمنأى عنه، وان النخبة نفسها بدات تنجرف نحو النزوح. وقد ذكر مراقب الدولة انه يوجد في الولايات المتحدة حوالي 32 الف اكاديمي و8000 مهندس (هآرتس 3 يونية 1986). وفي دراسة أصدرتها الأكاديمية الوطنية للعلوم في إسرائيل أن 1800 عالم إسرائيلي قد غادروها الى الولايات المتحدة خلال العشرة اعوام الماضية وان جميعهم يعملون في المجالات العلمية والتكنولوجية. وفي الفترة الاخيرة بلغ معدل هجرة العلماء 200 كل شهر (الرياض 30 سبتمبر 1987).

وقد تحدثت احدى الصحف الاسرائيلية عن «خروج صهيون» (عل همشمار 5 افريل 1987 نقلا عن الملف). وكلمة «الخروج» في الوجدان الديني اليهودي تشير عادة الى «الخروج من مصر» والدخول الى صهيون اي ارض كنعان/فلسطين . ولذا فالعبارة تحمل قدرا كبيرا من السخرية النابعة من الاحساس بمفارقة الموقف. وتضيف المقالة ان عدد النازحين سيبلغ بعد 12 سنة 800 الف اسرائيلي. ويطلق على هؤلاء اسم اصطلاح «الدياسبورا الاسرائيلية»، وهذه مفارقة لفظية اخرى تسبب الكثير من الحرج للصهاينة، لان الدياسبورا كانت دائما امريكية او روسية، اما ان تكون اسرائيلية ! مصدرها مادة بشرية من ارض الميعاد اي صهيون فهذا ما لا يقبله منطق القول الصهيوني.

وحتى ننقل للقارىء العربي كيفية استجابة الوجدان الاسرائيلي لهذه الارقام الصماء سنقتبس كلمات بتسيلئيل عميكام صاحب مقال عل همشمار الذي أسلفنا ذكره اذ قال تعليقا على رقم 800 الف المتوقع : «اذا وضعنا في الاعتبار ان عصبة الامم قد قررت الاعتراف بحق اليهود في ان تكون لهم دولة خاصة بهم في الوقت الذي كان عدد المستوطنين في البلاد يقدر بحوالي 600 الف، فاننا سنفهم المغزى الكامل لهذه المعلومة المفجعة».

ومن التطورات الهامة ان قرار النزوح اصبح مقبولا اجتماعيا فيظهر على التلفزيون الاسرائيلي بعض النازحين ليتحدثوا عن قصص نجاحهم في الولايات المتحدة، كما تظهر في الصحف الاسرائيلية اعلانات عن اسرائيليين يودون بيع شققهم استعدادا للهجرة، وهذه امور كانت تتم في السر في الماضي. وكما يلاحظ انه نوعية النازحين نفسها قد تغيرت، فمن بينهم ابناء الكيبوتسات والمهندسين بل والضباط والخبراء والعسكريين.

ونضوب مصادر طاقة المستوطن الصهيوني البشرية وظاهرة النزوح يشكل تحديا خطيرا للشرعية الصهيونية. فانصراف اليهود عن الكيان الصهيوني يعني في واقع الامر ان هذا «الشعب اليهودي» لا وجود له،وأنه إن وُجد فإنه لا يود الانصياع للمثل العليا الصهيونية، ويؤثر الحياة في المنفى البابلي اللذيذ، حيث المستوى المعيشي المرتفع. وهو يشكل ايضا ضربة في الصميم لمقدرات المشروع الصهيوني القتالية، فالمواطن اليهودي حينما يحضر الى فلسطين المحتلة يتحول الى مستوطن يحمل السلاح، اي انه يصبح مادة قتالية، اما حينما ينزح عنها فهو يتحول مرة اخرى الى مواطن يهودي عادي في بلد اخر، يخصم من احتياطي الكيان الصهيوني القتالي !

المرأة النفوض

يقابل هذا الانكماش «اليهودي» تمدد عربي فلسطيني، فالفلسطينيون قد ادركوا الطبيعة الاحلالية للغزوة الصهيونية ولذلك نجد الاف الشباب الفلسطينيين الجالسين ملتصقين بالارض لا يبرحونها. بل ان الالاف الاخرى التي اضطرتها العوامل الاقتصادية للهجرة تعود

كل عام للمساهمة في الحصاد ولتثبيت العناصر البشرية التي بقيت ولتزويدها بالعون المادي والمعنوي. ويبدو ان الفلسطينيين منذ بداية الغزوة الصهيونية وهم مدركون، ربما بشكل غريزي غير واع تحول بعد ذلك الى شكل واعي، انها غزوة سكانية استيطانية احلالية، ولذا تصل معدلات الانجاب بينهم الى اعلى معدلات في العالم. فالمراة الفلسطينية «امراة نفوض» كثيرة الاولاد تلد الجند والشهداء والاغاني. ويبلغ عدد سكان فلسطين المحتلة 4 مليون من بينهم 750 الف عربي. فقد زاد اليهود بمعدل 2 ٪ في العقد الماضي بينما زاد العرب بمعدل 4 ٪، وان استمرت معدلات الزيادة على ما هي عليه ـ وهو امر متوقع ـ فسيكون عدد العرب عام 2000، 22 ٪ من مجموع السكان (بالمقارنة الى 17 ٪ في الوقت الحالي) وتضم الاراضي التي احتلت بعد عام 1967، 1،250.000 عربي في مقابل 60 ـ 70 الف اسرائيلي على احسن تقدير. فاذا حسبت الاراضي المحتلة فان نسبة العرب ستزيد الى 36،4 ٪ مما يعني انه مع استمرار المعدل الحالي في الزيادة فان عدد اليهود وعدد العرب سيكون متساويا عام 2015 (جرشوم شوكن «نظرة جديدة الى الصهيونية» (هارتس 10 سبتمبر 1980 نقلا عن نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية فبراير 1988). (وقد ظهرت احصاءات عام 1981 وهي لا تختلف كثيرا عن تلك التي اوردناها (انظر دافار 20 ابريل 1988 نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مايو 1988 وعميرام كوهين، «ما الذي سياتي به عام 2010 عل همشمار 20 اكتوبر 1987 الملف 46 يناير 1988).

ويمكننا هنا ان نتوقف قليلا لنقارن بين الموقفين الفلسطيني والاسرائيلي واليهودي من معركة الانجاب والاستمرار والبقاء. فالعدو الصهيوني لم يأل جهدا في استصدار القوانين لتشجيع المستوطنين الصهاينة على الانجاب. ولا يكف المسؤولون عن حث المواطنين على الانجاب، بل واقترح احد اعضاء الكنيست بان يعلن عن «عام خاص للانجاب». وقد قوبل الاقتراح بطبيعة الحال بالاحتجاج وبالسخرية، واقترح احدهم على رئيس الوزراء (وكان بيريس أيامها) ان يذهب الى منزله فورا ويبدا في تأدية واجبه الوطني! وفي احدى الحملات التي قادها حزب الليكود للتشجيع على الانجاب اجاب احد المستوطنين الصهاينة معللا رفضه الانجاب انه يخشى ان يصوت ابنه لصالح المعراخ! وبطبيعة الحال توجد مكافآت سخية للمستوطن الذي ينجب. ومع هذا فثمة عزوف عن الانجاب، وتشكل هذه الظاهرة موضوعة اساسية في الادب الاسرائيلي. كل هذا يقف على طرف النقيض من موقف الفلسطينيين. ولاشك ان الفلسطيني الذي ينجب «اربعة اطفال على الاقل» كما يؤكد معظم اصدقائي من الفلسطينيين يعاني مشقة اقتصادية يزيدها الانجاب حدة، ومع هذا فهم يستمرون فيما هم فيه من خصب وانجاب. واعتقد ان النموذج المادي الاقتصادي قاصر تماما عن تفسير ذلك الوضع، ولابد من العودة لنموذج يمكنه تناول ظاهرة الانسان/السر، انه يقين هادىء يقف على طرف النقيض من القلق واليأس الاسرائيليين.

والمادة البشرية الفلسطينية ليست بدائية او متخلفة (كما كان يروج الصهاينة) وانما هي متقدمة قادرة على اكتساب المهارات اللازمة للاستمرار في العصر الحديث وتحت ظروف القمع والقهر. وعدد الطلبة الفلسطينيين من خريجي الجامعات من الفلسطينيين من اعلى النسب في الشرق الاوسط ان لم تكن اعلاها على الاطلاق. وتوجد الان 7 جامعات عربية محلية في فلسطين المحتلة. وقد حدا ذلك بالاستاذ آرنون سافير استاذ الجغرافيا الاسرائيلي (دافار 25 يوليو 1987) الى القول: «ان السيادة على ارض اسرائيل لن تحسم بالبندقية والقنبلة اليدوية، بل ستحسم السيطرة من خلال ساحتين: غرفة النوم والجامعات، وسيتفوق الفلسطينيون علينا في هاتين الساحتين خلال فترة غير طويلة». وليقارن القارىء هذا القول بالقول الصهيوني حينما كانوا يتحدثون عن طرد العرب البدائيين الذين يشبهون الهنود الحمر. والصهاينة يعلمون ان ازدهار التعليم يعني مزيدا من المقاومة والسخط والوعي السياسي الذي يمكن ان يتحول الى عنف (كما قال هليل فيرعي الباحث في مركز الشؤون العامة الاسرائيلي في مقال نشرته صحيفة وول ستريت جورنال). كما انهم يعرفون تماما ان ضحية العدوان يتعلم من المعتدي، وان المستعمَر يتعلم من المستعمِر كيف يستخدم السلاح والقوة.

دينامية حبلى بالكوارث

وقد بدأ العرب مؤخرا في استخدام الاسلحة «الديمقراطية» المتاحة داخل النظام السياسي الاسرائيلي مثل الاشتراك في العملية السياسية الاسرائيلية. وقد حذر رعنان كوهين، رئيس شعبة الانتخابات في حزب العمل، من ان قوة العرب البرلمانية ستصل الى عشرين مقعدا في الكنيست عام 2000، ولن يكون بالامكان إقامة حكومة بدون أخذ هذه الحقيقة في الحسبان (معاريف 7 سبتمبر 1987 نقلا عن نشرة الأرض). وقد علقت الصحف الاسرائيلية على اعلان حنا سينورة اعتزامه خوض الانتخابات لمجلس بلدية القدس باعتباره نموذجالما يمكن ان يحدث،وباعتباره «ضربة تحت الحزام». فقد تصبح الكتلة العربية بالتدريج هامة للغاية في بلدية القدس. «وحتى الان لم نتكلم عن المستقبل الأبعد، عندما تنجح القائمة العربية في كسب عدد من المقاعد يفوق ما تكسبه القوائم اليهودية» (دالية شحوري «برغماتية فلسطينية» عل همشمار 10 يونيو 1987. الملف 9 يونيه 1987). وقد نبه زئيف شيف ان حركة سنيوره تعني «قيام دولة ثنائية القومية... بحيث تبقى اسرائيل تحمل اسمها، لكنها لن تكون بعد ذلك دولة يهودية» (هارتس 8 يونيه 1987 الملف نفس العدد).

اما تسفي أليليغ في مقاله المعنون «يجب الا ياخذنا الحماس لمبادرة سينورة» (يديعوت احرونوت 8 يونيه 1987، الملف، نفس العدد) فقد عبر عن مخاوفه بشكل مباشر واعمق. فقد عبر عن شكه ان يكون سينورة قد قام بمبادرته «دون استئذان من منظمة التحرير والا اضطر لان يعد لنفسه سلفا مخبأ. ومن يشك في ذلك فليحاول القيام بزيارة لرشاد الشوا في

غزة، ليرى الحراسة الموضوعة حول منزل الرجل، الذي تجرأ وقال : «إن منظمة التحرير الفلسطينية تفرض ارادتها على السكان، بدلا من ان تعبر عن امانيهم». ثم قال الكاتب : يبدو أن المنظمة قررت ان تحول بلدية القدس الى احدى وسائل الصراع، تماما كما فعلت مع المجالس المحلية. واختتم الكاتب المقال بقوله : «يمكن الافتراض ان سينورة أو رفاقه لا يتطلعون للاشتغال بالشؤون الصحية، وخدمات المطافىء البلدية، واذا امرتهم منظمة التحرير الفلسطينية فيحتمل ان يضطر لاشعال حريق، كذلك الذي اشعله بسام الشكعة وكريم خلف بعد انتخابهما لرئاسة بلديتي نابلس ورام الله في سنة 1976».

ويأتي اخيرا عبد الوهاب دراوشه لينشيء حزبا سياسيا يسمى الحزب العربي الديمقراطي الذي يهدف الى تجنيد عرب 48 بعد ان «شحنتهم الانتفاضة» بحيث يمكن ان يخلق مجموعة من الاصوات داخل الكنيست يكون لها وزنا كبيرا (جورج موفيت «الحزب العربي الديمقراطي يدعو لحل الدولتين في فلسطين» كريتيسان ساينس مونيتور» عن القبس 9 يوليو 88).

ونحن لا نتصور ان الديمقراطية الاستيطانية الاسرائيلية (باعتبارها ديمقراطية مقصورة على المستوطنين) ستسمح باستمرار هذه العملية الى نهايتها، فهي ان فعلت افقدت الدولة الصهيونية «هويتها اليهودية» المزعومة، وان لم تفعل فان ادعاءاتها الديمقراطية ستسقط. وبذا تكون الانتفاضة قد ضيقت الخناق على الدولة الصهيونية بشكل غير مباشر.

ويجب ان نضع كل هذه الحقائق في اطار اكبر وهو ان هذه الكثرة الفلسطينية التي بدات تجيد فنون القتال والمراوغة وصلت الى مستويات عالية من الثقافة توجد داخل محيط بشري عربي، يقف وراءها ويناصرها ويشد من ازرها ويعطيها ثقة متزايدة في نفسها يصل الى حد الخيلاء. ولذا حتى حينما كان العرب اقلية عددية في الدولة الصهيونية حتى عام 1967 فانهم كانوا ينظرون للمستوطنين الصهاينة كما لو كان العرب هم الاغلبية والمستوطنون هم الاقلية، كما لاحظ بن جوريون نفسه.

لكل هذا يرى كثير من المتخصصين الصهاينة ان «القنبلة الديمغرافية» (وهو المصطلح الاسرائيلي السائد للاشارة للتكاثر العربي) هي دينامية «حبلى بالكوارث» ستؤدي الى «خراب الهيكل الثالث». (اي الدولة الصهيونية).

يقال ان عرفات يشير للمراة النفوض بأنها «القنبلة البيولوجية»، ولا ادري مدى صحة هذا فمصدره هو الصحف الاسرائيلية. ولكن مهما كان الامر فان من الواضح ان هذه هي الرؤية الصهيونية فقد قال بيريس : «اننا على استعداد للخروج من غزة ليس خوفا من الارهاب هناك وانما من الديموغرافية» (هارتس 19 فبراير 1988 نقلا عن الملف 48).
ويرفض ايبان فكرة الضم من نفس المنظور وان كان قد عبر عن رايه بطريقة اكثر طرافة ودقة، اذ وصف فكرة الضم بانها اسخف ما استطاع عقل يهودي اختراعه.«فنحن لا نضم المناطق [المحتلة] ولكن الفلسطينيين هم الذين يضموننا» (يديعوت احرونوت 12 يناير 1988 الملف 48).

ويلجأ الصهاينة لحل مشاكلهم على طريقة الثعالب والنعام (اي خداع الاخرين وخداع النفس) فقد لاحظ يوسف ميخاليسكي (اسرائيل او دولة ثنائية القومية دافار 29 مايو 1987) ان بعض رؤساء حركة حيروت مثل يورام اريدور يغذون نشاطات حركتهم بمعطيات تتناقض ومعطيات المكتب المركزي للاحصاء فيدعون على سبيل المثال، ان نسبة التكاثر الطبيعي للسكان اليهود تبلغ 2،8 ٪ بينما هي 1،4 ٪ وان التكاثر الطبيعي للعرب آخذ في التضاؤل.

من باريس الى نيودلهي

وقد ادت الازمة السكانية الى طرح قضايا كثيرة كان الصهاينة قد اغفلوها (عن عمد او عن غير عمد). فهي كما بينا تثير وبحدة مشكلة «الشعب اليهودي» ومدى جدية رغبته في العودة كما انها تثير مجددا مسالة الحدود. وقد اكد الصهاينة ان التوسع يقترن بورود مزيد من المستوطنين، وقد بين افنيري في احدى مقالاته («كيف ستكون النهاية» هاعولام هازه 3 سبتمبر 1983) ان التوسعية الصهيونية لا تستند الى ديناميات او مقولات توراتية او غيرها وانما الى قوة اسرائيل العسكرية الذاتية. ولذا حينما سنحت الفرصة لضم الضفة الغربية وسيناء والجولان لم يتوان جيش «الدفاع» الاسرائيلي عن ذلك على الرغم ان بعض المناطق التي ضمت ليست ضمن ارض الميعاد. ولكن الانتصار العسكري المجيد يتحول الى انتشار جغرافي قاتل في غياب المادة البشرية اليهودية. ومع تصاعد الانتفاضة زادت مسالة الحدود حدة. فالمفروض في «المناطق المحتلة» انها كانت تشكل جيبا امنيا معزول السلاح بين الكيان الصهيوني والبلاد العربية، وان سكانها سيشكلون جسرا بين اسرائيل والعرب، وها هو ذا الجسر يتحوّل الى قضيب حديد ساخن لا يمكن للعدو أن يمسك به. ولذا طرح هوشو فاط هاركابي قضية الحدود بشكل درامي للاسرائيليين فقال: يسألني الناس ما هو حجم اسرائيل الذي تريده (وهي مسألة خلافية بين الصهاينة) فاقول من باريس الى نيودلهي! فيجيبون اليس هذا كبيرا للغاية؟ فاقول: «حسنا فلنتحدث اذن بشكل واقعي - ما هو الحجم المطلوب؟» (تايم 4 ابريل 1984). وما يحدد الحجم بطبيعة الحال هو حجم المادة البشرية اليهودية ومدى امكانية تطويع العنصر الانساني العربي، والاول آخذ في التناقص والثاني آخذ في استرداد الحياة وتأكيدها.

الفضيحة الاستيطانية

والازمة السكانية تترجم نفسها الى الفضيحة الاستيطانية. فانكماش المادة البشرية اليهودية يصيب المشروع الاستيطاني الصهيوني بضربة قاتلة، ويبين مدى كذب الادعاءات الصهيونية بخصوص «الشعب اليهودي» وكل النتائج المترتبة على هذه المقولة. ولعل هذا هو الذي يجعل الصهاينة يطلقون «التصريحات المخيفة» عن خططهم للاستيطان حتى لا يظهر

كذب المقدمات واستحالة النتائج. ومع هذا تتعاطى وسائل الاعلام العربية، وبشراهة غير عادية، وبدون دراسة او مراجعة، هذه التصريحات مع انها تهدف الى التمويه والتغطية على العجز والفضيحة. وقد ذكرت مجلة تايم (18 يناير 1983)، ان احد المسؤولين في اسرائيل قد صرح بان الدولة قد بدات مشروعا استيطانيا واسع النطاق بالضفة الغربية المحتلة. وكان من المتوقع انه في منتصف ذلك العام سيكون قد شيد حوالي ستة الاف وحدة سكنية بحيث يستقر هناك ما يزيد عن خمسة وثلاثين الف اسرائيلي، مما سيضاعف عدد المستوطنين اليهود بحيث يصل عددهم الى ما يزيد عن ستين الف. وقالت المجلة ان المسؤولين الاسرائيليين صرحوا بان عدد المستوطنين سيصل الى مئة الف مع نهاية عام 1987 (اي العام الماضي !)، كما انهم يتحدثون بفخر شديد عن العام 2010 حينما ستضم الضفة 1،250.000 مليون يهودي الى جانب 1،6 مليون عربي !

وصاحب هذه التصريحات هو متيتياهو دروبلس (رئيس شعبة الاستيطان في الوكالة اليهودية عام 1982) الذي قال ان الخطة تتضمن ايضا تطوير المستوطنات القائمة وتحويل بعض المستوطنات العسكرية الى مستوطنات مدنية. وقد صرح دروبلس نفسه (2 ديسمبر 1987 الشرق الاوسط) بان هناك خطة «مدروسة» اخرى تستهدف زيادة عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم اربعين في المئة من مجموع السكان العرب في نهاية القرن الحالي. وتفترض هذا الخطة هجرة مليون ونصف مليون يهودي من الاتحاد السوفياتي. وقد نشرت الصحف العربية هذه التصريحات دون ان تشير الى ان دروبلس قد سبق واصدر تصريحات كاذبة في الماضي، ولم تبين انه لا يوجد في الواقع (كأمر قائم وكامكانية) ما يساند تصريحاته الجديدة. فالاتحاد السوفياتي لن يهاجر منه كما اسلفنا سوى 14000 الف يهودي على أسوأ تقدير صهيوني،و 200 ألف حسب أحسنها. ولن يهاجر منهم الى اسرائيل سوى 20 ٪. ولا يزيد عدد المستوطنين في الضفة الغربية في الوقت الحالي عن 60 ألف (وربما 50 ألف).

وحتى تكتمل في اذهاننا صورة «المخطط الاستيطانية الرهيبة» يمكن ان نشير الى ان المخطط الصهيوني كان يهدف لتوطين 30 الف يهودي في الجولان مع عام 1987 ومع حلول عام 87 لم يكن يوجد سوى 7800.ولا ندري كم الف كان ينوي الصهاينة توطينهم في غزة ولكن عدد المستوطنين فيها هو 2500. وكان يهدف الصهاينة الى توطين 400،000 في الجليل مع عام 1982 ومع عام 1985 كان لا يوجد سوى 350.000 (آخذين بالتناقص) («الحقائق تتحدث»، كوتيريت راشيت 3 فبراير 1988).

وقد بين الاستاذ ارنون سوفير ان تزايد السكان العرب في عام وربع في الضفة الغربية يعادل الاستيطان الصهيوني في عقدين. اما بالنسبة لغزة فمعدل التزايد في شهر واحد يقوم بنفس المهمة.

والمستوطنون الصهاينة في الضفة الغربية هم فيها اسيا وحسب، إذ توجد عشرة مراكز مدنية استيطانية، على طول الخط الاخضر ولا تبعد عنه اكثر من عدة امتار، اي انها توجد اسيا وحسب في الضفة الغربية، ومع هذا يحسب سكانها ضمن الـ 60 الف. ويبلغ عدد سكان معاليم ادوميم وحدها 12 الف، وهم لا يعتبرون انفسهم من سكان الضفة الغربية فهي تبعد خمس او عشر دقائق عن القدس (هارتس 15 يناير 1985). ولذا لن نكون مبالغين اذا قلنا ان عدد المستوطنين في الضفة الغربية الذين توغلوا بالفعل في المناطق المحتلة لا يزيد عن 20 الف في احسن تقدير (وهذا هو تقدير مجلة تايم .8 يونيه 1987). وهؤلاء المستوطنون لا يقيمون بالفعل في المستوطنات فمن المعروف ان عددا كبيرا منهم يصل الى حوالي ثلاثة ارباعهم يستقلون السيارات في الصباح ليذهبوا الى اعمالهم في تل ابيب او القدس ولا يعودون للضفة الا في المساء (الجيروساليم بوست 5 يونيه 1987)، الامر الذي يبين ان المستوطنات لاتزال عبارة عن منامات يقضي فيها المستوطنون سحابة ليلهم. (ترى مجلة تايم ان عددهم يصل الى 80 ٪ وانهم يقطنون الضفة بسبب المساكن الرخيصة والاعفاء من الضرائب). وكل هذا يتنافى مع فكرة الاستيطان الصهيوني التي لا تهدف الى مجرد اغتصاب المكان، انها تهدف الى ابتلاع الزمان ايضا، ولذا فالصهيونية لا ترسل بجنود احتلال وانما ترسل بمستوطنين يخلقون واقعا يهوديا - والمستوطنون المتنقّلون لا يختلفون كثيرا عن جنود الاحتلال.

وتظهر ازمة الطاقة البشرية اليهودية فيما اشار اليه الاستاذ ارنون سافير بالمستوطنات الوهمية او اللعبة *dummy* او مستوطنات الاشباح مثل آربيل وعمانويل وقريات اربع، وعشرات غيرها، التي تقف خالية من السكان تقريبا، ولا يتجاوز متوسط عدد العائلات فيها بضعة عشرات وفي اكثر الاحيان لا يكون في المستوطنة سوى 10 ـ 12 عائلة (هارتس 15 يناير 1985). ومع هذا توضع حولها الحراسة المشددة. «وبسبب قلة السكان في هذه المستوطنات الكثيرة، ليس ممكنا اقامة مؤسسة حيوية فيها، مثل دور الحضانة والحدائق، والفصول الدراسية والخدمات المساعدة، والمحلات، وما شابه ذلك، ويضطر المستوطنون للبحث عن هذه كلها خارج مجال إقامتهم». (أمير روزنفليت يقول : « لاخير في إقامة مستوطنات أخرى». دافار ديسمبر 1987 الملف 46 يناير 1988)، وان أقيمت مثل هذه المدارس والحدائق والخدمات فان تكلفة الاستيطان ستزداد.

بل ان مدينة القدس التي شيد كثير من الاحياء اليهودية حولها مثل جيلو وراموت ورامات اشكول انخفض عدد سكانها من اليهود من 74 ٪ من مجمل عدد السكان الى 70 ٪ ولايزال المعدل آخذا في الهبوط (عل همشمار 25 مارس 1987).

أرض بلا شعب

ومن المعروف ان المستوطنات في الجليل والنقب تفقد سكانها. وقد يكون من المفيد هنا ان نذكر ان ربع مليون اسرائيلي (اي 6 ٪ من مجموع سكان الدولة) يسكنون في اراضي النقب وصحراء يهودا والتي تشكّل 60٪ من مساحة دولة اسرائيل. وقد تجمد الوضع على حاله منذ الستينات (اليشع افرات «جغرافية الاستيطان في اسرائيل حتى عام 2000» مجلة سكيراه حودشيت 2 ـ 3 ، 21 ابريل 1985 الكيان الصهيوني عام 2000 تأليف نخبة من السياسيين والباحثين والاسرائيليين، قبرص، وكالة المنار 1986 ص 110). اما الجليل فيلاحظ المؤلف الاسرائيلي ان نسبة عدد السكان اليهود فيه كانت على النحو التالي:

1961	57،6 ٪
1972	54،
1985	51 ٪

وقد انخفض العدد حسب إحصاء 1987 الى 48،8 ٪ (دافار 1988/3/22 الملف 49).

ولكنه يرى ان الصورة أسوأ من ذلك بكثير. اذ انه لو تم فصل الاطراف الشمالية الحدودية ودققنا في الوضع السكاني فان الصورة ستكون على النحو التالي:

1948	13 ٪
1952	47،8 ٪
1968	20 ٪

واستقرت النسبة عند 25 ٪.

وقد قالت هارتس (30 ديسمبر 1987) انه لاول مرة في تاريخ اسرائيل تناقص عدد السكان اليهود في كل مدن النقب عام 1986، (كما جاء في تقرير اوري جوردون الموظف بالوكالة اليهودية) وقد ترك 15 الف مستوطن النقب في الثمانينات وتوقفت الزيادة السكانية في مدن التنمية.وفي عام 1987 هاجر 2500 يهودي عن الجليل بينما زاد عدد السكان العرب 19 ألف («الحقائق تتحدث» كوتيريت راشيت 3 فبراير 1988)،وقد حدا هذا بأحد المتفكهين أن يقول:انها فعلا «أرض بلا شعب». وعبارة «ارض بلا شعب» كما هو معروف هي العبارة التي اطلقها الصهاينة ليصوروا فلسطين على انها ارض جرداء خالية من السكان، لابدّ أن ينقل لها اليهود، اما العبارة في السياق الجديد فهي تعني انها ارض الميعاد اليهودية بلا شعب يهودي.

دونم بعد دونم

ولكن كما بينا ان كان ثمة انسحاب يهودي فثمة تقدم عربي. وقد لاحظ يوسف ميخاليسكي انه من الصعب على الاستيطان اليهودي التوطن في ارض عربية، في حين «ان

السكان العرب نجحوا في ايجاد موطىء قدم لهم في المناطق التي اعتبرت حتى الآن اقليما يهوديا فقط : الناصرة العليا، كرميئيل رحوفوت، الخضيرة ونهاريا. وكذلك التوسع الكبير في حيفا، والزيادة السكانية في القدس. ويتسع نطاق الاستيطان العربي، بشكل ضخم، من سفوح الجبال شرقا باتجاه الغرب مثلما في طريق كابري - ياغور، وكذلك ايضا في منطقة وادي عاره». (دافار 29 مايو 1987 الملف 9 يونيه 1987).

ولعل ما يحدث في الجليل من افضل الامثلة على الانكماش الصهيوني الذي يقابله تمدد عربي والذي يترجم نفسه الى تراجع صهيوني في مقابل تقدم عربي. فقد لاحظت جريدة يديعوت احرونوت (الوطن 25 يناير 1988) «ان الكثير من الشبان اليهود اصبحوا يتركون المستوطنات في الشمال ويتوجهون للعيش في المدن ولا يوجد من يقوم بسد النقص وملء الفراغ الذي تسببه هجرة هؤلاء». ثم تضيف الصحيفة : «ان الكثير من الشبان الذين يعودون الى هذه المستوطنات بعد اداء الخدمة العسكرية سرعان ما يتركونها بعد ان يملوا من البحث عن عمل. ولهذا فان الحل الوحيد الذي امامهم لا يكون الا بالهجرة. ومع مرور الوقت وازدياد الضغط على هذه المشكلة، فان العرب كانوا اول من تيقظ لهذه القضية، وبالتالي اخذوا يسدون الفراغ ويسرعون «باحتلال» الاماكن التي تخلو بسبب هجرة اليهود بطريقة «دونم بعد دونم» ويتسعون بل ويسعون الى السيطرة على منطقة الجليل»! ولعل القارىء العربي غير المتخصص في الصهيونية قد فاتته نبرة السخرية والاحساس بالمفارقة في عبارة «دونم بعد دونم»، فقد كان هذا هو الشعار الصهيوني المطروح للاستيلاء على الارض العربية بالتدريج. وهي الطريقة التي تم بها هذا الاستيلاء، ولكنها اصبحت هي ذاتها الطريقة العربية في استعادتها في صمت دون شعارات.

المواجهة الاقليمية

لاحظ اليشع إفرات ان المساحة التابعة للمستوطنات اليهودية في المنطقة الجبلية في الجليل تصل الى 133 دونما فقط، واما الاراضي العربية (يسميها غير اليهودية) فبلغت 356 الف دونم اي ثلاثة اضعاف المناطق اليهودية. وتملك الدولة 56 ٪ من مساحة الجليل ولكن نصف هذه المساحة يستغلها العرب فعليا دون ان يكون لهم حق ملكيتها. وكما يقول المؤلف «يوجد للعرب من ناحية عملية تفوق واضح سواء لناحية الملكية او لناحية وضع اليد على الارض في الجليل، اضافة الى قوتهم السكانية الكامنة الناجمة عن نسبة التكاثر الطبيعي العالية بينهم، وعن انعدام هجرتهم الى ارجاء الدولة الاخرى. واذا قابلنا ذلك بميزان الهجرة السلبي القائم في القطاع اليهودي، وبالهجرة الداخلية الكبيرة وبالهبوط في جاذبية مدن الاعمار نجد ان هذا يشكل ضعفا يهوديا بالغ الدلالة في «المواجهة الاقليمية» بين المستوطنين والعرب في هذه المنطقة». وقد وضح يوسف ميخاليسكي ابعاد هذه المواجهة في مقاله «اسرائيل او دولة

ثنائية القومية» (دافار 29 مايو 1987 الملف عدد 39 يونيه 87). اذ يرى ان الدينامية الديموغرافية قد تؤدي الى الانفصال التدريجي بين العرب واليهود «الى حد اقامة كيان مستقل، او بالتبادل، الى نشوء حكم ذاتي على غرار ما حدث في ايرلندة الشمالية، وسيري لانكا، وقبرص واقليم الباسك». ومن الواضح لدى مؤلف المقال ان عرب 48 سيريدون «الانفصال عن اسرائيل والتوحد مع سائر عرب اسرائيل».

وربما لو استخدمنا المنطق الصهيوني وحاولنا ان نعطي الارقام دلالة داخلية لاشرنا الى ان عرب 48 يبلغ عددهم ما يزيد عن 750 الف وان عددهم يعادل عدد الاسرائيليين الذين نزحوا، ويزيد عن عدد المستوطنين الصهاينة الذين اعطتهم هيئة الامم المتحدة عام 1948 حق ان يكون لهم دولة مستقلة في افضل اراضي فلسطين. ويرى المؤلف الاسرائيلي ان «المارد السكاني العربي المتعاظم» سيترك اثرا عميقا على البناء السياسي الاسرائيلي اذ سيدفع بشرائح من السكان (اليهود والعرب) الى مزيد من التطرف وان التجمع الصهيوني «سيشغل بعرب اسرائيل فقط ويهمل القضايا الاخرى، مما سيؤدي الى تدهور في نوعية المجتمع الاسرائيلي، الامر الذي يمكن ان يتمثل في انهيار الديمقراطية ويؤدي الى ظهور صراع حضاري».

وقد طرح نيسم زفيلي، رئيس شعبة الاستيطان في الوكالة اليهودية، مشروعا يهدف الى توظيف التراجع الصهيوني من الضفة الغربية، تحت ضغط الانتفاضة في وقف التراجع الصهيوني في النقب، فقد صرح بانه اذا تقرر اخلاء المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة فلن تكون هناك مشكلة في استيعاب المستوطنين بشبكة استيطان جديدة في صحراء النقب فسكان مستوطنات قطاع غزة يمكن استيعابهم في 16 مستوطنة جديدة بنفس الشروط التي يقيمون بها. واذا قررنا الانسحاب فسوف ننسحب على شكل مستوطنات كاملة. (الوطن 4 أبريل 1988). ويرى كثير من الصهاينة (مثل ناحوم سولن في مقاله المعنون «صهيونية دون روح صهيونية») ان التحدي الحقيقي الذي يواجه يهود العالم هو تطوير مناطق الجليل والنقب - اي ان مشروع زفيلي هو محاولة للاستفادة من ازمة الصهيونية في مجال لحل أزمتها في مجال آخر.

الصنبور الذي لا يغلق أبدا

وقد شكى سولن في مقاله الانف الذكر انه بدلا من توظيف الاموال في تطوير النقب والجليل انفقت مليارات الدولارات في تطوير مناطق تقطنها اكثرية عربية واقلية يهودية في الضفة الغربية. وقد وصف احد المعلقين الاسرائيليين الانفاق على الاستيطان الفاخر في الضفة الغربية بانه «الصنبور الذي لا يغلق ابدا». والحكومة الاسرائيلية تحتاج للاموال الطائلة لان نوعية المستوطنين في الضفة الغربية تختلف تماما عن نوعية المستوطنين الصهاينة في الماضي، فهم ليسوا مثل «الرائد» الصهيوني القديم الذي كان يحمل بندقيته بيد ومحراثه باليد

الاخرى وانما هو شخص مرفه يبحث عن الفائدة والراحة واللذة. وقد سميت هذا النوع من الاستيطان في مقالة لي منذ عدة سنوات «بالاستيطان المكيف الهواء». وقد فوجئت بالمعلق العسكري الاسرائيلي البارز زئيف شيف (هارتس 17 يونيه 1986) يتحدث عن «الامن ديلوكس» او الامن الفاخر، ويشير الى المستوطنين اليهود الذين لا يريدون ان يحملوا البندقية او المحراث «فهم يطالبون الجيش الاسرائيلي واجهزة الامن الاخرى ان يضمنوا لهم نوعا من العيش الممتاز في المناطق «المحتلة» وان تكون حياتهم مكفولة امنيا. وطبيعة الامن الذي يطلبونه بالمواصفات التي يطلبونها ليست موجودة في اي مكان اخر في اسرائيل، وان اسرائيل بأكملها لا تتمتع بمثل هذا الامن الفاخر (هارتس 17 يونيه 1986). وقد بينت هارتس (30 ديسمبر 1987) ان توطين مستوطن صهيوني في النقب يكلف الدولة 820 دولار، بينما تبلغ تكلفة توطين مستوطن في الضفة الغربية 2100 دولار، وهذه التكلفة المباشرة لا تغطي التكاليف غير المباشرة وغير المنظورة من لزوم الاستيطان الفاخر.

تساقط الاجماع القومي بخصوص الاستيطان

ومع الانتفاضة الاخيرة انطلق السخط على الاستيطان المكيف الهواء من عقاله فوصف رابين المستوطنين بانهم يشكلون عبئا على المؤسسة العسكرية (الجيروساليم بوست 4 فبراير 1988). وقد كتب يوسي سريد مقالا في صحيفة هارتس (11 فبراير 1988) وصف فيه المستوطنات بأنها ثقوب في الراس «وانها عبء». فعندما يذهب صبيان من مستوطنة الى حضور درس موسيقى يترتب على ذلك فتح طريق خاص لهم بطول عدة كيلومترات. اما المهمة الدفاعية القتالية ـ وهي مهمة المستوطنات في المحل الاول ـ فلا وجود لها، ومساهمة مستوطنات الضفة في الدفاع عن امن اسرائيل «يشبه ما تفعله الجدة الخائفة» اي البكاء والصياح. والابراج في مستوطنات جوش ايمونيم «هي برج طائر» مهتز «تستطيع اصبع صغيرة ان تطيح به». ووجود «50 ـ 60 الف يهودي بين مليون ونصف فلسطيني في الضفة والقطاع سيثير مشاكل عويصة للجيش خاصة في حالة حرب، كما حدث بالنسبة لمستوطنات الجولان في السبعينات ! ان هؤلاء المستوطنين ليسوا مصدر نفع للجيش الذي يضطلع بكل او معظم الوظائف التي كان يضطلع بها المستوطنون قبل عام 1948 . وقد عبر الصراع بين المستوطنين والجيش عن نفسه في حادثة تيرزا بورات التي قتلت بالقرب من قرية بيتا. فأعلن المستوطنون انها قتلت رجما بالحجارة وشجب المستوطنون الجيش لفشله في قمع الاضطرابات. فتعمد الجيش ان يسرب نتيجة التحقيق الذي اجراه بخصوص الحادث والذي بين «ان حارسا يهوديا مذعورا اصاب الفتاة المستوطنة بعيار ناري في راسها، مما اثار غضب المستوطنين اكثر». وقد فعل الجيش ذلك لحرمان المستوطنين من التعاطف الذي قد يحصلوا عليه من بقية اعضاء التجمع الصهيوني وللتشهير بهم باعتبارهم غير قادرين على القتال بكفاءة. وفي التجمع

الصهيوني من لا يستطيع القتال يفقد شرعيته تماما فهو يشكل عبئا امنيا، وفي حالة مستوطني الضفة فهم لا يشكلون اية اضافة اقتصادية.

وقد ظهرت في المجتمع الاسرائيلي عناصر كثيرة ترى ان الفلسطينيين من حقهم ان يكون لهم وطن ودولة مثل حركة «العام الحادي والعشرون ضد الاحتلال» تضم حوالي الف وخمسمئة عضو معظمهم شبان اكاديميون، وفنانون وصحافيون. وبلغ الحال بهذه المجموعة حد حث الاسرائيليين على مقاطعة المنتجات التي يصنعها المستوطنون اليهود، كما دعت المهندسين المعماريين الاسرائيليين الى رفض تصميم بنايات لليهود في الاراضي المحتلة». (ميلان كوبيك : «الانتفاضة اوجدت جيلا جديدا يعارض استمرار الاحتلال القبس).

وفي جامعة تل أبيب جمعت توقيعات على نصّ عنوانه : «الميثاق النهائي الحاسم» أعلن فيه الموقعون عن قرارهم بمقاطعة زيارة الضفة والقطاع وبمقاطعة المنتوجات المصنعة في المستعمرات الاسرائيلية الواقعة في الاراضي المحتلة. (سامي زبيدي، «القلق على الوجود» الشرق الاوسط 30 يونيه 1988).

وتظهر بعض مجموعات الاحتجاج ايضا ميلا للاثارة، حيث تتجمع نساء يرتدين الملابس السوداء بعد ظهر كل يوم جمعة في القدس وفي تل أبيب وفي حيفا وهن يرفعن لافتات تقول : «انهوا الاحتلال !» وترفع مجموعة اخرى من النساء، تدعى «خارطة السلام»، قطعة من القماش اشبه باللحاف يزيد طولها عن 300 قدم، وعليها رسائل مناوئة للاحتلال، وتصدر مجموعات اخرى بيانا او بيانين مثيرين، قبل ان تختفي عن الانظار. (ميلان كوبيك، المرجع السابق).

وقد تناولنا مظاهر الانقسام في التجمع الصهيوني في الفصل السابق، وهو انقسام يدور حول قضية الاستيطان.

ويظهر تساقط الاجماع القومي بخصوص هذه القضية في النقاش الذي دار في مجلس الوزراء الاسرائيلي والذي نشرت تفاصيله في الجيروساليم بوست (8 فبراير 1988). اذ صرح وزير الاستيطان يعقوب تسور بان المستوطنين من اعضاء جماعة جوش ايمونيم يولدون بملعقة فضة في افواههم على عكس المستوطنين في الجليل. كما هاجمهم بيريس في نفس الاجتماع فرد عليه يوسف شابيرا ـ (وهو وزير دون وزارة):ان الامة (اي اعضاء التجمع الصهيوني) كانوا يقفون وراء المستوطنين في الشمال (في الجليل) حينما كان يهاجمهم الارهابيون (اي الفدائيون الفلسطينيون)، اما الان فنصف الامة وحسب يقف وراء المستوطنين في الضفة الغربية.

وقد عبر يسرائيل هاريل، رئيس تحرير مجلة نيكودا التي يصدرها المستوطنون في الضفة الغربية وهو شخصية قيادية اساسية بينهم، عبر عن تساقط الاجماع القومي حين قال:ان اليقين القديم بخصوص الاستيطان قد تراجع. فاشار الى ان شامير حينما كان يتحدث في الماضي عن

«الحكم الذاتي» كان من قبيل الدعاية ولكنه الان يعني ما يقول: «وما تسمعه من الليكود عن اننا وصلنا طريقا مسدودا وانه علينا ان نجد مخرجا ما يثير قلقنا. فمثل هذه الاقوال تدل على تآكل الخط الاساسي». وقد انذر بانه اذا حدث تقهقر ما فهو لن يتوقف عند الخط الاخضر (حدود 1948) اذ سيكون هناك انسحاب روحي يمكن ان يتهدد وجود الدولة ذاتها (الجيروساليم بوست، «سحب فوق السامرة» لابراهام رابينوفتش 30 يناير 1988). ويبدو ان المستوطنين قد بدؤوا يصوتون بأقدامهم. فنسبة اليهود الذين يقبلون بالسكن في المستوطنات المقامة في الضفة والقطاع لا تزيد عن 1،8 ٪ ! بل يبدو ان اعدادا متزايدة من المستوطنين بدأت تترك المستوطنات المقامة بالفعل «وقد تكتمت الوكالة اليهودية اذاعة اي ارقام» الامر الذي يدعونا للتكهن ان الاعداد لا بدّ أن تكون كبيرة» (الوطن 25 ابريل 1988 نقلا عن عل همشمار). وقد صدرت دراسة عربية في قبرص أوضحت ان عدد النازحين من مستوطنات الضفة بلغ 20 الف (القبس 1988/7/1). ولو صدق هذا الرقم فان حجم التراجع الصهيوني يكون ضخما بقدر يفوق التوقعات المبدئية.

واذا كان العالم الخارجي والعالم العربي يستمع لتصريحات دروبلس وامثاله ويقتبسها ويصدقها ويشجبها بشدة، فان العرب في فلسطين المحتلة لا يصدقونها اساسا، فانهم ينظرون للمستوطنات الفاخرة الخاوية. ولابد انهم عرفوا ان هذه الدولة الصهيونية في حالة ازمة وان المستوطن الصهيوني قد اصبح مواطنا استهلاكيا يود ان ينعم بتكييف الهواء ! وهم لا يصدقون اكذوبة «الشعب اليهودي» الواحد، اذ يرون كيف ينخر الصراع الطبقي في عضد المجتمع وكيف يهيمن العنصر الاشكنازي على العناصر اليهودية الاخرى. ان الفلسطينيين يقارنون المزاعم الرهيبة بالحقائق المضحكة التي يحتكون بها، ولابد ان هذا شد من ازرهم وعرفوا ان الوقت قد حان للجهاد والكفاح من اجل الوطن ـ قبل ان يعقد مؤتمر عمان بوقت طويل.

الفصل الخامس

جنرالات التجارة المقدسة وآلة القمع النهجية تأكل الجيش الإسرائيلي وتعاظم ابداع المنتفضين

يستند الوجود الصهيوني الى العنف اذ انه يهدف الى التخلص من اصحاب الارض وإحلال اخرين محلهم، وهي عملية لا يمكن ان تتم بالوسائل السلمية لأسباب انسانية معروفة. والكيان الصهيوني غرس غرسا في فلسطين ليلعب دورا قتاليا ضد المنطقة العربية. وعلى مستوى من المستويات يمكن القول:ان المشروع الصهيوني كان يهدف الى نقل الفائض البشري اليهودي من أوروبا الى فلسطين وتحويله الى «مادة قتالية» تخدم المصالح الغربية. ولكل هذا تكتسب كل الظواهر الصهيونية ابتداء من الزراعة وانتهاء بالتلفزيون بعدا عسكريا. ولذا فالقوة العسكرية الصهيونية تشكل العمود الفقري للمشروع الصهيوني، فهو يكتسب شرعيته الصهيونية وشرعية وجوده منها. وكما قال بيجال آلون، نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي، في مؤتمر القدس لاصحاب الملايين اليهود يوم 29 يونيه 1969 : «لا يتحقق الامن الاسرائيلي عن طريق المناطق المنزوعة السلاح ولا بالبوليس الدولي ولا بضمانات الدول او الهيئات الدولية وانما بالارض». ثم يعرف هذه الارض بانها «القنوات (اي قناة السويس) والممرات والانهار (اي نهر الاردن) والمرتفعات (اي الجولان)». ثم يلخص الموقف كله بقوله : «ان الامن يتحقق بالاستيطان المسلح». (محمد رمضان: اليهودية ومشكلة الانسان المعاصر، دار الكرمل 1988). وقد احرز الاستيطان المسلح في فلسطين قدرا لا بأس به من النجاح وبالتالي حصل على قدر من الشرعية امام يهود العالم وجماهير المستوطنين والعالم الغربي.

بدايات اهتزاز الشرعية

ولكن ابتداء من حرب عام 1973 بدأ إيمان المستوطنين الصهاينة بالعجل الذهبي ـ اي الجيش الاسرائيلي ـ في الاهتزاز ثم في التآكل. ثم جاءت عملية غزو لبنان التي انتهت بانسحاب القوات الاسرائيلية دون ان تحقق ما كانت تهدف اليه ـ «القضاء بشكل نهائي على المنظمة». وشهدت هذه الفترة عمليات فدائية مستمرة، لم تتوقف البتة كان اخرها واهمها وتاجها عملية قبية التي بينت فيما بينت وبشكل لا يدع مجالا للشك ان الذراع القوية ليست قادرة بالضرورة على حمايتهم طول الوقت، وتوفير الامن المطلق لهم. ثم جاءت ثورة الحجارة لتبين مدى عجزه عن القيام بالعمليات الجراحية والضربات الاجهاضية التي تسكت الآلام مرة واحدة.

وقد نجحت العسكرية الصهيونية في ترسيخ فكرة أن اسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب في وجدان الاسرائيلي، مما عقلن الحروب الصهيونية ضد العرب حتى عام 1967 ، ولذا كان يتم تجنيد الشباب الاسرائيلي بنجاح شديد، عن طريق التوجه إلى حسهم الخلقي والقومي ورغبتهم في البقاء، باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة انسانية خلقية مشروعة. ولكن حرب لبنان في نظر هؤلاء ليست حرب اختيار أي أنها ليست حربا دفاعية فرضت على إسرائيل. فقد أعلنت المؤسسة العسكرية أن الهدف المباشر من عملية «سلام الجليل» هو الانتقام لاطلاق النار على مايكل ارغون السفير الاسرائيلي في لندن. أما الهدف العسكري فهو هدف دفاعي حتمي لوقف الهجمات الفدائية وتطهير مساحة 67 كيلو مترا من لبنان. وكانت النتيجة خسارة مقدارها 6 بلايين دولار وحوالي 700 قتيل وعدة آلاف من المعوقين وتآكل صورة إسرائيل الاعلامية. ثم ظهر أن الهدف الحقيقي هو فرض حكومة عملية في لبنان تحت حماية إسرائيل (الجيروساليم بوست 3 فبراير 1988). ومن الوقائع التي ولا شك تثير كثيرا من السخرية المريرة بين ضحايا حرب لبنان أن الهجمات الفدائية لم تتوقف. كما أن مايكل أرغون نفسه عمّر ليقول وهو يتماثل للشفاء: «كان أحرى بمن جرّوا ذلك علينا أن يفكروا أكثر من مرتين في ثمن ذلك، خصوصا في الأرواح. إن حرب لبنان حرب خاسرة خرج منها شعب اسرائيل أضعف مما كان» (بوليتيكال فوكس، واشنطن 15 سبتمبر 1983 نقلا عن محمد رمضان).

كما أن استمرار الاحتلال في الضفة الغربية وغزة ما يزيد عن عشرين عاما كان من الصعب الدفاع عنه، باعتباره دفاعا عن النفس. ولذا شهدت القوات العسكرية الاسرائيلية لأول مرة في تاريخها ظواهر احتجاجية مختلفة، جديدة عليها كل الجدة مثل رفض الخدمة العسكرية تماما، أو رفض الخدمة في الضفة الغربية وغزة أو زيادة نزوح أبناء الكيبوتسات، العمود الفقري للمؤسسة العسكرية واحتياطيها الحقيقي، بل زيادة نزوح افراد من القوات المسلحة ذاتها. وقد ورد في الصحافة الاسرائيلية أن 171 ضابطا كبيرا في الاحتياط برتبة عقيد

فما فوق قد نزحوا عن اسرائيل، وهو عدد يعادل 10٪ من مجمل الضباط برتبة عقيد فما فوق ممن خدموا في الجيش الاسرائيلي حتى الآن، (هآرتس 24 اغسطس 1987). وقد زادت كذلك نسبة النازحين من الخبراء العسكريين والمهندسين والعاملين في الصناعات الحربية بعد توقف العمل في مشروع الطائرة «لافي». وقد جاء في جريدة هتسوفيه (2 اغسطس 1987) ان المهندسين والفنيين اصطفوا في صفوف طويلة قرب سفارتي الولايات المتحدة وكندا من اجل فحص امكانية الهجرة. وجاء في دافار (7 ديسمبر 1987) أن هناك 204 طيارا اسرائيليا تتراوح أعمارهم بين 25 ـ 35 سنة أصبحوا دون عمل ودون مصدر رزق ويفكرون بالنزوح عن فلسطين المحتلة (نقلا عن الأرض ديسمبر 1987). وقد زادت نسبة تعاطي المخدرات وانتشار الجرائم الجنسية بين افراد القوات الأسرائيلية.

وهناك نكتة في القوات المسلحة الاسرائيلية مفادها ان اهم جنرالات الجيش هو الجنرال حشيش!

جسد منتفخ مترهل

وقد لخص العقيد عما نوئيل فالد حالة المادة القتالية الصهيونية في تقرير له عن الجيش الاسرائيلي قدمه لمكتب وزير الدفاع ولكنه قوبل بفتور بدعوى ان المقترحات التي يقدمها ليست عملية. وبعد ان وقع عقدا مع مركز الابحاث الاستراتيجية في اسرائيل لاعداد البحث ألغى العقد، ولكنه نشر رايه في نهاية الامر في كتابه «لعنة الاواني المكسورة ـ تقرير فالد». يقول فالد: انه ليس امام اسرائيل من احتمال عسكري في المستقبل اذا استمر الجيش الاسرائيلي يسير في الطريق التي يسير فيها حاليا. ويؤكد ان دولة اسرائيل تعيش في «زمن مستعار» وان مؤسستها العسكرية «تسير نحو الضياع»، وينتقل فالد من التعميم الى التخصيص فيقول: «ان قادة الجيش يعانون من نقص واضح وظاهر في الاهتمام والفهم والتقنية في الحرب بصفة عامة وفي الاستراتيجية بصفة خاصة، ويسود بينهم عداء لاي مبادرة في المجال الفكري. وهم يفتقرون الى التفكير الاستراتيجي السياسي. فهذا جيل من انصار حكومة التكنوقراط، الذي تحول الى أداة طيعة في يد المؤسسة العسكرية»؟

ثم يشير فالد الى بعض الظواهر السلبية التي نشأت في السنوات الاخيرة في الجيش الاسرائيلي. مثل «نمو القيادات واتساعها على حساب القوة المقاتلة. فالذي يحظى بأفضلية كبيرة في الجيش الاسرائيلي، فعلا، هو القيادات والخدمات والادارات المختلفة، وليس المقاتلين؛ وذلك على حساب السلك المقاتل، الذي انخفضت نسبته في حجم القوات، وبعد حرب عيد الغفران، تقرر تغيير هذا الاتجاه. ورغم ذلك، يزعم فالد، ان نسبة السلك المقاتل في حجم القوات انخفضت من 35 ٪، ابان حرب عيد الغفران، الى 33 ٪ في سنة 1982».

(وهذا اتجاه عام ومتوقع في كل القوات المسلحة الغربية مع تزايد معدلات العلمنة والاستهلاكية التي تتطلب توفير معدلات عالية من الراحة للمقاتل خاصة انه عادة ما يخوض حروبا غير اخلاقية الامر الذي يؤدي الى تزايد قطاع الخدمات داخل القوات المسلحة. وقد اتضحت هذه الظاهرة بشكل درامي اثناء الحملة الامريكية على لبنان والتي تزامنت مع الحملة الامريكية على جرانادا. وكلا الحملتين كانتا صغيرتين للغاية، ومع هذا اشتكت القيادة العسكرية الامريكية من ان مصادرها الضخمة مرهقة لان كل جندي مقاتل يحتاج لكمّ هائل من الخدمات المساندة وعملية تغطية رهيبة. ولعل هذا هو عقب اخيل في الات القمع القتالية المتقدمة: ان قمتها القتالية لا بدّ أن تساندها قاعدة ضخمة مركبة يمكن ارهاقها بسرعة نظرا لضخامتها وتركيبتها).

ويتحدث فالد «عن التكايا الكبيرة في شعبة الطاقة البشرية، وشعبة المخازن والتموين، وحتى شعبة التخطيط. مقابل ذلك، لا ينجح الجيش الاسرائيلي في منع الزيادة غير المناسبة في المخصصات - اي الاستثمارات في بناء القوة».

وهناك ظاهرة اخرى، يسميها فالد تخثر طبقة الضباط، وهي تثير الازعاج بشكل اكبر. فقد ظهرت بين الضباط ظاهرة «الرأس الصغيرة» [عدم الاستعداد لتحمل المسؤولية] (انظر الفصل العاشر) فالضباط، الذين يعتبرون اصحاء اصلا، يصبحون في الجيش الاسرائيلي، على حد قوله، مرضى. «وتنتشر في الجيش الاسرائيلي الظاهرة المعروفة في جيوش امريكا الجنوبية - حيث يوجد المزيد والمزيد من الضباط على نفس العدد من الجنود. ويشغل بعض الجنرالات، حاليا، مناصب كان يشغلها، منذ سنوات قليلة، ضباط برتبة مقدم. وزاد بين الضباط عدد الفنيين على حساب الضباط المقاتلين».

وقد ترجم هذا نفسه الى تآكل في مستوى القتال خاصة ان القوات المسلحة تختصر من التدريب في الجيش وتجند الفئات الدنيا من السكان (اي الشرقيين) وهذه سمة اخرى في القوات المسلحة الغربية إذ نجد تزايد عدد السود في القوات المسلحة الامريكية وعدد المسلمين في القوات المسلحة السوفيتية.

وقد وصف فالد الجيش بانه في وضع عسكري مترهل وانه جسد منتفخ، منحل وليس فيه عضلات وان القدرة على تحقيق النصر بدات تقل وان الجيش الاسرائيلي يفتقر الى القدرة على التغلب على مقاومة قوات معادية صغيرة. فقوات الجيش الاسرائيلي البرية لم تكن ترغب في الهجوم في حرب لبنان، وحتى لو ارادت ذلك فانها لا تعرف كيف تفعل ذلك.

وقد وصف زئيف شيف آراء فالد بأنها متناقضة أحيانا، مبالغ فيها أحيانا أخرى، وانها على مستوى من المستويات تصفية لحسابات شخصية. ولكن مع هذا هناك قدر كبير من الصدق فيما يقول ولعل اكبر دليل على ذلك ان اراءه ساهمت في الجدل العام بشان الجيش.

(زئيف شيف: «اتهامات عما نوييل فالد» هارتس 14/ديسمبر/1987 الملف 45)

ولكن هناك من القرائن الاخرى ما يدل على مدى صدق آراء فالد«فضعف مستوى آداء القوات المسلحة الاسرائيلية في لبنان (أمر أشارت إليه أحد تقارير البنتاغون (التي نجحت المؤسسة العسكرية الصهيونية في اخفائها لمدة عامين) الذي ورد فيه ان 10 ٪ من كل الخسائر اثناء حرب لبنان كان مصدرها الاسرائيليون انفسهم، وهذه تعد نسبة عالية للغاية. ومع هذا نشرت جريدة الجيروساليم بوست (29 يناير 1988) في صفحتها الاولى خبرا مقتضبا للغاية عن الانتقاد الذي وجهه جيمس ويب وزير البحرية الامريكية للقوات الاسرائيلية (وذلك في مقال نشرته مجلة الامريكان بوليتيكس) وصفها فيها بانها لا تشكل ندا لاية وحدة عسكرية امريكية. وقد اشار الى ارتفاع نسبة عدد القتلى الاسرائيليين الذين قتلوا خطأ برصاص قواتهم اثناء غزو لبنان، ولكنه لم يذكر النسبة. ولعل هذه الاشارات المقتضبة هي مجرد تلميحات عن الاوضاع المتردية التي اشار لها عمانوئيل فالد في تقريره.

فشل المخابرات

وقد صعّدت الانتفاضة من عملية تآكل شرعية الجيش الاسرائيلي. فعلى سبيل المثال فشلت المخابرات الاسرائيلية بمجموعاتها الثلاث، الموكلة لها مهمة دراسة الاراضي المحتلة، فشلت في ان تلاحظ اية مؤشرات تدل على وجود ظاهرة سياسية جديدة (زئيف شيف في نيوزويك 8 فبراير 1988). وقد اخبرني احد المواطنين من الارض المحتلة ان هذا الفشل كان امرا متوقعا ومنطقيا، لانه على مر السنين تم التعرف على العملاء، وعزلهم، الامر الذي ادى الى كسر شبكة الاستخبارات المعادية. وهذه حقيقة بديهية ادركها الجميع ولم يدركها العدو، فنموذجه الادراكي لابد ان يستبعد الزمان والتاريخ لانه لو فعل لوجد العربي في وجدانه وعلى شاشة وعيه، ومثل هذا الوجود ـ كما يعرف الصهيوني ـ هو الصخرة التي تتحطم عليها كل الادعاءات الصهيونية. ويرى الدكتور فضل النقيب (القبس 28، 29 مارس 1988) ان العدو «عاجز لذلك عن فهم منطق وجدلية حركة التحرر الوطني، انه عاجز عن رصد التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتي تتم ببطء وعبر سنوات طوال، بشكل معقد وتحت السطح». وقد استخدم احد الكتاب في مجلة نيوزويك (25 يناير 1988) المنطق نفسه لتفسير الاخفاق الاسرائيلي. فالمستقبل كما جاء في المقال، هو مجال اعذب الاماني ومستودع اسوأ المخاوف، وهو لا ياتي بعد ان يتم النفخ في البوق (معلنا عن يوم القيامة) وانما يزحف هامساً في الحاضر. ومن هنا اخفاق جهاز الاستخبارات في التنبؤ بعبور 1973 وبانتفاضة 1988، وبكل ما سيجد من محاولات لرفض الظلم.

وقد كتب ابي بنياهو مقالا في غاية الاهمية بعنوان «الجيش والامن العام ومنسق الاعمال في الاراضي المحتلة فشلوا في تكهن ما سيحدث» (في عل همشمار 12 فبراير 1988)، وصف فيه آليات الادراك الاسرائيلي للعرب ونقط قصورها. فهو يرى ان الاجهزة الاربعة المسؤولة

عن الضفة والقطاع (جهاز الامن العام «الشين بيت» والقيادة العامة للجيش الاسرائيلي ومكتب منسق الاعمال وشرطة اسرائيل) قد اخفقت كلها في التنبؤ بالانتفاضة، ويرجع ذلك الى ان هذه الاجهزة كانت تقوم بمراكمة المعلومات (كما تفعل بعض مراكز البحوث العربية) لا الربط بينها. «ومن هنا الاستخلاصات المغلوطة والتحليل والتقدير غير السليمين». وقد سمى هذا الفشل بأنه «حرب يوم غفران» ثانية. واستخدم الكاتب صورة معبرة ليصف النموذج الادراكي الصهيوني (العملي المادي) إذ قال: ليست العبرة في الاحتفاظ بمعلومات فوق معلومات (أي الانكباب على التراكم الكمي المادي) ولكن المطلوب رفع رؤوسنا بين فترة واخرى من الارض وذلك لتقدير الوضع وتوقع متى ستأتي المواجهة. ولكن أليس من «الحتمي» الى حد ما أن ينكب ذو العقل المادي على المادة وألّا يشاهد الانسان/السر وهو يدرك وينمو ويستوعب ويتجاوز حركة المادة الضيقة والنماذج التي تهدف الى ترويضه وشرائه وتطبيعه؟ ويوجد في ملف المخابرات الاسرائيلية رسم كاريكاتيري كبير اخذ من احدى النشرات العربية ظهر فيه جنود اسرائيليون يتقصون آثار العدو، وعلى مقربة منهم ظهرت صورة العدو (العربي) يسيرون في ظله لضخامته ولكنهم لا يشاهدونه لان عيونهم مركزة على الارض وعلى قوانين العرض والطلب واشباع الحاجات المادية! والاحصاءات كانت تقول: ان العرب كانوا مشبعين فأنى للمخابرات اذن ان تتوقع احتجاج الشابعين؟ ان اخفاق العدو هنا ليس اخفاقا اجرائيا فنيا، وانما هو اخفاق ينبع من بنية ادراكه ذاتها.

وقد تم مؤخرا انشاء هيئة استخبارية جديدة وستقوم هذه الهيئة التي لا تعتبر في اطار جهاز الامن، بشغل الفراغ الموجود في الموضوع الاستخباراتي، وستتولى الاشراف على جمع معلومات، وتقييمها، وعرضها على واضعي السياسة، وتقرر ايضا ان تقوم الهيئة بجمع المعلومات، ليس في الضفة والقطاع فحسب، وانما بين عرب اسرائيل، ايضا (هارتس 14 مارس 1988 ـ الملف 49). ومن الواضح ان ثمة محاولة من جانب العدو للاستفادة من دروس الانتفاضة، وهو سيحسّن ولاشك من مقدراته الاستخبارية. ولكن يجب ان نستفيد دائما من حدوده الادراكية وان نوظفها لصالحنا.

مدفع يطلق الحجارة

والفشل الاستخباري هو تعبير عن فشل عسكري اكبر في مواجهة الانتفاضة، بل انه حتى كتابة هذه السطور لم يجد العدو اجابة فعالة لما يحدث (على حد قول زئيف شيف في نيوزويك). فجيش الدفاع الاسرائيلي ذو الذراع الطويلة التي طالما تباهى بانها تمتد لتصل الى اي مكان اصبحت عينه غير بصيرة ويده قصيرة للغاية، يقف حائرا عاجزا امام هؤلاء الاطفال وتلك النسوة وذلك الشباب الذين اجادوا فن الكر والفر، والذين طوّروا اسلحة تعبر عن ابداعهم الثوري الحقيقي وعن فهمهم لطبيعة تحركات العدو وعن ادراكهم العميق

لطبيعة الارض التي يعيشون ويحاربون فيها (من يمكنه ان يدركها ويعرفها اكثر منهم، اذ من يحبها أكثر منهم ؟).

لقد تحول الجيش الاسرائيلي، صاحب العمليات الاجهاضية الشهيرة، التي طالما دوخت الحكومات والنظم، تحول من الفعل الى رد فعل، ودخل محيط الادراك العربي وبدا يدرك الواقع من خلال مقولات اطفال الحجارة. وكما قالت مجلة حداشوت (9 فبراير 1988): «ان الفلسطينيين هم الذين يحددون قدر ومستوى التصعيد، وهذا هو الخطر الحقيقي الذي يواجه اسرائيل، لانها لا تسيطر بصورة فعلية على قوانين اللعبة». وتظهر السيطرة العربية على الموقف في تدهور الجيش الاسرائيلي على مستويين اولهما هو «أدوات القتال».

فقد جاء في القبس (عدد 3 مارس 1988) نقلا عن الهيرالد تريبيون : ان الجيش الاسرائيلي الذي يتميز بتكنولوجيته المتقدمة اعاد عقارب الساعة الى الوراء فبدلاً من التركيز على استخدام الاسلحة التي تعمل بالكمبيوتر يقوم الباحثون بصنع هراوات من الفيبر غلاس بدلا من الهراوات الخشبية التي تنكسر بسرعة. كما ظهر مدفع يطلق الحجارة، وهناك (كذلك) الجرافة التي اصبحت رمزا اخر يدل على عمل الجيش.

ورصدت جريدة الوطن (24 ابريل 1988) في تقرير لها عن الاستيطان نفس الاتجاه فأشارت الى أن قوات الجيش الاسرائيلي تقوم «باستخدام انواع متطورة من الاجهزة العسكرية الحديثة التي صنعت خصيصا لمواجهة المظاهرات والاضطرابات المدنية منها «قاذفة حصى» تستطيع أن تقذف طنا من الحجارة الصغيرة في الدقيقة الواحدة. واستخدام آلة جديدة هي عبارة عن سيارة شحن عسكرية فيها عدة وسائل تستخدم في تفريق المظاهرات، منها فوهتا مدفع تطلقان دفعات من الحصى والكريات .الصغيرة وبالونات الاحماض في جميع الاتجاهات. والى جانب الفوهتين توجد بندقيتان من طراز «جاليلي» تطلقان دفعات من قنابل الغاز المسيل للدموع. وعلى جانبي الجناحين الاماميين للسيارة نصب جهازان يطلقان قنابل دخانية خاصة، وفي مقدمة السيارة ذراع حديدية تستخدم لازالة الحواجز الحجرية والاطارات المشتعلة.

ومن المتوقع ان تقوم القوات العسكرية الاسرائيلية قريبا باستخدام وسائل جديدة لقمع المتظاهرين، منها انبوبة غاز صغيرة الحجم يتزود بهاكل جندي ليستعمل هذا الغاز من مسافة قصيرة حيث تكمن فعاليته في تأثيره على الجهاز العصبي للشخص المتعرض له ويؤدي بالتالي الى اصابته بفقدان للتوازن العام واضطراب في الحركة مما يسهل عملية القبض عليه واعتقاله. كما تنسوي سلطات الاحتلال استخدام نوع خاص من الكريات الملحية لتطلق على المتظاهرين وتحدث حالة حكاك شديد في الجلد واضطرابات عامة لدى المصاب بها».

افساد المادة القتالية

تظهر السيطرة العربية ايضا في تزايد تدهور المادة القتالية الصهيونية اي اعضاء القوات

المسلحة الاسرائيلية. فقيادة القوات ترى ان استمرار الانتفاضة سيؤدي الى تصعيد العملية التي اشار لها فالد وهي فقدانه المقدرة القتالية (الجيروساليم بوست ملحق 30 يناير 1988).
كما ان الانتفاضة ادت الى توقف او تعطيل برامج التدريب، حسب قول رئيس القوات البرية (اوري ساجوري) (الجيروساليم بوست 8 فبراير 1988). وقد اشتكى احد الضباط الاسرائيليين من انه لا يقوم بأداء ما درب عليه، ولا يقوم بتدريب الجنود ليقوموا بما ينبغي عليهم القيام به (تايم 15 فبراير 1988).

واعلن رئيس اركان حرب الجيش الاسرائيلي (عل همشمار 3 يناير 1988، في مقال لأربيه بالجي «جنوب افريقيا وصلت هنا بالفعل»):ان الجيش سيبدأ برنامجا لاعادة تدريب الجنود على طرق حفظ الامن في المناطق«ويقول كاتب المقال:ان هذا يعني تحول اسرائيل الى جنوب افريقيا. والاستنتاج الاخير يهمنا كثيرا، فمن وجهة نظرنا لا يوجد فارق نوعي بين الجيبين الاستيطانين، ولكن ما يهمنا هو ان الجيش الاسرائيلي سيفقد قدرا كبيرا من مقدرته القتالية بسبب قيامه بالعمليات الامنية، وهذا امر معروف لدى المفكرين العسكريين. وقد عبر الاستاذ اسحق غالنور، وهو استاذ في العلوم السياسية بالجامعة العبرية وضابط احتياطي برتبة رائد في الجيش الاسرائيلي، على ما هو متوقع بقوله : «سيخرج الجنود الاسرائيليون من الاراضي المحتلة وقد نسوا كيفية استخدام البندقية وما سورتها الى الامام، بعد ان تعودوا على استخدامها بشكل معكوس في الضرب (وول ستريت جورنال عن القبس 22 ابريل 1988). وقد لاحظ دان راكين (في مقال بعنوان الجنود يلقون الحجارة وزجاجات الكولا» معاريف 25 فبراير 1988) انه عندما تزداد كثافة الحجارة يستخدم الجنود نفس سلاح العرب. «ويقومون برشق السكان بالحجارة والزجاجات الفارغة».
ان المنتفضين قد ارغموا الجيش الاسرائيلي على ان يحارب في ارضهم وعلى ارضيتهم. وبذلك تحول الجيش الاسرائيلي بالتدريج من جيش يقوم بالقتال حسب اكثر الطرق حداثة الى جيش قمع يقوم بقذف المتظاهرين بالحجارة وتكسير عظامهم حسب اكثر الطرق بدائية.

الطائرة المروحية وماسادا

وقد علق الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان على هذه العملية بالاشارة الى ما حدث للامريكان في فيتنام، وروى قصة لم اكن قد سمعت بها من قبل، ولابد ان العقل الاسرائيلي قد استوعبها تماما. يقول كينان (في يديعوت احرونوت 25 يناير 1988 نقلا عن الانتفاضة، من منشورات جامعة الدول العربية بتونس):«انه في المرحلة قبل الاخيرة في حرب فيتنام نزلت الحرب بين جيش الولايات المتحدة وبين الفيتكونغ الى ما تحت الارض. حدث ذلك بعد ان تبين ان كل المتفجرات التي القيت على المدن وسكانها كانت بلا جدوى، وبعد ان القيت قنابل نابالم على كل من منطقة الغابات التي كان من المفروض ان يختبىء فيها العدو، بعد ان

ابيدت النباتات في مناطق شاسعة برمتها بوسائل كيمياوية. وعندها تبين بان العدو مازال حيا قائما، وانه تحت الارض. وحفر شبكة من الانفاق على امتداد الاف الكيلومترات، وفي هذه الانفاق كان الفيتكونغ يختزن السلاح والذخيرة والمؤن، ومنها كان محاربون ينطلقون في الليل ويضربون عدوهم ويعودون الى الاختباء.

«ولم تفد قنابل الدخان والغاز المسيل للدموع - كما لم تفد القنابل المتفجرة والمواد الناسفة التي القيت على مداخل الانفاق التي اكتشفت.

«آنذاك طرحت فكرة اقامة فرقة بحرية خاصة، (مارينز) تتألف من قصيري القامات، ورقيقي الظهور يكون بامكانهم التسلل الى الانفاق وهناك يحاربون الفيتناميين القصارالضامرين، وجها لوجه. وقد استقبل الفيتكونغ «المارينز» الاقزام بمصيدة مرصوفة بسهام مسممة. كذلك - وهذه حقيقة مسجلة في ارشيف حرب فيتنام - ادخل رجال الفيتكونغ افاعي كوبرا الى الانفاق التي تركت وهذه لدغت «المارينز».

وعندها، وهذه ايضا حقيقة مسجلة في الارشيف، ادخل الامريكيون الى ما تحت الارض عدو افعى الكوبرا الاكبر : المونغوز. والمونغوز هو نمس يتغذى بالافاعي السامة.

عندها وعندها فقط، عندما نزلت الولايات المتحدة الى العصر الحجري القديم في حربها مع العدو الذي نجح في انزالها الى العصر الحجري - عندها تقوقعت الولايات المتحدة العظيمة وخرجت من سايغون تندى خجلا.

«والذي رأى كيف كان الامريكيون يحاولون بقوة التعلق بسلم آخر طائرة مروحية تغادر سايغون - لا ينسى الصورة. فالعالم رأى الصورة».

ولاشك ان هذه الصورة بدات تظهر على شاشة الوعي الصهيوني، وقد ورد ذكرها على لسان عدة متحدثين صهاينة، من بينهم شارون الذي اشار الى انه ان لم يصمد الاسرائيليون فستأتي الطائرات المروحية وسيستقلها الاسرائيليون من على سطح السفارة الامريكية. (ولنلاحظ ان الصورة الاساسية هنا ليس صورة قلعة ماسادا والانتحار البطولي الشمشوني، وانما السفارة الامريكية والطائرة المروحية والهرب البرجماتي. وقد سبق واشرت في دراسة سابقة لي ان اسطورة ماسادا قصة مشكوك فيها وليس لها ما يساندها في تجربة اعضاء الجماعات اليهودية، وان الهدف منها هو تخويف العرب وانه لم يحدث قط ان آثر اعضاء جماعة يهودية الانتحار على الاستسلام، وانه حينما تحين اللحظة الحاسمة فمن المتوقع ان يبدي الاسرائيليون كثيرا من المرونة والتكيف).

عش الدبابير

ويظهر تدهور القوات المسلحة الاسرائيلية في انخفاض الروح المعنوية والاحساس العميق بالخوف واليأس. ففي مقال لجدعون الون (هارتس 18 ديسمبر 1987) بعنوان «جندي احتياط عائد من الخدمة في قطاع غزة : كان ذلك كابوسا حقيقيا»، قال احد جنود

الاحتياط : إن قطاع غزة أصبح «عشا من الدبابير» ولذا فهو يفضل خدمة شهرين داخل القطاع الامني في لبنان على ان يخدم اسبوعين في قطاع غزة. واضاف:«كلما تذكرت انني سأضطر للعودة الى كل هذه الاماكن المقيتة اعترتني قشعريرة وتصبب العرق من جبيني».

ويبدو ان وصف قرية عربية بأنها وكر للدبابير استعارة شاسعة بين الجنود الاسرائيليين فقد استخدمها قائد القوة العسكرية الاسرائيلية التي هاجمت قرية برقة ليصف هذه القرية (معاريف 25 فبراير 1988).

واذا كان هذا هو ادراك الجنود للقرى العربية فان القيادات العسكرية بدا ينتابها القلق بسبب ظهور علامات التوتر والاحباط على المقاتلين الاسرائيليين. وقد لاحظ بعض الاطباء الامريكيين ظهور «اعراض فيتنام المرضية» (الجيروساليم بوست 1988/6/8). ويبدو ان هذه الاعراض تظهر عادة حينما يتحول جيش نضالي دُرب على القتال في ارض المعركة الى قوة امنية تقوم بمطاردة المدنيين وقتلهم. وتتعمق الاعراض حينما يختفي الاجماع القومي بخصوص مدى شرعية الحرب،فإن قام الجنود المقاتلون بالبطش بالمدنيين هاجمهم المعتدلون والمنادون بالحلول السلمية، وان تقاعسوا في اداء واجبهم القمعي هاجمهم المنادون بالحلول العسكرية العاجلة. ومما يزيد من حدة هذه الاعراض استمرار المقاومة المدنية حتى يترسخ لدى المقاتلين الاحساس بان حل المشكلة لن يتم بالشكل العسكري.وكل هذه العناصر متوفرة في الموقف الحالي في فلسطين المحتلة فالجنود الاسرائيليون يعرفون ان التحدي الذي يواجههم هو اساسا تحد سياسي «يتطلب حلا سياسيا ولا يمكن لاي حلول عسكرية ان تأتي بالاجابة» (كريستيان ساينس مونيتور، جورج موفيت، «الانتفاضة الفلسطينية غيرت مفاهيم الاسرائيليين»عن القبس 4 مايو 1988)، ولذا فالقتال يبدو بالنسبة لهم سخيفا.

وقد تحدث ماتي جولان عن حالة الضياع التي يعاني منها الجنود بقوله:«انهم يتجولون تائهين مذهولين، لا قتال في الليل ولا في النهار، لا احتلال اهداف، ولا يوجد امامهم جنود ولا حتى مخربون. العدو اطفال ونساء لا عسكريون بأيديهم بنادق ورشاشات، وانما حجارة فقط» (في مقال سامي ذبيان «القلق على الوجود»، نقلا من مقال لمحمود سويد في الكرمل الشرق الاوسط 30 يونيه 1988).

ونشرت الصحف الاسرائيلية عن لسان اسحاق رابين وزير الدفاع الاسرائيلي قوله ان بعض الجنود والضباط الذين يخدمون في المناطق ابلغوه في احاديث دارت معهم : ان النشاط الذي يمارسونه صعب عليهم جدا، وقد سئم الكثيرون مطاردة الاطفال رماة الحجارة (هارتس 88/2/12 «القلق على الوجود»).

المادة القتالية والعنف الشخصي

ولكن تدهور المادة القتالية ليس محصورا في ميدان القتال وانما ـ كما هو الحال دائما ـ يمتد

ليشمل مجتمع الغزاة ايضا. فتدريب المادة القتالية الصهيونية على ارتكاب العنف الشخصي المباشر (في مقابل العنف المؤسس غير الشخصي غير المباشر) سيكون ولاشك له اصداء اجتماعية عميقة. ففي الولايات المتحدة وبعد مرور ما يقرب من خمسة عشر عاما على انتهاء حرب فيتنام لا تزال اعلى نسبة بين المساجين هي نسبة اعضاء المادة القتالية الامريكية. وعلى حد قول احدهم: «لا يمكن بعد ان يطلب منك ان تقتل وتضرب وتنصاع للاوامر، ان تتحول الى مواطن عادي في اليوم التالي حين يطلب منك ذلك». فاعضاء الجيش الاسرائيلي الذين يقومون بالمهام «الامنية» بين المدنيين والذين تصدر لهم الاوامر بالضرب وكسر العظام والذين يقومون بعد ضرب المتظاهرين بنقلهم حفاة ونصف عراة عدة اميال بعيدا عن مدنهم ويتركونهم على الرمال ليعودوا الى منازلهم والذين يخرقون كل المعايير المقبولة للحقوق الانسانية والمدنية، هؤلاء من الصعب عليهم ان يعودوا لمجتمعاتهم أشخاصا اسوياء يقومون بعملية البناء الاجتماعي.

وكما يقول داني روبنشتاين («الامن القومي» دافار 1 فبراير 1988):«ان النظام الحاكم في المناطق هو انحراف كبير». وحينما يصبح النظام ذاته انحرافا فلا شك ان مقاييس المقاتل ستختل تماما.

ويمكن القول:ان المجتمع الاسرائيلي مجتمع مبني على العنف منذ بدايته، عسكري في بنيته ولذا يمكنه ان يمتص العائدين مرة اخرى بسهولة ويسر. وقد يكون في هذا شيء من الحقيقة، ولكن العكس ايضا قد يكون صحيحا اذ انه مع وجود جرعة عالية من العنف في الرؤية والممارسة الاسرائيلية فان هذا يكوّن استعدادا كامنا عند المواطن الاسرائيلي لارتكاب العنف. وفترة الخدمة في الضفة والقطاع ستسوّي العنف وتجعله سويا مقبولا!

وهناك مجموعات داخل المجتمع الاسرائيلي ذاته قد بدات تدرك الاخطار الاجتماعية للعنف الموجه للاخر،فنظمت مجموعة من المصورين معرضا عن الانتفاضة في القدس ورفعوا «عريضة شددوا فيها على الخطر الاخلاقي الذي يهدد اسرائيل نتيجة لسياسة الضرب بالعصي، وتطالب بوضع حد للسياسة الحالية في الاراضي المحتلة».وجاء تحذير من مجموعة كبيرة من علماء النفس واطباء الامراض العقلية مثيرا للاهتمام. فلقد لفت نظر الاسرائيليين الى «مخاطر الاحتلال الدائم الذي يبعث بمجتمعنا الفساد والمرض، ولذا نحذر من الانعكاسات السيئة لاعمال القمع على الجنود انفسهم». ودعوا الى وضع حد لاستمرار فرض السيطرة والاحتلال على شعب اخر (حداشوت 5 فبراير 88 وعل همشمار 29 يناير 1988، «القلق على الوجود»). والعنف ضد الاخر، هو في نهاية الامر ضد الذات ـ خاصة اذا كان هذا العنف ليس مجرد انحراف شخصي وإنما نابع من عقيدة أسطورية ومترتب على أمر عسكري.

سبعة عشر الف سجين في واحة الديموقراطية الغناء

من الادعاءات الاساسية التي كانت تروجها اسرائيل انها في آخر حدود الغرب واول حدود الشرق (وهذه هي الرؤية الصليبية الغربية لفلسطين) فهي قلعة امامية للحضارة الغربية وواحة غناء للديمقراطية. وقد تم بيع هذه الصورة على نطاق واسع في العالم الغربي بل وفي العالم العربي.ولكن الديموقراطية الاسرائيلية تتناسب تناسبا طرديا مع مدى الاستسلام العربي، فكلما زاد الاستسلام زاد السلام، فإن استيقظ العرب لم يعد هناك مجال للجزرة او الديمقراطية وتخرج العصا الغليظة والرشاش العوزي والاجراءات الاخرى التي لا يمكن وصفها بالديموقراطية او الليبرالية.

وهذه هي احدى انجازات الانتفاضة العديدة، إذ سقط القناع الديموقراطي وبعد ان كان يشير الاسرائيليون الى انه يتم الحفاظ على الامن في الضفة والقطاع بالف جندي وحسب تغيرت الصورة تماما ونقل عشرات الالوف من الجنود المدججين بالسلاح وبدات عمليات الابعاد والاعتقال بدون محاكمة،واعتقال الاحداث والعقوبات الجماعية ولا يمر يوم واحد لا يسقط فيه شهيد فلسطين برصاص اسرائيل الديمقراطي،حتى بلغ عدد الضحايا مع منتصف شهر يوليه حوالي 250 قتيلا.وطبقا لتقرير مؤسسة الحق، وهي مؤسسة في الضفة الغربية متفرعة عن اللجنة الدولية للقانونيين، «اعتقل اكثر من سبعة عشر الف فلسطيني منذ بدء الانتفاضة، ولايزال ستة الاف منهم رهن الاعتقال، بضمنهم الفان وخمسمئة معتقلون اداريا»، وهو تعبير ملطف لوضع الاشخاص الذين يعتقلون بدون محاكمة.

ومعظم معتقلي اليوم تتراوح اعمارهم بين خمسة عشر عاما وخمسة وثلاثين عاما، فاذا اضفنا لهذه الحصيلة اربعة الاف وخمسمئة عربي، معظمهم سجناء مدانين اعتقلوا قبل ديسمبر، يصبح المجموع حوالي عشرة الاف وخمسمئة فلسطيني يقبعون الآن خلف القضبان» (الايكونومست «اسرائيل تتجاهل العدالة في الاراضي المحتلة» القبس 7 يونيه 1988).

ولعل اسرائيل هي الديموقراطية الوحيدة في العالم التي يقترح فيها احد كبار المرشحين، بنيامين نيتنياهو، مرشح الليكود ومندوب اسرائيل السابق لدى هيئة الامم، ان يتمّ قمع الانتفاضة بالطرق الثلاث التالية:

- إبعاد زعماء الانتفاضة الى لبنان، وذلك يعني حسب قوله، إبعاد مئات الفلسطينيين.
- قتل كل من يلقي حجرا او زجاجة حارقة. فنسبة الاصابات، كما قال، مازالت بين الفلسطينيين، واحدا في المئة الف، وهي نسبة قليلة، ويجب رفعها، «حتى يسود الهدوء» !؟
- اغلاق الارض المحتلة امام وسائل الاعلام، المكتوبة والمسموعة والمرئية، بشكل تام (الشرق الاوسط «لعبة شد الحبل بين عسكر اسرائيل وسياسييها» 12 يوليه 1988).

وتساقط الاقنعة الديمقراطية وأوهام الاحتلال الليبرالي ـ تماما مثل العنف ـ ليس امرا مقصورا على الاخر بل يمتد ليشمل المجتمع الغازي. وقد تنبأ شعياهو ليبوفيتش، المفكر الديني الاسرائيلي منذ عشرين عاما ان الاحتلال الاسرائيلي لغزة والقطاع هو بمثابة السرطان. وكتب في اليوم السابع لحرب الستة ايام، يتنبأ بان «كل وكالات المخابرات الرئيسية : الشين بيت والشرطة السرية، ستصبح الوكالات الرئيسية لاسرائيل. اذا كانت اسرائيل تريد السيطرة على شعب اخر فانها ستجعل من المخابرات وكالة اساسية في الدولة» (دافار يونيه 1988). وتصاعد الانتفاضة لابد أن يسرع بهذه العملية فمع تقهقر الدولة الصهيونية أمام الانتفاضة لابدّ أن تلجأ للارهاب ولمزيد من الارهاب والذي يتم جزء كبير منه من خلال أجهزة المخابرات، والتي لابدّ أن يستفحل نفوذها بالتالي داخل المجتمع.

ولكن اثر الانتفاضة لا ينصرف الى هذا الجانب من النظام السياسي الاسرائيلي بل إن له آثارا اكثر عمقا ويتضح فيما يسميه المعلقون الاسرائيليون «تسييس» القوات المسلحة الاسرائيلية. فقد ورد في مجموعة مقالات ليورام بيري بعنوان «الحرب السابعة» (دافار 11 ـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ 16 مارس 1988 الملف 49) ان الجيش المحترف يتمثل في انه «جيش غير سياسي، جيش يقوم بتنفيذ السياسة، التي تضعها المرتبة السياسية، من خلال قدر معين، ومحدود، من التأثير على هذه السياسة. ولكن، عندما يتعين على جيش ان يخوض حربا سياسية، ويطور، من اجل ذلك، عقيدة عسكرية ـ سياسية، فانه يخترق بالضرورة، الحيز الذي يقتصر على المرتبة السياسية، حيث سيدخل في صدام مع السياسة، ان عاجلا او اجلا. واذا انتهج سياسة معتدلة، اكثر من اللازم سوف يهاجمه الساسة المتشددون. واذا انتهج سياسة عدوانية، اكثر من اللازم، ضد الثائرين، سوف يتعرض للنقد من جانب الساسة المعتدلين. . .

«ومن ثم، تميل الجيوش الضالعة في حروب سياسية الى ان تصبح، بذاتها، هيئة سياسية، تقوم باللعب داخل النظام السياسي، وفي حالة الجيش الفرنسي في الجزائر تم تطوير هذا النموذج تطويرا متطرفا، فعندما قرر الرئيس ديغول وقف الحرب والانسحاب من الجزائر، عارض ذلك قادة الجيش الفرنسي في كولون، ولم يكتفوا بالاعراب عن رايهم، او التصدي للسلطة الشرعية في العاصمة، وانما حاولوا، ايضا، القيام بانقلاب عسكري واسقاط الرئيس.

«لكن المشكلة لا تنشأ بين النخبة العسكرية وبين النخبة السياسية فحسب. فعقب حرب مضادة لحرب ثورية متواصلة، قد ينشأ، ايضا، شرخ بين الجيش والشعب. والسبب في ذلك مفهوم من تلقاء ذاته. فاذا دار جدل قومي حول الحرب، فمن الطبيعي ان تحظى العقيدة العسكرية ـ السياسية للجيش بتأييد جزء من الشعب، بينما سيكون الجزء الاخر

معارضا لها، وهكذا لن يبقى الجيش طرفا قوميا شاملا وموقرا، وهيئة فوق ـ حزبية محايدة، ومقبولة لدى المجتمع بأسره، وبهذا تتسع شقة الخلاف بين المجتمع والجيش».

بعد هذه المقدمة العامة عن علاقة الجيش بالسياسة ينتقل بيري الى علاقة الجيش الاسرائيلي بالسياسة، فيرى ان الاحتلال لم يضر به حتى الآن للاسباب التالية :

«المستوى المرتفع من المشروعية، الذي يضفيه المجتمع الاسرائيلي على تواجد الجيش، ذاته، في المناطق [المحتلة]؛ المستوى المنخفض من معارضة السكان الرازحين تحت الاحتلال؛ الاجهزة المهمة، التي قام الجيش الاسرائيلي بتطويرها، للتخفيف من خطر المساس به، عقب تأدية مهام الحكم العسكري، وتتمثل هذه الاجهزة، اساسا، في دفع وظيفة الحكم العسكري الى هامش نشاط واهتمام الجيش».

ولكن الانتفاضة وعصيان السكان غير كل هذا، وبدا الجيش الاسرائيلي في التدهور نحو الهاوية، التي سقط فيها الجيش البريطاني في ايرلندا، او الجيش الفرنسي في الجزائر، او الجيش البرتغالي في انغولا وموزامبيق.«وبالنسبة لحالتنا فقد بدا الجيش الاسرائيلي في تطوير عقيدة عسكرية ـ سياسية (على سبيل المثال، هل نسمح للاعلام بتغطية الأحداث في المناطق) ؟. ان الموقف الذي اتخذه [الجيش] يجعله يدخل، بالضرورة مثلما يتنبأ التحليل النظري،» في جدل مع قطاعات من المرتبة السياسية».

وما يتحدث عنه بيري ليس التسييس، بقدر ما هو تعبير عن تساقط الاجماع القومي الاسرائيلي؛فالمؤسسة العسكرية الاسرائيلية جزء عضوي من النخبة السياسية وتشارك في صنع القرار. بل انه في كثير من الاحيان لا يمكن تمييز القطاع السياسي عن القطاع العسكري في نخبة اسرائيل الحاكمة (على عكس النظم الديمقراطية الغربية). بل ان معظم ـ ان لم يكن كل ـ المؤسسات الصهيونية هي مؤسسات لها بعد عسكري، ولا يمكن كتابة تاريخ اي شخصية عامة او اي مؤسسة او اي ظاهرة دون التعرض لبعدها العسكري. واذا كانت كل الشعوب خرجت من صفوفها قواتها المسلحة، فالقوات المسلحة الاسرائيلية هي التي افرخت الشعب الاسرائيلي (ان قبلنا بتطبيق هذا المصطلح على اعضاء التجمع الصهيوني). وكما قال احد المتفكهين كل الشعوب عندها سلاح طيران، اما نحن فعندنا سلاح طيران عنده شعب. والنكتة (مثل اي نكتة) فيها مبالغة ولكنها تضع يدنا على حقيقة بنيوية عميقة في الكيان الصهيوني. وهذا امر متوقع في مجتمع استيطاني احلالي مبني على الغزو وطرد السكان. واسرائيل ليست فريدة في هذا، فهذا هو الوضع في جنوب افريقيا، وهكذا كان الحال مع مؤسسات البيورتان المستوطنين الاوائل في امريكا الشمالية ابتداء بالزراعة المسلحة وانتهاء بالكنائس المسلحة.

ولا تظهر داخل هذه المؤسسات العسكرية السياسية اية ثغرات او مشاكل طالما ان ثمة اجماع قومي بخصوص غزو الارض وطرد السكان او ابادتهم،ولكن مع سقوط الاجماع يختلف

الامر وينقسم المجتمع وينعكس الامر على كل مؤسساته. فاستخدام اصطلاح «تسييس» هو من قبيل تسوية النسق السياسي الاسرائيلي (انظر الملحق).

وقد شرح عضو الكنيست ماتي بيليد القضية في هارتس (2 مارس 1988) (الملف 48) على الرغم من أنه عنون مقاله «التسييس يجتاح الجيش الاسرائيلي»:

«ان شريحة الضباط العليا والمتوسطة قد بدات تعرب عن آرائها، علانية، ضد ظاهرة النقاشات بين الاحزاب، وتدعي انهم يسببون ارباكا لقدرتهم على العمل بنجاعة، وحتى الجنود العاديون، استطاعوا ان يقولوا لرئيس حزب العمل، خلال زيارته لهم في مواقع خدمتهم، ان من الواجب القضاء على زعماء عرب، وحل الزعامة الفلسطينية، وان ذنب الحكومة يتمثل في ان من المتعين عليهم القيام بهذه اللعبة الحمقاء، لمواجهة راشقي الحجارة، من خلال ضبط النفس، وقد قيلت هذه الكلمات في حضور القادة. لان الجنود قد سمعوها منهم، ولذا سمحوا لانفسهم بتكرارها على مسامع رئيس حزب العمل؟»

وما لا يذكره بيليد ان القادة سمعوا اراءهم السياسية من الليكود الداعي لاستخدام القوة، ولذا لا يعبرون عن راي عسكري محض او راي سياسي نشأ في صفوف العسكر وانما يعبرون عن راي سياسي لم يعد يحوز على الاجماع القومي، وان كانت كل المؤشرات تدل على انه يحوز على غالبية الاصوات. بمعنى ان استخدام العنف هنا سيتم من خلال اطر الديمقراطية الاستيطانية. ولذا فالمثالية التي يعبر عنها بيليد في نفس المقال ساذجة بعض الشيء: «ليس من اضغاث الاحلام، ان نتخيل، انه اذا قامت حكومة في اسرائيل تريد تغيير سياسة الضم [الكامل او الجزئي] واتخاذ خط سياسي مختلف، بالنسبة لمسيرة السلام، فمن المحتمل ان يحظى رئيس الحكومة بزيارة عدد من العقداء، الذين سيوضحون له انه لن يسمح له باجراء مثل هذا التغيير. واذا حاول رئيس الحكومة، عندئذ، الاتصال برئيس الاركان ليشتكي اليه، فانه قد يجد خطوط تليفوناته مقطوعة، اذ يستطيع سلاح الاشارة في حالات الطوارىء، السيطرة على نظام الاتصال الهاتفي في الدولة، والتصرف فيه كما يشاء».

ان مثل هذا الاحتمال غير وارد لإن الجيوب الاستيطانية جيوب عضوية، ولذا فهي قوية وهشة في ذات الوقت•فلا اتصور ان الكيان الصهيوني يمكن ان يصل لهذه النقطة فالانتخابات كفيلة بان تضع في الحكم من هو اكثر صقرية من شارون واكثر صلفا من شامير، واكثر مزايدة من ليفى الحريص على ان يثبت انه اكثر الصقور صقرية ! ولذا لن يضطر سلاح الاشارة قط ان يقطع خطوط الاتصال.

ويجب أن نشير ان هذا التسييس (والذي نشير اليه بتآكل الاجماع القومي والانقسام) لا يعبر عن نفسه بشكل قمعي وحسب وانما يعبر عن نفسه بشكل احتجاجي ايضا. فعلى سبيل المثال هنالك تلك العريضة/البيان «التي وقعها 160 ضابطا رئيسيا وجنديا والتي جاءت بشكل نداء وعنوانه «لنوقف اعمال القمع». والنداء تم اطلاقه في يناير 1988 أي بعد شهرين

من بدء الانتفاضة. ولم يقف الامر عند حدود النداء، بل تعداه الى اعلان قرارهم بالامتناع عن القيام بالخدمة العسكرية في الضفة والقطاع حتى ولو كان ذلك امرا عسكريا».

وقد دعا الخطباء الجنود في تظاهرتين حاشدتين في حيفا والقدس في 13 فبراير 1988 الى «عدم اطاعة الاوامر غير القانونية الصادرة عن قادتهم» في حين ذكّر المستشار القانوني للحكومة الاسرائيلية الجنرال امنون ستراشوم الجنود بـ«واجب عدم اطاعة اي امر غير قانوني»

(آمنون كابيليوك : «اسرائيل الحيرة والانحراف» لوموند ديبلوماتيك نقلا عن سامي ذبيان «القلق على الوجود» الشرق الاوسط 20/6/1988). كما «تحدثت الصحف عن قيام ألف ضابط اسرائيلي من رتب عالية ومتوسطة بوضع رسالة مفتوحة انتقدوا فيها سياسة اسحاق شامير رئيس الحكومة، ودعوه الى اختيار طريق السلام والتخلي عن فكرة «اسرائيل الكبرى» وذلك بعد تصاعد عمليات القمع والاضطهاد ضد الفلسطينيين (لوموند 11/2/88، «القلق على الوجود»). وكتب احد جنود الاحتياط الاسرائيليين رسالته بخط كبير على جوانب اكثر من مئة دبابة اسرائيلية، وتمثلت هذه الرسالة في دعوة زملائه من جنود الاحتياط الى رفض الخدمة في الاراضي المحتلة (ميلان كوبيك «الانتفاضة اوجدت جيلا اسرائيليا يعارض استمرار الاحتلال» نيوزويك، القبس).

نظرية الأمن

ومن أهم نتائج حرب 1973 أنها هزت دعائم نظرية الأمن الاسرائيلية التي كانت تستند إلى فكرة «الحدود الجغرافية الآمنة» والتي أثبتت الجيوش العربية مدى زيفها. والانتفاضة هزت هذه النظرية مرة أخرى وبعنف وكما قال زئيف شيف، المعلق العسكري الاسرائيلي: «إعتقد الاسرائيليون مع مرور الزمن أن الأرض المحتلة تؤمّن لاسرائيل أمنا أضافيا. وقد جاءت الاحداث الراهنة لتبين أنه حتى لو كانت هذه الأرض تشكل حزاما أمنيا في حالة حدوث حرب شاملة مع العرب، فإنها في الوقت نفسه تشكل عبئا (أمنيا) قد يتحول ذات يوم إلى تهديد عسكري حقيقي». ثم تبين أنه من وجهة نظر عسكرية محضة لا يمكن لشعب عدد أفراده 3,5 ملايين نسمة أن يفرض بصورة دائمة حالة حصار دائم مع حظر التجول على شعب من مليون ونصف مليون من الافراد («الجيش الاسرائيلي يخوض حربا خاسرة في الضفة الغربية وقطاع غزة» ليبراسيون الفرنسية عن الوطن 7 مارس 1988).

وبين زئيف شيف (نيوزويك 8 فبراير 1988) أنه في حالة اندلاع الحرب فإن القوات الاسرائيلية ستضطر للقيام بالدفاع عن المستوطنات لتأمينها وتأمين الطرق ومستودعات المؤن. كما أن جهاز المخابرات يجب أن يعاد تنظيمه حتى يمكنه التصدي لملايين العرب. وقد ذكر الدكتور نبيل شعث أن إسرائيل تحشد الآن 140 ألف جندي إسرائيلي لقمع الانتفاضة وأنها

تحتفظ حاليا بقوات عسكرية في غزة تزيد 30٪ عن القوات المستخدمة لاحتلال غزة عام 1968 . ويعني ذلك أن الحدود المصرية والاردنية بلا حماية والحماية موجهة للحدود السورية واللبنانية فقط (في ندوة نقابة الصحفيين المصريين، القبس 30 مارس 1988). وكل هذا يتفق مع وجهة نظر زئيف شيف الذي صرح لليبراسيون الفرنسية بأن الجيش اضطر لتعبئة أعداد لم يسبق لها مثيل للخدمة في الأرض المنتفضة.

الاختباء وراء جبال فيتنام وفي غاباتها

وقد كتبنا هذه الدراسة لنثبت أن الانتفاضة لم تكن تعبيرا عن يأس عقيم وإنما تجل لامتلاء عربي فلسطيني واكتشاف للذات واسترداد لها. ويظهر ذلك أكثر ما يظهر في المجال العسكري ففي مقابل التآكل التدريجي الذي بدأ قبل الانتفاضة ثم سارعت هي به نجد أن التفاف الفلسطينيين حول منظمتهم يرفعون أعلامها وألويتها ويقومون بالحملات والعمليات العسكرية باسمها فيزدادون هم تماسكا بالتفافهم حولها، وتكسب هي مزيدا من الشرعية. ولعل هذه الثقة المتزايدة في الذات هي التي تعبر عن نفسها من خلال ما سميته بالابداع الثوري أحد سمات الانتفاضة الاساسية.

ويفسر أصحاب النموذج المادي ما يحدث في الانتفاضة مرة أخرى بأنه استجابة «لأحكام الضرورة» وأن الفلسطينيين يستخدمون الحجارة لأنهم لا يجدون الرصاص، وقد يستخدمون الرصاص لأنهم لا يجدون القنبلة النووية، وهكذا حسب مقياس تراكمي تصاعدي، توجد في أدنى درجاته الحجارة وفي أعلاها القنبلة النووية. ولو صح هذا القول لأخذت كل الثورات شكلا تصاعديا واحدا يتبع النموذج الكمي نفسه. ولكن دارس الثورات يعرف أن الأمر مغاير تماما.

والمنطق التراكمي العام، المادي والمصمت، هو الذي أدى إلى تراكم الكآبة على العقل العربي في الستينيات حين كنا ننظر حولنا وبدلا من أن ندرك ونبدع ونحرر الوطن، كنا ننوء بحمل مقولات الآخر الادراكية فنذم الزمان ونلعن الدهر ونحسد الفيتناميين على الجبال والغابات التي عندهم (مما دعا أحد الظرفاء للقول إننا يجب اذن أن نزرع الغابات والجبال). وما حدث الآن هو ادراك للهوية وتخل عن المنطق التراكمي لنصل إلى نقطة تتحول فيها الارادة إلى ابداع، ويترجم الانسان/ السر نفسه فيها إلى انتفاضة.

إن الفلسطينيين العرب ادركوا خصوصيتهم وادركوا خصوصية عدوهم وخصوصية التربة والبيئة فأبدعوا اسلحة مناسبة لأقصى حد لمعركتهم. فالعدو الصهيوني عدو منظم كفء وباطش إلى اقصى حد، نجح في تعبئة الاعلام الغربي ضد «الارهابيين الفلسطينيين». وردا على ذلك ابتدع الفلسطينيون النموذج الانتفاضي في النضال والذي يقف بين الثورة المسلحة على طريقة فيتنام،والمقاومة السلمية (السلبية) على طريقة غاندي ـ فهي انتفاضة غاضبة تأخذ شكل فعل ضد العدو، ولكنها سلمية (دون أن تكون سلبية) لأنها لا تستخدم القنابل أو

الرصاص ولهذا لا يمكن وسمها بأنها ارهابية رغم غضبها الواضح . كما أنها تنغص على العدو حياته واستقراره، وتؤكد له أن ثمة استمرارية فلسطينية وثمة هوية راسخة، تنجز هذا الهدف دون أن تستفزه بحيث يلجأ لحرب الابادة، تلك المتتالية الجاهزة في ادراجه. وقد أدرك الفلسطينيون أن العدو لا ضمير له ولكنه يخشى كاميرات التليفزيون بعض الشيء (وهذا جزء من نموذجه المعرفي، أن تحل العلاقات العامة محل القيم، والصورة الاعلامية محل الضمير)، ولذا فاستخدام تلك الأسلحة والأساليب النضالية الأخرى تفوت على العدو فرصة استخدام الرصاص أو تجعله يستخدمه باحتراس شديد.

وقد جاء في مجلة نيوزويك (25 يناير 1988):أن المخابرات الاسرائيلية استمعت لعدة مكالمات من ياسر عرفات يطلب من المناضلين عدم استخدام الأسلحة النارية لأسباب لا يصعب معرفتها، مثل ضمان استمرار الانتفاضة وعدم استفزاز العدو وعدم اعطائه المبرر للقيام بحمام دم، إذ أن المطلوب هو انهاكه وفضحه أمام جماهيره وأمام الرأي العام العالمي. فعدم استخدام الأسلحة النارية لا يعود لغيابها (فهي موجودة حسبما يقول الاسرائيليون أنفسهم) وإنما لأن من يقودون الانتفاضة قد تبنو اشكالا نضالية تتفق مع طبيعة الأرض وطبيعة المعركة ومكانات الجماهير التي يقومون بقيادتها. وعلى كل ـ لكل مقام مقال.

تكامل غير عضوي

وصل النموذج المعرفي الاداركي الذي أشرنا إليه من قبل (أي نموذج الانسان / السر الذي لا يمكن تفسيره والذي يعبّر عن نفسه في شكل تكامل غير عضوي) نقول وصل هذا النموذج إلى قمة تبلوره في القاء الحجارة،وكل شيء آخر في الانتفاضة هو مجرد تنويع على القاء الحجارة. ولكن كيف يمكن أن نقول:إن القاء الحجارة تبلور لنموذج معرفي؟ أليس القاء الحجارة حقيقة مادية؟ ولأوضح معنى ما أقول يجب أن أشير إلى أن هذا الشيء المستدير المستقر على الأرض الذي يسمى «الحجر» هو شيء مادي مصمت، دال دون مدلول، إن أردنا استخدام لغة التفكيكيين، أو دال محدود الدلالة، منغلق على نفسه، إن أردنا توخي الدقة في التعبير. وواقعة أن انسانا ما يلتقط هذا الحجر ويلقي به على رأس آخر هي أيضا مجرد واقعة مادية، دال دون مدلول أيضا، أو دال محدود الدلالة ـ هذا إذا تم النظر إلى الشيء والى الواقعة من الخارج بشكل مادي. ولكنها يكتسبان دلالة عميقة ومعنى رمزيا يتجاوزان الحركة الخارجية إن تم رصدهما من الداخل وعرفنا أن الحجر حجر فلسطيني التقطه من الأرض الفلسطينية شاب فلسطيني غاضب، يحمل في داخله الشراره الالهية والتطلعات البشرية والقى به على عدو غاصب يحمل آلة الدمار! هنا يتحول الشيء إلى معنى له دلالة تتجاوز الواقعة المادية، «فيتجلّى السر وينطق الحجر»!

بهذا المعنى نقول : إن إلقاء الحجارة سلاح لدحر العدو، ورمز متبلور لهذا الشيء

الأساسي والجوهري الكامن خلف السطح الذي يعلن الفلسطينيون عن وجوده، وهو التعبير المتبلور عن ذلك النموذج المعرفي الكامن في كل اشكال النضال الأخرى والنظير الأساسي لكل الأسلحة المختلفة التي يستخدمها المنتفضون. ونحن إذا نظرنا للحجر وجدنا أنه يتسم بالصفات التالية :

* الحجر متوفر في كل مكان ولا يستورد من الخارج.
* يمكن استخدام نفس الحجر عدة مرات، وربما إلى ما لا نهاية.
* لا يمكن نزع هذا السلاح او مصادرته.
* لا يتطلب استخدام الحجر دورات تدريبية أو حلقات توعية.
* بوسع الانسان ان يلقي بالحجر ويفر فيضمن لنفسه البقاء.
* يسبب الحجر الألم والأذى، ولكنه ليس مدمرا، ولذا فإن امسك العدو برامي الحجر (خاصة في وجود وسائل الاعلام) فلن يمكنه استخدام آلته العسكرية ضده إلا بحذر شديد.
* لا يتطلب النضال بالحجارة عملية تنتظيم مركزية أو قيادة قوية.
* يمكن لكل الناس من كل الأعمار استخدام الحجر وارتجال طريقة القائه بالطريقة التي تريحهم وتضمن في ذات الوقت اصابة الهدف.

وكثيرا ماناديت بأنه يجب أن تتم عملية النضال من خلال حلقات نضالية مترابطة متكاملة دون أن تكون مرتبطة عضويا.هذه الحلقات النضالية يمكنها أن ترتجل بشكل مباشر حسبما تمليه الظروف بدلا من أن تبذل أقصى جهدها في تنفيذ الأوامر بحذافيرها. و«الارتجال» لا تزال تقاليده حية في مجتمعاتنا سواء في الاشكال الادبية المختلفة أو في حياتنا اليومية. وهذه الحلقات الثورية يمكنها أن تشكل بسرعة وترتجل ثم تنفض، ثم تعيد تشكيل نفسها مرة أخرى، والهدف من ذلك هو تفويت الفرصة على أصحاب النموذج الغربي المادي (متمثلا هنا في المؤسسة الصهيونية بجيشها واستخباراتها) اختراق تنظيمات المقاومة ودخولها وتوظيف بعض قطاعاتها لصالحه (دون أن تدري). فالنموذج الآخر عنده مقدرة تنظيمية فائقة تساندها بنية تحتية وامكانات تحتية وامكانات مادية تكنولوجية رهيبة. وإذا كان الهدف من التطبيع هو تحويلنا إلى أجزاء مناسبة في النظام، جزء من كل عضوي «فالنضال الثوري لا بدّ أن يأخذ شكلا مغايرا تماما حتى يقدر له البقاء الدائم والحركة المستمرة. ولنلاحظ أن الارتجال يفترض وجود ثغرة بين المقدمات والنتائج، مما يتيح حرية الحركة وصعوبة التنبؤ بسلوك الفاعل - إن نموذج التكامل غير العضوي الذي يستند إلى فكرة الانسان القادر على الابداع المستمر والذي لا يمكن رده إلى عناصر مادية معروفة مسبقا يمكن حسابها بدقة والذي يصعب بالتالي معرفته بشكل كلي والتنبؤ بسلوكه وكأنه النملة، هذا النموذج يعبر عن نفسه في القاء الحجر وفي كل أشكال النضال الفلسطيني في الانتفاضة:

1 - شكل التنظيم والقيادة.

2 ـ طريقة القتال (الفر والكر).
3 ـ انشاء مناطق محررة ونظم بديلة.
4 ـ وسائل الاتصال.
5 ـ توظيف الأغاني والبطيخ وجثمان الشهداء في عملية النضال.
6 ـ اشعال النيران.
7 ـ أشكال التكافل الاجتماعي.

جنرالات الحجارة المقدسة

صرح احد قواد الفرق الاسرائيلية في مقال لروبرت روزنبرغ بعنوان «ما كان لن يكون وما سيكون لن يكون مثلما كان» (الجيروساليم بوست 19 فبراير 1988): ان جنرالات الحجارة قد ادركوا بعمق حدسهم انهم وصلوا للمرحلة الثالثة من مراحل ماو الخمسة للثورة الشعبية، وانهم قد تملكوا ناصية اسس التكتيكات الخاصة بالهجوم وتطويق جناح الجيش والكمائن والهجوم المضلل والتراجع التكتيكي. ويشير المقال لأحد منشورات الانتفاضة في غزة التي تنادي على «جنرالات الحجارة المقدسة ان يستمروا في اذلال جنرالات الة القمع الهمجية». (وكأن كاتب المنشور مدرك لنموذجه المعرفي بما يحوي من سر وقداسة في مقابل النموذج الاخر الهندسي المادي الميكانيكي).

ما هي هذه القيادة ؟ ومن هم هؤلاء الجنرالات ؟ يمكننا القول:ان الهيكل التنظيمي للانتفاضة يتسم باللامركزية وبرخاوة العلاقة بين حلقات التنظيم المختلفة. وقد ظهر في نيوزويك (9 مايو 1988) مقال في غاية الاهمية بعنوان «من يقود الانتفاضة ويديرها ؟» وعلى الرغم من ان المقال يبدا بطرح المقولة الغربية (التي تروج لها اسرائيل احيانا) ان الانتفاضة لا علاقة لها بالمنظمة الا ان الكاتب يتخلى عن هذه الاطروحة في نص المقال ذاته ويقدم صورة تفصيلية لهيكل الانتفاضة التنظيمي.

(وعلى كل صرح امنون شاهاك، رئيس الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية، «انه لا توجد اي قيادة غير منظمة التحرير الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة» وكانت هذه هي المرة الاولى منذ بدء الانتفاضة التي يعترف فيها مسؤول اسرائيلي بهذا المستوى بهذه الحقيقة المعروفة. الشرق الاوسط 1 يوليه 1988).

ويؤكد المقال ان القيادات المحلية للانتفاضة تفضل ان تظل اسماءها غير معروفة والقائد الذي يتحدث عنه المقال (ويشير اليه بأنه محمود) يضطلع بوظيفة تحويل النشاط التلقائي للمخيم الذي يعيش فيه الى اشكال من الاحتجاج المنظم الكفء. وقد قام محمود بالاشتراك مع سبعة اخرين، يمثلون كل فصائل المقاومة والمستقلين في منطقة ما، بتشكيل مجموعة من اللجان السرية مسؤولة عن جوانب الانتفاضة المختلفة. فتضطلع احدى اللجان بمسائل الرفاه الاجتماعي مثل توفير الطعام والادوية خاصة اثناء حظر التجول وتزويد الفقراء بالنقود.

ويبدو أن هناك لجنة اعلامية مهمتها التأكد من توصيل المعلومات الدقيقة التي تعبّر عن وجهة نظر المتنفضين للصحفيين الاجانب والاسرائيليين. ولكن أهم اللجان هي لجنة «عمليات الجهاد» وهي لجنة مكوّنة من ثلاثة أو أربعة أشخاص تقرر العمليات التي سيقوم المتنفضون بها من إلقاء الحجارة الى مواجهة مع الجيش الاسرائيلي. وبعد ان يتم اتخاذ قرار بشان تاكتيك ما، فإن اللجان الشعبية تحاط بها علما وتقوم هي بتوصيل الرسالة لرؤساء الجماعات المتنفضة المحلية.

وكل جماعة مقاتلة لها «وحدتها الضاربة»،وهي مجموعة من المجاهدين المكرسين تماما للانتفاضة،ويقوم هؤلاء بالقاء الحجارة واعداد قنابل المولوتوف ويقيمون المتاريس. وهم يعملون يوميا من الساعة 10 الى 6 وان كان محمود قد أشار الى أن هناك اتجاها نحو إنشاء وحدات ضاربة ليلية. (توجد لجان مراقبة ليلية مهمتها تحذير السكان في حالة حدوث غارات من جانب الجيش الاسرائيلي). ولا يوجد اي صراع بين المجموعات المتنفضة على مستوى الشارع كما لا توجد اي رقابة عليهم، اذ يقوم المتنفضون بواجبهم النضالي اليومي وتذهب قياداتهم من آونة لاخرى للرئاسة لتلقي التوجيهات. ويلاحظ كاتب المقال ان الانتفاضة بهذا الشكل على مستوى الشارع امر شبه تلقائي يتحرك من نفسه، ولا توجد قيادة اعلى من محمود، قائد المنطقة. نقول «شبه تلقائي» لانه ليس تلقائيا تماما (لا يمكنه ان يكون كذلك) فمحمود يقوم بدور ضابط الاتصال مع القيادة الوطنية الموحدة، وهي القيادة العليا للانتفاضة.

ويبدو ان القيادة الوطنية نبعت من خمس جماعات:

حركة فتح، وحركة الجهاد الاسلامي، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والحزب الشيوعي الفلسطيني.«وقد كان يمثل كلا من المجموعات الخمس في البداية ثلاثة اعضاء في القيادة السرية المؤلفة من خمسة عشر شخصا. الا ان القيادة قررت في الآونة الاخيرة خفض عدد افرادها الى خمسة فقط لاسباب امنية ومن اجل زيادة مدى الفعالية والكفاءة. ولذا اصبح لكل من المجموعات الخمس ممثل في القيادة الموحدة». (واشنطن بوست «الانتفاضة مستمرة حتى تتحقق مطالب الشعب الفلسطيني» الشرق الاوسط 1988/6/20).

ولا يوجد اعضاء دائمون في هذه القيادة الوطنية التي يتغير تركيبها كثيرا «والقيادة - فيما يبدو - لديها من التكتيكات التنظيمية ما سمح لها ويسمح بحرية الحركة وربما بحرية التناوب والتمثيل بحيث خلا التنظيم، من قمته الى قاعدته، مما اسماه ايان بلاك في صحيفة الجارديان البريطانية «المحور الرئيسي» الذي يزيد وجوده في اي تنظيم من قابلية ذلك التنظيم للكسر. ومما لا شك فيه ان ذاك التنظيم يتمتع بتقاليد سرية مكنته من متابعة المهمات، والبقاء في الظل، مكتفية بالتوجيه «عن بعد»، ومن خلف خطوط المواجهة المباشرة». (أسعد عبد

الرحمن : «في رحاب مدرسة الانتفاضة : معالم ديمقراطية في الصورة التنظيمية» القبس 1988/6/18). ولعل هذا يفسر لماذا لم تتمكن الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية من التعرف على عضو واحد من القيادة الموحدة حتى هذه اللحظة (واشنطن بوست، عن الشرق الاوسط 1988/6/20).

ويلاحظ أن اللجان التنظيمية تأخذ شكلين فبعضها، بطبيعة الحال، سري مثل القيادة الوطنية الموحدة وبعض اللجان الوطنية مثل اللجان التي تضطلع بالمهام القتالية وتنظيم الاضرابات (وهي نشاطات غير مشروعة). اما اللجان التي تضطلع بالمهام النضالية المشروعة مثل تشجيع اشكال التكافل الاجتماعي وتوزيع المواد الغذائية واللجان النسائية ولجان تنظيم المرور فهذه شبه علنية.

والعلاقة بين القاعدة والقيادة علاقة رخوة للغاية، ديموقراطية لاقصى حد فمهمة القيادة الوطنية الموحدة هي تلقي الافكار من كل فصيلة من فصائل المقاومة وتضع الاستراتيجية العريضة للاستمرار في الانتفاضة. وهي تضع السياسات التي تصل للقاعدة لا عن طريق أوامر محددة وانما عن طريق توجيهات عامة تطلع عليها القاعدة من خلال المنشورات التي يلقى بها في الطرقات يوميا. وكما يقول كاتب المقال:لا تزود المنشورات للشباب الا بالخطوط العامة للمقاومة بينما يقومون هم في مخيماتهم وقراهم بتغذية الانتفاضة بالحياة.

ولا تلجأ قيادات الانتفاضة المحلية بتحدي القيادات التقليدية بل تقوم بتجنيدها وتوظيفها. فالمسجد هو احد الدعائم الاساسية وكذا الكنيسة. ولا يقوم المنتفضون بعزل القيادة التقليدية في القرى وانما يحتفظون بها كرموز للاستمرار وكجزء اساسي من الحقيقة الانتفاضية الجديدة. بل وتوظف معركة هؤلاء فيما نسميه «بالزراعة المقاومة» (احد اشكال الاقتصاد البديل) المبنية على العودة للارض والطرق الزراعية التقليدية واشكال التعاون والتكافل الاجتماعي. وكما يقول محرر النيوستيتسمان : «ان المثالية الريفية للوطنية الفلسطينية اعادت الناس الى الزمن الذي كان فيه المجتمع يلتف حول كبار السن في القرية، بدلا من الالتفاف حول الشباب من كسبة الاجور في عالم اليوم». («الانتفاضة تجعل الخضار والدواجن رموزا ثورية» القبس 1988/6/28).

ومع هذا تظل الاضرابات ويظل النضال اليومي في يد الشباب فهم الذين يقررون متى يغلق الطريق ومتى يمنعون العمال العرب من الذهاب لاسرائيل ويوزعون المنشورات ويقررون متى تغلق المحلات ومتى تفتح. وهم لا يستشيرون القيادات التقليدية بالضرورة في هذه الامور.

هذا التنظيم الرخو المليء بالثغرات يسمح بالحد الاقصى من المشاركة فالاحداث لا تدور حول القائد، وبالتالي ان اختفى لسبب او لآخر تستمر الانتفاضة. وكما قال شيخ إحدى القرى : الانتفاضة ليست في مكان واحد او شخص واحد. وكما يقول جون كفنر في مقال

بعنوان «القيادة الفلسطينية : منتشرة وغير مركزية» (النيويورك تايمز 3 ابريل 1988):لا يوجد قيادة كاريزمية، وانما تظهر المنشورات في الشوارع. فالقيادة تتكون من الاف الفلسطينيين على كل مستويات المجتمع في كل مدينة وقرية ومخيم. وجنود الانتفاضة هم الشبيبة ـ الشباب الذين نشؤوا تحت حكم اسرائيل، وهم غالبية سكان القطاع والضفة حيث نجد ان 75 ٪ من السكان تحت سن الـ 28.

ولان القيادة منتشرة وغير محدودة وغير مركزية، فان محاولات اختراق الانتفاضة قد فشلت، كما ان محاولة القضاء عليها عن طريق الارهاب والقمع والترحيل قد اثبتت فشلها. فقد حاول العدو قطع راس الانتفاضة على الطريقة الاسرائيلية الاجهاضية الشهيرة. (ولنلاحظ تكرار الاستعارة العضوية في الخطاب الاسرائيلي وفي طرق الادراك). وقد تم القاء القبض على 2000 ممن ظن انهم القادة، ولكن الاسرائيليين اكتشفوا (على حد قول تايم 25 يناير 1988) ان التنظيم في حالة عالية من السيولة وان هذه العملية لم تجد فتيلا.

وقد اكتشف الاسرائيليون الوظيفة الثورية لهذا الترابط غير العضوي فقد صرح رابين مرة انه بعد استعادة القانون والنظام فان اسرائيل «ستكون على استعداد للتعامل مع القيادة الفلسطينية الجديدة». فرد احد كبار الموظفين معلقا «عمن يتحدث رابين ؟؛ ومن هي هذه القيادة الجديدة» ! (نيوزويك 25 يناير 1988). وحينما سال احد الصحافيين الفلسطينيين احد قيادات الشباب عن دوره في قيادة الجماهير اجابه بقوله : «هذه ليست قيادة بالضبط، انها مجرد توزيع ارشادات وتعليمات» (اليوم السابع 4 يناير 1988).وقد وصف الصحافي اجابة القائد بانها تنم عن التواضع والامر لاشك كذلك، ولكنها تنم ايضا عن الادراك الدقيق لهذا الشكل المبدع من اشكال التنظيم.

جنرالات الخارج

ويبدو ان علاقة القيادة القومية في الخارج بالقيادات في الداخل هي ايضا علاقة تكامل غير عضوي، بحيث تعرف القيادة في الخارج امكانات الداخل وتطلعاته وتصدر له التوجيهات التي يقوم الداخل بتنفيذها بالطريقة التي تتلاءم مع كل منطقة وكل مخيم وكل شارع، حتى يظل هناك مجال للابداع والارتجال الخلاق. وتنظيم القيادات على هذا النحو «الانتشاري غير المحدد» في الداخل والخارج يعبر عن الملابسات المحيطة بجهاد الشعب الفلسطيني من اجل حريته واستقلاله وهويته. فهو شعب مشتت داخل فلسطين وخارجها،وقد قام العدو بتصفية القيادات المحلية اولا بأول (كان هذا هو احد الاهداف الاساسية في عمليات الارهاب الصهيونية منذ عام 1917). ولكن الشعب افرز قيادة له في الخارج تقوم بتسيير نضاله في الداخل. وقد كان هذا امرا ضروريا لأن القيادة في الخارج تتمتع بقسط اكبر من حرية الحركة ويمكنها ان تثقف نفسها وتزيد من كفاءتها وادراكها، فوجودها خارج ارض المعركة بدلا من ان يكون نقطة قصور اصبح نقطة ايجابية ومصدرا للنضج والابداع.

ولكن نظرا لوجود القيادة في الخارج لا على ارض المعركة تصبح احسن اشكال القيادة في الداخل هو هذا النوع الذي يتلقى الاشارات والتوجيهات من الخارج ثم يقوم بتوزيع الارشادات وبعدها يختفي ويذوب داخل جماهيره. ويشبه هذا النموذج في الادارة والقيادة النموذج الياباني في ادارة المؤسسات، ففي النظام الامريكي يتم اختيار اذكى العناصر واكثرها جرأة وابداعا ويتبعه الجميع بشكل عضوي. ولكن اليابانيين اكتشفوا انه نموذج يؤدي الى تآكل الابداع بين كل العناصر الاخرى ويصعد من الصراعات. ولذا فهم يختارون رجلا عجوزا طيبا صاحب خبرة كبيرة ولكنه ليس بالضرورة اكثر العناصر جرأة وابداعا. ويعمل الجميع لا خلفه وانما معه ومن خلاله مما يزيد من عنصر المشاركة والابداع بين الجميع. واعتقد ان نموذج الانتفاضة يقترب من هذا النموذج وهو ان القائد شريك داخل فلسطين، مرتبط بقاعدته يصعب فصله عنها. ومع هذا ان حدث ذلك فان هناك من يحل محله وبسرعة. اما خارج فلسطين فتوجد القيادة المركزية التي تصدر التوجيهات التي يتلقفها المنتفضون وينفّذونها لا كالجندي الذي لا عقل له (والذي تم ترشيده !) وانما بابداع من يعرف ملابسات الموقف. وهذا التكامل بين الداخل والخارج، والانتشار في الداخل والمركزية في الخارج يجعل من الصعب وربما من المستحيل القضاء على المقاومة او على قيادتها.

وقد علق ديبلوماسي امريكي على هذا الوضع غير المحدد بطريقته الامريكية التي تفترض أن الكون كله لابدّ أن يخضع للنموذج المعرفي العملي المادّي العضوي الذي يتحرك حسب قانون العرض والطلب، وكأن العالم كله سوبر ماركت كبير، لكل شيء فيه ثمنه، اذ قال هذا الديبلوماسي:لقد فشل الفلسطينيون في ان يذكروا بدقة ماذا يريدون من اسرائيل وما الذي بوسعهم ان يعطوها لها بالمقابل (النيويورك تايمز 31 يناير 1988). وبالطبع لم يطرأ له على بال ان رفض الدخول في عملية المساومة قد لا يكون فشلا، وانما هو نجاح وتعبير عن احد مخططات الانتفاضة. والفشل في نهاية الامر ليس فشل المنتفض وانما فشل من لا يريد ان يعترف بعرفات.

حتى الاطفال لا يخافون منا

وتعبر استراتيجية التكامل غير العضوي عن نفسها في تحركات المنتفضين العسكرية، فيبدو انهم يقسمون انفسهم الى جماعات توظف كل واحدة منها في هدف محدد تم تعريفه بطريقة رخوة. ويبدا الاشتباك باستخدام الاطفال الذين لا يتجاوزون الخمس او الست سنوات، فيرسلون بهم ليتحرشوا بالقوات الاسرائيلية. فمثلا تذكر الجيروساليم بوست، كيف ارسل الشباب طفلا في الخامسة من عمره، يحمل قوسا وسهما وجهها الى جنود الاحتلال، بحيث ضحك الفلسطينيون واغتاظ الجنود للغاية. وقال احدهم:«زفت، حتى الاطفال لا يخافون منا الان» (الجيروساليم بوست 7 فبراير 1988). (يسمى هذا في التكتيك

العسكري،التوجيه المعنوي : وقد بدا الانتصار العربي الاسلامي على التتار بذبح رسل ملك المغول حتى يعبر العرب والمسلمون حاجز الخوف).

وقد ذكرت (التايمز) وصفا لاحدى العمليات (الشرق الاوسط 16 فبراير 1988) التي ذكرت ان المنتفضين يبدون وكأنهم مجموعة من الشباب تتسم بالفوضى، لا تسير وفق مخطط مدروس. ولكن ما ان وصل جنود الاحتلال حتى بدأت رقصة الحرب التي شرحها قائد المجموعة جمال : «اننا نتبع اسلوب المجموعات والفرق الصغيرة، فهناك فرق هجومية، كما ان هناك فرقا دفاعية والاكثر جرأة وسرعة من الشباب هم الذين يشكلون الفرق الهجومية اذ يتولون مهمة الجري الى الامام وقذف الجنود الاسرائيليين بالحجارة». واضاف جمال قائلا : «ان عدد الفرق الدفاعية اكبر من التي ترابط في المؤخرة. وتستخدم هذه الفرق المقاليع لرمي الحجارة على الجنود الاسرائيليين وتقوم بحماية خطوط المؤخرة عند انسحاب خطوط الهجوم وبتغطية الانسحاب».

ويقوم المنتفضون ايضا بتعيين مجموعة من «الكشافة» مهمتها مراقبة تحركات الجنود الاسرائيليين من على اسطح المنازل وتقوم هذه المجموعة بدور سلاح الجو.

وحتى نبين دلالة كلمة «انتفاضة» يجب ان نشير الى ان «النفضة» هم الجماعة الذين يبعثون في الارض متجسسين لينظروا هل فيها عدو او خوف. ثم تستمر المقالة في القول:انه «بعد لحظات من انتهاء جمال من شرحه للاساليب المستخدمة، انتشر الشباب في الشوارع بعد ان تلقوا انذارا باقتراب دورية اسرائيلية. وبدا الشباب بتكسير الحجارة، كما قام اخرون بوضع المتاريس في الطرق. ثم تقدم صبي لا يتجاوز عمره العشر سنوات حاملا قنبلة حارقة والقاها على المتاريس مضرما النيران فيها». وقد ظل جمال واقفا وسط المسافة بين المقدمة والمؤخرة وأعطى التوجيهات للشباب كي يتقدموا ويبدؤوا عملية رشق الحجارة. وقد اثر الجنود الاسرائيليون البقاء خارج الشارع طيلة فترة رشق الحجارة التي استمرت خمس عشرة دقيقة. وبعد قليل وصلت اشارة من المجموعة الاستكشافية التابعة لمجاهدي الحجارة بان دورية اسرائيلية تحاول الالتفاف عليهم من الخلف. وكان الجميع يعرف ماذا عليه ان يفعل اذ اختفى الشباب في البيوت واسطح المنازل (يقول ماوتسي تونغ ان عضو المقاومة الشعبية هو مثل السمكة التي تسبح في المياه فهو يتمتع بثقة الجماهير، على عكس جنود الاحتلال والقهر الذين يتحركون في بيئة ترفضهم ومحيط انساني يود ان يفتك بهم). وهذه هي احدى قوانين الحرب الشعبية الاساسية التي ادركها المنتفضون دون دورات تدريبية !

الرقصة المحكمة

ووصفت الجيروساليم بوست معركة اخرى بأنها «معركة تشبه الرقصة المحكمة» (بقلم جول جيرنبرغ) : «بدأ الاولاد بالجري وراء الدخان والقوا بالحجارة. ثم ظهر صبي عمره 14 عام لعب دور القائد فتلثم بالكوفية وبدأ بالكر والفر امام المجموعة ملقيا بالحجارة، ثم

يتقهقر وينزع كوفيته ويملأ كفيه بالحجارة ويعود. ثم خرج صبيان يرتديان -بِتْـرةً سوداء الى المتاريس المحترقة. واشاروا بعلامة النصر وقالوا بالعبرية «بوهنا» اي «هنا هنا» (بالعبرية والعربية) لاغاظة الجنود. وبالطبع لم يات الجنود مما ولد احساسا بالانتصار في الجيرة كلها. وقالت امراة : «اليهود خائفون من الحضور». وقد كان الصبية هم الطليعة في هذه المعركة الراقصة، فهم الذين يعبرون الى الامام وهم الذين كانوا يشعلون الاطارات. «وكانت النسوة يقمن بتزويدهم بالعون المطلوب من الخلف، ويقمن برصد الجنود من الشرفات وتزويد المقاتلين بالمعلومات المطلوبة عن الجنود». وقد انهى الكاتب مقاله بجملة دالة رائعة تلخص الموقف : «لقد تم تجنيد الحجارة والناس».

مناطق محررة

ويظهر ذكاء المنتفضين وتحررهم من النموذج العضوي في اعلانهم بعض اجزاء الوطن «مناطق محررة». فهي مناطق لا يمكن ان يصل اليها الجيش الاسرائيلي بسبب كثافتها السكانية. وهم يعرفون انه من الناحية العملية من المستحيل على الجيش الاسرائيلي ان يتواجد في كل المناطق والاماكن، ولو فعل لاصاب الاقتصاد الاسرائيلي بالشلل الكامل. ولذا فلابدّ أن تكون هناك مناطق محررة يذهب إليها العربي، وفي داخل ما هو كائن يمارس الاحساس بما سيكون وبما ينبغي ان يكون ويشعر بلذة الانتصار. وقد قال احد الفلسطينيين : «نحن نشعر بالسعادة البالغة بانجازاتنا، انها حدث مدهش» (النيويورك تايمز 3 ابريل 1988). وهذا التاكتيك العربي يشبه الى حد ما التاكتيك الصهيوني حين كان الصهاينة يقبلون بخطة التقسيم وهم يطمحون لالتهام فلسطين الكبرى وما حولها. ولكنه يفوقه في ان الهدف منه ليس هدفا برجماتيا وحسب، وانما نفسيا وانسانيا ايضا، كما انه يلقي على العدو تحد يعرف الفلسطينيون مسبقا انه غير قادر على مواجهته (باعتراف زئيف شيف في هارتس 20 فبراير 1988).

التخلص من التبعية الاقتصادية

والتحرر لا يأخذ هذا الشكل الرمزي وحسب، وانما يترجم نفسه الى بنى اقتصادية واجتماعية وسياسية محددة فالمتفضون بدؤوا يدركون ان نضالهم طويل ولابد من ضمان استمراره، ولذا بدؤوا يحولون بعض المدن الى مناطق محررة اقتصاديا ويفصلون قطاعات كاملة من حياتهم عن اسرائيل. وتهدف هذه العملية الى «تحطيم السيطرة الاسرائيلية، وتنمية الاعتماد على النفس» (النيويورك تايمز 3 ابريل 1988)،والى «انهاء اكبر قدر ممكن من العلاقات بين اسرائيل والاراضي المحتلة اقتصاديا وسياسيا». وهم ينجزون ذلك عن طريق انشاء بنية تحتية مستقلة.

ولانجاز الاستقلال الاقتصادي يتم التحرك على مستويين : مستوى الذات والنفس الانسانية،ومستوى الموضوع والحقائق الاقتصادية. وقد ثبت من التجارب التنموية في العالم الثالث:ان «الحقائق الاقتصادية» وحدها لا تؤدي الى شيء وان حجم الاستثمارات ومعدلها لا يدل على النتيجة النهائية ان لم يواكبها مفهوم محدد للإنسان. فالتقدم الاقتصادي تنسق نتائجه اولا بأول «تصاعد ثورة التوقعات» التي تخبرنا كتب علم الاجتماع انها اساسية لعملية التحديث والتصنيع.

فثورة التوقعات تزيد من الشهوات التي تفتح بدورها الشهية التي لا يمكن ان يسدها شيء سوى مزيد من السلع : ومن هنا الفيديو والتكييف والافلام الملونة وهذا الركام الهائل من مظاهر «التقدم» الاخرى، ومن هنا ما نرى من حولنا من اطلال. وتذكر النيوستيتسمان: ان الحياة في الضفة والقطاع تتسم بمزيج فريد من الاستهلاك والتخلف بحيث ظلت الحكومة الاسرائيلية تقف عائقا امام الصناعة والخدمات في الوقت الذي استغلت فيه السكان كسوق مستهلك ومصدر للعمالة الرخيصة (المنتجة خارج الاقتصاد الوطني). («الانتفاضة» تجعل. . . القبس 28 يونيو 1988) اي ان الحياة في فلسطين المحتلة كانت مثل الحياة في كل بلاد العرب. وقد ادرك المنتفضون ذلك وعرفوا ان التبعية الاقتصادية مرتبطة بالتبعية الداخلية وبأنماط الاستهلاك الشرهة التي بدات تؤدي بالعالم كله الى حافة الخراب.

وقد وصف احد الفلسطينيين الوضع في الارض المحتلة بانه كان سيئا للغاية «فقد كنا نشتري الحمص الاسرائيلي الجاهز مع أنه أحد أكلاتنا القومية» (نيوستيتسمان «الانتفاضة تجعل. . .» القبس 28 يونيو 1988).ومعظم السلع الكمالية مثل الشوكولاته والآيس كريم والملابس والاثاث كانت اسرائيلية الصنع، والماركات المكتوبة بالعبرية والانجليزية كان لها جاذبية خاصة. وكانت محلات البقالين تبيع مربى سويسري وسلع امريكية واسرائيلية. وقد حدد هشام عورتاني وهو خبير اقتصادي فلسطيني في الارض المتنفضة، خطة المتنفضين على النحو التالي : «ان الامر يتطلب منا خفض مستويات معيشتنا بما يتناسب مع قاعدتنا الاقتصادية» (جيرالدين بروكس، «خسائر اسرائيل من الانتفاضة بلغت حتى الان 700 مليون دولار» وول ستريت جورنال، القبس 23 يونيو 1988) فلا نستهلك الا بقدر ما ننتج فنسترد الارض والكرامة!

وبالفعل بدأ المتنفضون يعدلون من انماطهم الاستهلاكية. «وعندما امر من أمام محل جزارة هذه الايام اشيح بوجهي عنه». كما يقول عزمي الخايل الذي تعيش اسرته على العدس والارز وتطبخ طعامها على موقد من الحطب لتوفير الكهرباء.«ونحن على استعداد لتناول اوراق الشجر، وان نتحمل المعاناة حتى يتم التوصل الى حل».

وقد اصبح التقشف وما يصاحبه من رفض السلع الاجنبية عنصر ضغط اجتماعي اذ يخجل الناس من حمل البضائع الاسرائيلية الان. ولكن ماذا عن هؤلاء الذين عاشوا في

أمريكا (وكم منا يعيش في أمريكا دون أن يراها ؟) ويريدون كتش آب ومايونيز، فلابد أنهم يشعرون بالازمة لاختفائها. فقال زيتون البقال : «إذا كان السبب في بقائهم هو الكتش اب فيا حاجاتنا لهم» (وول ستريت جورنال) فالكاتش اب ـ كما نعرف ـ لا يصلح كأساس يستند اليه الالتزام الوطني ـ فهو غير الدم الذي يجري في العروق ثم يسيل على الارض يرويها.

ان التقشف هو شكل من اشكال الانضباط الذاتي الذي يوسع رقعة الحرية والكرامة على الفور اذ يستغني الانسان من خلاله عن كم كبير من السلع قد اسرته ووضعت القيود في يديه. ويسخر العقلاء دائما من مثل هذه المحاولات «المثالية» فهم واقعيون يعرفون النفس البشرية، وانها في نهاية الامر بئر لا قرار له. وان الانسان مادة مجموعة من الاحتياجات المادية التي لا يمكن اشباعها (وهذه هي احدى أسس الفكر النفعي العلماني ولعل هذا هو السر العلماني الوحيد !). ولكن الانتفاضة مثل اي حركة ثورية تطرح رؤية جديدة للانسان. وقد قال سمير جليله، من منتدى الفكر العربي (وهو مركز ابحاث يساري):«لقد اعتدنا في السابق على السخرية من فكرة المقاطعة حيث كنا نعتقد انه ليس بمقدور احد ان يعود القهقري في العالم الحديث، ولكن عندما يكون لدى المرء هذا القدر من الحوافز السياسية [ولنلاحظ كيف يسترجع الانسان في قوله هذا] فانه لن يحتاج الى النظر الى الامور من منظور اقتصادي كلاسيكي» (نيوستيتسمان) بما يتضمن من رؤية مادية للانسان كمجموعة من الاحتياجات المادية.

وينقلنا هذا للعنصر الثاني في تحرك المنتفضين على مستوى الذات وهو مفهوم التعاون، فبدلا من ادراك الذات كعنصر مستقل عن الاخرين وفي صراع معهم (وهذه ايضا هي احدى عناصر النموذج المعرفي النفعي العلماني) تطرح فكرة الانسان الذي يحقق ذاته من خلال الاخرين لا على حسابهم. وكما يقول الحاج عثمان (77 عاما):«ان النظام الاقتصادي الجديد مبني على المبادلة والتعاون والغيرية للاكثر حرمانا» (الشرق الاوسط 1 يوليو 1988)،والمحرك لهذا هو «مفهوم النخوة التي تدعو اليها العروبة». ويقول الحاج عثمان وهو يحمل دجاجة يربت على ظهرها : «اني استلهم نموذج الخليفة عمر بن الخطاب مثال الكرم في التراث الاسلامي» فالتعاون مثل التقشف له جذوره التراثية والدينية.

اما العنصر الثالث وهو مرتبط بالعنصرين السابقين فهو يأخذ شكل «عودة» محدد «للارض»،ولطرق العمل التقليدية، وقد وصف سمير جليلة العملية بانها «عودة القهقري» وهي عبارة تصلح مفتاحا لفهم ما يحدث.ويستخدم عالم الاجتماع الامريكي بيتر برجر ـ اصطلاح الرجوع عن التحديث *demodernization* ليصف بعض اشكال الاحتجاج في المجتمعات الحديثة بما في ذلك المجتمعات الغربية مثل احزاب الخضر، وغيرها من الظواهر التي تطرح قيما مختلفة عن قيم المنفعة واللذة التي سيطرت على المجتمع الغربي ابتداء من القرن السادس عشر. وقد استخدم الفلسطيني عبارة «العودة القهقري» في مقابل فكرة «التقدم»، اذ

ثبت ان التقدم بالطريقة الغربية يعني تصاعد الاستهلاك التافه وتآكل مجتمعاتنا. ولكن استعارة «العودة القهقري» استعارة مكانية مستمدة من استعارة التقدم المرفوضة ذاتها ـ فهي رد فعل لها.واذا كان التقدم لا اتجاه له فالعودة القهقري ايضا لا اتجاه لها، فهي عودة للوراء وحسب تماما مثل التقدم الذي هو تقدم للامام وحسب. ولذا اقترح عبارة «العودة للذات» ونفض الغبار عنها واكتشافها وتوليد مناهج السكون والحركة منها. فالعودة هنا ليست عودة لا اتجاه لها وانما عودة لشيء محدد جدير بالعودة اليه، وهو عودة تحرر الانسان من قواعد التحديث والتكالب على الجديد، واخر صيحة وموضة، وهي قواعد وقيم مرتبطة بحركيات المجتمع الغربي وخصوصيته.العودة الان ستحرر الانسان من كل ذلك،وتجعله يكتشف انماطا اخرى للبقاء والحياة والتقدم والتوازن مع نفسه ومع الطبيعة. ومرة اخرى سنكتشف ان اشكال التخلص من التبعية التي توصل لها المنتفضون يشبه القاء الحجر وتتسم بنفس التكامل غير العضوي وتتسم بانها غير مبددة للطاقة ولا تحتاج لجهد كبير وهي غير مستفزة للعدو،وتستفيد من حكمة الاجداد بدلا من ان تلقي بها في سلة المهملات بحيث يصبح الانسان العربي عاريا أعزلا. انظر على سبيل المثال استخدامهم «للطابون» وللابار والحمير كوسائل للمواصلات ـ كلها اشكال تدل على الابداع والرغبة في التحرر والاستمرار. فالفلسطينيون بانسلاخهم عن بعض اشكال العالم الحديث الذي صُنّع في الغرب امكنهم ان يتحركوا بكفاءة شديدة، وان يبطلوا مفعول الالة التكنولوجية الشيطانية. فحينما «قطعت اسرائيل امدادات البنزين عن الضفة الغربية ظهرت مئات الحمير في شوارع نابلس واثناء الحصار الذي كان يضربه الجيش حول القرى التي يضع ابناؤها الحواجز في الطرقات او تعلن انها اصبحت مناطق «محررة»، كان الجيران في القرى المجاورة يرسلون حميرا محملة بالمواد الغذائية، عبر التلال الوعرة وصولا الى القرى المحاصرة.

ومن المفارقات: «ان اهمال الحكومة الاسرائيلية لقطاع الخدمات في الضفة الغربية قد انقلب لصالح الفلسطينيين، حيث تحصل معظم القرى على الماء من ابار محلية، كما لم يتم ربطها بشبكة الكهرباء الاسرائيلية. وكما تبين من خلال الحصار الذي كانت تضربه القوات الاسرائيلية حول القرى المحررة، فان بعض القرى تستطيع ان تتحمل فترات طويلة من العزلة تقريبا» (نيوستيتسمان «الانتفاضة تجعل...» القبس 28 نوفمبر 1988).

الزراعة المقاومة وحدائق النضر

ولكن كل هذه الأشكال هي تعبيرات ثانوية بالنسبة «للزراعة المقاومة». واذا كان العدو الصهيوني يحمل الان رشاشا وحسب ،.فهو كان يحمل مسدسا وفأسا حين حضر من دار الحرب، اذ اكتشف أنه لابدّ أن يقوم بالزراعة والقتل في نفس الوقت حتى يضمن لنفسه البقاء. فعن طريق الزراعة يمكنه ان يطرد العرب من الارض، وعن طريق القتل يمكنه ان «يدافع»

عن نفسه ضد المطرودين. فالزراعة المسلحة (وهذا هو المصطلح الذي نستخدمه للاشارة لهذه الظاهرة) هي وسيلة الصهاينة للاستيطان والاحتلال.

في مجابهة هذا طور الفلسطينيون الزراعة المقاومة وانا متأكد تماما (رغم عدم وجود معطيات امبيريقية)ان تراث هذه الزراعة طويل وان اختلفت أشكاله، وان عمره من عمر الاستعمار الاستيطاني، ولابدّ أن المنتفضين قد استفادوا من هذا التراث وطوّروه.

وأولى قواعد الزراعة المقاومة ان لا تبدد قطعة واحدة من الارض، فلنكتشف اذن الارض المهجورة البور واحواض الزهور والساحات الخلفية للمنازل في هذه الارض. وكما يقول الحاج عثمان: «يقوم شباب الحيّ منذ مارس بزراعة الهكتارين المحاذيين لداري، اللذين كانا حتى الان غير مزروعين...»، وبذلك يستفيد الجميع ونطلق عليها «حدائق النصر» («الانتفاضة في زمن التسيير الذاتي» الشرق الأوسط 1 يوليه 1988).

أما في بلدة بيت ساحور (وهي قرية بالقرب من بيت لحم يبلغ عدد سكانها (12 الف نسمة) فهي تحاول ان تصبح مكتفية بذاتها تقريبا. فاستثمر اهالي البلدة اراضي وعمالة ومبلغ عشرة الاف دولار امريكي لضمان الا تؤدي القيود الاسرائيلية المفروضة على توزيع المواد الغذائية والوقود الى سحق الانتفاضة.ويستعمل الأهالي بذورا وأسمدة ومعدات ري بسيطة تباع بسعر التكلفة في المشروع المزدهر الذي بدا منذ شهر تقريبا لتحويل الحواكير الفاصلة الى صفوف منتظمة من الطماطم والخضروات.

وقد تكونت مجموعة من ستة فلسطينيين يتزعمهم جاد اسحاق (متخصص في علم النبات وخريج احدى الجامعات الامريكية). وتنطلق المجموعة من حب الزراعة وجمال البيئة وبدؤوا يزوّدون الناس بالبذور والشتل واستأجروا كوخا لخزن البذور... وهكذا بدأت أعمالهم تتوسع وتمتد، وبدأ المتعاملون معهم يطلبون منهم المشورة الزراعية للمخصبات وطرق الري لزراعة الخيار والفجل والبقدونس والبقول الاخرى (الان فرايشون «الاسرائيليون يمنعون بيع بذور الخضروات في بيت ساحور» لوموند القبس 5 يوليه 1988).

وقد ظهر بين المنتفضين اهتمام كبير بالاعمال الزراعية (وفي هذا شكل من أشكال *demodernization*، فالاتجاه العام في العالم الحديث هو نحو الانتقال من الزراعة الى الصناعة). وقد بدأ المنتفضون يعودون لوسائل الزراعة البدائية، فيقرؤون كتبا تعلمهم كيفية ري المحاصيل بوساطة علب العصير البلاستيكية المثقوبة (نيوستيتسمان «الانتفاضة تجعل...» القبس 28/يوليه 1988).

ويرتبط بالزراعة المقاومة اشكال اخرى من المقاومة مثل تربية الدواجن والارانب، وقد تعلم المنتفضون كيفية تحويل ثلاجة قديمة الى حاضنة دواجن باستخدام مولد كهربائي بالاستعانة ببطارية سيارة وكمية كبيرة من ورق القصدير (نيوستيتسمان مرجع سبق ذكره).

ونمط النضال هذا قد يكون اقل مباشرة من القاء الحجارة واقل ايلاما الا انه اكثر

قابلية للاستمرار على المدى الطويل،كما انه يجسد وبشكل اعمق مسالة العودة للذات والتضامن الاجتماعي العميق. والزراعة مثل الحجر، تجعل الفلسطيني يشعر بالكرامة، ولكنها علاوة على ذلك توسع من نطاق حريته الفعلية.واذا كان القاء الحجارة هو هجوم على الاخر يذكره بالوجود العربي فالزراعة المقاومة رمز هادىء على ان هذا الاخر لا وجود له، وان وجد فلا جذور له، فهو مجرد شتله تعيش في دولة الشتتل المشتولة (الشتتل هو احدى مدن اليهود الصغيرة في بولندة وروسيا).

وقد بدأ الاسرائيليون يدركون المعنى الحقيقي للزراعة المقاومة، واستجابتهم كما هو الحال معهم دائما هو مزيد من القمع. وقد علق أحد المسؤولين على الزراعة المقاومة بقوله : إن القائمين على هذا النوع من الزراعة يشجعون السكان على «الانفصال عن السلطات الادارية وهم يشاركون في الكفاح من اجل اقامة مؤسسات وتركيبات موازية في الاراضي التي يعيشون عليها، وهو الامر الذي لا يمكن للمسؤولين الحكوميين الاسرائيليين أن يوافقوا عليه» (لوموند، القبس 5 يوليه 1988).

ولهذا تقوم القوات المسلحة الاسرائيلية بحراسة ماكينات الدراسة في القرى ويدور الجنود الاسرائيليون بحثا عن احواض الخضر لقياس حجم الثمرة ومعرفة درجة اللون في ثمار البندورة (نيوستيتسمان «الانتفاضة تجعل...» القبس 28 يوليو 1988).

وقد وجهت سلطات الحكم الاسرائيلي الاتهام لاهالي بيت ساحور بتشكيل «لجنة شعبية» ذات نشاطات ضارة في المجال الزراعي رغم عدم وجود قانون يحظر بيع البذور الزراعية، وبدات السلطات الاسرائيلية في ممارسة حملة من الضغط بقيادة الحاكم العسكري للمنطقة.

وفي 17 مايو وقبل ان تطلع الشمس من مشرقها، حاصرت قوات الجيش منزل رئيس المجموعة دون اذن تفتيش او امر اعتقال، وقامت باقتياد جاد اسحاق الى مقر الحاكم العسكري، والقي به في احدى الزنزانات الى ما بعد منتصف الليل» (لوموند، القبس 5 يوليه 1988).

ومما يجدر ذكره انه رغم نجاح الانتفاضة في الانسلاخ عن التبعية الاقتصادية انسلاخا جزئيا، فانه لا توجد بعد هياكل تنظيمية قادرة على تنسيق الاستراتيجية الاقتصادية لتحقيق الاكتفاء الذاتي بشكل اكبر،ولعل هذا هو احد التحديات التي تواجه الانتفاضة وقيادتها في الداخل والخارج.

العودة للطبيعة

ومن أنبل الامثلة على «التحرر»،رغم القهر،ما تفعله قرية قباطيا التي قرر الجيش الاسرائيلي ان يضرب حولها حصارا يوم 24 فبراير لقيام اهلها باعدام احد العملاء الاسرائيليين. وقد قامت القوات الاسرائيلية بقطع الكهرباء والاتصال التليفوني والمياه. كما

منعت السكان من الوصول الى المتاجر التي يعملون فيها، وتم القبض على 400 شخص، بل وتطير طائرة استطلاعية فوق القرية من اونة لأخرى لارهابها. ولكن القرية، كما تقول الجيروساليم بوست (9 ابريل 1988) ليست نادمة على قتل عميل الصهاينة، وقد حلت مشكلتها «بالعودة للطبيعة». فيقطع السكان اغصان الاشجار لتسخين المياه التي يحصلون عليها من الابار، وللطهو كذلك. كما انهم بدؤوا يتعلمون ان يعيشوا على الثمار التي يجنونها من الاشجار. وقد تعلموا كذلك تهريب الطماطم من المدن المجاورة. وكما تقول الجريدة تأقلم سكان قباطيا على وضعهم الجديد، كما يقولون هم : «هكذا كنا نعيش منذ عشرة اعوام». وهكذا يمكن توظيف انخفاض المستوى المعيشي في الحرب ضد القهر. ويمكن توظيف كفاءات «المتخلفين» في الوقوف ضد الة القمع التكنولوجية. وقد قالت امراة لمندوب الصحيفة : «بدلا من اللبن نعطي اطفالنا الان الخبز والشاي. وسنصمد». وقال اخر : «نحن نثق في الله، هل يمكن ان نفعل شيئا اخر ؟» ولنلاحظ كيف يتحول التوكل على الله الى دعامة اساسية من دعائم الصمود والمقاومة. وقال مهندس يحمل تحت ابطه صحيفة قديمة مهربة من مدينة مجاورة : «ان الموقف قد ألّف بين الناس، وقوّى من تضامنهم وحتى أولئك الذين لا يوجد عندهم ما يكفي من الطعام يقدمون يد المساعدة، ويعتقد الناس هنا ان مسالة انهم يأكلون الزيتون بدلا من الخضار مسالة ثانوية. فثمة قضية أكثر أهمية بالنسبة لهم... ويمكننا ان نصمد لعدة شهور، بل وسنوات».

وقد لاحظ مراسل الجريدة وهو خارج من القرية المحاصرة ان بضعة صبية كانوا يتدربون النبال فوق التلال المجاورة. وكانت الحجارة تندفع من نبالهم مصفرة في الهواء نحو الوادي ! ان قباطيا المحاصرة حرة تماما من الداخل وهي لذلك قادرة على ان تقف بكبرياء واعتزاز بالنفس امام الة القمع المتفوقة. وهي تستمر في حياتها اليومية بتعديل نمط حياتها قليلا وبتغيير معدلات استهلاكها وتوقعاتها من الدنيا ـ وهي تضحيات ليست بكبيرة على من يود العيش في كرامة ولو بدون مايونيز او حتى مرسيدس !

بل يبدو ان هذا الشكل النضالي اي انشاء انظمة بديلة، بدا ينتشر في الضفة والقطاع في كل المجالات، فهناك انظمة بديلة للمدارس والرعاية الصحية والشرطة فعلى مقربة من مدينة رام الله ينشيء الاطباء والممرضون والممرضات عيادات في قرى عديدة لتقديم رعاية طبية مجانية على مدار الساعة. كما تقوم اللجان ايضا بتخزين المواد الغذائية والغاز والمحروقات والحفاظ عليها وابقاء خزانات الماء وحمايتها. وجمع التبرعات والاغذية واعادة توزيعها. (أسعد عبد الرحمان «الانتفاضة الفلسطينية: كفاءة بشرية ومبادرة مهماتية وصلابة ملكية» القبس 25 يونيه 1988) وتقوم لجان الانتفاضة بممارسة نشاطات أخرى تدل على تزايد استقلال العرب. فعلى سبيل المثال تقوم لجان الانتفاضة بالضغط على المنتجين لتخفيض اسعار كل شيء من الخبز الى الادوية وتنشر الصحف اعلانات تتضمن «توصيات» بالاسعار المقترحة مما يزيد من الضغط على التجار. وهناك اجراءات اخرى ذات طابع تنفيذي. فبعد

الاستقالة الجماعية لرجال الشرطة الفلسطينيين تم انشاء لجان احياء لحماية الاملاك الخاصة. وتفرض هذه اللجان عقوبات تتراوح بين الغرامات والنفي المؤقت من الاحياء العربية المغلقة على نفسها. وفي مدن اخرى يقوم الاهالي الذين يميزون انفسهم بشارات حول اذرعهم بدور شرطة المرور (جورج دي موفيت، «من بيت ساحور، الضفة الغربيةالمحتلة» كريستيان سايس مونيتور الوطن 22 ابريل 1988). كما تقوم اللجان بالاشراف على جمع القمامة والتخلص منها بشتى الوسائل.

وتصدر لجان الانتفاضة احيانا قرارا بان تفتح المحلات أبوابها لمدة ثلاث ساعات فقط للتخفيف عن الناس ولضمان الاستمرار دون افشال الانتفاضة او الانحراف عن مبادئها. وهذا نموذج اخر للتكامل غير العضوي، ففتح الابواب لمدة ثلاث ساعات هو انحراف عن الكلية العضوية والتماسك الكامل والاتساق العضوي ولكنه انحراف يضمن الاستمرار. اي ان الرخاوة هنا هي مصدر الصلابة. ويبدو ان الاسرائيليين ادركوا طبيعة النموذج الكامن ولذا اصدروا نسخة مزيفة من البيان 21 تدعو الى القيام باضراب مدته 7 ايام في الاسبوع المقبل بينما يدعو البيان الحقيقي الى اضراب يومي السبت والاحد وحسب (القبس 7 يوليه 1988).

وكأن العدو يريد ان يفرض نموذجه العضوي حتى يمكنه ان يجهضه. كما اصدر الاسرائيليون قرارا بان المحلات التي تفتح يجب الا تغلق ابوابها والا تعرضت للغلق النهائي، ولكن لا تزال روح المقاومة عالية، ولذا تقبض السلطات الاسرائيلية على العديد من التجار.

عبرة دير ياسين ومهر الجنة

ويبدو أن المنتفضين في الضفة والقطاع قد أجادوا استخدام فن التعبئة والاعلام من خلال شبكة اتصال غير تقليدية بالمرة. فقد قال دان أركين: إن «الصفافير» هي «أداة المحرضين الاستخبارية. فعندما تظهر قوة عسكرية.. ترتفع أصوات الصفير حتى قبل أن يظهر الاشخاص الذين يصفرون، وهكذا يقومون بإبلاغ بعضهم بعضا حول دخول القوة العسكرية» (معاريف 25 فبراير 1988). كما يلجأ المنتفضون الى شبكة اتصالات شفوية بحيث يمكن إذاعة أي شيء بسرعة البرق، وقد سمى العدو ذلك «فن إستخدام الشائعات».

كما ظهر سلاح المنشورات الذي عن طريقه تحدد القيادات الأهداف النهائية والوسائل التي يمكن اتخاذها. وقد أوردت جريدة عل همشمار 29 يناير 1988، أمثلة من هذه المنشورات وورد في إحداها رفض لفكرة اليأس كمحرك للانتفاضة: «إن السلطات تعتقد أن شعبنا غرق في اليأس وقلة الحيلة وأنه يسعى الى طلب الرحمة من الأقزام». ولنلاحظ كيف يدرك الفلسطيني نفسه على أنه عملاق أمام القزم الصهيوني، على عكس ما تفعل مراكز البحوث وأجهزة الإعلام في العالم العربي. ويحتفي المنشور بالانسان / السر الذي يود أن يدفع مهر الجنة: «إن جميع الاجراءات (الصهيونية) العقيمة والممارسات لم تمنع انتفاضة شعبنا،

ويتساءل «اليهود» هل يمكن لشعب منفرد وأعزل أن يرفع رأسه ؟. لقد اعتقدت السلطات أن الجيل الذي ترعرع بعد 67 سيكون جيلا تافها وذليلا، وجيلا من العملاء يسعون الى المصالحة بأي ثمن - ولكن ماذا حدث ؟ الذي حدث هو أن الشعب المسلم استفاق من سباته وعاد الى أمجاده الماضية، شعب يرفض أن يتنازل عن شبر واحد من أرضه، يعارض كامب ديفيد ويعارض المؤتمر الدولي، ويقاوم الاعتقالات وعمليات الطرد، وهكذا عملنا على تصعيد الأحداث في المخيمات وفي المدن والقرى، الى درجة أن كل مكان أصبح ميدان معركة، وفي كل يوم تمتص الأرض دماءنا الزكية - وهذا جزء من ثمن العزة والكرامة، ثمن التحرير والنصر. هذا هو مهر الجنة، أيها الغاصب المحتل، إن العنف سوف يتسبب في التصعيد وزيادة هول الانتفاضة، وأن ما حدث حتى الان ما هو إلا مقدمة لما سيأتي بعد ذلك».

وقد جاء في منشور لمجموعات مبارك عوض نداءات تدل على إدراك الخصوصية فهي تطالب بوقف التعامل مع المؤسسات الصهيونية ومقاطعة البضائع الاسرائيلية والامتناع عن دفع الضرائب، وهذه كلها مطالب عامة تنتمي للنموذج الثوري العام، ولكن النموذج الانتفاضي له مطالبه الخاصة أيضا :

4 - عدم الامتثال لأوامر حظر التجول وخروج الجميع للشوارع.

5 - منع جنود الاحتلال ورجال المخابرات من دخول البيت واللجوء الى الصراخ لردعهم ولاحداث جمهرة حولهم.

7 - إلغاء الأعياد غير الدينية وتنظيم جنازات رمزية للشهداء.

8 - التوجه الى مبنى الحكم العسكري بصورة جماعية في حالة اعتقال قوات الاحتلال لأي واحد من السكان..

9 - إصدار صحف ومنشورات غير رسمية بهدف تحرير ونقل معلومات دقيقة عن الوضع في المناطق.

10 - رفع أعلام منظمة التحرير الفلسطينية الى جانب أعلام الأمم المتحدة.

11 - محاولة التأثير على جنود الاحتلال بوساطة الحوار معهم.

12 - تنظيم إضرابات عامة واعتمار الكوفية من قبل الجميع - النساء والأولاد والرجال.

13 - إشعال إطارات السيارات في أماكن متعددة في وقت محدد كظاهرة يومية.

14 - القيام بمحاولات لتشكيل، أو انتخاب لجان شعبية في الأحياء والمخيمات، من أجل توجيه النضال.

15 - استغلال فترة الشتاء لزراعة الخضار وتربية المواشي في البيوت، بهدف تغطية جزء من الاستهلاك الذاتي.

وتضيف إحدى المنشورات وصفا تفصيليا لطريقة اعداد قنابل المولوتوف ضد الآليات والأفراد وكيفية التصرف في حالات معينة. كما أن منشورات أخرى تتحدث عن طريقة خلق

موانع ضد تقدم القوات الاسرائيلية مثل إلقاء الزيت في الشارع.

وقد ورد في البند السادس للمنشور الذي سبق الاقتباس منه ما يلي:

6 ـ استعمال مكبرات أصوات في كل مدينة وقرية وفي وقت واحد محدد الى جانب استعمال مكبرات الصوت في المساجد وأجراس الكنائس. وترد دعوات مماثلة في منشورات الجماعات الأصولية الإسلامية ويتم التنسيق بين التنظيمات الدينية الاسلامية والمسيحية في النضال الانساني المشترك ضد العدو. وورد في المنشور رقم 21 للانتفاضة(7 يوليه 1988) تحذيرا «للعملاء المتسترين بالدين» وتنادي على كافة أصدقائنا في العالم بالتدخل فورا «لوقف انتهاكات حرمة مقدساتنا الاسلامية والمسيحية». ولنقارن بين هذا الاسلوب النضالي وأسلوب بعض الجماعات الأصولية عندنا التي تبدأ جهادها ضد الاستعمار الغربي بافتعالها معركة ضد أعضاء الجماعات الدينية التي تعيش بين ظهرانينا والذين تعهد الاسلام بإعطائهم حقوقهم كاملة والذين اشتركوا في كل المعارك الوطنية من قبل، وعلى أتم استعداد لبذل دمائهم في الحرب ضد الاستعمار وفي الدفاع عن أوطانهم التي ينتمون اليها.

ومن الواضح أن رؤية الهوية هنا لا تخضع للتعريفات العضوية الضيقة (كما هو الحال في الحضارة الغربية حينما كان على الانجليزي أن يختار بين انتمائه الديني والقومي). إن مفهوم الهوية المطروح هنا يجعل من الممكن أن تكون عربيا مسلما وعربيا مسيحيا وعربيا يهوديا، فهناك ما يجمعنا وهو العروبة والوطن حتى وإن كان هناك ما يفصلنا وهو الدين. والاتفاق لا يجب الاختلاف، والاختلاف لا يجب الاتفاق ـ وهذا تعبير آخر عن التكامل غير العضوي. وفي هذا الاطار نجحت الانتفاضة في تحقيق مصالحة كاملة بين العناصر العربية والاسلامية. وهذه المصالحة، كما يبين الأستاذ عادل حسين في معظم كتاباته في جريدة الشعب المصرية، هي حجر الزاوية في العملية النضالية الثورية. واستمرار التراشق بين القوميين والأسلاميين (وكلاهما من دعاة الخصوصية) لا يخدم سوى مصلحة المغتصبين من دعاة النظام الغربي.

ويختتم أحد المنشورات بهذه العبارة: «إن المعركة واحدة وسبل النضال عديدة، بالمولوتوف سنقاتل، بالسلاح سنقاتل، بالحجر سنقاتل بالخنجر سنقاتل، بالقوس والنبلة سنقاتل، وبالمقلاع سنقاتل».

وقد خلصت الجريدة الاسرائيلية الى ما يلي: «لدى تحليل مضمون هذه المنشورات التي وزعت في المناطق المحتلة منذ مطلع ديسمبر 1987، نخلص الى نتيجة بأن المنشورات على اختلاف أنواعها تحولت الى وسائل قتال فعالة خاصة اذا صدرت عن العناصر الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية والعناصر الاسلامية، وأصبحنا نواجه سلاحا جديدا، سلاح المنشورات، الذي أخذ يكتسب تأثيرا على سكان المناطق».

وحيث أننا في مجال الحديث عن النموذج الايماني النضالي في مقابل النموذج المادي البرجماتي القمعي قد يكون من المفيد أن نقارن بين المنشورات السابقة واحد منشورات حركة أمنا (التابعة لجوش ايمونيم). وقد صاغ المنشور لجنة من الخبراء، طاقم متخصص يتألف من

مستشرق، وخبير في اللغتين العبرية والعربية وعالم نفس متخصص في المجتمع العربي. يبدأ المنشور بالاشارة الى الوعد الالهي ويشير الى التوراة والقرآن ـ ناسيا أن ما ورد في التوراة وفي القرآن مشروط بالالتزام بمجموعة من القيم الاخلاقية، وأن الانسان إذا لم يلتزم بها وخلع الاطلاق على نفسه تحول الى إله. ثم يترك الصهاينة بعد ذلك الديباجات الدينية ليؤكدون أن هذه الأرض هي أرضهم ولن يتخلوا عنها. ثم يطل النموذج البرجماتي بوعده ووعيده : «إن كل عاقل منكم يدرك بأن الاستيطان اليهودي في فلسطين قد حقق لكم التقدم والازدهار. أكثر من ذلك فإن المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة كما في الجليل والمثلث هي الضمان الوحيد لكم ولأولادكم لمواصلة العيش الرغيد في بلادنا. وبالتالي فإن الاضطرابات التي تقومون بها لن تجلب لكم إلا الضرر والدمار». ثم يشير المنشور الى «عبرة دير ياسين» أي مغبة الصمود ضد عدو إرهابي مسلح، ولذا فالمصلحة العربية تقتضي معارضة الانسحاب الاسرائيلي. والخلاصة : «إن شعار فلسطين عربية، هو ضرب من الهراء أو الهذيان».

ولولا أن المصدر هو صحيفة هآرتس (1 فبراير 1988) لما صدقت ان مثل هذا المنشور قد صدر بالفعل عن الصهاينة، فمثل هذه المنشورات هو ما تحتاجه قيادة الانتفاضة لاستنفار العرب. فأكثر المنشورات العربية صراخا لا يمكن أن يوضح حقيقة العدو مثلما يفعل هذا المنشور البارد الهادىء الرشيد العاقل ! ولعل الفارق بين عبارتي «مهر الجنة» و«عبرة دير ياسين» هو الفرق الحقيقي بين النموذجين اللذين نتحدث عنهما. فالصهيوني صاحب النموذج المادي يرى دير ياسين على أنها المكان الذي فقد فيه بعض العرب حياتهم وتحولوا الى تراب وذرات (مادة). ولذا يشير المنشور الى هذه الواقعة باعتبارها عبرة وموعظة لكل من يود البقاء وإيثار السلامة ـ لكل من يقبل على الحياة الدنيا ويسعى اليها ويتقبل كل شروطها. أما أصحاب المنشور العربي، أصحاب النموذج الايماني، فيرون أن دير ياسين هو المكان الذي يستشهد فيه الانسان فيفقد حياته ـ نعم، ولكنه لا يتحول الى مجرد تراب وإنما تكتسب حياته معنى من خلال الاستشهاد. فالدم ليس مجرد مادة حمراء سائلة وإنما هو «دماؤنا الزكية ـ جزء من ثمن العزة والكرامة، ثمن التحرير والنصر»، وهو ثمن يوجد الكثيرون ممن هم على أتم استعداد لدفعه فهو حقا «مهر الجنة». ولذا فنفس الواقعة المادية، مقتل الفلسطيني، تكتسب معنيين مختلفين بل ومتناقضين تماما بحيث يتحول الترهيب الى ترغيب، وأداة القمع الكئيبة المظلمة تصبح الجائزة النورانية التي يفوز بها المجاهد المؤمن.

الاغاني كشكل من أشكال النضال

ومن المعروف أن المنتفضين يستخدمون الاغنية كسلاح أساسي في عملية التعبئة الجماهيرية، والحفاظ على الهوية، وعادة ما تتحول حفلات العرس الفلسطينية الى مناسبات قومية، وبدلا من مدرسة عدوية في الغناء بتركيزها في الغناء على «حبة فوق وحبة تحت» نجد

أن العرس يتحول الى مناسبة وطنية. وقد ورد في إحدى الصحف الاسرائيلية هآرتس (28 أغسطس 1987)، أحد الزجالين في أحد الافراح قام بمدح أبو الزعيم وهو أحد المعارضين لـ أبو عمار، ولم يؤيده في غنائه سوى امرأة واحدة، وقد طرد الرجل والمرأة.

والمقال سالف الذكر يرصد الظاهرة فهو يشير الى وجود فرق غنائية فلسطينية عديدة مثل «نجوم الليل» وفرقة الأنوار، و«يعود» وقد وصف المقال مضمون الأغاني على النحو التالي :

«إن أشرطة الكاسيت الوطنية الفلسطينية التي تسجل وتوزع في الضفة الغربية وقطاع غزة تضم معظم المكونات الاخلاقية الوطنية الفلسطينية في المناطق : من تمجيد للمقاتلين الذين يحملون السلاح، والاحترام للفلاحين المتمسكين بأرضهم والسعي الى الحرية والاستقلال والتوق الى الوطن والنزعة الى الأرض. . . وهي تعكس العالم الروحاني للجيل الشاب في المناطق في مجال الهوية الوطنية» (ومن الملاحظ أنه لا يوجد أي ذكر للاستثمارات والبنوك والقيم الانفتاحية البرجماتية).وقد ذكر المقال بعض النماذج، فقد جاء في أحد أغاني المطرب معروف الكرزون (من البيرة) «في قدس القرآن لن يسيطر شعب غريب» و«دبابات عرفات تتجول وتسفك دماء الصهاينة» و«انني أريد بناء أرض وتربية أولادي على حب البندقية».

ومن أهم الأغاني أغنية وليد عبد السلام (من رام الله) بعنوان نزلنا الى الشوارع والتي تشكل مثالا جيدا على أغاني الاحتجاج :

نزلنا الشوارع. . . ورفعنا الرايات
ونغني للحرية. . . أحلى الأغنيات
ألحان للحرية. . . والوحدة الوطنية
والحروب الشعبية. . . طريق الانتصارات

وتستمر الأغنية في الحديث عن تقديم الأناشيد للأرض وعن ريها بالدماء وعن تحدي المحتل بإشعال الاطارات المطاطية. وقد ألف عبد السلام نصا آخر جاء فيه :

ما بدنا طحين يويا. . . ولا سردين يويا
بدنا قنابل يويا. . . سيل م القنابل يويا
السلاح بيدك يويا. . . يرسم لك دربك يويا
والعقل في رأسك يويا. . . تعرف خلاصك يويا

وقد قامت فرقة «يعود» بتلحين قصائد للشعراء الفلسطينيين مثل سميح القاسم ومعين بسيسو وتوفيق زياد.

وسلاح الأغاني استفاد من ثورة الكاسيت فكل فرد يمكنه الحصول على جهاز تسجيل ببساطة ويمكنه تشغيله ببساطة أيضا وفي أي مكان وفي أي وقت، أي أن التعبئة من خلال الاغاني لا تفترض انتماء طبقيا محددا أو توقفا عن العمل أو عن الحياة، كما أن الجميع يمكنهم

أن يفهموا الاغاني ويطربوا لها وبالتالي فالأغاني لا تتطلب مستوى ثقافيا محددا. والأغاني في نهاية الأمر لها امتداد تراثي عميق، فالشعر الغنائي هو النوع الأدبي الذي أبدع من خلاله العرب،وهو الذي يحفظ جزءا كبيرا من ذاكرتهم التاريخية ومن رؤيتهم لأنفسهم.

ومن الصفات الأخرى الهامة للأغاني أنه من الصعب للغاية مراقبة مضمونها وضبط عملية توزيعها على الرغم من احتوائها على تعابير مباشرة ولاذعة، أي أن الأغاني متحررة الى حد ما من قبضة النظام الاسرائيلي الكفء الباطش. وقد وصف دوف شنعار (الأستاذ بالجامعة العبرية في القدس) في كتاب له بعنوان أصوات فلسطينية، الصراع الدائر بين العدو الصهيوني والأغنية الفلسطينية بأنه مثل لعبة القط والفأر. وقد تنبأ بأن الفأر الفلسطيني سيواصل زئيره على الرغم من أنه سيضطر الى زيادة وتعزيز قوة ابتكار وانتاجية في محاولته بث الاصوات التي يسمعها، أي أن الكاتب الاسرائيلي رصد القانون الأساسي في العملية الانتفاضية الفلسطينية وهي الحفاظ على الهوية وعلى الخصوصية وزيادة الابداع حتى نفلت من قبضة النظام الذي يود أن يزهق أرواحنا ويطبعنا لنبني الفنادق ونغرق في الاستثمارات ونفرح بوصول رأس المال الأجنبي، وننسى ـ على حد قول الشاعر الفلسطيني وليد الهليس ـ الفرق بين البلاد وبين الفنادق، وننسى تماما ثياب المعارك.

وقد أدرك مؤلف المقال أن الأشرطة الوطنية قد غابت عن آذان السلطات الاسرائيلية التي تقوم في نفس الوقت بتقديم الأولاد الذين رفعوا علم فلسطين الى المحاكمة ـ أي أن الأغنية مثل الحجر تعبير عن الهوية يستفز العدو دون أن يعطيه الأسباب الكافية للبطش. ولكن يبدو أن مؤلف المقال لا يرصد آلة القمع الاسرائيلية بكفاءة. فمن المعروف أن عقوبة إلقاء أي أغنية من هذه الاغاني الملتهبة في حفلات الزفاف هي خمس سنوات سجن. ويقال إن الاغاني التي تذكر عرفات بالذات هي التي تسبب الأرق الشديد عند الرقيب الاسرائيلي وتؤدي الى هيجان قوات العدو. ولعل هذا بدوره يؤدي الى ازدياد شعبيتها.

والبطيـــخ أيضـــا

ونحن لو أخذنا بالمنطق التراكمي الحتمي لما فهمنا استخدام الفلسطينيين لواحد من أكثر أشكال التعبير عن الهوية إبداعا ومن أكثرها حرصا واستفزازا في ذات الوقت. ومن المعروف أن القانون الاسرائيلي يمنع رفع العلم الفلسطيني ويقدم المتهمين للمحاكمة. وقد قالت رئيسة اتحاد المرأة الفلسطينية:إنه يوجد في مكتبها أعلام فلسطينية،وتحدثت عن أهمية الألوان التي تشكل رمزا مهما للغاية في أعمال الاحتجاج. ولو كانت المسألة عامة تراكمية لأخذ الفلسطينيون الأعلام وخرجوا في مظاهرة «كما هو الحال في كل زمان ومكان». ولكن إبداع المنتفضين يصل الى ذروته هنا فيلجؤون لحيلة البطيخة التي كتبت عنها الصحافة الأجنبية ولكن لم تكتب عنها الصحافة العربية ـ ربما لأن البطيخ فاكهة شعبية «غير محترمة»

ليس مثل التفاح مثلا أو حتى المشمش. فعند مرور القوات الاسرائيلية يقوم الفلسطينيون بقطع بطيخة الى نصفين ثم يرفعون أحد النصفين «والحدق يفهم».فألوان البطيخة المقطوعة حمراء وقشرتها خضراء وبيضاء وبذورها سوداء ـ وهي ألوان العلم الفلسطيني (الشرق الأوسط، ترجمة لمقال في الأوبزرفر 21 ديسمبر 1987). ولعل عملية قطع البطيخة في حد ذاتها تذكر المستعمر الاسرائيلي بأشياء كريهة أخرى يقال لها ارهابية ـ أي أن قطع البطيخة أكثر عمقا من مدلوله من مجرد رفع العلم. وهو سلاح مبتكر تماما مثل إلقاء الحجارة والأغاني. وهو أيضا سلاح رخيص ومتاح يوجد عند الفكهاني في أي وقت، ولا يمكن للعدو مصادرته وإن فعل يصبح أضحوكة أمام العالم. وهو سلاح اقتصادي للغاية يمكنك أن تأكله بعد أن تناضل به: وحسب علمي هو السلاح النضالي الوحيد في العالم الذي يؤكل (تماما مثل عروسة المولد التي يلعب بها الاطفال ثم يأكلونها هنيئا مريئا). ويمكن للجميع استخدام سلاح البطيخة من سن السابعة الى سن السابعة والسبعين. وهو أيضا يستفز العدو دون إعطائه الفرصة للبطش. وهو في نهاية الأمر الهوية: حلبة الصراع الحقيقية. والبطيخ سلاح فلسطيني شعبي مئة في المئة، شأنه شأن الأسلحة الأخرى، ولا أعتقد أن من يأكل كثيرا من الهامبورجر ويسمع كثيرا من الديسكو ويقود سيارة قادر على أن يستخدم البطيخة كعلم فلسطين والأغنية كنظرية ثورية والحجارة كسلاح.

ويبدو أن أحد الأطفال الفلسطينيين لم تتوفر لديه بطيخة فرسم علم فلسطين على «ورقة لحمة» وجلس الى جواره،كما قال مراسل الجيروساليم بوست. وعلى مقربة منه صنع آخر مدفع كلاتشنيكوف من بعض الاسلاك ومواسير الري التي أحضرها أبوه من إحدى المزارع الجماعية (الموشاف) الاسرائيلية. وقد لاحظ المراقبون أن أطفال غزة ابتكروا وسائل لمواجهة قنابل الغاز المسيلة للدموع بأن قاموا بنقع ورق التواليت بالكولونيا وحولوه الى أفضل سلاح مضاد لهذه الغازات (الوطن 16 يناير 1988).

الخوف ممنوع

وقد كنت قد كتبت منذ عدة سنوات عن كيف حول اليابانيون واحدة من أسوأ تقاليدهم (وهي الانتحار) إلى شكل من أشكال النضال التي كان يطلق عليها «الكاميكازي» وهي أن يقوم قائد الطائرة بطلعة انتحارية فيقوم بتحطيم نفسه وتحطيم أعدائه. وقد ولّد هؤلاء المنتحرون الرعب في قلوب أعدائهم بتحويلهم الانتحار (الذي كان يمكن أن يوصف بأنه تعبير عن تخلّف الشخصية الشرقية) إلى شكل من أشكال النضال. وقد فعل الفلسطينيون شيئا مماثلا، إذ وظفوا الموت والموتى وجندوهم في صفوف الانتفاضة. فقد قال احد القواد: «إن الخوف ممنوع»، ثم أضاف:«تعتقد سلطات الاحتلال أنه إذا ما مات أحدنا وأخذوا جثته لدفنها ليلا تتراجع المظاهرات. ولذا فأسلوبنا الجديد هو خطف الجثث من المستشفيات ودفنها

في مظاهرات عفوية. [مظاهرات عفوية تم تنظيمها من قبل ! وهذا التناقض هو في حد ذاته تعبير عن التكامل غير العضوي]. لذلك حرمنا على الاطباء تسليم الجثث إلى الجيش. أكثر من ذلك، لا يسيطر الاطباء على الوضع، لذلك لا توجد مشاكل لدينا في استعادة الجثث ودفنها. لقد استعدنا في الأيام الأخيرة أربع جثث وقمنا بالجنازات ليلا محولين كل تشييع إلى مظاهرة صاخبة يخرج الجميع للمشاركة في الجنازة. كما حدث في خان يونس حيث لم يبق أحد في بيته إلّا وسار خلف النعش (35 ألف مواطن). وقد تمكنا في هذه الجنازة من جرح سبعة جنود» (اليوم السابع 4 يناير 1988 «الثلاثاء الدامي في الأرض المحتلة»).

إن الشكل الانتفاضي هنا يؤكد استمرارية النضال أكثر من تصعيده، كما أنه أخذ أحد الأشكال المحلية وهو أن حمل الجثمان إلى مثواه فيه خير وبركة ويجازى عليه المسلم. فتم تحويله إلى شكل نضالي لا يمكن للعدو ضربه. ويتمثل الابداع الثوري في أن المتنفضين قد استخدموا كل المؤسسات التي شيدها العدو بهدف إلهاء الجماهير عن النضال. وقد لاحظ أحد الإسرائيليين «أن هناك مئات الأفراد الذين يديرون الأندية الرياضية والمنظمات الخيرية والجماعات الثقافية والاتحادات المهنية وغيرها التي سمحنا بوجودها»، هؤلاء الأفراد هم عمود الانتفاضة الفقري وهم يشكلون الثورة الشعبية (نيوزويك 25 يناير 1988).

التصعيد كشكل من أشكال الابداع

وحتّى لا يشعر العدو بأي راحة يرسل له المتنفضون من آونة لأخرى رسائل تؤكد له أن ابداعهم لن يهدأ، وأن مقاومتهم ستأخذ أشكالا مختلفة لا تنتهي ـ أي أن ثمة تصعيدا دائما. وقد قال داود كتاب، الصحفي والمعلّق بالقدس الشرقية: إن الهدف من تصاعد عمليات المقاومة هو أن يظهر الفلسطينيون للإسرائيليين أنهم لا يلعبون. وأنهم بوسعهم أن يجعلوا الأمور أكثر خطورة وأنه يتعين ألا يتصور البعض أن عدم استخدام الفلسطينيين للأسلحة أو أن هدوء الأوضاع يعني أنهم يستهينون بالأمور (القبس 1988/6/20).

وقد عبّر أحد أعضاء القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة الفلسطينية عن نفس الشيء بقوله : «إن الكفاح مستمر». ولكن ما هو مستمر إن اتبع نفس النمط أصبح من الممكن التنبؤ به ومن ثم حصاره. ولذا إلى جوار الاستمرار هناك تغيير الأساليب النضالية «كجزء من استراتيجية عامة في مواجهة الممارسات والتكتيكات الإسرائيلية لقمع الانتفاضة». وهذا القائد (الذي يعمل تاجرا في مدينة رام الله) يقول : «الكثير من التكتيكات تغيرت منذ بدء الانتفاضة، والكثير منها سيتغير في المستقبل». وبالفعل نجد أن الانتفاضة انتقلت من المظاهرات الحاشدة وإلقاء الحجارة على جنود الاحتلال في المراحل المبكرة إلى المقاطعة لكل ما هو إسرائيلي ورفض التعاون مع سلطات الاحتلال وأخيرا إلى القاء القنابل الحارقة وإشعال الحرائق في الغابات والمزارع الإسرائيلية. وقد أعرب قادة الانتفاضة عن أملهم في دخول مرحلة جديدة من العصيان المدني الكامل بحلول نهاية السنة الحالية (واشنطن بوست في

الشرق الأوسط 30 يونيه 1988).

حرب النـــار

وقبل أن نتناول بالتحليل آخر ابداعات المتنفضين (عند الانتهاء من هذا الكتاب) قد يكون من المفيد أن نذكر بعض الحقائق للقارىء عن المعنى الداخلي للغابات. كانت زراعة الغابات تعبر عن «العمل العبري»،والعمل العبري هو خلاص للأرض من العربي وللذات اليهودية من أدران المنفى. ولذا بينما كان يتم زراعة غابة هرتزل في بداية هذا القرن حدث وأن غرس بعض العمال العرب بعض الأشجار فقام الصهاينة العماليون باجتثاثها من الأرض ثم زراعتها ثانية حتى لا يدنس العمل العربي الزراعة والغابات الصهيونية. وزراعة الغابات تسلية كبيرة ليهود العالم وللصهاينة التوطنيين أي الذين لا يستوطنون ويكتفون بمساعدة الآخرين على الاستيطان. وقد أطلقت الدولة الصهيونية أسماء أساطين الاستعمار وزعماء العالم الغربي وقيادة الحركة الصهيونية على هذه الغابات : فهذه غابة بالفور وتلك غابة تشرشل وهذه غابة كنيدي (وكلاهما اشتعلت فيهما النيران).

«ولقد ظلت عملية تشجير الأرض على الدوام موضع اهتمام الاسرائيليين. فمنذ بدء قدوم المهاجرين اليهود إلى فلسطين مع مطلع هذا القرن، تم زرع أكثر من مليوني شجرة في أكثر من ثلاثمئة غابة، كما تزرع في كل سنة أربع ملايين غرسة حرجية. وتبين المخططات الموضوعة إلى أنه مع مطلع عام 2000 سيكون هناك 500 متر مربع من الغابات لكل إسرائيلي في البلاد. وأشجار السرو والبطم والبلوط والأكاسا والحور والأثل تنتشر في كل مكان. ويرى الإسرائيليون أن التوسّع بإقامة الغابات يحسن الطقس، ويرطّب الجو، ويحمي التربة من الانجراف وضعف الغذاء، ويزيد في مساحة الظلال. والأشجار اليوم تغطي خمسة بالمئة من مساحة البلاد» (دير شبيغل، «حرب الحرائق تصيب الإسرائيليين بالذعر»، القبس 27/ يونيه 1988).

الغابات والأشجار إذن أصبحت رمزا للاستعمار الاستيطاني الاحلالي الذي ابتلع الأرض، وهي علامة على الاستقرار الذي تحقق وهدوء البال الذي لا بدّ وأن يسود. أو هكذا كانت الاسطورة. وإذا كان الأدب الفلسطيني الحديث (خاصة الشعر) قد تنبأ بثورة الحجارة (فصورة الحجارة صورة أساسية فيه حتى يصبح الحجر الذي لا يتحول هو رمز الصمود والثورة) فإن الأدب الإسرائيلي الحديث لم يخلد إلى الراحة مثل الأساطير الصهيونية، فقد تنبأ بالحريق على الأقل في قصة إبراهام يهوشاوا في «مواجهة الغابة». وتتناول القصة بعض الأحداث في حياة طالب يكتب دراسة عن الحروب الصليبية (وهي تجربة تاريخية عقيمة وعاجزة مثل التجربة الصهيونية تطارد العقل الإسرائيلي).وقد عيّن أحد المسؤولين بالصندوق القومي اليهودي بطل القصة حارسا لغابة غرسها الصهاينة على موقع قرية عربية أزالوها مع ما أزالوا من قرى ومدن. وتحمل كل شجرة في الغابة اسم أحد المساهمين المتحمسين من صهاينة

الخارج. وعلى الرغم من أن البطل ينشد الوحدة، فإنه يقابل عربيا عجوزا أبكم من أهل القرية يقوم برعاية الغابة، وتنشأ علاقة حب / وكراهية بين العربي والإسرائيلي، فالإسرائيلي يخشى انتقام العربي، ومع ذلك ينجذب إليه بصورة غريبة. ويكتشف الحارس، المعين من قبل الصندوق القومي اليهودي، أنه يحاول بلا وعي، مساعدة العربي في إشعال النار بالغابة، ولكنه يفشل. وفي النهاية، عندما ينجح العربي في أن يضرم النار في الغابة كلها، يتخلص البطل من كل مشاعره المكبوتة.

ولا أدري ما هي دلالة القصة تماما. هل هو الخوف الإسرائيلي الكامن من العربي الذي كان من المفروض أن يختفي ولكنه لا يزال موجودا كالشبح يرتاد الغابات حتى وهو أبكم ؟ وخوف الإسرائيلي يختلط به إحساس عميق بأن هذا العربي سينتقم منه لا محالة باحراق الغابة التي زرعت محل قريته، ولكن الطريف أن القصة توحي بأن الإسرائيلي نظرا لاحساسه العميق بالذنب يحسّ بالراحة حينما يحل به الانتقام ! فلعلّ الانتقام يسترد له بعض إنسانيته التي فقدها من خلال فعل الاغتصاب.

ولكن مهما كان الأمر ها هي النيران تشتعل خارج الأساطير التي تجاهلتها وخارج القصص القصيرة التي تنبأت بها، فاشتعل ما يقرب من 400 من الحرائق أجهزت على ما يزيد عن أكثر من مئة ألف دونم من الأراضي المزروعة أو المشجرة وبما يقرب في قيمته من مئة مليون مارك ألماني (50 مليون دولار أمريكي) أي ما يزيد عن الخسائر التي منيت بها الدولة الصهيونية نتيجة الحرائق في السنوات العشر الأخيرة» (د. أسعد عبد الرحمن، «حرب النار إبداع جديد للانتفاضة»، القبس 9 يوليه 88).

ولا يتوقف أثر النار على موقعها وحسب، إذ أنه «أمام هذه الحرائق المتعمدة يتوجب اخلاء الكثير من القرى الصغيرة بسرعة كبيرة، ومع حدوث هذا، ومع شق مسارب للنيران، وإقامة السدود أمام زحفها المدمر، فإن الخطر والدمار لا يتوقف. وتدمّر الكثير من بيارات الفواكه إلى جانب آلاف الطيور الداجنة التي نفقت في أقنانها. فالغابات تحترق ولا شيء يوقف ذلك » (دير شبيغل).

وقد جعل البيان التاسع عشر للقيادة الميدانية للانتفاضة من يوم الثاني والعشرين من (يونيو 88) يوما مخصصا لتتويج عمليات إشعال الحرائق المستهدفة تدمير زراعة العدو وصناعته وإن كان من المعروف أن «حروب النار» كانت قد بدأت فعليا مذ أسابيع خلت (أسعد عبد الرحمن، القبس، 9 يوليو 1988).

وتوقيت حرب النيران واختيار مجالها كلاهما يدل على إبداع المنتفضين ومعرفتهم بالأرض وتوظيفهم لهذه المعرفة. فمن ناحية المجال فقد تحولت فلسطين المحتلة كلها إلى ساحة لهذه الحرب مما يعمق من الوحدة بين عرب 48 وعرب 67، كما أنه يضع كل الفلسطينيين في مقابل كل المستوطنين.

فقد اندلعت النيران في «غابات الكرمل في حيفا، ومنطقة أدولام في الجنوب، وقطاع غزّة، والتلال الكثيرة في الجليل. وتقول التقارير: إن أكثر من نصف مساحة الغابات والأحراش في منطقة الجولان قد تحولت إلى رماد على أرض عارية. وفي منطقة ملاصقة لمنزل رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، مناحيم بيغن، في القدس شبت النيران في غابتين صغيرتين، الأسبوع الماضي».

كما تم نقل حرب النيران إلى تل أبيب «فمن على سطح مركز ديزنجوف التجاري الضخم، ألقيت في الأسبوع الماضي ثلاث قنابل حارقة على السيارات والمارّة، في واحد من أكثر شوارع المدينة اليهودية ازدحاما. ورغم أنه لم يقع ضحايا، ولم تحدث أضرار مادية تذكر، إلا أن الرعب كان شديدا. وتقول صحيفة حداشنوت الإسرائيلية: «لم تعد الاضطرابات في الباحة الخلفية، بل في غرفة جلوسنا» (دير شبيغل).

أما من ناحية الزمان فيبدو أن «فصل الصيف قد جعل من عمليات إشعال الحرائق مهمات أسهل بفضل ما يأتي به من جفاف نسبي لأوراق الشجر وللمزروعات والحشائش، فإن تلك العمليات جعلت المهمات أكثر تكلفة للإسرائيليين نتيجة توجيه الضربات الحارقة في موسم الحصاد أو موسم اكتمال معظم حالات الاثمار الزراعي».

وقد لخّص الدكتور أسعد عبد الرحمن الموقف في عبارة سريعة موجزة: «وهكذا ومع تداخل فصل الربيع بفصل الصيف تداخلت عمليات إلقاء القنابل الحارقة مع عمليات إشعال الحرائق وعلى نطاق واسع يشمل كل فلسطين».

وسلاح النيران مثل الحجارة لا يتطلب كفاءة عالية ولا مرانا، وإنما يتطلب رغبة في الجهاد وحسب، كما أن سلاح النيران مثل سلاح الحجارة يمكّن صاحبه أن يناضل ويتملص من الشرطة فيبقى ليداوم الجهاد. وهو لا يتطلب عملية تنظيم مركزية ويمكن أيضا لكل الناس من كل الاعمار استعمالها، ولاشعال النيران لا يحتاج المرء الى أدوات مستوردة من الخارج. وكما تقول دير شبيغل: «بوسع سيارة مسرعة أن تقوم بإلقاء قنابل مولوتوف مصنوعة محليا، لتشعل الحرائق في أماكن كثيرة جدا. كما أن عود ثقاب أو عودين، أو القاء أعقاب السجاير في الاحراج والغابات على أوراق الشجر الجافة، يكفي لاشعال الحرائق المدمرة. ومكافحة النيران عمل متعب جدا، ذلك لانها مع الرياح والحرارة، يمكن أن تنتشر في كل اتجاه».

وقد أخبرني أحد الأصدقاء أن المتنفضين يقومون بأخذ حمام من المزارع الاسرائيلية ثم يزودونه بفيلينة تشعل الحرائق ويطلقونه ليعود كما تملي عليه غريزته - الى منطقة سكناه وفي الطريق يشعل الحرائق. وهذا الاسلوب النضالي يشبه من بعض الوجوه حيلة البطيخ والراية.

هذا من ناحية الهجوم الفلسطيني بالنار ولا نعرف إن كان المتنفضون على علم بدفاعات العدو وتهالكها وهو أمر غير مستبعد على الاطلاق، فهم يعرفونه من الداخل حق المعرفة إذ نلاحظ دير شبيغل عجز الاسرائيليين الكامل أمام هذه الهجمة الجديدة. «فحراسة الغابات أمر غير ممكن أيضا، لان أكثر من نصف عمال الغابات والاحراش هم من العرب، الذين

رغم أنهم يساهمون في إطفاء الحرائق، كما يفعل المشرف اليهودي، إلا أن ذلك لا يجدي. فمعظم هؤلاء العمال يأتون من القرى نفسها التي يأتي منها مشعلو الحرائق، وهم لا يريدون أن يظهروا كما لو كانوا عملاء لليهود».

والى جانب ذلك فإن العشرة آلاف رجل إطفاء اسرائيلي والثلاثمئة سيارة إطفاء التي معظمها قديم جدا، ليسوا معدين لمواجهة مثل هذا الوضع. بل إن الهيكل القانوني ذاته لم يكن مهيئا لهذا الشكل الجديد من النضال.

ويقول يوري بيداز، مدير مصلحة حماية البيئة الاسرائيلية: «يصعب معاقبة هؤلاء كقتلة أو إرهابيين، وذلك لان العقوبة القانونية لاشعال الحرائق تعتبر خفيفة جدا ومثيرة للسخرية». كما يقول حاييم باريليف وزير الشرطة الاسرائيلية لابد من رفع العقوبة لمشعلي النار الى السجن لمدة تتراوح بين 10 سنوات و 15 سنة».

وتدل استجابة الاسرائيليين المتأخرة على أنهم لم يكونوا معدين لهذه الهجمة. فقد صرّح موشيه بن أهارون، وزير الغابات الإسرائيلي بأن : «إشعال الحرائق من أساليب الثائرين في الانتفاضة، ومع أن هذا من الامور المتوقعة في حروب الثائرين إلا أننا لم نواجه مثل هذه الكارثة من قبل».

ومن أساطير الفلكلور السياسي العربي عن الصهاينة أنهم يعرفون كل شيء عن كل شيء وأن ملفاتهم كاملة. وأن المخطط الصهيوني قد أعد بعد تخطيط دقيق وأنه يجري تنفيذه بحذافيره وكأننا دمى خشبية يمسك بها الصهاينة. ولعل الانتفاضة أثبتت أن الصهاينة لا يمسكون بأي خيوط وأننا لسنا بالضرورة عرائس خشبية، وإنما يمكن أن نعدو نحو النجوم والسحاب والسماء ونأكل الخبز والزعتر والزيتون ونلقي بالحجر ونشعل النيران ونحوّل الحقيقة إلى عدل.

واستجابة الصهاينة لا يمكن أن تعدو عن كونها تحسين الادوات القمعية وزيادة الاجراءات الارهابية. فقد أدرج في ميزانية عام 1988 مخصصات لمكافحة الحرائق «وقدّم إسحق شامير مشروع قانون جديد لمكافحة ما يسميها جريمة إشعال الحرائق. وأما وزير الصناعة، أرييل شارون، فيطالب بإبعاد من يثبت قيامه بذلك عن البلاد، وتدمير منزله وممتلكاته كلها».

وتتسم ردة فعل المستوطنين المسلحين من اليهود دائما بالعنف «إذ أقدم المستوطنون خلال الأسبوعين الماضيين على إشعال ما لا يقل عن ثماني حرائق متعمدة في كروم الزيتون التي يمتلكها العرب، كما أقدموا على اتلاف الأغراس الجديدة في مساحات واسعة في مناطق قلقيلية ونابلس. إلا أن صحيفة هآرتس تحذّر من مغبة عمليات الانتقام هذه، على اعتبار أنها تؤجج العنف وتزيد من مخاطر الإرهاب».

وقد كتب المعلّق العسكري الإسرائيلي، زئيف شيف يقول : «سوف نكسب المواجهة في قطاع غزة، ولكن يجب أن لا نخدع أنفسنا. هناك حمم تغلي تحت السطح في القطاع، وهي

السبب الرئيسي للانتفاضة. وهذه الحمم سوف تنفجر مرة أخرى في مكان أو آخر. وكل ما نستطيع أن نعمله، بوساطة القوات الإسرائيلية المسلحة وأجهزة الأمن الأخرى، هو تحديد مكان النار.. وليس إخمادها» (الانديبندانت رئيف شيف «استعمال القوّة يحدد النار ولا يخمدها»).

ولا ندري هل يعني شيف النار الحرفية أم النار المجازية، ولكن مهما كان المجال الدلالي لكلمته أو استعارته فهو صادق فيما يقول. ولكن صدقه لن يجدي فتيلا فاستجابة الاسرائيليين للانتفاضة تحددها رؤى إدراكية ترجمت الى مؤسسات تحتية قمعية.

أشكال جديدة من التكافل الاجتماعي

ويلاحظ أن كل الاسلحة التي تحدثنا عنها تنتمي الى النموذج الذي يقال له *Conservationist* أي أنه يحتفظ بالطاقة ويقوم بعملية *recycling* أي استخدام نفس المواد في عدة دورات، على عكس النموذج الغربي المبني على تبديد الطاقة وعلى استهلاك المادة والانسان. فالحضارة العلمانية في نهاية الأمر حضارة لا تؤمن بقداسة أي شيء ولذا فهي تتجه نحو تبديد كل شيء ـ الانسان والأشياء والكون: ولذا فهي حضارة الـ *disposable* أي الأشياء التي تستخدمها مرة واحدة ثم تلقي بها. ويتضح هذا أكثر ما يتضح في موقف هذه الحضارة من المتقدمين في السن إذ تقوم بوضعهم في بيوت المسنين ينتظرون لحظة الموت وكأنهم آلات انتهت وظيفتها فتم تكهينها وأودعت المخازن لحين إعدامها (وهذا ما فعله النازيون حينما صنفوا العجائز والمعوقين على أنهم «أفواه غير منتجة» وقاموا بإعدام 70 ألف منهم لم يكونوا من اليهود). أما المجتمعات التقليدية فهي توكل للعجائز وظائف جديدة كأن يجلسوا في المنزل يرعون الأطفال أو يروون الحديقة وهكذا. وهذا حل إنساني يفوق بكثير بيوت المسنين البطيئة أو أفران الغاز السريعة. ومرة أخرى أنا لا أدعي أن المنتفضين مدركين لكل هذه الأفكار بشكل واع ولكنه من الواضح أنهم تبنوا نموذج إعادة الدورات والحفاظ على الطاقة وهو النموذج السائد في معظم المجتمعات التقليدية. والمجتمع الفلسطيني لا يزال في رؤيته للانسان وفي كثير من علاقاته الانتاجية مجتمعا تقليديا. كما أنه من الواضح أنه بسبب الغزوة الاستعمارية الشرسة تمسك الفلسطينيون بكثير من أنماط الفكر التقليدي حتى لا يكتسحهم الفكر الوافد، وها هم ذا يوظفون هذه الأنماط في عملية التحرر والتغيير.

وقد ظهرت أشكال من التكافل الاجتماعي الفريدة مع الانتفاضة مثل تنازل أصحاب المنازل عن إيجاراتهم، ومثل قيام مجموعة من وجهاء القدس العربية بمناشدة الملاك تخفيض الايجارات على المحلات التجارية لغاية خمسين بالمئة لمساعدة التجارة المحلية على الاستمرار (الكريستيان سانيس مونيتور عن الوطن 22 أبريل 1988). أو مثل هذا اللحام الذي يدور وراء القوات الاسرائيلية التي تقوم بفتح أبواب المحلات العربية بالقوة وتكسرها وتكسر أقفالها فيقوم هو بإصلاح الاقفال ولحام الأبواب مجانا (هذا في الوقت الذي تبحث فيه اسرائيل عن

عمال من الخارج ليحلوا محل العمالة العربية لأن المستوطنين الاسرائيليين لا يقنعون بالاجور المنخفضة ويصرون على الأجور المرتفعة حتى في ظروف الأزمة). كما يلاحظ أن لجان الانتفاضة المحلية تضطلع بوظائف من قبيل التكافل الاجتماعي. ويلاحظ أن هذا الشكل من أشكال التكافل الاجتماعي، غير العضوي غير المركزي، هو احدى سمات المجتمعات التقليدية الذي لا تلعب الدولة فيه دورا أساسيا، ولا توجد فيه مؤسسات مدنية عديدة، فيلجأ الأفراد لمساندة بعضهم بعضا بشكل عفوي تلقائي منظم! ومستوى التنظيم ليس عاليا حتى يتسنى لكل فرد أن يعطي ما في وسعه، تماما مثل هذا اللحام الذي أشرنا له. وأعتقد أن الاحتفاظ بالمؤسسات الوسيطة والتي تضم الأفراد خارج إطار الدولة، وهي المؤسسات التي قضت عليها عملية التحديث والعلمنة في الغرب، مسألة هامة للغاية في محاولة التوصل الى صيغة جديدة لمجتمع عربي إسلامي حديث لا يسقط بالضرورة في التبعثر الذي سقط فيه المجتمع الغربي، حيث يجد الفرد نفسه وحيدا في جزيرة منغلقة على نفسها، تعاني من الاغتراب والعزلة وشتى الأمراض التي يحدثنا عنها الأدب الغربي الحديث وعلم الاجتماع، والتي يرى بعض علماء الاجتماع عندنا أنها «ثمن حتمي» للتقدم! وأحب أن أضيف أن رفض الترابط (أو التضامن) العضوي لا يؤدي بالضرورة الى الترابط الآلي (وهذا مثل آخر على الثنائيات المتعارضة التي تسم فكرنا) إذ أن ثمة نموذج وسطي يقف بينهما، وهو النموذج السائد في كثير من مستويات الحياة في مجتمعاتنا وفي تراثنا.

إن تآكل شرعية الجيش الإسرائيلي أمام المستوطنين الصهاينة وأمام نفسه وأمام راعيه الاميركي وتزايد الابداع القتالي عند الفلسطينيين لهو دليل آخر على أن الانتفاضة ليست نتاج اليأس والاحباط، وإنما هي تعبير عن امتلاء بالنفس وثقة بها. ومن المهم للغاية في هذه المرحلة أن تقوم أحد مراكز البحوث العربية بتجميع المادة الصحفية والعلمية التي تتناول أساليب المنتفضين القتالية وأن تطلب من العارفين بالانتفاضة أن يسجلوا معلوماتهم ثم تقوم بتصنيفها واستخلاص النماذج منها حتى يمكن تطويرها وتوليد أساليب جديدة منها، وبهذه الطريقة يمكن دفع الانتفاضة للأمام. أما من الناحية النظرية العامة فإن هذا الابداع الفلسطيني الثوري هو أكبر دليل على أن نموذج الخصوصية الذي يرفض التبعية الحضارية والمعرفية نموذج ثوري حي بمعنى الكلمة، وأن المدافعين عن الخصوصية العربية الاسلامية ليسوا من هواة الانتيكة والأشياء القديمة وعبادة الذات والاسلاف وإنما يطرحون فكرا نضاليا قادرا على تحريك الجماهير من المسلمين والمسيحيين وتعبئتها في مواجهة العدو دون أن يفرض عليها صيغا انتحارية زائفة وإنما يطرح عليها صيغا انتفاضية ثورية حقة تضمن استمرار النضال واستمرار البقاء.

بل إنني لأرى أن النماذج المختلفة التي بوسعنا أن نجردها من دراستنا للانتفاضة وأساليب النضال التي ولدتها يمكنها أن تلقى ضوءا على بناء العقل العربي وكيفية تفاعله مع بيئته واستجابته لها، ومتى يحاول هذا العقل تغييرها وما هي الطريقة التي يتبعها في عملية

التغيير. وبالتالي فهذه النماذج تتجاوز الانتفاضة ذاتها وتصبح ذات فائدة ودلالة بالنسبة للمشروع الحضاري العربي ككل،وبالنسبة لمحاولتنا تجنيد الانسان العربي لتنفيذ هذا المشروع للدفاع عن ماضيه وهويته ومستقبله المستقل.

الفصل السادس

الحمائم والصقور، والطيور الإدراكية الأخرى محاولة أولية لرصد استجابة المستوطنين الصهاينة للانتفاضة

من القضايا الأساسية التي أركز عليها الآن في دراساتي قضية المصطلحات، وهذا لا يعود الى اهتمام لغوي فجائي وإنما يعود الى إحساسي المتزايد (أثناء عملي على إنجاز الموسوعة العربية للمفاهيم والمصطلحات اليهودية والصهيونية خلال الثمانية أعوام الماضية) بأن المصطلح المتداول لوصف الظاهرة الصهيونية (والظواهر الأخرى) هو مصطلح تم صكه وصياغته في الغرب وعلى يد الصهاينة.

المنحنى الخاص للظاهرة

ويمكن أن أضرب الأمثلة بآلاف المصطلحات مثل «معاداة السامية» والتي تعني في واقع الأمر «معاداة اليهود»، والرواد الصهاينة التي تعني في واقع الأمر «المستوطنين الصهاينة»، و «الصهيونية الاشتراكية» والتي تعني في واقع الأمر «الصهيونية ذات الاعتذاريات أو الديباجات الاشتراكية» وهكذا. وهي كلها محاولات تستهدف، عن وعي أو عن غير وعي، فرض نماذج إدراكية علينا بحيث نرى الواقع من خلال عيون الغير فلا نرصد سوى ما يراد لنا رصده، ونغفل عن كثير من جوانب الواقع.

وقد انتهيت منذ عام تقريبا من محاولة مبدئية لرسم خريطة الاسرائيليين الادراكية للعرب (نشرت في شؤون فلسطينية وشؤون عربية). وتأخذ هذه الخريطة شكل طيف إدراكي يبدأ بالعربي الحقيقي الذي يزرع ويحصد ويقاتل ويخلق أشكالا حضارية ثم تتحرك الخريطة نحو مزيد من التجريد ابتداء من العربي المتخلف الى العربي ممثلا للاغيار مسؤولا عن كل ما حاق باليهود من مآسي. ووصولا الى محاولة تهميش (ومن ثم تهشيم) العربي، وفي نهاية الأمر تغييبه تماما ـ عملا بالمقولة الاستيطانية الاحلالية : أرض بلا شعب. وكما يرى القارىء لم أقنع باستيراد مقولات العنصرية الغربية الادراكية وطبقتها على الصهيونية وحاولت ألا أدلل على أنها «عنصرية» وحسب، وإنما حاولت أن أصوغ مصطلحات عديدة تتماثل مع ما أسميه بالمنحنى الخاص للظاهرة، أي سماتها الخاصة المتعينة كما أدركها وكما أخبرها لا كما يتفق مع أي إدراك عمومي مجرد. والظاهرة التي أمامنا ليست استعمارية وحسب ولا حتى استيطانية وحسب وإنما هي أيضا ظاهرة احلالية تستخدم اعتذاريات أو ديباجات يهودية. ومجموعة المصطلحات التي استخدمتها في دراستي الآنفة يمكنها التعبير عن استعمارية الصهيونية واستيطانها وإحلالها، وعن مزاعمها اليهودية أيضا، وعن كيف يعبر كل هذا عن نفسه في استراتيجيات إدراكية واضحة.

الحجارة والادراك

وإذا ما حاولنا أن نرصد استجابة المتسوطنين الصهاينة للانتفاضة لقابلنا مرة أخرى النموذج المعرفي الغربي الذي يعبر عن نفسه في هيكل المصطلحات، ولوجدنا أن هناك مقولتين اثنتين وحسب : الاعتدال والتشدد واللذان يشار لهما بالحمائم والصقور. وهذه طريقة متعسفة للغاية للرصد، ولعلها تعود الى تبسيطات النموذج المادي الادراكي الذي يحول الانسان المركب الى مادة بسيطة ثم ينظر لها من الخارج كما لو كانت مجرد حركة دون دوافع أو وعي أو لا وعي. وقد قام أحد كبار المعلقين السياسيين العرب بكتابة مجموعة من المقالات عن أثر الانتفاضة على المستوطنين الصهاينة. فقام بحصر عدد المصابين في المستشفيات والجرحى وكمية الأحجار، وكأن هذا هو «الأثر» الذي أحدثته الانتفاضة، مع أنه في مقاله لم يزد عن تسجيل واقعة إلقاء الحجارة في شكلها الخارجي ـ كحجر يخرج من يد عربي ويستقر على رأس اسرائيلي دون أن يذكر ماذا حدث للعربي (من إحساس بالانتصار) وكيف استجاب المستوطن الصهيوني لهذه الواقعة والتي يمكن أن يأخذ شكل تشدد أو اعتدال أو تشدد علني يخفي اعتدالا فعليا أو خوفا يدفعه للفرار أو رفضا لاستيعاب الموقف. فالحجر فعل لا يحدد استجابة المصاب وإنما يحدده كل مركب من العناصر النفسية والتاريخية. إن عدد المصابين الاسرائيليين حقيقة مباشرة مصمتة ليس لها دلالات حقيقية في حد ذاتها ـ فالانسان الذي يصاب بحجر في رأسه يمكن أن ينهار ويمكن أن يتحول الى وحش كاسر ويمكن أن ينال شيئا من الحكمة والرشد حينما يرتطم الحجر برأسه. ومن الصعب أن يفي مصطلحان اثنان بهذه

الاستجابات المتداخلة العديدة.

حمائم وصقور وطيور أخرى

ولذا بدلا من استخدام مصطلحين اثنين، حمائم وصقور، سأحاول توسيع هذا النموذج الادراكي بما يتفق مع تركيب الظاهرة الصهيونية وأضم للحمائم والصقور الدجاج والنعام (وتنويعات أخرى). والحمائم كما يقال مسالمة دائما والصقور يفترض فيها أنها عدوانية شرسة. وأما الدجاج فهو ـ حسب رأي الخبراء متخصص في الهرب، ويجيد النعام فن دفن رأسه في الرمال. وأعتقد أن النعام هو أكثر أنواع الطيور الادراكية انتشارا في المستوطن الصهيوني خاصة بعد الانتفاضة، وإن كان لا يعدم الأمر وجود عدد كبير من الدجاج الذي يتحدث كالصقور، وتوجد قلة نادرة من الحمائم ليس لها وزن كبير (على عكس ما تصوره الاستعارة الشائعة)، وإن كان يوجد عدد كبير من الصقور التي تتحدث كالحمائم. ويقول الدكتور قدري حفني: إن اليهود الشرقيين مثلا هم حمائم تود أن تكون صقورا لتثبت اخلاصها للنخبة الحاكمة الاشكنازية.. وقد أسقط المعلّقون السياسيون كل التدرجات والتداخلات من إدراكنا لأن نموذجهم المعرفي كان قاصرا ساذجا يحوي مقولتين اثنتين تم استيرادهما من علم السياسة الغربي أو من الصحافة الغربية التي تتمتع باحترام شديد بينهم، ولذا لم نرّ الدجاج أو النعام ولا عشرات الطيور الإسرائيلية الأخرى القابعة التي تنتظر من يكتشفها ويرصدها وقد أصبحنا وكأننا ننتمي إلى واحد من تلك القبائل البدائية التي لا ترى سوى لونين اثنين لأن لغتها لا تضمّ سوى كلمتين اثنتين للتعبير عن كل الألوان!

حمائم بالقوة

وقد وجهت صحيفة حداشوت سؤالا إلى عدد من الإسرائيليين البارزين الذين يمثلون مختلف التيارات السياسية والثقافية منهم يائيل ديان، وس. يزهر، واربه نافور، وحاييم بار، وتسفي هنجبي، وا. ب. يهو شواع، وشمواليك هسفري وغيرهم. يقول السؤال: ماذا كنت تفعل لو كنت فلسطينيا؟ فجاء رد معظمهم بأنهم كانوا سيفعلون ما يفعله الفلسطينيون الآن، أي الانضمام للانتفاضة. بل وأضاف شموليك هسفري: انه «كان سيفعل أكثر من ذلك بعشرة أضعاف، وقبل هذا الوقت بكثير. وكنت سأفعل ذلك في ديزنجوف (أحد شوارع تل أبيب الرئيسية) بدلا من نابلس. فهناك سيكون تأثيره أقوى». (الوطن، 1 يناير 1988). وتصريح هسفري ليس حمائميا بالضرورة. فموشيه ديان كان مدركا تماما «لعدالة» المطالب العربية، وأن العرب سيثورون حتما ويقاتلون ضد الصهاينة ـ ولكن حتى الادراك لا يترجم نفسه بالضرورة إلى موقف محدد، إذ ما يحدد الموقف ذاته موازين القوى. فإن كان العربي ضعيفا خاملا، فإن ادراك «عدالة» مطالبه قد يؤدي إلى مزيد من التشدد لأن صاحب المطالب العادلة قد يتحرك في أي لحظة للحصول عليها، ولذا لا بد من ضربه بيد من حديد قبل أن

يصبح قويا وقبل فوات الأوان. وهذا هو موقف بن جوريون وجابوتنسكي وشلوموارونسون وغيرهم. ولذا يمكن القول:ان المثقفين الإسرائيليين الذين عبّروا عن تفهمهم لموقف العرب ليسوا «حمائم بالفعل» وإنما «هم حمائم بالقوة» بالمعنى الحرفي والفلسفي ! وعلى كل فهذه الاستجابة الحمائمية محصورة في أوساط المثقفين وبعض الشخصيات السياسية التي ليس لها وزن كبير، ولا أعتقد أنها تؤثر في الرأي العام الإسرائيلي أو في صنع القرار الإسرائيلي.

الدجاج

أما الدجاج فهو موجود بكثرة والحمد لله، مثل يائيل اسكيد الذي قرر في الجيرو ساليم بوست (25 يناير 1988) : أنه «لا يذهب الان أحد الى غزة سوى الحمقى المستوطنين. ولا يذهب أحد الى الضفة إلا بسبب وجيه، سبب وجيه للغاية. فنحن خائفون». «وعملية» تدجين المواطنين على يد جنرالات الحجارة لا تزال قائمة على قدم وساق. وكما قالت الجيرو ساليم بوست (8 فبراير 1988) : ان المستوطنين يسافرون أقل الان، ولا يتركون الاطفال بمفردهم ولا يخرجون إلا لأمور ضرورية.

وقد صرح أحد الصحفيين في صحيفة حداشوت:«ان العائلات اليهودية تشاهد جدلا حادا إذا ما أرادت السفر وأي الطرق تستخدم»، لهذا أصبح مجرد السفر شكل من أشكال الريادة، وهي ريادة جديرة بالمستوطنين (دي لوكس). واذا ما سافر مستوطن وحده، فهو «مغامر» أما اذا اصطحب زوجته وأطفاله، فهو مجنون.

وتقيم السيدة ساسون التي قُتل زوجها في الستينات في غزة والتي تعيش الان في بيسجات زئيف (هي مستوطنة توجد في الضفة الغربية عبر الخط الاخضر ولكنها توجد فعلا على حدود القدس). وعلى الرغم من أن الانتفاضة لم تكن قد وصلت بعد الى هناك (حسب ما جاء في الجيرو ساليم بوست 20 فبراير 1988) إلا أنها تؤكد أن بريق المستوطنة قد خفت وبدا الأباء يذهبون لانتظار أولادهم، حيث يخرجون من المدارس.

وحينما تمر حافلة المستوطنين بجوار مخيم عاناتا فإنها تسرع بطريقة مجنونة لتتحاشى الاحجار. وبدأ المستوطنون يسدلون الستائر ويغلقون المداخل بعد أن كانت المستوطنة تتمتع بجوّ انفتاحي بهيج. «إن الوضع ـ كما تقول السيدة ساسون ـ مخيف» خاصة وأنها تعرف أن الجنود الاسرائيليين أوقفوا مظاهرة من 600 عربي كانت متجهة نحو المستوطنة، ماذا كان يمكن أن يحدث لنا لو أن الجنود فشلوا في إيقافهم ؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لاطفالنا ؟» (يخبرني طلبة من فلسطين المحتلة أن مخيم الدهيشة على سبيل المثال تمّت إحاطته بأسوار سلكية وبراميل مليئة بالاسمنت وغيرها من الموانع، ولكن كل هذه المحاولات كانت تترجم نفسها في الوجدان العربي قبل الانتفاضة على أنها من علامات الدجاجية المتزايدة بين المستوطنين).

والخاصية «الدجاجية» للمستوطنين تظهر أحيانا في محاولتهم الظهور بمظهر الصقور. فسائق الحافلة رقم 25 (من القدس للضفة) يشيد بركابه من المستوطنين الذين لا يهلعون من الحجارة ويحيدون فن الاستجابة فهم كما يقول: «يتوقعون الهجوم في أي لحظة، معتادين عليه». وعندما يبدأ الهجوم فهم يتصرفون كالجنود المدربين، على ما يجب عمله» إذ ينبطحون في أرض الحافلة. والصورة الكامنة هنا هي صورة انسان قلق يتوقع الهجوم ويجيد فن الاختباء (الجيرو ساليم بوست 8 فبراير 1988).

ولنأخذ المستوطن ليمودي جنيان، كمثال آخر، فهو رجل عجوز، يهودي أرثوذكسي يعمل خياطا، وهو صقر لا شك فيه يطالب بضرب العرب وتحطيمهم ثم يقول: «نحن نفعل ذلك عند الحدود والامر لا يختلف هنا (في المناطق المحتلة) فتلك حدود وهذه أيضا حدود كل البلد حدود (الهيرالد تربيون 6 يناير 1988 مقال لجون كفنر «الاسرائيليون لا يجدون بدائل لسياسة التشدد مع العرب») وإدراك هذا المستوطن العجوز لفلسطين المحتلة كبلد كلها حدود هو إدراك طريف للغاية يبين مدى الهلع والاحساس بعدم الأمن.

ومن أيسر الطرق لتحديد استجابة المستوطنين دراسات علماء النفس الاسرائيليين. وقد لاحظ بعض علماء النفس الاميركيين انتشار ما سموه «بأعراض فيتنام» بين الجنود الاسرائيليين - وهو الاحساس بالاحباط لدخولهم في حرب غير كريمة لا معنى لها، لا يمكنهم كسبها أو الانسحاب منها - فيهاجمهم اليمين الأسرائيلي لتقاعسهم ولعدم استخدامهم لمزيد من العنف، ويهاجمهم يهود العالم وبعض الحمائم الاسرائيليين لانه يحطم عظام المنتفضين دون أن يطرحوا عليه البديل. وقد ذكرت صحيفة هارتس أن نسبة المستوطنين الصهاينة الذين يرتادون العيادات النفسية قد ارتفع ثلاثة أضعاف بسبب القلق الذي أصابهم من جراء استمرار الانتفاضة (الوطن 4 أبريل 1988). وقد عقد اجتماع في بلدية القدس لمناقشة هذه الظاهرة فأشار مدير احدى المدارس الثانوية الى خوف المعلمين من الوصول الى مدارسهم «بسبب خوفهم الشديد من تساقط الحجارة على الحافلات وعلى رؤوس الركاب». «كما عبر مدير مدرسة آخر عن خوفه من تسرب هذا الخوف والمرض النفسي من المعلمين والطلبة ليشمل كافة الصهاينة في الاراضي المحتلة (الوطن 4 أبريل 1988). وعلى كل ليس من السهل رصد استجابات المستوطنين ومخاوفهم بالطريقة التقليدية فقد جاء في الجيرو ساليم بوست أن أحد علماء النفس الاسرائيليين صرح أنه بعد 40 عاما من الاحتلال لم تظهر أي حالات بين المرضى النفسيين تعبر عن قلقها من العرب، وكأن عملية الكبت كاملة نظرا لان التهديد العربي كامل ولا يمكن لجهاز الصهيوني العصبي أن يواجه بشكل مباشر وعلى كل من يجب أن يعترف أنه دجاجة ؟ ولذا فمن الواضح أن نتائج بحوث الدراسات الاسرائيلية هي نتائج استخلصها الباحثون وجردوها من أقوال المرضى الذين أبى معظمهم أن يعين العرب

كمصدر لمخاوفه.

النعـــام

رفض أن تكون «دجاجة» مسألة إرادية واعية، ولكن أن يتحوّل المستوطن الى نعامة فهذا أمر يتم بدون إرادته ولا يلاحظها هو وإنما يلاحظها الباحث الذي ينظر اليه من الخارج. والنعام في المستوطن الصهيوني كما أشرنا كثيرءمثل جاباي صاحب مطعم صغير في مستوطنة بيسجات زئيف الذي أسكت خوفه بقوله : «أهم الأشياء الآن أن نوقف العنف من الطرفين وأن نجلس سويا ونشرب القهوة ونحل مشاكلنا كبشر»، وهو لم يتحدث قط عن طريق التوصل لهذا السلام وكيف سيمكن الوصول لتسوية ما (الجيرو ساليم بوست 20 فبراير 1988 العدد الدولي).

وقد حدد أحد الضباط الاسرائيليين هذا الموقف النعامي بدقة بالغة حين صرح لصحيفة حداشوت أن اختفاء ظاهرة الانتفاضة الشعبية الفلسطينية بعصى سحرية [أي على طريقة النعام] هو مجرد تعبير عن آمال وأوهام يجب أن يستيقظ منها الاسرائيليون [بدلا من دفن رؤوسهم في الرمل أو في أرض فلسطين].

ولعل هذه العصا السحرية توجد في أحد مباني حزب الليكود، إذ أن شارون يقول:«إن الانتفاضة سوف تنتهي فور وصول الليكود الى السلطة، في نهاية العام» (الشرق الاوسط، «لعبة شد الحبل بين عسكر اسرائيل وسياسييها» 12 يوليو 1988). ولكن شارون يعني بطبيعة الحال حمامات الدم غير السحرية ولكن حتى لا نصنفه نعامة كان عليه أن يقدم لنا الاجراءات لان حمامات الدم تؤدي أحيانا الى تصعيد الانتفاضات والثورات،كما يعرف الامريكيون عن فييتنام والفرنسيون عن الجزائر.

وقد وصف دانيل جفرون إدراك النعام هذا في مقال في الجيرو ساليم بوست (6 فبراير 1988) بعنوان «لماذا الانسحاب من جانب واحد هو المخرج الوحيد» فقال:إن المسؤولين [النعام في مصطلحنا] يظنون أنهم سيحصلون على كل شيء دون مقابل : حدود آمنة، وعمق استراتيجي، وعمالة رخيصة، وسوق مقصور عليه، وأرض لتدريب الجيش الاسرائيلي وتجاهل العداوة العربية المستمرة،وازدياد التمرد بين العرب وتدهور المجتمع الاسرائيلي الاخلاقي وتآكل وضعه الدولي. ويعد الانتفاضة ترجم إدراك النعام نفسه الى تركيز على الجانب الفني لقمع الانتفاضة كما لو كانت المسألة مجرد إجراءات يتم تنفيذها أو خطوات يتم اتخاذها بحيث تتحول القضية برمتها الى مسألة إجرائية :

هل الرصاص المطاطي ومدافع المياه كفيل بالقضاء على الانتفاضة أم لا ؟ دون التوجه للاسئلة النهائية. وقد اشتكى شمعون بيريز من أن الوزارة الاسرائيلية تتحلى بنفس الموقف الذي نسميه بالنعامي فهي تناقش النقط الدقيقة الفنية الخاصة بإجراءات الأمن وطريقة التصدي للانتفاضة وتتجاهل تماما الحلول السياسية اللازمة. وأضاف : «في المستقبل حينما

يقرأ أحد محاضر جلسات الوزارة فإنه لن يصدق عينيه» (النيويورك تايمز 31 يناير 1988).

وقد كتب ب. مايكيل في هارتس (ملحق الجمعة 18 ديسمبر 1987) مقالا بعنوان «عيد ميلاد سعيد» وصف فيه بشكل كوميدي إدراك النعام هذا، فقال:«الحمد لله أصدرت الحكومة بيانا أكدت فيه أنه لا يوجد عصيان مدني في إسرائيل». وقد اقترح الكاتب اصدار قانون باسم «قانون غياب العصيان» يقضي بمعاقبة كل من تسوّل له نفسه أن يدعي أو يكتب أو حتى أن يلمح بأن هناك عصيانا مدنيا». ولكن مع هذا تبقى مشكلة صغيرة وهي ـ ماذا يحدث هناك إذن في المناطق المحررة من أرض اسرائيل؟» ثم يحاول الكاتب أن يصف الانتفاضة بطريقة كوميدية تقرر ما يحدث وتنكره في ذات الوقت، أي يقول الشيء وعكسه، «ثمة مجموعات من الاطفال المدربين بعناية الذين يفتقدون الى المبادرة يتصرفون بتلقائية يتم توجيههم من الخارج من قبل المنظمات الارهابية التي لم تنجح في اختراق المناطق، بسبب المعركة المستمرة التي خاضتها قوات الأمن ضدهم. ولذا يمكن أن نقرر أن هذه المنظمات وحدها وراء هذه الانتفاضات التلقائية، التي تظهر وراءها بوضوح اليد الموجهة والتي يدل وجودها على فشل منظمة التحرير الفلسطينية أن تكسب دعم الجماهير المحلية القانعة بالاحتلال الاسرائيلي لو تركت وشأنها، بالاضطرابات التي ليست سوى حدثا عابرا مستمرا ـ ولكنها ليست عصيانا مدنيا» !

إن إدراك النعام هو العنصرية الصهيونية مقلوبة حرفيا على رأسها، فالعنصرية الصهيونية تعبير عن الرغبة الصهيونية في احلال العنصر اليهودي محل العرب، ولذا فهي تهدف الى تغييب العرب، ولكن إن عاد العربي بهذا العنف، وإن ظهر على شاشة الوعي ورفض الغياب. فما العمل إذن وما الحل ؟ الحل النعامي ـ بطبيعة الحال ـ أن يدفن المستوطن رأسه في الرمل فيغيب العربي مرة أخرى، ولكن الامور ليست بهذه البساطة هذه المرة : إذ أن العربي ممسك في يده بحجر ـ والحجر يؤلم ويجرح وقد يقتل.

الصقــور

واذا انتقلنا الى الصقور فحدث ولا حرج، فهم كثيرون، فرئيس الوزراء الاسرائيلي صرح (تايم 3 يناير 1988):بأنه لا توجد قوة في العالم «لا المتظاهرون ولا الارهابيون ولا الضغط يمكنها أن تمنع شعب اسرائيل من الاستيطان في كل أجزاء أرض فلسطين» وغني عن القول أن عملية الاستيطان لا يمكن أن تتم عن طريق الحب والاخاء والاقناع الهادىء ! فالعرب ولا شك غير موافقين أن تؤخذ أراضيهم. وقد أضاف شامير (في النيويورك تايمز 3 ابريل 1981):«أما أولئك الذين يقولون:اننا نحن الاسرائيليون غزاة، وان قال مثيرو القلاقل والقتلة والارهابيون:أنهم أصحاب الحقوق الحقيقية«فإننا نقول لهم من أعالي هذا الجبل ومنظور آلاف السنين من التاريخ:انهم مجرد جراد بالقياس لنا، وكلنا يعرف ماذا نفعل بالجراد». فالاستعارة هنا تحوي داخلها مؤشرات نحو الابادة. وقد صرح رابين (تايم 4 يناير 1988):

بأن اسرائيل لم تستخدم كل أسلحتها بعد وأنها «ستعيد فرض الأمن حق ولو كان موجعا». وحسب تجربة الفلسطينيين الغرب، نجد أن الأمن الاسرائيلي دائما موجع. وقد أثار رابين بعض الطرق التي يجب استخدامها لفرض هذا الأمن الموجع. فقد حذر المنتفضين أن كل من يتحدى اسرائيل «سيحطم رأسه على صخور هذه القلعة وحيطانها» (النيويورك تايمز 3 أبريل 1988).

وصرح اسحق مردخاي:«ان قوات الأمن ستتخذ جميع الاجراءات اللازمة من أجل إعادة الأمن الى نصابه. ولئن تتوانى في استعمال جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الهدف. وتلجأ القوات الاسرائيلية لكسر العظام وإطلاق النار وترحيل القواد خارج الوطن. بل إن الابداع الصهيوني في القمع بدأ يأخذ أشكالا جديدة. فهناك ما يسمى «بحظر التجول النشط» («ليل العصى الطويلة» ليوئيل ماركوس (هارتس 26 يناير 1988) ويتلخص في اقتحام المنازل في الظلام أثناء حظر التجول حيث يجري الجنود الصهاينة تفتيشا عنيفا داخل البيوت وينهالون بالضرب على رب العائلة والابن الأكبر».

وقد علل قائد الجيش هذا الاسلوب الجديد في القمع بأنه محاولة لاعادة الرعب من الجيش لقلوبهم. فالهدف ليس النظام الخارجي وحسب، وإنما إعادة الثقة الذاتية للجنود، بعد ان اصبحوا أضحوكة طوال أسابيع. ويبدو أن اجتياح لبنان الاخير («عملية القانون والنظام» كما يسميها الاسرائيليون) تهدف الى نفس الشيء. فقد وصفت الصنداي تايمز هذه الحملة بأنها تشكل محاولة من جانب اسرائيل لاستعادة زمام المبادرة بعرض عضلاتها وإظهار أنها عادت الى مقعد السائق. وقال مردخاي غور : «سيذكر الاجتياح سكان الاراضي المحتلة بأن الجيش ليس مفككا» (القبس 10 مايو 1988)، لقد أدرك العدو أنها معركة هوية.

وقد اقترح شلومو جازيت (رئيس المخابرات العسكرية الاسبق) أنه يجب عدم الاكتفاء بهدم منزل الارهابي كعقوبة، بل يجب هدم كل شيء في محيط قطره 200 ـ 400 متر من منزله ! (حداشوت 10 يناير 1988). أما وزير الاديان وزعيم الحزب الديني «المفدال» فقد أكد أنه يتعين على قوات الشرطة الاسرائيلية إزالة قرية بيتا في قضاء نابلس عن وجه الارض تماما واقامة مستوطنة تحمل اسم الفتاة اليهودية التي قتلت فوق أنقاضها، ويجب أيضا طرد وإبعاد مئات المواطنين العرب من سكان القرية» (الوطن 24 ابريل 1988).

وقد أدرك رفائيل أيتان، عضو الكنيست الحالي، ورئيس أركان القوات المسلحة الاسرائيلية الاسبق بأن الانتفاضة هي الطلقة الاولى في الحرب القادمة. وعلق على دجاجية الجنود الاسرائيليين وكيف يولون الادبار أمام الاحجار، وكيف ينظر العالم العربي كله ليرى ذلك المنظر : «وينظر الى جيش ضعيف وحكومة ممزقة ولا تعمل». وقد قرر ايتان أن يقدم اقتراحاته للقضاء على الانتفاضة، وهي تتسم بكل تبسيطات النماذج المادية العملية : «فاذا أشعل العرب إطارا في شارع رئيسي فيتم جر هذ الاطار الى أقرب بيت في المنطقة من مكان اشتعاله. وخلال ثوان يخرج سكان البيت ويطفئوا الاطار لانه سيؤدي الى حرق بيتهم اذا لم

يفعلوا ذلك». واقترح أن تمنع السيارات العربية من السير في الشارع المغلق بوساطة حاجز من الحجارة لمدة شهرين. وهذا لا يحتاج جيشا كاملا بل شرطيين يقفان على حافة الطريق. وأشار ايتان الى حقيقة هامة وهو أنه بين عام 1967 و1977 تم إبعاد 800 عربي محرض (أثناء حكم المعراخ المعتدل) ويجب إبعاد 400 ـ 500 محرض بل وإبعاد أمهاتهم وأبناء عائلاتهم. ولا يوجد أي إبداع قمعي في اقتراحات ايتان. وعلى كل من يود أن يحصل على اقتراحات مماثلة أن يدرس تاريخ الارهاب النازي وسيجد أفكارا أكثر إبداعا وأكثر منهجية وأعلى كفاءة، فمفهوم العقاب الجماعي ليس من اختراع الصهاينة وإنما هي ممارسة استعمارية غربية قديمة وتقليد راسخ.

التشدّد اللفظي

ويغوص المستوطنون أيضا في التشدد. فمنهم من يرى ضرورة ضم القطاع والضفة تماما. وكما قالت فرانكفورتر الجماينة: «إن معظم الاسرائيليين مع خط شامير المتشدد»، وإن «هدفهم إنهاء الوجود العربي في فلسطين»، وعندما وقع حادث بيتا (حينما وقعت مستوطنة صهيونية صغيرة صريعة رصاص المستوطنين وأشيع أنها رجمت بالحجارة)«طالب المستوطنون اليهود بتدمير قرية بيتا على رؤوس سكانها وتسوية القرية بالارض وشطبها نهائيا من الخريطة حتى تكون عبرة للغير» (القبس 22 أبريل 1988).

ومن المستوطنين من يرى ضرورة تسوية الحساب مع العرب كما سواه الامريكيون مع الهنود الحمر، على شرط أن يتم ذلك بعيدا عن عدسات التليفزيون (تايم 4 أبريل 1988).

وتبين احدى استطلاعات الرأي التي تنشر في الصحف والمجلات ويلتهمها المحللون والمعقبون العرب وغير العرب ان 48٪ من الاسرائيليين يرون ضرورة منح العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية و32٪ غير متأكدين،ولم يوافق سوى 20٪ على إعطائهم الحقوق الكاملة. وكان موقفهم المتشدد هذا نتيجة إدراكهم انه لو احتفظت اسرائيل بالاراضي المحتلة فإن العرب سيصبحون أغلبية (وهذا إدراك 77٪ بينما لم ير 16٪ ذلك). (نيويورك 25 يناير 1988).

وقد اقتبسنا حتى الان كلمات الصهاينة المتشددة وحسب، ولكن يجب أن نفرق بين الاقوال والافعال. فالاقوال لا تعبر عن الموقف المتكامل وإنما تعبر عن تشدد الانسان اللفظي وعن نيته وقصده وعن حالته العقلية ـ أي عن جزء من كل، ولدراسة مدى تشدد الاسرائيليين الفعلي وفي كليته، علينا تجاوز النية والقصد والديباجات ونقوم برصد عناصر أخرى ومركبة تتجاوز إرادة القائل ذاته. فالتشدد اللفظي، أي الموقف الصقري الكلامي، قد يكون أحيانا بمثابة غطاء كثيف لتغطية الموقف الدجاجي أو النعامي.

خذ مثلا رغبة ايتان أن يمنع مرور السيارات ويكتفي بجنديين يقفان على ناحية الشارع. هل درس إمكانية إلقاء الحجارة عليهما، وان الجنديين سيحتاجان الى فرقة

عسكرية كاملة لحمايتها؟ أما بخصوص ترحيل مئات القيادات، ألا يحتاج الامر لاليات معينة وآلة قمعية معينة لان قاعدة هؤلاء القادة في حالة استنفار؟ ولكن هذه الاسئلة تفترض ان صاحب الاقتراح عنده الصورة الكلية، والامر ليس كذلك فالنموذج الادراكي المادي يجتزىء مجموعة من الحقائق ويستبعد الحقائق الانسانية والتاريخ، ولذا يتحول الصقر الهائج من منظور الممارسة الى نعام مضحك. خذ مثلا رغبة هذا المستوطن الذي يود ذبح العرب وإبادتهم بعيدا عن كاميرات التليفزيون تماما كما فعل الامريكان في تجربة استيطانية مماثلة، وهذه هي شهوة الصقور. ومع هذا بعد التدقيق نجد أن موقفه هذا نعامي تماما. فهو يعرف أن التجربة الاميركية الاستيطانية الاحلالية تمت ابتداء من القرن السابع عشر في منطقة لم تكن فيها الكثافة السكانية كبيرة تسكنها عدة «أمم» من الهنود، تتسم حضارتهم بعدم التركيب، رغم جمالها ورقتها، ومن هنا كان من السهل إبادتهم بعيدا عن عين التلفزيون الشيطانية. أما هذا المستوطن فقد تمت تجربته الاستيطانية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر في منطقة تعج بالسكان الذين تحيط بهم ملايين من اخوانهم وهم ينتمون لتراث حضاري قديم مركب. وعلاوة على كل هذا اصبح في وسعهم الان الحوار مع الكاميرا وبكفاءة غير عادية، فالتشدد هنا هو من قبيل ما يمكن تسميته بالعادة السرية السياسية، والحلم بالمستحيل اللذيذ.

أما الذي يود إعطاء العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية رغم إدراكه أنهم أغلبية فهو لم يبين كيف يمكن تحقيق ذلك، ولعله لو طرح عليه عدة اسئلة اخرى لظهرت التناقضات النعامية الكامنة.

ويجب أيضا أن نرى التشدد باعتباره تعبيرا عن أزمة حقيقية وعميقة فالصهاينة على استعداد لاظهار قدر كبير من التسامح حيال العربي إذا قبل هذا بالتطبيع وبأن يكون قطعة غيار يمكن للصهيوني استخدامها وتوظيفها لصالحه. حينئذ يمكن أن يمنح العربي كثيراً من الحقوق المدنية وبعض الحقوق السياسية ويمكنه أن يلعب ما شاء من تنس الطاولة أي أن يمارس هوايته اذا كان بلا هوية.

إن غاب العربي، وان قنع وخنع أي لم يتحد الشرعية الصهيونية، فبوسع الصهيوني أن يتخذ موقفا معتدلا تجاه دجاج عربي مستأنس تم تطبيعه، أما إن تحول العربي الى صقر ذي هوية يهاجم دفاعا عنها فإن الاعتدال يختفي ويتخلى العدو عن ديمقراطيته الغربية المزعومة، ويضرب بيد من حديد، فالتشدد من هذا المنظور له مدلولات تختلف عما تود وسائل الاعلام الغربية نقله لنا.

الشخصية القومية الاسرائيلية

ومع هذا نرى أنه من الضروري أن نحكم على التشدد الاسرائيلي في إطار أوسع بحيث نستخدم مؤشرات اخرى مثل نسبة النزوح كمؤشر على التراخي. فالمستوطن الذي يصيح ويطالب بإهلاك العرب ويجري للسفارة الأميركية ليحصل على تأشيرة هجرة هو دجاجة في

رياش الصقر. وقد اشارت زوجتي الى أن عزوف الاسرائيليين عن الانجاب يصلح ايضا كمؤشر آخر على مدى التشدد والتراخي فاذا كانت المعركة «معركة بقاء» كما يقول الصهاينة، وانا اوافقهم الرأي، فإن من ينجب أكثر هو صاحب العزم والعزيمة ولينظر من يشاء للنساء الاسرائيليات وللمرأة الفلسطينية «النفوض» التي تنجب الاطفال فتدخل الفرحة على قلبي وتدخل الكآبة على قلب الحسود.

ويمكننا أيضا أن نستخدم مؤشرات أكثر مباشرة فنشير الى المستوطنين «الذين توقفوا عن اصلاح منازلهم أو توسيعها أو زراعة حدائقها لان المستقبل لم يعد مؤكدا كما كان من قبل». (الاهرام 2 فبراير 1988 عبد العظيم حماد ومحمد الحناوي «انتفاضة الحجارة»).

إن التشدد إذن ينصرف الى الصياغة اللفظية وحسب ولا يصلح كمؤشر على كل السلوك فهو دال دون مدلول أو دال جزئي وحسب. وهنا هل يمكننا القول ـ على طريقة علماء «الشخصية القومية» ـ إن تشدد الاسرائيليين اللفظي هذا ينم عن حبهم للالفاظ وانهم يطربون للغة، وأن لغتهم لانها قديمة لغة متحجرة تفرض عليهم صيغا لفظية لا تعبر بالضرورة عن حقيقة موقفهم ؟ وانا لست من المتحمسين لقضية دراسة الشخصية القومية هذه خاصة وأنها استخدمت كعصا لضرب الانسان العربي في العقود السابقة. إذ أنني أرى أن سمات الانسان القومية، إن وجدت وتم تعريفها وهذه مسألة ليست مستحيلة ولكنها في غاية الصعوبة، فإنها عبارة عن سمات محايدة يمكن توظيفها للنهوض أو للنكوص، للخير أو للشر، وهي سمات لا تؤدي الى هذا الموقف أو ذاك، بشكل حتمي فالسمات في حد ذاتها لا تصلح كنموذج تفسيري لسلوك الانسان، وإنما كمؤشر على استعداد كامن قد يتحقق وقد لا يتحقق، وأعتقد أن نفس الشيء ينطبق على الاسرائيليين فلا يمكن القول أن الاسرائيلي شجاع بطبيعته أو أن اليهودي طماع بطبيعته وهكذا.

الاحساس بالدولة

ومع هذا نجد أن من أهم الاستجابات للانتفاضة تلك التي حاولت أن توجه النقد للشخصية القومية الاسرائيلية، وكأنهم يقولون لقد فشلنا في تسويتها. وقد أشرت في الفصل الثالث الى فكرة افتقاد السلطة وهي أن اليهود عبر التاريخ لم يمارسوا قط السلطة السياسية، وقد بعثها الاسرائيليون مرة أخرى وبدؤوا في انتقاد شخصيتهم القومية من هذا المنظور باعتبارها شخصية تفتقد الى «الاحساس بالدولة» وعدم المقدرة على استخدام السلطة،ومن أهم الشخصيات التي ذكرت هذا الموضوع عدة مرات هو اسرائيل هاريل وهو رئيس مجلس المستوطنات في الضفة الغربية والقطاع ورئيس مجلة نيكودا، لسان حال المستوطنين. فقد قال (في مجلة نيوزويك 15 فبراير 1988) : .ان الاسرائيليين يتصرفون كاليهود الالمان (أي يهود الدياسبورا الذين يرفضهم الصهاينة) في ليلة الكريستال (مشيرا الى الاضطرابات ضد الالمان

عام 1938)،«الانذارات في كل مكان بأن الكارثة محدقة، ولكننا أصبنا بالشلل». وقد أشار الى ما سماه الخلل الاساسي في الشخصية القومية الاسرائيلية فالاسرائيليون ـ حسب تصوّره ـ يفتقرون الى الاحساس بأنهم يشكلون دولة ثم عقد مقارنة بينهم وبين الشعوب الاخرى فقال: «في أوروبا أو أي مكان آخر لا يمكن التنازل عن المطالبة بأرض لان شعبا آخر يعيش فيها». (الجيرو ساليم بوست ابراهام رابينوفتش: «سحب فوق السامرة» 30 يناير 1988).

وقد كرر يحزقئيل درور نفس الفكرة تقريبا في الجيرو ساليم بوست (2 فبراير 1988) إذ أكد أن «الشعب اليهودي» يفتقر الى تقاليد الدولة أي ممارسة الحكم، ويرى بعض المؤرخين أن هذه عقبة كأداء في بناء دولة اسرائيل، مما يدل على أنها اشكالية حقيقية بدأت تطل برأسها.

ومن أهم الشخصيات التي تخصصت في الشخصية القومية العربية وبين مدى قصورها وعمل مستشار الحكومة الاسرائيلية في الشؤون العربية يهوشوفاط هركابي، وبتغير موازين القوى نجد أنه حول مبضع الجراح للشخصية القومية الاسرائيلية. فكرر ما قاله هاريل ودرور عن إخفاق الاسرائيليين في فهم كيف يمكن للدولة أن تتصرف تجاه الدول الاخرى، وفسر هذا الاخفاق على أساس أنه نقطة قصور كامنة في التقاليد اليهودية (الجيرو ساليم بوست 19 فبراير 1988).

الاسرائيليون الذاتيون والعرب الموضوعيون

وقد قال درور:انه يمكن التعويض عن ذلك الافتقار، الى تقاليد الدولة، الذي تعيش في ظلاله الشخصية الاسرائيلية عن طريق بذل جهد واع من جانب الاسرائيليين أن يفكروا من خلال التاريخ «عن قيامهم بتقييم المواقف ورسم السياسات» (الجيرو ساليم بوست، 2 فبراير 1988) أي أن الافتقار الى تقاليد الدولة هو ما كنا سميناه في أوائل السبعينات من قبل رفض التاريخ أو الحلم بنهاية التاريخ ـ أي أن يعيش المرء داخل الاسطورة الذاتية التي لا تعكس الواقع التاريخي بكل جدله ونتوئه ويجابه الواقع من خلال أحلامه وأوهامه. ويبدو أن هركابي هو الاخر يربط بين رفض التاريخ وهذه السمة في الشخصية القومية الاسرائيلية وإن كان يستخدم مصطلحا مختلفا يسميه «إضفاء طابع ذاتي على عناصر النجاح». وهو يرى أن الحركة المراجعة الصهيونية مصابة بهذا الداء أكثر من غيرها، إذ أن اتباعها كانوا يودون أن يقفزوا على الواقع للوصول الى الدولة. ولكنه في مكان آخر من المقال ذاته يعمم هذه المقولة على كل الصهاينة ويشير الى أن العقل الاسرائيلي ككل مصاب بهذا المرض العضال فيقول: «إن مشكلة اسرائيل ليست سياسية دائما ـ وإنما وراء سياسيه (ميتاسياسية) وتكمن في تشوه تفكيرها الاساسي: تمجيد الوهم، والقصور في إدراك أن الواقع تحدد بحدود الممكن، وان ما هو غير واقعي لا يوجد ولن يوجد. تمجيد الارادة الطوعية أو الارادية *(Voluntarism)* كما لو

كان هذا كاف لتحقيق الاهداف. نحن نرفض معطيات الواقع دون أن ندرك أن العدو له إرادة لابدّ أن تؤخذ في الحسبان، ونضع سياستنا بشكل مجرد، حسب احتياجات الصهيونية كأننا نعيش في فراغ [الاسطورة المعادية للتاريخ] ونتجاهل النظام العالمي والأمن ومتطلباتها من الاخرين. وكل هذا نابع من ضيق أفق يتعارض مع التاريخ «*anachronistic*».

هذا الوصف «فقدان الارتباط بالواقع» يبدو أنه «كتالوج» جاهز عند هركابي. فقد ذكر في طي نقده للشخصية العربية أشياء من هذا القبيل. ولكن الطريف هذه المرة أنه لا يكتفي بانتقاد الشخصية الاسرائيلية وإنما يرى أن الشخصية العربية لا يمكنها أن تسقط في هذه الذاتية المعادية للتاريخ، ويقول: «إن العوامل الموضوعية التي يعبر عنها اعداد العرب الهائلة واتساع أرضهم قد أنقذتهم من الاضطرار للجوء للعناصر الذاتية لضمان النجاح! بكل ما يتضمن هذا من تشويه للواقع... إن الاتجاه العربي هو دائما نحو التمثل الزمني للعناصر الموضوعية التي تضمن نجاحهم»! وهذه الاقول تفصلها مسافة شاسعة عما قاله عنا في أواخر الستينات.

أعـراض باركوخبـا

هذا الانغماس في الذاتية يعبر عن نفسه في اتجاه انتحاري بين الاسرائيليين. فالقضية التي تواجههم ليست أن دولتهم ستتحول الى دولة «أبارتهيد»، وإنما القضية هي «أننا لن نكون وحسب»! اذا ما استمروا متخندقين في الاسطورة الخاصة. ويضرب هركابي مثلا مشابها وهو ما حدث لليهود إثر التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان (132 ـ 125 ميلادي). فأعضاء هذا التمرد دخلوا الحرب تدفعهم حمى ماشيحانية ترى أن نهاية الايام(أو التاريخ)- وشيكة. وقد أعلن بعض الحاخامات أن باركوخبا زعيم التمرد هو الماشياح (المسيح المخلّص اليهودي الموعود) وبدون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان أعلن باركوخبا وأتباعه التمرد على روما فتم القضاء عليهم وعلى ثورتهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودي الهزيل في فلسطين. ويسمي هركابي مرض الذاتية هذا الذي يؤدي الى الانتحار، «أعراض باركوخبا» (الجيرو سالم بوست 4 ابرايل 1988)، وهو ينصح الاسرائيليين بتغيير هذا الجانب من شخصيتهم القومية.

ولنلاحظ أن سمة محايدة مثل الاتجاه الانتحاري كانت تستخدم في الماضي لتهديدنا، والان يبين واحد من كبار المفكرين الاسرائيليين أنها في الواقع نقطة قصور. وأعتقد أن ما يسميه هو الاتجاه الانتحاري هو ما أسميه أنا الاتجاه النعامي، وأعتقد أن الصورة التي استخدمتها أكثر دقة لانها ليست متطرفة ولانها مرتبطة بصور إدراكية أخرى مثل صور الدجاج والنعام والصقور!

وبعد،هذه محاولة أولية لرصد استجابات المستوطنين الصهاينة للانتفاضة المباركة، وهي

محاولة ترمي الى تجاوز الثنائيات المتعارضة التي تسم النموذج الادراكي الغربي (المادي البسيط) ونحاول أن نطرح بدلا من ذلك نموذجا أكثر تركيبا لانه يستعيد الانسان مرة أخرى ككائن حي : ظاهره غير باطنه، قوله غير فعله، وعيه غير لا وعيه، قصده غير سلوكه، وإن كان الظاهر يعبر عن جزء من الباطن وإن كان القول يؤثر في الفعل ويتأثر به وإن كان الوعي يتداخل مع اللاوعي وإن كان القصد والسلوك يتفقان ويختلفان حسب الظروف والعوامل. وهذا النموذج الادراكي المركب المقترح هو وحده الذي يصلح كنقطة بدء لرصد سلوك العدو. ولعل مراكز البحوث العربية تنفض عنها التبسيطات المادية الادراكية التي زرعت في قلوبنا الهزيمة وشوهت رؤيتنا لانفسنا وللآخر.

الفصل السابع

يهود العالم بين التملّص من الصهيونية والتحرر منها

من الصور الشائعة التي تروج لها أبواق الدعاية الصهيونية ان كل اليهود صهاينة وان كل الصهاينة يهود، وبالتالي يصوّر يهود العالم على أنهم كتلة واحدة كبيرة متماسكة يدينون بالولاء للصهيونية ولدولتها، ويقومون بدعمها دون تساؤل، باستثناء جماعات من المتطرفين والمهووسين. وقد ابتلعت وسائل الاعلام العربية الطعم فيما ابتلعت من مقولات صهيونية غربية لا حصر لها ولا عدد وأخذت تروج لهذه الصورة البسيطة ـ السوقية في بساطتها، التي لا يوجد لها سند في الواقع. ومن هنا نتحدث دائما اما عن «تأييد الصهيونية» أو عن «رفضها». وقد بدأت أكتشف بالتدريج أن التصنيف الثنائي البسيط للظواهر هو نتاج طريقة تفكير آلية مادية تجنح نحو ترجمة كل الظواهر الاجتماعية والانسانية، بغض النظر عن مدى تركيبيتها، الى ما يشبه المعادلات الرياضية، وكأن عقل الانسان في بساطة المادة والارقام ـ وهو أمر مناف للواقع ومناف كذلك للعقيدة. ونحن نرى أنه لن تقوم قائمة للعلوم الانسانية العربية الاسلامية إلا بالتخلي عن هذه النماذج الادراكية البسيطة، وإلا بتبني نماذج مركبة يمكنها أن تتعامل مع الانسان كجسد وروح (الانسان/السر) أي نماذج لا تسقط في الثنائيات المتعارضة الفجة.

التملص اليهودي من الصهيونية

وتثبت وقائع التاريخ - على عكس ما يشاع - أن الحركة الصهيونية قد قوبلت بالرفض من يهود العالم في بداية أمرها، وهو الامر الذي تثبته الحقائق التاريخية وكل المراجع «العلمية». ولننظر على سبيل المثال الى موسوعة روفائيل باتاي : موسوعة الصهيونية واسرائيل، مدخل «معاداة الصهيونية» حيث يقول المؤلف:انه حينما عقد المؤتمر الصهيوني الاول في بال (1897) قوبل بالرفض من جميع المنظمات والهيئات الدينية والاجتماعية اليهودية في كل أنحاء العالم ! ولكن الصهيونية مع هذا نجحت في الهيمنة بالتدريج على الجماعات اليهودية وعلى مؤسساتهم من خلال تحالفها مع الاستعمار الغربي، فوعد بالفور هو الذي منح الصهيونية قسطا كبيرا من الشرعية أمام يهود العالم الغربي (الذين كانوا يشكلون أكثر من 90٪ من يهود العالم في نهاية القرن الماضي). ونحن نستخدم اصطلاح «هيمنة» عن عمد لاننا نرى أن المواطن اليهودي في الولايات المتحدة أو أنجلترا تكمن مصلحته الحقيقية كإنسان في أن يكون مواطنا منتميا لوطنه ككل أعضاء الاقليات الدينية والاثنية الاخرى. وتوجد بالفعل عناصر نشطة داخل الجماعات اليهودية مدركة لهذه الحقيقة تماما، وترى أن «صهينة» الجماعات اليهودية ليس في صالحها بل ويهدد مستقبلها بالخطر.

ويمكننا أن نعيد تقسيم يهود العالم من منظور مدى تبعيتهم للصهيونية أو معارضتهم لها الى ثلاثة أنواع (وربما أربعة).

1 - اليهود المؤيدون للصهيونية أو اليهود الصهاينة : وهم اليهود الذين يتبنون المثل الصهيونية دون تحفظ وهؤلاء عادة ما ينخرطون في صفوف الحركة الصهيونية.

وقد يدهش القارىء حين يعرف أنهم أقلية صغيرة للغاية، وانه لا تعقد احيانا انتخابات لاختيار مندوبين للمؤتمر الصهيوني العالمي بسبب انصراف الاعضاء عن حضور الانتخابات. ونحن نقسم هذه الاقلية الصغيرة الى قسمين :

ا - الصهاينة الاستيطانيون : وهؤلاء هم الصهاينة الذين يؤمنون بالصهيونية قولا وفعلا، وهم أقلية داخل الأقلية. ويظهر قلة عددهم من خلال دراسة اعداد المهاجرين منهم الى اسرائيل فيهود الولايات المتحدة الذين يبلغ عددهم حوالي 6 ملايين لا يهاجر منهم سوى 2500 يهودي كل عام في المتوسط وهو ما يساوي حمولة طائرتي جامبو.

ب - الصهاينة التوطينيون : وهؤلاء يؤمنون بالصهيونية قولا، ولكنهم يتملصون منها فعلا وهم يتبنون الديباجات الصهيونية المتشدِّدة، ويتشدقون بصوت جهوري عالٍ ويذهبون لكل المؤتمرات الصهيونية ثم يسلكون حسبيا تمليه عليهم مصالحهم الوطنية والفردية المختلفة. والتملص اليهودي من الصهيونية حريص بطبيعة الحال على اخفاء نفسه على مستوى القول ولكنه يظهر على مستوى الفعل، وان ظهر على مستوى القول فهو يظهر حييا مستأنسا لا يتفق

البتة مع عمق التملص. ويمكننا القول: ان التملص هو شكل من أشكال الرفض العميق ولكنه رفض خائف من الهيمنة الصهيونية وسطوتها.

والعناصر المتملصة تؤثر أن تتحرك في سكون وصمت وتظل تنتهز الفرص حين تتفكك قبضة المؤسسة الصهيونية لتعبر عن استقلالها واحتجاجها.

2 ـ اليهود غير المكترثين بالصهيونية أو غير المدركين لأهدافها «القومية» : وهذا الفريق هو غالبية يهود الولايات المتحدة البرجماتيون (من يطلق عليهم «الانسان العادي أو المتوسط») وفريق صغير منهم، ولا يزج بنفسه في السياسة ويرى ان الصهيونية لا تعنيه من قريب او بعيد ولذا فهو يقبلها ولا يرفضها. وهناك فريق يعتقد أن الصهيونية حركة خيرية مثل آلاف الجمعيات الخيرية في الولايات المتحدة، أوانها تنظيم اثني يساعده على الحفاظ على الذات الاثنية المتآكلة في المجتمع الاستهلاكي. فهؤلاء يقبلون الصهيونية بعد ان يفرغوها من محتواها ويسقطوا عليها محتوى يتفق مع مصالحهم وأهوائهم.

وهم قد يحضرون الحفلات الصهيونية ويدفعون للدولة الصهيونية لا باعتبارهم صهاينة بالمعنى المفهوم للكلمة وانما باعتبارهم يهود امريكان محبين للخير وللذات الاثنية اليهودية. وهذا الفريق عادة ما ينضم للصهاينة التوطينيين ويكونون بذلك اكبر كتلة يهودية في الولايات المتحدة تقبل الصهيونية قولا وترفضها فعلا. وعدم تحدّد هذه الكتلة هو السبب وراء صعوبة تحديد من هو صهيوني أو من هو غير صهيوني!

3 ـ اليهود الرافضون للصهيونية : وهم أيضا قلة صغيرة. وهذه حقيقة معروفة ومتوقعة في المجتمعات الغربية التي تؤيد اسرائيل والتي لا ترى جدوى كبيرة في التحديدات النظرية الدقيقة.

الصفوف الأمامية والخلفية

من المفيد أن نعطي القارىء فكرة عن مدى التسلط الصهيوني على الجماعات اليهودية في العالم ويمكن ان نشير الى المفهوم الصهيوني الخاص بنفي الدياسبورا ـ أي تصفية الجماعات اليهودية في العالم بعد انشاء الدولة الصهيونية، باعتبار أنها جماعات مريضة لا تستحق البقاء والاستمرار خاصة بعد تحقق الحلم الصهيوني. وقد تم تعديل تلك الصياغة المتطرفة بحيث اصبح من الممكن ابقاء الجماعات باعتبارها وسيلة، مجرد أداة يمكن استخدامها لتحقيق الغاية أي الدولة الصهيونية ثم للقيام على خدمتها. ومن هنا تشير الأدبيات الصهيونية الى الجماعات اليهودية باعتبارها «جسرا» يعبر عليه المهاجرون الى أرض الميعاد، وباعتبارها مجرّد «لبنة» لبناء الوطن القومي. بل ان المفكر الصهيوني جوردون اقترح ان تكون علاقة يهود العالم بالدولة الصهيونية، مثل علاقة الدول الاستعمارية بالمستعمرات ـ أي علاقة استغلال من جانب واحد، ولا شك ان جوردون كان متأثرا في قوله هذا بالفكر الاستعماري الغربي الذي كان سائدا في أواخر القرن التاسع عشر في اوروبا والذي يشكل البنية الفكرية التحتية للفكر

الصهيوني.

وعلى الرغم من ان الدولة الصهيونية، وبسبب اعتمادها المذل على الولايات المتحدة وعلى يهود العالم، قد تخلت عن كثير من هذه الأقوال المتطرفة وقامت باخفاء المفاهيم التي قد تثير حفيظة يهود العالم (ومن يقبل بأن يصبح مجرد اداة او جسر او لبنة يمسك بها الآخر؟) الا ان هذه المفاهيم لا تزال كامنة في الخطاب الصهيوني. وللتدليل على ذلك سنقوم بتلخيص المبادىء الاربعة التي تحكم علاقة الدولة الصهيونية بالجماعة اليهودية في الولايات المتحدة (التي تضم نصف يهود العالم تقريبا) كما وردت في الجيروساليم بوست (6 شباط 1988):

1 ـ معرفة الدولة الصهيونية بأمور السياسة والأمن تفوق بطبيعة الحال معرفة يهود العالم بهذه الأمور.

2 ـ المستوطنون الصهاينة هم الذين يخوضون المعارك ويشتركون في القتال ولذا لا يحق ليهود العالم التدخل في شؤون الدولة.

3 ـ يهود العالم يقفون في الصفوف الخلفية يجمعون المعونات من اليهود ويشكلون جماعة ضغط على الولايات المتحدة كي تساند اسرائيل وتزيد من مساعداتها الاقتصادية والعسكرية لها.

4 ـ يجب ان يتحدّث يهود الولايات المتحدة بصوت واحد والا قامت وزارة الخارجية الامريكية وبعض العناصر في المؤسسة الحاكمة الامريكية باستغلال هذه الخلافات مما يؤدي الى اضعاف الدعم.

ويبدو أن الدولة الصهيونية قد أرهبت قيادات يهود أمريكا تماما بما في ذلك المعتدلين بينهم. ولذا فقد قنعوا بدور التابع الذي يقف في الصف الثاني ويوافق على ما تقوله القيادة الصهيونية الاستيطانية الاسرائيلية، والتي تقف دائما في الصف الأول.

ففي عام 1977 على سبيل المثال حينما انتخب بيجين رئيسا للوزراء وأعلن سياسة «اسرائيل الكبرى» كسياسة رسمية لحكومته، قام الحاخام الاسكندر شندلر، زعيم تيار اليهودية الاصلاحية في الولايات المتحدة ـ كبرى التيارات الامريكية ـ وبالتالي يمكن اعتباره من أهم الشخصيات اليهودية الامريكية ان لم يكن أهمها على الاطلاق ـ قام شندلر بتأييد الخط الذي تبناه بيجين ووعد باستمرار تأييد يهود أمريكا له ولحكومته. وبعد إبرام اتفاقية كامب ديفيد، فسر بيجين عبارة «الحكم الذاتي» بأنها تشير الى السكان لا للأرض وانطلاقا من ذلك قرّر الاستمرار في سياسة الاستيطان.

وقد أيدته في ذلك المنظمات اليهودية الأمريكية واطلقوا على الضفة الغربية اصطلاحي «يهودا والسامرة». وبدأ المعتدلون يشيرون للاحتلال الصهيوني باعتباره «احتلالا رحيما». وحينما بدأت جماعة «جوش ايمونيم» سياستها الاستيطانية المكثفة لم تعارض المنظمات اليهودية الأمريكية ذلك النشاط بل دعمته معنويا وماليا. وأخيرا حينما اعلن شامير ان «الحل الوظيفي» (اي استمرار الاحتلال والوضع القائم في الضفة الغربية) هو الحل الوحيد، قبل يهود أمريكا

(أو على الأقل منظماتهم وقياداتهم) بذلك (الجيروساليم بوست 6 فبراير 1988).

زمجرة الصف الثاني

ولكن مع هذا كان هناك دائما زمجرة وغمغمة ومحاولة للتملص فسلوك اسرائيل،لم يكن دائما متفقا مع مصالح يهود العالم ولم يكن دائما مقتدرا للاعجاب،وسياستها ليست دائما مدعاة للفخر. ولذا نجد ان يهود العالم لم يكفوا عن توجيه الانتقادات للدولة الصهيونية. فالمتدينون يتهمونها بأنها دولة إباحية فاسدة، والثوريون يتهمونها بأنها عميلة للولايات المتحدة، وأنها تحوّلت الى تاجر سلاح، والليبراليون يتهمونها بأنها أصبحت أداة قمع، ولكن كل هذا كان يتم همسا داخل حدود العائلة وحسب، وكانت الدولة الصهيونية من جانبها تضرب بيد من حديد على من كانت تسول له نفسه من اصحاب الصف الثاني ان يعلن عن اعتراضه واحتجاجه مهما كان الاعتراض خافتا، ومهما كان الاحتجاج حييا مسالما. وعلى سبيل المثال لا الحصر، قامت جماعة من يهود أمريكا في منتصف السبعينات بتكوين جمعية تدعى بربرا (الاختيار) لطرح تصورات يهودية امريكية لقضايا اليهود واليهودية مستقلة عن الرؤية الصهيونية ـ مستقلة وحسب، وليس بالضرورة معادية لها. ومع هذا ظلت المؤسسة الصهيونية تحاصرها وتحاربها حتى قضت عليها تماما. وفي الثمانينات ظهرت جمعية «الأجندة اليهودية الجديدة» وبدأت عجلة المؤسسة تدور مرة أخرى للقضاء على الجمعية الجديدة، وأصدر بعض الحاخامات فتاوي يكفرون فيها اعضاء بالجمعية ولكنها مع هذا لا تزال صامدة (روبرتا فيورلخت، قدر اليهود، ص 108).

وحتى شندلر الذي أيّد بيجين بدون تحفظ في البداية وجد نفسه مضطرا للتعبير عن قلق يهود أمريكا المتزايد بسبب غزو اسرائيل للبنان ومذبحة صبرا وشاتيلا. وكان رد بيجين واضحا وبسيطا وصفيقا اذ أخبر الحاخام الامريكي: «يجب ان تقرر هل انت امريكي أم يهودي، فلكي يكون المرء يهوديا ينبغي عليه ان يمنح تأييده الكامل لحكومة اسرائيل وان يساعد رئيس الوزراء بخصوص كل القضايا بدون تردّد، سواء كان موافقا على هذا الموقف أم لا»،أي ان بيجين يطلب من يهود العالم دفع المعونات له ودعمه والتسليم له دون تساؤل. (دون بيريتس: الحكومة السياسية في اسرائيل، ص 255) وكأنهم بالفعل مستعمرة! ولم يكن الحاخام شندلر سعيدا للغاية بموقف بيجين هذا، اذ صرح بعدها:ان «اليهود الامريكيين أصبحوا الى حد كبير جماعة تسيطر عليها قضية واحدة [هي اسرائيل]، واصبحت الدولة بالنسبة لكثير منهم هي المكان الذي يتعبدون فيه ورئيس وزرائها هو حاخامهم» (واسرشتاين، عرض عام للشؤون اليهودية، ص 158).

بولارد وتوسيع المسافة

وقد انتهزت العنـاصر المتملصة حادثة بولارد (المواطن الامريكي اليهودي الذي جنّدته

المخابرات الاسرائيلية للتجسّس على بلده الولايات المتحدة لحساب الدولة الصهيونية) لتعلن عن احتجاجها،ولتوسع المسافة بينها وبين الدولة الصهيونية، معتمدة في ذلك على غضب الولايات المتحدة مع دولتها العميلة وقد كتب جاكوب نيوزنر وهو من المتخصّصين في التلمود، مقالا غاضبا في الواشنطن بوست (10 مارس 1987) أكد فيه بلا مواربة أنه قد حان الوقت للقول بأن أمريكا أفضل من القدس بالنسبة لليهود، ان كان هناك أرض ميعاد فان اليهود يعيشون فيها ويشعرون داخلها بالسلام والأمن على نحو لا يمكن ان يتاح لهم في الدولة اليهودية وقد عبرت معظم المؤسسات اليهودية الامريكية عن استيائها من تورط الحكومة الصهيونية في مثل هذا الحادث، وأعلنت : أن ولاءها يتجه أولا وأخيرا لأرض الميعاد الامريكية.

وقد تدهورت العلاقات الى درجة كبيرة في اواخر العام الماضي مع وقائع ايران ـ كونترا ومع عجز الحكومة الاسرائيلية عن التوصل الى حلّ لمشكلة الضفة والقطاع. ومّما شجع يهود العالم على توجيه النقد لاسرائيل انقسام الحكومة الاسرائيلية ذاتها على نفسها، وتوجه كل فريق الى القطاع الموالي له بين يهود العالم طالبا منه اتخاذ سياسة تأييد نشيطة له مما كان يتضمن أيضا تنشيط المعارضة العلنية للفريق الأخر (جابي شيفر، «رد الفعل الامريكي اليهودي» الجيروساليم بوست، 22 يونيو 1987). وفي مقال بعنوان «الملك يحتضر» لاستير هرليتس (دافار 16 يونيو 1987) لاحظت الكاتبة زيادة الاغتراب بين جمهور اسرائيل ويهود الشتات خاصة في الولايات المتحدة الذين يعملون «بوقاحة ودون حياء على تأسيس مملكة بابل الخاصة بهم». وقد فسرت الكاتبة تأسيس متحف للهولوكست في واشنطن على أنه محاولة لتأسيس مركز روحي ليهود العالم مستقل عن اسرائيل ـ أي أنهم تجاوزوا حتى الحد الادنى الذي طرحته الصهيونية الروحية التي لم تطالب يهود العالم بالهجرة، واكتفت بتأكيد مركزية اسرائيل الروحية في حياة الدياسبورا ـ وكأن لسان حال الدياسبورا يقول : ان الدولة الصهيونية ليست مركزا سياسيا اقتصاديا نهاجر إليه، ولا مركزا روحيًا نتوجّه إليه، (نقلا عن الملف عدد 40 يوليو 1987) وانما هي دولة مثل كل الدول.

ولكن غمغمات يهود الصف الثاني ظلت دائما خافتة، فالصهيونية كانت قوية منتصرة، تتمتع بتأييد الدول الغربية والصحافة العالمية والرأي العام العالمي/أي الغربي ـ تعلن عن نفسها باعتبارها دولة صغيرة ديمقراطية، تدافع عن نفسها ضد هجمات العرب، ولذا كان على يهود العالم الانصياع.

جوقة الاحتجاج في العالم

ولكن هذا الوضع تغيّر تماما مع الانتفاضة، اذ ان النضال العربي ضد الحكم الصهيوني هزه من جذوره وشوّه صورته الإعلامية بحيث اصبح الانتماء له ولو عاطفيا يشكل عبئا حقيقيا. وصارت الدولة الصهيونية، بجنودها الذين يدفنون الأحياء ويكسرون عظام الشباب

ويضربون النساء والعجائز والتي كانت تعرض بشاعتها وقوتها كل ليلة على شاشة التلفزيونات أمام ملايين الناس وفي نفس يوم وقوع الحادثة، صارت هذه الدولة بقعة سوداء في حياه يهود العالم يودون لو ان العالم لا يربط بينهم وبينها ـ ولكن هيهات فهم يهود، وهذه هي الدولة اليهودية ودولة اليهود ؟ وهم على كل الذين اما ساندوها عبر الاربعين عاما الماضية وتباهوا بها أو صمتوا عن وحشيتها ـ ولذا لا مناص من الربط بينهم وبينها.

فلنأخذ على سبيل المثال ماري ماكجريجوري (وهي صحفية يهودية) التي كانت تكتب عمودا في مجلة الواشنطن ستار (أهم الجرائد الامريكية في واشنطن في الستينات)، في عام 1967 حينما انتصرت القوات الاسرائيلية كتبت تقول: «بالامس في الحديقة كنّا كلّنا يهودا. وكانت تتم عملية اضفاء الصبغة الاسرائيلية على اليهود في كل مكان في لحظات. لقد طار صوابنا فرحا، وبكينا وتعانقنا وغنّينا النشيد القومي الاسرائيلي هايتكفا» وقد أغلقت هذه الجريدة ابوابها، وتعمل ماكجر يجوري الآن في الواشنطن بوست فكتبت عمودا آخر عن الانتفاضة بعنوان «قبضة اسرائيل الحديدية التي تسبب الاحساس بالعار» وصفت فيه كيف يقوم الجنود الاسرائيليون بضرب الشبان الفلسطينيين العزل. (هآرتس 10 يناير 1981 تسفي بارك) ولكن ماذا حدث للحلم الاسرائيلي/اليهودي؟ ولم تراجعت السيدة ماكجريجوري. فحرب 1967 كانت حربا توسعية قام بها جيش قوي يستمد شرعيته من قوته وأسلحته لا من اي قيم اصلاحية؟ ولم استخدمت كلمة العار ؟ ثمة نظرية تذهب الى القول أن احتجاج اليهود المتملصين من الصهيونية قد زاد بعد الانتفاضة لا لأسباب أخلاقية وانما بسبب الحرج الذي يسببه عرض الافلام الوحشية على التلفزيون، ويبدو ان في هذا الكثير من الحق (كما سنبين في الفصل الحادي عشر).

ولكن بغض النظر عن الدوافع، أخلاقية كانت،أم اعلامية نفعية،فان النتيجة المتعينة ليهود العالم ان يطرحوا جانبا الهيمنة الصهيونية الى حد ما وان يعبروا عن احتجاجهم. وهنا تكمن المفارقة فالنضال العربي ضد الصهيونية لا يؤدي وحسب الى تحرّر عرب فلسطين من الصهيونية، وانما يؤدي أيضا الى تحرّر يهود العالم من هيمنتها. ويلاحظ ارتفاع جوقة الاحتجاج بين كلّ الجماعات اليهودية في العالم.

ففي بريطانيا على سبيل المثال طالبت سبع شخصيات يهودية بريطانية، بينها ثلاث حاخامات بضرورة الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني (حسبما جاء في مجلّة انديبندانت نقلا عن السياسة 29 نوفمبر 1987).

وقد عبر السيد ايمانويل جاكوبو فيتس حاخام انجلترا الأكبر عن احساسه بأن محنة اللاجئين الفلسطينيين هي وصمة لا تحتمل على الضمير الانساني اليهودي، وأعلن عن تأييده لحركة السلام الدينية في اسرائيل والتي تسمّى «طرق السلام» الأمر الذي دعا شلومو جورين، كبير حاخامات اسرائيل، الى «لفظ هذا الرجل الخطر من بيننا». (نيوستيتسمان، نقلا عن

القبس 21 مايو 1988). كما قال رئيس تحرير الجويش كرونيكل: «على اسرائيل أن تقلع عن موقف تحكم فيه 1،5 مليون شخص لا يكنّون لها أيّ حب»، (كليفورد لونجلي في التايمز نقلا عن القبس 26 يناير 1988). وصرحت جوان جيوكبس، رئيسة لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس المندوبين ليهود انجلترا، وهو مجلس وصف في الماضي بأنه «لا يقل شيئا ولا يفعل شيئا ولم يكن له سياسة حول مستقبل الأراضي المحتلة، صرحت في برنامج لهيئة الاذاعة البريطانية أن أحداث الضفة الغربية وغزة تبعث على الاشمئزاز والرعب، وحثت اسرائيل على أن تنهي الاحتلال. وقد نشرت مجموعة من الكتاب والمثقفين البريطانيين اليهود تضم جميع الكتاب الكبار اليهود تقريبا، بيانا عن الازمة الحالية في الجريش كرونيكل تحت عنوان «يهود لاسرائيل عادلة»، شجبوا فيه الاحتلال وطالبوا الحكومة الاسرائيلية بأن تحيي روح اتفاقات كامب ديفيد التي فسروها بأنها اعترفت بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة. ودعا السير أشعياء برلين، وهو من كبار المفكرين البريطانيين اليهود، الى المبدأ القائل بمعادلة الأرض بالسلام، ويستدل من بريد القراء في الجويش كرونيكل عن شدة معارضة البريطانيين العاديين من اليهود لسياسة اسرائيل (نيوستيتسمان عن القبس 21 ماي 88).

أما في ايطاليا فقد أكدت توليا تسفي (رئيسة اتحاد الجماعات اليهودية الايطالية) بأن اعضاء الاتحاد يفضلون التوصل الى سلام من خلال المفاوضات التي يجب أن تتم داخل اطار المؤتمر الدولي ـ وهو موقف مغاير تماما لموقف الدولة الصهيونية، كما قاطع عدّة مندوبين عن الجماعة اليهودية في ايطاليا حفل استقبال لشامير في ايطاليا في 15 فبراير 1988. ومثل هذا السلوك من مثل هذه الجماعة الصغيرة التي ليس لها نفوذ يدل على تزايد معدّلات الجسارة والشجاعة بين يهود العالم.

وقد ظهرت احتجاجات مماثلة من ممثلي يهود فرنسا التي تضم 700 الف يهودي. فقد استنكر اندريه جلوكمان (وهو فيلسوف يهودي مؤيد لاسرائيل) تصريحات فايزل المفكر الصهيوني الذي احترف الكتابة عن الهولوكوست والذي حاول الدفاع عن القمع الصهيوني للعرب في غزة والقطاع باستدعاء صورة القمع الاستعماري في الجزائر وفيتنام. وقد طالب جلوكمان اسرائيل باخلاء الأراضي الفلسطينية المحتلة. ونشر 250 مثقف يهودي بيانا في اللوموند يطالبون بوقف الاعتداءات على الشعب الفلسطيني. وقد انضمت ماري كلير منديس فرانس (أرملة الرئيس الفرنسي) اليهم (اليوم السابع 1 شباط 1988).

وصرحت سيمون فيل، رئيسة البرلمان الاوروبي، بأنه على اليهود ان يعبروا عن رأيهم بصراحة في السياسة الحالية، واكدت حقهم في ذلك «فكثيرا ما يطلب منا مساندة اسرائيل. وكم ستكون مصداقيتنا، لو عرف ان موقفنا هو مساندة اسرائيل دون قيد او شرط؟ لن يستمع أحد لنا، ولن يصدق أحد ما نقول». وقد بلغت الاستقلالية درجة غير عادية، حينما تقدم

يهودي فرنسي باقتراح ان يقوم وفد يمثل يهود العالم بمقابلة عرفات، وان يلعب يهود العالم دور الوسيط. وهذه هي فكرة ناحوم جولدمان القديمة التي تفترض الا يقنع يهود العالم بدور التابع للدولة الصهيونية وان يدخلوا في علاقة متكافئة معها (القبس 20 مارس 1988). وقد ظهرت احتجاجات يهودية كثيرة مماثلة في كافة دول اوروبا الاخرى.

قيادات يهود أمريكا في جولة الاحتجاج

ولكن حينما نتحدّث عن يهود العالم فنحن في واقع الأمر نتحدث عن يهود الولايات المتحدة. اكثر الجماعات اليهودية عددا وثراء ونفوذا، وقد عبرت قيادات يهود الولايات المتحدة عن سخطها بشكل لم تعهده الدولة الصهيونية من قبل. فوودي ألن، الكوميدي الشهير، كتب مقالاً في النيويورك تايمز (نقلته عنه الهيرالد تريبون 1988/1/22) بأسلوبه الكوميدي الحزين المشهور يعبر فيه عن دهشته الساذجة (عن عمد) لتكسير العظام. ويعلن عن احتجاجه الكامل ضد القمع الصهيوني للفلسطينيين.

وقد سعدت ايما سعادة بهذا المقال لأنني أجد أفلامه تعبر عن عمق انساني لا حدود له ونقد عميق للمجتمع الغربي الذي يؤدي بالانسان بالغربة والعزلة. وقد كان يدهشني ظهور اسمه احيانا في الاعلانات الصهيونية ولكنني أعرف هذه الحيلة الصهيونية جيّدا وهي تتلخص في استئذان كبار الفنانين ومشاهير الكتاب أن يوقعوا على بيانات صهيونية لا يعرفون مضمونها تماما وتوصف لهم الحركة الصهيونية بأنها أساسا حركة خيرية تدافع عن حقوق الانسان اليهودي وتهدف الى نشر السلام في ربوع الأرض خاصة فلسطين! ومن يمكنه ان يرفض مساعدة الايتام اليهود في الاستقرار في بيوت حيفا ويافا ـ خاصة اذا كان لم يسمع عن الدماء العربية النازفة، والصهيونية تحصّل على قدر كبير من الشرعية أمام الجماهير الغربية من خلال هذه الحيلة، فالنجوم السينمائيون هم «قديسو» الحضارة العلمانية وتحمل توقيعاتهم قدرا كبيرا من القداسة. ولذا فخسارة الصهيونية مضاعفة حينما يستيقظ هؤلاء ويكتشفون انه قد غرر بهم وان الصهيونية ليست حركة لرعاية الأيتام!

وقد قام عازف الكمان اليهودي المؤيد لاسرائيل (على الرغم من انه ابن موشيه مينوهين، واحد من أهم النقاد اليهود للصهيونية والرافضين لها) قام بنشر مقال في صحيفة واشنطن بوست يدعو لاقامة دولة فيدرالية اسرائيلية فلسطينية تكون عاصمتها الموحدة القدس ويمثل فيها الافراد والجماعات والمناطق حسب نظام الكانتونات السويسري ويتمتع جميع مواطنيها بحقوق متساوية. ودعا منوهين اسرائيل بالا تنخدع بجبروتها العسكري (القبس 6 تموز 1988).

ولابدّ أن يحاول الاعلام العربي أن يستفيد من هذه اللحظة المواتية وان يقوم بالحصول على «آراء» كبار الفنانين في العالم فيما يحدث في فلسطين المحتلّة وعليه ان يقنع بأي تصريحات سلبية قد يدلون بها بخصوص اسرائيل، مهما اختلفت عن الموقف العربي. اذ لا داعي ان

نطلب من المخرج الياباني كيروناوا مثلا أن يصرح بضرورة «تحرير كل شبر من فلسطين» ويكفينا أن يعرف العالم أنه يسمي ما يحدث في فلسطين المحتلة «قمعا». وأنا مدرك تماما لصعوبة الحصول على مثل هذه التصريحات، اذ ان السينما في ايد يهودية مماثلة للنفوذ الصهيوني. ولكن يمكن «احراج» كبار الفنانين بمليون طريقة وطريقة ولابدّ أن نستعيد الثقة في مقدرتنا على الحركة تشبه ثقة المنتفضين في مستقبل الأمة!

وقد عبّرت العديد من الشخصيات اليهودية والصهيونية البارزة الأخرى عن سخطها على القمع الصهيوني من بينهم هنري سايجمن المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي الامريكي، وتيودور ايلينوف رئيس اللجنة اليهودية الامريكية، وكذلك ارفنج هاو الكاتب الشهير، وآرثر هرتزبرج، وهو استاذ بجامعة كولومبيا، وواحد من أهم المفكرين الصهاينة. وقد انضم لجوقه الاحتجاج ريتشارد ويكلر رئيس سابق لفدرالية شيكاغو اليهودية الذي قال:ان الحاخامات اليهود يشعرون بالغضب خاصة بسبب قرار شارون أن ينتقل الى منزل جديد في الحي المسلم في القدس، وان فعله هذا «قمة الحماقة والقسوة». (الجيروساليم بوست.27 ديسمبر 1987 «الاحتلال يضايق يهود الولايات المتحدة» بقلم وولتر روبي). كما عبر الحاخام بروس وورشال نائب رئيس فدرالية الحي الجنوبي في فلوريدا عن احساسه بالضيق في موعظة القى بها في المعبد اليهودي وطالب بانسحاب اسرائيل من الضفة والقطاع. وقد أيده في ذلك كل المصلين.

وأرجو ان يلاحظ القارىء أننا هنا لا نتحدث عن شخصيات يهودية مغمورة، أو عن شخصيات يهودية معروفة بعدائها السابق للدولة الصهيونية او حتى شكوكها نحوها مثل الحاخام موشيه هيرش زعيم حركة ناطوري كارتا او الحاخام يوسف بجر أنشط أعضائها التي لا تعترف باسرائيل وتؤيد منظمة التحرير الفلسطينية واقامة دولة فلسطينية والتي قدمت ستّة آلاف دولار لمدير مستشفى المقاصد الاسلامية في القدس لدى زيارة زعيم الجمعية.للمستشفى لتفقد جرحى الانتفاضة (القبس 23 مارس 1988).نقول نحن لا نتحدث عن هؤلاء وانما عن شخصيات قيادية يهودية لم تأل جهدا في الدفاع عن الدولة الصهيونية في السابق أو في جمع الأموال من أجلها او الضغط لصالحها، ونحوها هذا يدل على ان الانتفاضة قد تركت أثرا عميقا عليهم ومنحتهم الاستقلال وحرية الحركة.

ومن أهم البيانات التي نشرت اعلان مدفوع الأجر نشرته مجموعة من اليهود الامريكيين بعنوان «حان الوقت للانفصال عن اسرائيل» وكان من بين الموقعين على البيان نعوم تشومسكي اللغوي الشهير ومارك بروزنسكي وهو عضو سابق للمؤتمر اليهودي العالمي ودون بيريتس استاذ العلوم السياسية بجامعة نيويورك وغيرهم. وتتسم صيغة هذا البيان بالوضوح اذ اتهم الدولة الصهيونية بالانحراف عن القيم الاخلاقية وبالتصلب الواضح تجاه المطالب الفلسطينية. وقد قال المنشور : «إن المشاركة الاسرائيلية في فضيحتي «إيرانجيت» و«الكونتراجيت» مع توظيف يهود أمريكيين كجواسيس ضد بلدنا يؤكد اكثر المخاطر المتنامية

الكامنة في العلاقة الاميركية الاسرائيلية، وفي الارتباط الوثيق في ذهن الرأي العام بين اسرائيل واليهود. وهذه معادلة عزّزتها بحماس الحركة الصهيونية واللوبي اليهودي الامريكي» ولذا طالب المنشور «بتطبيع» العلاقة بين الولايات المتحدة واسرائيل - أي ان تفقد هذه العلاقة خصوصيتها. وطالبوا بأن تخفض الولايات المتحدة مساعداتها العسكرية لاسرائيل وان يحتفظ يهود الولايات المتحدة باستقلالهم عن الدولة الصهيونية (الوطن 17 آذار 1988).

بل يلاحظ ظاهرة جديدة تمامًا وهي قيام بعض الجماعات اليهودية بالتظاهر أمام السفارات والقنصليات الاسرائيلية احتجاجا على القمع الصهيوني للعرب. ومن أهم هذه المظاهرات تلك التي نظمتها جماعة الاجندة اليهودية الجديدة. ونحن لا نود ان نضخم من أهمية هذه التظاهرات اذ لا يحضرها سوى اعداد صغيرة لا تتجاوز المئة، بل وأقل من ذلك في بعض الأحيان. ولكننا نرصدها مع هذا نظرا لدلالتها غير العادية خاصة اذا ما قورنت بالاستسلام التام الذي كان يسم سلوك الجماعات اليهودية في السابق.

ولعل جرأة يهود أمريكا غير المعتادة تظهر في تصريح أ.م روزنتال، المحرّر السابق للنيويورك تايمز بأن اسحق رابين يمكنه ان يستعيد لاسرائيل شيئا من مكانتها بان يستقيل من منصبه (في اثر تصريحه ان الجيش الاسرائيلي سيستخدم «القوة والضرب» للقضاء على الاضطرابات). إن مطالبة أحد يهود أمريكا وزير الدفاع الاسرائيلي بالاستقالة أمر جديد كل الجدّة، وقد ترك ولا شك أثرا سلبيا للغاية على المؤسسة الصهيونية في الولايات المتحدة واسرائيل.

شندلر يغادر جدران الصمت

وقد أشرنا من قبل الى الحاخام الاسكندر شندلر باعتباره من أهم الشخصيات اليهودية القيادية ان لم يكن أهمها كلها على الاطلاق، وأشرنا كذلك لتأييده لسياسات اسرائيل التوسعية، ثم غمغمته ضد غزوها لبنان وضد المذابح التي ارتكبتها هناك. ولكن شندلر بعد الانتفاضة انضم وبكل قوة لجوقة الاحتجاج، فقد دعى يهود امريكا ان يشتركوا في الحوار الخاص بالقضايا الاخلاقية الاساسية التي تحيط بدولة اسرائيل (هآرتس، نوفمبر 1987)، وكتب رسالة لحاييم هرتزوغ رئيس الدولة الصهيونية يخبره فيها ان ضرب العرب يشكل اساءة للروح اليهودية وخرقا لكل مبادىء اللياقة الانسانية. ثم أهاب به ان يضع نهاية «لهذا الجنون» (وكالة رويتر). وقد هاجم شندلر احتلال اسرائيل للضفة والقطاع (الذي صنّفه بأنّه «وحش ذو رأسين») (هآرتس، 2 نوفمبر 1987). كما وجه شندلر اللوم للدولة الصهيونية لأنّها ضيعت الكثير من الفرص في الماضي باعتقادها الخاطىء: ان العرب في الاراضي المحتلة سيقبلون في نهاية الأمر بمفهوم اسرائيل العظمى اذا ما تحسن وضعهم الاقتصادي. وقد لجأ شندلر للاستفادة من الانقسام في النخبة الحاكمة الاسرائيلية، اذ قال:انه يتفق مع بيريس الذي يرى ان الوضع القائم انما هو قنبلة زمنية. (الجيروسالِم بوست 21 فبراير 1988).

وقد حاولت المؤسسة الصهيونية في اسرائيل ان تضع نهاية لنقد شندلر فقال موشيه يجار (قنصل اسرائيل العام في نيويورك)، دون ان يشير لشندلر بالاسم: «يقولون انهم أصدقاء لاسرائيل وصهاينة أقوياء، لكن ما يفعلونه لا ينم عن الصداقة وأنا لا أحكم عليهم بأقوالهم وانما بأفعالهم». اي أنّه رأى أنهم متملصون يقولون ما لا يفعلون ! (الجيروساليم بوست 4 فبراير 1988). كما كتب حاييم هرتزوج خطابا لشندلر قائلا له:لا يمكن ان توجه النقد دون ان تقدم بديلا، بمعنى انه لا بديل لسياسة الضرب والقمع.

وقد كان رد شندلر قاطعا:«ان الاحتجاج لا يمكن ان يُقرن بعدم الولاء»،وأشار الى القنصل العام باعتباره مجرّد موظف صغير يبالغ في خدمة المؤسسة»بل ان شندلر قرّر ان يهاجم اسرائيل دفاعا عن مصداقية يهود الولايات المتحدة اذ ان هذه المصداقية أصبحت موضع شك، فاليهود دائما في طليعة النضال من أجل العدالة الاجتماعية، وحينما بدأ القمع الاسرائيلي للعرب سألهم الناس كيف يمكنهم التزام الصمت ازاء ما يحدث. وقد أشار الى أن شعار «لا خيار» الذي تتبناه المؤسسة الصهيونية الحاكمة يعكس غياب الارادة السياسية فمثل هذا الشعار القدري لا يشكل وصفا للواقع. (الجيروساليم بوست 21 شباط 1988).

ان تصريحات شندلر هي بمثابة اعلان استقلال يهود امريكا، بل وتأكيد لحقهم في توجيه اللوم لاسرائيل والتدخل في شؤونها - أي ان الواقفين في الصف الثاني لم يعودوا يقنعوا بوضعهم، بسبب أبطال الحجارة. بل ان شندلر عبر عن ندمه لصمته وتملّصه في الماضي حين قال: «لو انه هو والقيادات اليهودية الامريكية الاخرى قد اتخذوا مواقف اكثر حزما في بداية الثمانينات لما حاقت الكارثة باسرائيل في بيروت»، بمعنى ان توجيه النقد كان بوسعه ان ينقذ الدولة الصهيونية من السقوط في الهاوية! (الجيروساليم بوست 4 فبراير 1988).

محاولات التطويق

وكما أشرنا من قبل قامت اسرائيل بمحاولة تطويق شندلر وغيره من المهاجين ولكنهم ردوا بضراوة على تلك المحاولة. وقد حاولت الدولة الصهيونية تجنيد عملائها بين يهود أمريكا. وحينما اندلعت الانتفاضة قامت بابلاغ القيادات الصهيونية في الولايات المتحدة ان الخط الاعلامي الذي يجب الترويج له هو : إن المسؤول عن الانتفاضة عناصر خارجية (اى منظمة التحرير)، وان عرب القطاع والضفة «طيبون مسالمون، ان تركوا وشأنهم».

وكان الهدف من ذلك بطبيعة الحال هو الاعداد لحمام الدم للقضاء على العناصر الخارجية. وبالفعل قام السفير الاسرائيلي في هيئة الأمم بتوجيه اللوم للإرهابيين أي منظمة التحرير الفلسطينية وحملهم مسؤولية ما يحدث. وقد قبل موريس ابرامز، رئيس مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية الأمريكية بهذا التفسير وأشاعه وعممه وروج له.

ولكن مع استمرار الانتفاضة واتضاح أبعادها الشعبية ومقدرتها القائمة على الاستمرار والابداع، قررت الآلة الصهيونية ان تقلل من أهمية المنظمة والا تظهرها بمظهر المسؤول عن

الانتفاضة المباركة، فبدأ الخط الاعلامي الاسرائيلي يأخذ شكلا مغايرا فبدأ يشيع أن الاضطرابات تلقائية وأنها تتم دون إيعاز من المنظمة أو أي جهة خارجية أخرى (جيروساليم بوست 20 يناير 1988). وقد سبب هذا التحول الكثير من الحرج لقيادات يهود أمريكا إذ بيّن لهم ولمن حولهم أنهم مجرد أبواق دعاية رخيصة، عقلها في أذنها، تردد ما يقال دون فحص أو تمحيص.

ويبدو أن موريس ابرامز هذا، عميل صهيوني حقيقي، فهو من الشخصيات اليهودية القليلة التي احتفظت بتأييدها غير المتحفّظ للدولة الصهيونية، وقد تلقى ابرامز خطابا من شامير يقول له فيه: ان الدولة الصهيونية «لا تتبنى سياسة الضرب دون تمييز». وقد كانت البرقية بمثابة نص نهائي مطلق لابرامز فسارع بالقول: ان هناك تأييدا يهوديا أمريكيا لسياسات اسرائيل. ولكن ثيودورمان، رئيس المؤتمر اليهودي الامريكي، رفض هذا التصريح وقال: «إذا كان موريس [ابرامز] يقول بأن ثمة اجماع بين يهود أمريكا بخصوص تأييد سياسة الضرب التي تنفذها اسرائيل فهو أبعد ما يكون عن الصواب» (الجيرو ساليم بوست 6 فبراير 1988).

ومع هذا-حتى عميل مثله كان عليه ان يطلق بعض الاحتجاجات ليحتفظ بقدر من المصداقية فقد جاء في يديعوت احرنوت (24 يناير 1988) (في مقال بقلم اريل جناي مراسل الصحيفة في واشنطن): ان ابرامز عبر عن احساسه بالصدمة السياسية الجديدة وعبر عن قلقه بخصوص نتائج سياسة الضرب وان ما تقوم به الدولة الصهيونية «يسبب اضرارا هائلة وان صهاينة امريكا لا يمكنهم مسايرة هذه السياسة.

المؤسسات الصهيونية وشبه الصهيونية الرسمية

ولكن التملص الحقيقي والمؤثّر هو تملص المؤسسات الصهيونية وشبه الصهيونية الرسمية، فهذه تشكل الشبكة التي تستخدمها الدولة الصهيونية في الاتصال بيهود العالم والضغط عليهم لتجنيدهم لصالحها وتخلخلها لايبشر بالخير. فقد اقترح ادغار برونغمان، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي، (في تصريح له لمجلة شتيرن الألمانية) ان تتخلى اسرائيل عن قطاع غزة المحتل، وقد برر موقفه هذا بالاشارة لسببين واحد زمني والاخر ديني، فمن الناحية الزمنية لا يشكل القطاع اي اهمية امنية بالنسبة لاسرائيل، وهو كذلك ليس له اي علاقة بما يسمى الوطن التوراتي اليهودي - وهذا اكتشاف رهيب لعله كان معروفا لدى الجميع، ولكن الجميع كان يجلس خائفا من الجيش الاسرائيلي (الذي وصفه بن جوربون بأنه خير مفسر للتوراة!) ثم جاءت الانتفاضة فانطلقت الألسن المعقودة ولقد تجرأ برونغمان لا بسبب اجتهاداته الزمنية او الدينية ولا بسبب استيقاظ ضميره الفجائي، وانما لأن الفلسطينيين قد إنتفضوا فتحولت غزة «تلك العروس المسبية» كما سماها احد القراء الفلسطينيين الى «كرة

حديدية تقيد القدم» على حد قول برونغمان نفسه الذي لا يمانع البتة في سلب الغنائم في زمن الغزو، ولكنه يصبح اكثر تعقلا من المستوطنين في زمان الانتفاضة فهو يعرف الآن «ان المخاطر التي سببتها الاراضي المحتلة لاسرائيل تفوق كثيرا قيمتها الاستراتيجية لهذه المناطق كما ان احداث الاراضي المحتلة التي ظهرت على شاشة التلفزيون سببت «الاضطراب والمرارة» في نفوس اليهود الأمريكيين.

وهذا بخصوص المؤتمر اليهودي العالمي وهو تنظيم صهيوني له واجهة غير صهيونية ولذا كان يحتفظ دائما بمسافة ان لم يكن في الواقع فعلى الاقل على مستوى الديباجات والتصريحات ولكن ان تقوم المنظمة الصهيونية العالمية ذاتها بطرح رؤى تختلف عن الرؤية الصهيونية السائدة فهذا ولا شك أمر جديد تماما. ولعل الموقف هذا هو نتيجة ثلاثة عوامل:

1 ـ الانقسام بين اعضاء النخبة الحاكمة الاسرائيلية.

2 ـ دخول اليهود الاصلاحيين والمحافظين للحركة الصهيونية وانضمام ممثليهم لممثلي الحركة العمالية في اسرائيل وتكوينهم الاغلبية داخل المنظمة.

3 ـ اندلاع الانتفاضة ـ ودائما الانتفاضة، فهي العنصر الذي يحول امكانات التمرد داخل المعسكر اليهودي الى حقيقة. وقد ورد في عل همشمار (1987/12/10): إن اللجنة الاولى للمؤتمر الصهيوني المختصة بشؤون دولة اسرائيل والحركة الصهيونية، قررت بأغلبية الأصوات، قبول مشروع لدفع السلام قدما، طبقا لمشروع شمعون بيرس، وهو المشروع الذي يقضي بعقد مؤتمر دولي، بما في ذلك حل وسط اقليمي، ووقف الاستيطان في المناطق المأهولة بالسكان. وقد اعترض على القرار، بغضب، ممثلو هتحياه والليكود، والمتدينون، بينما وافق عليه ممثلو حزب العمل ومبام وارتس والتقليديون والاصلاحيون، ورؤساء الطوائف اليهودية في الخارج. كذلك صادقت اللجنة، بأغلبية الأصوات، على مشروع قرار يدعو الى انهاء السيطرة الاسرائيلية على 1،3 مليون عربي، وحل المشكلة الفلسطينية خلال المفاوضات بين كل الأطراف، وضمان حدود يمكن الدفاع عنها. كذلك صادقت اللجنة، بأغلبية الأصوات، ايضا، على الاقتراح الذي قدمه ممثلو مبام، وناحوم سولن، والبروفيسور كليوفيلسكي (من الأرجنتين)، وهو الاقتراح الذي «يعترف بحق يهود الشتات في الاعراب عن رأيهم في مواضيع سياسية اسرائيلية داخلية» حتى لو كانت محل خلاف في المجتمع الاسرائيلي» (الملف 4 ديسمبر 1988).

والقرارات كلها تعبر عن تزايد استقلال يهود العالم وصهاينة الخارج عن المؤسسة الصهيونية. ولا بدّ أن نؤكد أن الاختلاف بين صهاينة الخارج (وغالبيتهم من التوطينيين) وصهاينة اسرائيل من الاستيطانيين هو خلاف حقيقي في المصالح والرؤية، فانسحاب القوات الاسرائيلية من المناطق هو امر يخدم مصالح صهاينة الخارج التوطينيين اذ انه سيحسن صورتهم امام اعضاء مجتمعاتهم الليبرالية، اما صهاينة اسرائيل الاستيطانيين فيعرفون تمام المعرفة ان اي تراجع امام الفلسطينيين هو بداية النهاية بالنسبة لهم. ويمكننا هنا ان نرى تجليا

آخر لتساقط الاجماع الصهيوني وتزايد التشققات الحقيقية التي خبأتها الديباجات الوردية والغياب العربي في الماضي.

صقور ريجان اليهودية تعيد النظر

ولعل من اهم الاصوات اليهودية التي عبرت عن قلقها بخصوص اسرائيل هو صوت المتحدثين اليهود باسم ما يسمى بتيار المحافظين الجدد وتكمن اهميتهم في ان تأثيرهم ليس مقصورا على الجماعة اليهودية وانما يمتد ليشمل المجتمع الامريكي بأسره. وتيار المحافظين الجدد هو اتجاه فكري ظهر في الولايات المتحدة اثناء رئاسة كارتر يرفض سياسة الوفاق وتخفيض التسلح، وكثيرا من السياسات الخارجية التي تبناها الرئيس الامريكي. وفي الداخل يطالب تيار المحافظين الجدد بالتخلي عن السياسات الاجتماعية التي تبناها الديمقراطيون والتي تهدف الى التهدئة من الصراعات الاجتماعية في المجتمع الامريكي ومن الاثر السلبي لسياسات الاقتصاد الحر. ومن المعروف ان الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة وقياداتها كانت تقف دائما وراء الحزب الديمقراطي وتتبنى سياساته (شأنها في هذا شأن معظم اعضاء الاقليات في الولايات المتحدة) ولكن ابتداء من منتصف السبعينات بدأ يتبلور تيار محافظ داخل الجماعة اليهودية يلقي بثقله وراء الجمهوريين الى ان وصل الى الذروة في الثمانينات مع تولّي ريجان الرئاسة، إذ أيّدته القيادات الصهيونية واليهودية المحافظة. (ومما له دلالته العميقة ان غالبية الجماهير اليهودية لم تمتثل للتوجيهات الصهيونية وادلت بصوتها لمرشح الحزب الديمقراطي ولذا فريجان ليس مدينا للصوت اليهودي بانتخابه، ومع هذا فهو من اشد الرؤساء الامريكيين تحيزا لاسرائيل، الامر الذي يلقي كثيرا من الضوء على خرافة «الصوت اليهودي»).

وقد قام المفكرون اليهود من المحافظين الجدد بصياغة كثير من افكار ريجان الاستراتيجية بخصوص زيادة التسلح والتخلي عن الوفاق واتخاذ سياسة نشطة معادية للاتحاد السوفييتي ودعم حلفاء الولايات المتحدة، خاصة اسرائيل، في سياسة المواجهة مع الاتحاد السوفييتي. ولذا عارض المحافظون الجدد اليهود اي محاولة للضغط على اسرائيل للانسحاب من الضفة والقطاع لتهدئة الرأي العام العالمي، فسياسة ريجان بخصوص الشرق الاوسط، كانت في التحليل الاخير من صياغة هذه المجموعة. وقد اطلق عليهم «صقور ريجان اليهودية» وهي عبارة دقيقة الى حد كبير.

وقد تحولت الصقور بعد الانتفاضة لا الى حمائم (فهي تفتقد الى الضمير والرؤية) وانما الى دجاج نعامي او نعام دجاجي. فقد وصفت الجيروسالم بوست (29 يناير 1988) صوتهم بأنه يعبر الآن عن اليأس الهادىء، وقد قال نورمان بودورتس رئيس تحرير مجلة كومنتاري المعبرة عن هذا الاتجاه: «ان الامر الواقع لا يمكن له الآن الاستمرار، لكن بدائل الاحتلال المستمر غير سارة وخطيرة» ـ اي لا خيار! وهذا اليأس الهادىء هو دليل قاطع على التراجع.وقد وافقه

آدم جارفنكل، منسق الدراسات في معهد ابحاث السياسة الخارجية (الذي يتبنى خطا محافظا جديدا) اذ قال ان كل الخيارات تتضمن مخاطر لا يمكن تقبلها وتشكل كوارث من الناحية الامنية والسياسية والاخلاقية. وقد اضاف جارفنكل نقطة في غاية الاهمية وهو ان النخبة الاسرائيلية تعرف ذلك وتعرف انه لا مخرج. . ولذا فهم يصورون المشكلة على اساس انها قضية علاقات عامة. . ان السير اثناء النوم الذي نراه الآن في النخبة الاسرائيلية يعود الى ايمانهم انه لا يوجد شيء يمكن القيام به،بل ان جار فنكل تنصل من الخط الذي كان يتبناه المحافظون الجدد ـ اي ضرورة ترك اسرائيل وشأنها، واكد ان ادارة ريجان «اختارت بمحض ارادتها الا تقوم بشيء درامي علني في الشرق الاوسط لأنها كانت تعرف ان مثل هذه الخطوة مصيرها الفشل الحتمي». . ثم اضاف : «ان الموقف في اسرائيل يحطم قلبي حقا، واشعر بالاضطراب والضياع والرغبة في التقيؤ كلما قرأت النيويورك تايمز». (التي تنشر أحداث الانتفاضة بشيء من الصدق الذي لم تعهده الصقور في الاعلام الامريكي).

اما ارفنج كريستول، وهو اكثر اعضاء هذا الاتجاه اهمية، فتشكل تصريحاته تراجعا هاما اذ نصح الاسرائيليين ان يقرروا مساحة الاراضي التي يودون الاحتفاظ بها (وكأن قرار اسرائيل شيء مطلق غير خاضع للنقد والاستئناف). وان يرسموا الحدود ثم ينسحبوا «ولا أرى لم تصاب اسرائيل بالرعب من دولة في الضفة الغربية تحكمها منظمة التحرير الفلسطينية» ـ وفي هذا تخلٍّ تام عن التفاهم الامريكي ـ الصهيوني بخصوص منظمة التحرير.

الاتحاد السوفيتي وجنوب افريقيا

أشرنا حتى الآن الى مواقف قيادات الجماعات اليهودية الهامة في انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة ولكن بقيت جماعتان يهوديتان في غاية الاهمية هما الجماعة اليهودية في الاتحاد السوفيتي وفي جنوب افريقيا. ومن الصعب معرفة موقف اعضاء هاتين الجماعتين بدقة. فيهود الاتحاد السوفيتي ينتمون لدولة اشتراكية لا تسمح كثيرا بحرية الرأي، والبيانات الرسمية التي صدرت، لا تختلف عن اية بيانات رسمية مماثلة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الجماهير. اما في جنوب افريقيا فنحن نجد دولة عنصرية قمعية لا تختلف كثيرا عن الدولة الصهيونية في بنيتها ورؤيتها وممارساتها، ولذا فمن المستبعد ان يستنكر اعضاء الجماعة اليهودية فيها الارهاب الاسرائيلي، خاصة ان الارهاب الجنوب افريقي الابيض هو الذي يحمي وجودهم ودخولهم المرتفعة ويضمن لها الاستمرار. واذا كان يهود الدول الليبيرالية قد انفجروا غاضبين بسبب الافلام التلفزيونية التي تعرض البشاعة الصهيونية، فان هذه البشاعة ذاتها على شاشة التلفزيون الجنوب افريقي تصبح امرا طبيعيا ومتوقعا بل ومرغوبا فيه. بل ربما مصدرا للفخر!

ومع هذا نعتقد ان الانتفاضة ستترك اثرا سلبيا عليهم من منظور صهيوني. فيهود الاتحاد السوفيتي وجنوب افريقيا الذين كانوا يفكرون في الهجرة الى الاستيطان في اسرائيل . يبعيدون

ولا شك حساباتهم لأن الدافع الأساسي لهجرة هؤلاء لم يكن قط عقائديا وانما كان في اغلب الاحيان اقتصاديا برجماتيا استهلاكياءاي انه يحث عن المزيد من المتعة والراحة والطمأنينة يفوق المعدلات التي تحققها لهم مجتمعاتهم. والدولة الصهيونية لم تك قط المكان المناسب لذلك. ومن هنا نسبة التساقط العالية بين اليهود السوفيت ويهود جنوب افريقيا اللذين يهاجرون من بلادهم وبدلا من ان يتوجهوا لاسرائيل كما هو متوقع منهم يتجهون الى الولايات المتحدة. ويعد الانتفاضة لا بد انهم اصبحوا اكثر نفورا من الدولة الصهيونية.

اذ من يريد ان يستوطن وسط شعب يمسك بالحجارة ويلقي بها عليه.

والهجرة الاستيطانية يحكمها عنصران: عنصر طرد من المجتمعات التي يقيم فيها اليهود وعنصر جذب داخل المجتمع الصهيوني وبما ان وقف الهجرة الاستيطانية الى فلسطين المحتلة هو مطلب عربي أساسي فإن الانتفاضة قد ساهمت في تحييد عنصر الجذب في الدولة الصهيونية.

ويمكن ان نضيف هنا ان سياسة الانفراج الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي التي ينتهجها جورباتشوف قد تفتح فرصا جديدة للحراك الاجتماعي داخل الاتحاد السوفيتي أمام أعضاء الجماعة اليهودية فيه، وان زيادة حجم القطاع الاقتصادي الحر سيخلق فرصا جديدة للأعمال التي يفضلونها ـ كل هذا سيحول الاتحاد السوفيتي من نقطة طرد الى نقطة جذب أو على الاقل سيحيد قوة الطرد بحيث تصبح الهجرة من الاتحاد السوفيتي أمرا غير مرغوب فيه لهذه الدرجة.

وتناقص الهجرة اليهودية هو في حد ذاته تعبير عن رفض الصهيونية (لا مجرد التملص منها) وهو يعد اهم مؤشر على الاطلاق على موقف يهود العالم من المشروع الصهيوني؛ فهو مؤشر يتجاوز التصاريح اللفظية الضخمة عن ارض الميعاد والتي لا تعبر عن شيء.

ويمكن للدول العربية ان تنتهز هذه الفرصة، فرصة تزايد استقلال يهود العالم عن الصهيونية، وتقوم بحملة بينهم يكون جوهرها ان توضح لهم انه لا توجد معركة بيننا وبينهم، فالصراع يدور بيننا وبين المستوطنين الصهاينة على الارض المغتصبة ومن اجل استعادة الحقوق المهددة. بل لا بدّ أن نعلن ان من أهدافنا الاساسية الدفاع عن حريات اليهود المدنية والسياسية والاقتصادية في أوطانهم المختلفة، إذ أن القوة الطاردة في الخارج ـ كما أسلفنا ـ هي التي تدفع بالمواطنين اليهود الي شواطئنا فيتحولون الى مستوطنين صهاينة. واعتقد ان الانتفاضة قد خلقت مناخا مناسبا لذلك وربما لأول مرة في تاريخ الصراع العربي ـ الصهيوني.

الفصل الثامن

الصورة الإعلامية واللوبي الصهيوني

من المفاهيم التي سادت في الخطاب العربي السياسي (لا سيما فيما يختص بالصراع العربي الاسرائيلي) فكرة «صورتنا الاعلامية» امام الرأي العام العالمي وضرورة تحسينها. وتقدم الاقتراحات حسنة النية عادة التي يرى اصحابها ضرورة شراء صفحات في الصحف والمجلات ننشر فيها كلاما معتدلا (مدفوع الاجر) ونشتري وقتا في المحطات التلفزيونية الاساسية. بل ويبلغ الامر ببعض المدافعين عن هذا الرأي المطالبة بشراء احدى كبريات الصحف او المحطات التلفزيونيه. هذه هي الصيغة السوقية، اما في الصيغة الاكثر صقلا فإنهم يطالبون بأن يذهب متحدثون عرب ومفكرون واساتذة يتوجهون الى العقل الغربي حتى يبدأ هذا العقل في ادراك شيء من الحقيقة بخصوص العرب. وهناك كذلك الدعوة لدعم الجمعيات المناهضة للصهيونية وجمعيات الصداقة الغربية ـ العربية المنتشرة في انحاء العالم الغربي.بل ويبلغ الحماس للاعلام وللصورة ذروته في الحديث عن «لوبي عربي» في مقابل اللوبي الصهيوني ! وفي معظم الاحيان توجد اعداد من الامريكيين العرب وراء هذه الاقتراحات، فهم من اكثر العناصر التى تستفيد من التحرك الاعلامي العربي ومحاولاته تحسين الصورة.

ولا بدّ أن القارىء قد شعر من اسلوبي ونبرة حديثي انني لست من المتحمسين للحملات الاعلامية ومحاولات تحسين الصورة والعمل من داخل النظام السياسي الامريكي (والحديث عن الاعلام واللوبي العربي هو في نهاية الامر حديث عن العمل في اروقة واشنطن لا في حقول فلسطين وشوارع دمشق والقاهرة).

وبالفعل لا تثير الدعوة لتحسين الصورة حماسي. وموقفي هذا هو حصيلة عملي بالاعلام في الولايات المتحدة حيث كنت اعمل مستشارا ثقافيا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الامم، وكانت مهمتي تتلخص في تقديم وجهة النظر العربية بخصوص الصراع الدائر في الشرق الاوسط، وظهرت في العديد من البرامج التلفزيونية كان من اهمها برنامج مع حاييم هرتسوغ رئيس الدولة الصهيونية الحالي (وكان ساعتها يشغل وظيفة سفير دولته لدى هيئة الامم). ومن اهم ما كتبت مقالا عن الصهيونية والعنصرية نشر في صفحة الرأي في النيويورك تايمز أثناء مناقشة قرار الصهيونية والعنصرية، وكتابين واحد عن الصهيونية والآخر عن اسرائيل وجنوب افريقيا طبع منه ما يزيد عن عشرين ألف نسخة وترجم إلى البرتغالية والأسبانية. وأرجو أن يغفر لي القارىء حديثي عن نفسي، ولكن الغرض من هذه المسيرة الذاتية القصيرة هو أن أبين للقارىء أنني لا أرفض الاعلام والصورة الاعلامية وانما أرمي إلى توضيح حدودهما، وادراك هذه الحدود مسألة في غاية الأهمية.

ولادراك هذه الحدود لا بد من اثارة بعض القضايا اولها واهمها اننا حينما نتحدث عن الرأي العام العالمي فنحن نعني في واقع الامر الرأي العام الغربي، ويبدو انه بعد سنين طويلة من الاستعمار والهيمنة الغربية على العالم تم ترويضنا تماما حتى رسخ في وجداننا ووعينا ومصلحتنا الاحساس بأن العالم او على الاقل مركزه هو الغرب، ثم بدأنا نسلك داخل هذا الاطار. ولذا فنحن لا نبدي اهتماما اعلاميا كبيرا بالهند او الصين او اليابان او افريقيا مع اننا نكون بهذا قد استبعدنا نصف العالم تقريبا. بل ان العالم في تصورنا هو غرب اوروبا والولايات المتحدة وكندا، اذ اننا لا نضم شرق اوروبا والاتحاد السوفيتي الى هذا «العالم». وانا اذكر هذه الحقيقة لا لشيء الا لمحاولتي ان اعرّف الحدود حتى يمكننا ان نحدد توقعاتنا بخصوص النتائج التي قد تأتي بها الحملات الاعلامية.

الانسان العقلاني وخلق الحقائق

والافتراض الثاني الكامن في الحديث عن الاعلام هو ان الانسان الغربي انسان عقلاني رشيد (كما يدعي وكما يشيع عن نفسه) وانه ان توجهنا الى عقله (وربما قلبه) واعطيناه الحجج والقرائن الكافية بخصوص «الحق العربي المهضوم» مثلا او عن «جدية العرب في البحث عن السلام» او حتى «اتفاق المصالح العربية والغربية» فإنه سيقتنع بوجهة نظرنا وسيزداد المؤيدون بالتدريج الى ان نصل الى النقطة الحرجة حينما يزداد عدد المؤيدين عن عدد المعارضين فترجح

الكفة لصالحنا.وقد يكون في هذا تبسيط مخل، اذ قد يقول بعض الاعلاميين ان الحملات الاعلامية تهدف الى خلق جو او مناخ موات وحسب، ولكن الافتراض الاساسي في الصيغة السوقية او الصيغة المصقولة هو عقلانية الانسان الغربي.

واعتقد ان هذه مقولة مشكوك فيها الى حد كبير، فالحضارة الغربية الحديثة حضارة يمكن ان نسميها وثنية (توجد دراسات عديدة غربية تشير الى حضارة الغرب الحديثة بأنها الوثنية الجديدة) تستند الى مبدأين اساسيين هما المنفعة واللذة، وهما في واقع الامر نفس الشيء في نهاية الامر فما ينفع هو ما يمتع، وما يدخل المتعة على الانسان هو ما ينفعه، وهذه هي طريق تعريف الخير والشر في غياب اية مقاييس دينية، فتصبح الذات اذن هي المرجعية الوحيدة وتصبح المصلحة ما يشبه المطلق الاخلاقي. ان الانسان الغربي انسان يعيش في عالم الحواس الخمس وعالم المنفعة التي عرّفت بشكل مادي واللذة التي عرّفت هي الاخرى بشكل مادي، وقد خرج هذا الانسان من تحت عباءة ميكيافيللي ثم داروين ثم نيتشه، وهو الذي تحاور مع الجنس البشري من خلال المدافع والقنابل التي اطلقتها جيوشه الامبريالية علينا وعلى جيراننا، وهو يكتسب شرعية من قوته، ويدرك هذه الحقيقة ويعيها تماما. والحديث عن العقلانية لا يخرج عن نطاق كتب الفلسفة ولا ينصرف الا الى الاجراءات او قوانين اللعبة، اما صياغة العالم ذاته فهي عملية تقوم بها الجيوش الغربية المنتصرة. ومن هنا اكذوبة احترام القانون الدولي، فهي دعوة لتقبل عالم ليس من صنعنا، وان نلعب اللعبة بقوانين لم نساهم في وضعها. ومن ذا الذي يتحدث عن «الغاية تبرر الوسيلة» وعن «الصراع من اجل البقاء» و«البقاء للأصلح» وعن اخلاقيات المحبة والتسامح باعتبارها اخلاق العبيد وعن اخلاقيات القوة التي تتجاوز الخير والشر باعتبارها اخلاق السادة؟ ممن تعلمنا كل هذه الحكم؟

ومازلت اذكر خيبة املي عام 1963 حينما ذهبت الى «هناك» ابحث عن الحقيقة وانوي ان التهم تراث الغرب الانساني التهاما.وحينما ذكرت لهم ملايين اللاجئين الفلسطينيين والحق العربي المهضوم جاءتني الاجابة واضحة لا ابهام فيها : «لقد انتصر اليهود وعليكم تقبل هذه الحقيقة. لا شيء ينجح مثل النجاح» اين اذن العقل الذي سمعنا عنه الكثير واين القيم الانسانية التي تستند الى هذا العقل؟ وعام 1967 سمعت دايان وهو يتحدث عن «خلق الحقائق الجديدة» في المناطق المحتلة، وهي حقائق سيتم خلقها ـ كما عرفنا آنذاك ـ لا عن طريق الاقناع ومقارعة الحجة بالحجة وانما بوسائل نعرفها كلنا جيدا، فنحن ابناء هذا العصر الغربي! وكنت قبل ذلك عقلانيا اتصور ان الحقائق امر يرصد ويدرس لا وقائع تفرض بفوهة المسدس بل ان المصطلح الاعلامي نفسه يشكك في العقلانية (وما ينتج عنها من مواقف اخلاقية)، ففكرة الصورة الاعلامية تنصرف الى ما هو ظاهر ومعلن فنحن حين نتحدث عن صورة العرب الاعلامية فنحن لا نتحدث عن حقيقة العرب الاخلاقية وحينما يطلب منا تحسين صورتنا الاعلامية، مطلوب منا ان نصقل السطح جيدا وان نخبيء عيوبنا التي قد

تضايق اهل الغرب، وان كان من الصعب تخبئة العيوب اذن فلتُبرز المزايا بشكل درامي حتى ينسى المتلقي العيوب وهكذا،تماما مثل الاعلانات التفزيونية عن السلع التي تحدثك عن كم هائل من المزايا والنتائج الايجابية دون ان تحدثك عن السعر او عن العيوب او عن بعض الاضرار الجانبية التي قد تنجم عن استخدامها. ونحن كلنا نعرف ان الاعلانات التلفزيونية هي عبارة عن اكاذيب مصقولة، وبوسع اي طفل ان يخبرك ان «الصورة الاعلامية» مختلفة عن «الحقيقة الاخلاقية»،فمفهوم الصور الاعلامية يعبر عن هذه اللااخلاقية العميقة الكامنة في التشكيل الحضاري الغربي الحديث، الذي يرى العالم باعتباره حلبة صراع (الجميع ضد الجميع) غابة مكيافيلية نيتشوية داروينية كئيبة.

وقد لا نحب هذه الحقيقة (انا شخصيا امقتها) ولكن علينا ان نتعامل معها ونضعها في اعتبارنا والا بددنا طاقتنا وجهدنا فيما لا يجدي، والا التهمنا رجل اوروبا النهم.

الادراك الغربي للعالم العربي

ولا يمكن أن أزعم انني على علاقة مع صناع القرار في اي دولة من دول العالم العربي او غير العربي. ولكن مع هذا سنحت لي فرصة الاحتكاك بشخصين شغلا مناصب اساسية في المؤسسات الحاكمة الامريكية وهما ريتشارد آلن مستشار ريغن للأمن القومي (اضطر للاستقالة) ووليام كوانت الذي عمل عضوا في مجلس الامن القومي الامريكي في عهد كارتر، ويمكن القول ان كليهما خاصة الثاني توفرت له كل المعلومات التي يمكن توفرها لصانع القرار. بل ان وليام كوانت يتسم بتعاطف عميق وفهم اعمق لقضايا العرب، خاصة القضية الفلسطينية،ولكني اعتقد ان توفر المعلومات عن العرب والتعاطف معهم تظل امورا محايدة او ثانوية، اذ يظل القرار السياسي مرتبطا بديناميات عديدة من اهمها 1 ـ مصالح الدولة 2 ـ طريقة ادراك نخبها الحاكمة لهذه المصالح 3 ـ موازين القوى مع ملاحظة ان موازين القوى تساهم الى حد كبير في صياغة طريقة ادراك المصالح. ولنلاحظ ان محددات القرار وبالتالي السلوك هنا لا تستند الى العقل او الموازنات الموضوعية والحسابات الدقيقة دائما وانما الى عناصر لا علاقة لها بالاخلاق والعقل فثمة عناصر ذاتية (طريق الادراك) وذاتية موضوعية (المصلحة) وموضوعية (موازين اقوى) وان هذه العناصر تتداخل بشكل مركب.

واعتقد ان الغرب قد عرف مصلحته الاستراتيجية منذ بداية القرن بطريقة تجعله ينظر للمنطقة العربية باعتبارها مصدرا عظيما للمواد الخام (الرخيصة) ومجالا خصبا للاستثمارات الهائلة (التي تعود عليه هو وحده بالربح) او قاعدة استراتيجية في غاية الخطورة والاهمية (بالنسبة لأمنه هو) ان لم يتحكم فيها قامت قوى معادية مثل الاتحاد السوفيتي باستخدامها ضده. ويعبر هذا الموقف عن نفسه في اصطلاح مثل «الفراغ» الذي كثيرا ما يستخدم للاشارة الى شرقنا العربي، وكأنّ وطننا رقعة ارض او مساحة لا يقطنها شعب عريق له امتداده الحضاري، وكأن اوطاننا مجرد وجود جغرافي رحب مجرد من التاريخ،اي اننا في الادراك الغربي

مجرد شيء قد يصلح للاستخدام او الاستعمال (والعلمانية كما اعرفها هي تحويل كل شيء الى مادة استعمالية).

وحتى حينما نتحول الى اكثر من مجرد مساحة فإن الادراك الغربي للمنطقة (وهو ادراك تحدده مصلحته) يراها على انها منطقة مأهولة بشعوب وقبائل واقليات معظمها يتحدث العربية، تدين بديانات مختلفة لا يربطها رابط حضاري او اجتماعي واحد، لكل شعب وقبيلة مصلحتها الاقتصادية ومستقبلها السياسي المستقل (وتفتتها يسهّل عملية تحويلها الى مادة استعمالية). وتكمن مصلحة الغرب (كتشكيل حضاري نهم يود استغلال الشرق والاستثمار فيه بما يعود عليه هو بالربح وبتوجيهه لما يخدم امنه) في الحفاظ على عدم الترابط الحضاري او الاجتماعي في عالمنا العربي. وهذه هي مصلحة الغرب كما يدركها اهله.

والمفهوم الصهيوني لعالمنا العربي يتفق تمام الاتفاق مع المفهوم الغربي، فالصهاينة يشيرون الى فلسطين باعتبارها ارضا بلا شعب، والى الضفة الغربية باعتبارها يهودا والسامرة، وهي مصطلحات تلغي التاريخ تماما. وهم يشيرون الى الشرق الأوسط على انه «المنطقة» وهو اصطلاح يشبه في كثير من الوجوه اصطلاح «الفراغ». فكلاهما يؤكد فكرة ان عالمنا العربي مكان بلا زمان، وجغرافيا بلا تاريخ، او مساحة تسكنها شعوب عديدة متفرقة متناثرة. والصهيونية في نهاية الامر وليدة التراث الفكري الاستعماري الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهي اداته في المنطقة، وقد بدأ الاهتمام الغربي بالصهيونية منذ القرن السابع عشر. ولكن تحول الاهتمام الفكري الى فكر سياسي ثم الى خطاب سياسي ثم الى مخطط استعماري ثابت بعد ظهور محمد علي الذي كان يهدد المصالح الغربية لأنه كان من الممكن ان يقوم بملأ الفراغ في المنطقة، إما عن طريق طرح نفسه على انه القوة الجديدة، او عن طريق ادخال العافية على رجل اوروبا المريض ومن هنا كانت فكرة الدولة الصهيونية، ومن هنا الدعم الغربي الحاسم للمشروع الصهيوني ـ اداة الغرب في خلق الفراغ والحفاظ عليه كوسيلة للدفاع عن امن الغرب لا عن اهل المنطقة وعن مصالح الغرب لا مصالح العرب ولا يمكن انكار دور الصهاينة في ترسيخ هذا الادراك الغربي للشرق الاوسط، ولكن تظل العلاقة بين الصهيونية والتشكيل الاستعماري الغربي هي علاقة السيد بالاداة التي يستخدمها.

سر النجاح الصهيوني الاعلامي

ومما دعم هذا التعريف للمصلحة وهذا الادراك له الانتصارات العسكرية الصهيونية المستمرة على العرب، ونجاح اسرائيل حتى عام 1967 في ان تطرح نفسها على انها القاعدة العسكرية الرخيصة والاداة الطيعة الجيدة التي يفوق عائدها تكلفتها. وهذا هو السر الحقيقي لنجاح الاعلام الصهيوني فهو لا يرجع الى لباقة المتحدثين الصهاينة، او الى تملكهم ناصية اللغة الانكليزية، او الى مقدرتهم العالية على الاقناع والاتيان بالحجج والبراهين وانما يعود الى ان صهيون الجديدة هي جزء من التشكيل الاستعماري الغربي. ومن هنا ايضا قوة اللوبي

الصهيوني الخرافية الذي يستمدها اساسا من كونه جهازا يمثل دولة عميلة للولايات المتحدة، لا توجد سوى مناطق اختلاف صغيرة بينهما تنصرف اساسا الى الاسلوب لا الى الاهداف النهائية - اختلافات يمكن حسمها عن طريق الاقناع والضغط كما يحدث عندما تطلب السعودية صفقة اسلحة ولا ترضى اسرائيل عن ذلك، او عندما تريد اسرائيل توسيع رقعة استقلالها قليلا عن طريق انتاج سلاح مثل طائرة اللافي ولا ترضى المؤسسة العسكرية الصناعية الامريكية على ذلك. فالاختلاف ينصرف الى التفاصيل لا الى «المصلحة» وادراكها، ومن هنا يمكن ادارة الحوار حسب قوانين اللعبة المتعارف عليها ويتم ممارسة الضغط داخل اطار من التفاهم بخصوص المبادىء الاساسية ومن داخل النسق لا من خارجه. وكيف يمكننا نحن المستهدفين بأن نلعب اللعبة نفسها؟ او نلجأ الى الحيل نفسها؟

وحتى ادل على مقولتي ان نجاح الصهاينة الاعلامي وقوة اللوبي الصهيوني مستمدان من اتفاق المصالح والادراك لا من عبقرية الصهاينة الخاصة سأضرب مثلين واحدا تاريخيا والآخر معاصرا. اما المثل الأول فهو خاص بصدور وعد بلفور. فمن المعروف ان الوجود اليهودي في المانيا قبل الحرب العالمية الأولى كان قويا للغاية، وكان اليهود يشغلون مناصب حكومية مهمة، ويتواجدون في مواقع اقتصادية ذات طبيعية استراتيجية فكان اهم ثلاثة بنوك يملكها يهود،كما كانوا متغلغلين في الاعلام وقيادات الاحزاب السياسية، وكان منهم كثير من المؤلفين والفنانين. وقد حققوا معدلات عالية للغاية من الاندماج، مما يسر لهم عملية التحرك داخل المجتمع الالماني،كما ان اليهود الالمان اشتركوا باعداد كبيرة في الحرب فوق نسبتهم القومية. والحركة الصهيونية حتى ذلك الوقت كانت حركة المانية في توجهها الثقافي فكانت لغة المؤتمرات الصهيونية هي الالمانية، كما ان برلين هي مقر المنظمة الصهيونية العالمية. وكان الصهاينة على اتم استعداد ان يجعلوا مشروعهم الصهيوني جزءا من المشروع الالماني الاستعماري.

وهذا في مقابل انكلترا التي كانت توجد فيها جماعة يهودية صغيرة للغاية، مندمجة تماما ومعادية بشكل كامل للصهيونية (كان وايزمن والقيادات الصهيونية من شرق اوروبا) وعلى هذا نجح الصهاينة في انكلترا في استصدار وعد بلفور رغم ضعفهم وعزلتهم بينما فشل صهاينة المانيا في ذلك رغم قوتهم وارتباطهم بالمجتمع. ولا يمكن العودة هنا الى الصورة الاعلامية او اللوبي الصهيوني وما شابه من مفاهيم ما انزل الله بها من سلطان. وانما علينا ان نعود الى ديناميات الامبريالية الانكليزية في مقابل ديناميات الامبريالية الالمانية. اما الامبريالية الالمانية فكانت متحالفة مع الدولة العثمانية ولذا لم يكن هناك مجال لاعطاء اي وعود للصهاينة على حساب هذه الدولة. لكن كان الوضع مختلفا بالنسبة للامبريالية الانكليزية فقد ظل التحالف قائما بينها وبين الدولة العثمانية حتى اندلاع الحرب،ولذا حينما صدر اول وعد بلفوري انكليزي وهو الخاص بمشروع شرق افريقيا فقد كان وعدا بقطعة ارض خارج الدولة العثمانية، ولكن بعد ان قررت الامبريالية الانكليزية تقسيم الدولة العثمانية اصبح من

الممكن اصدار وعد بلفور لمجموعة من الصهاينة ليسوا من الانكليز. وكان على الموجودين في انكلترا ان يقطعوا علاقتهم مع المنظمة الصهيونية الخاضعة لنفوذ المانيا آنذاك وكان الوعد هذه المرة وعدا بقطعة ارض داخل الدولة العثمانية.

والعنصر المؤثر هنا، في اهم واقعة في تاريخ المشروع الصهيوني، هو المصالح الامبريالية لا قوة الصهاينة الذاتية او «حيلهم الثعبانية» !

واذا نظرنا الى سياسة كل من انكلترا وفرنسا في الوقت الحالي تجاه الشرق الأوسط لوجدنا انها تتفق مع السياسة الامريكية بشكل عام مع اختلافات طفيفة. ويمكن للباحث المدقق ان يجد ان سياسة انكلترا اكثر اقترابا من السياسة الأمريكية وان السياسة الفرنسية اكثر ابتعادا وربما اعتدالا، ولا يمكن تفسير هذا في ضوء نفوذ الجماعة اليهودية. فالجماعة اليهودية في انكلترا ضعيفة لأقصى حد من الناحية الكمية، اما من الناحية الكيفية فهي من اكثر الجماعات اندماجا وهي آخذة في التناقص ان لم يكن ايضا الاختفاء. وعندوقوع مذبحة صبرا وشاتيلا لم يجد التلفزيون البريطاني مفكرا يهوديا بريطانيا واحدا يدافع عن الموقف الصهيوني فاضطروا الى احضار نورمان بودوريتس رئيس تحرير مجلة كومنتاري من الولايات المتحدة لتقديم وجهة النظر الصهيونية. ومع هذا يوجد ثلاثة وزراء يهود في وزارة تاتشر وتتخذ الحكومة البريطانية مواقف وصفناها بأنها قريبة من الموقف الامريكي الممالىء لاسرائيل.

اما في فرنسا فتوجد جماعة يهودية يبلغ تعدادها 700 الف، وهي جماعة اكتسبت لونا يهوديا قويا نوعا ما بعد هجرة يهود المغرب العربي، وهي جماعة لها نفوذ قوي في الاعلام وغيره. ومع هذا يمكن وصف سياسة فرنسا تجاه الدولة الصهيونية بأنها اكثر اعتدالا، واعتقد انه لتفسير موقف كلا البلدين يجب الا نعود الى قوة او ضعف الجماعة اليهودية وانما الى موقف كليهما من التحالف الغربي والى رؤية كل منهما له. فانكلترا اكثر ارتباطا بالولايات المتحدة من فرنسا داخل هذا التحالف، اذ تحاول فرنسا ان تحافظ على استقلال اوروبي لا تهتم به انكلترا بنفس الدرجة، ولعل هذا هو مصدر اختلاف سياسة البلدين تجاه قضية الشرق الأوسط.

السوبر لوبي

ان اللوبي الصهيوني يستمد قوته من انه يعبر عن المصالح الامريكية لا لأنه يقف ضدها. ، وقد جاء في مقال الواشنطن بوست بقلم ريتشارد شتراوس (27 ابريل 1986) ان السوبر لوبي الصهيوني الجديد في واشنطن هو ريغن الى درجة ان اللوبي الصهيوني الآن يجلس لا يفعل شيئا،بل ان معاداة العرب اصبح لها دينامية مستقلة من اللوبي الصهيوني حتى انه تنشأ الآن مواقف جديدة تماما، ففي صفقة الاسلحة السعودية الاخيرة تصاعدت المعارضة في مجلس الشيوخ ومجلس النواب للصفقة على الرغم من ان اللوبي الصهيوني كان قد قرر عدم التصدي لها بالاتفاق مع المؤسسة الحاكمة،وكما قال ريغن: «اسرائيل تحمي آبار البترول ومصالحنا في المنطقة».

ولعل ما ورد في مقال ليندا فيلدمان «جنود كسر العظام يحطمون الصلة مع يهود العالم» في الكرستيان ساينس مونيتور (نشرت في الوطن 17 مارس 1988) يبين ان مصلحة الولايات المتحدة في نهاية الامر اللوبي الحقيقي.اذ تشير كاتبة المقال «للدور المحتمل لليهود الامريكيين بما يتمتعون به من مهارات وقوة ضغط هائلة في دفع عملية السلام». ولكنها تشير الى محللين آخرين يشكّون في ان يشكل اليهود الامريكيون عاملا حاسما في عملية السلام وفي الضغط على اسرائيل اذ انه بسبب تحركات اسبانيا واليونان لاغلاق القواعد الامريكية، بالاضافة الى سقوط شاه ايران، فقد تعاظمت الاهمية الاستراتيجية لاسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة «وهذا العنصر الاخير» سيقلل من اهمية رأي اليهود الامريكيين في صياغة الاتجاه السياسي اي ان مصلحة الولايات المتحدة لا اللوبي الصهيوني ولا القرار الاسرائيلي هو الذي يحدد القرار الامريكي في نهاية الامر،وهذا أمر طبيعي ومنطقي بالنسبة لدولة عظمى مثل الولايات المتحدة لها مصالح استراتيجية في كل انحاء العالم، ولا يمكن لها ان تخضع لضغط هذه الاقلية او تلك. وها هي ذي لحظة زمنية تتخذ فيها الجماعة اليهودية الامريكية موقفا غير متفق تماما مع موقف الدولة الصهيونية فالأولى مشغولة بصورتها الاعلامية ووضع اليهود داخل المجتمع الامريكي الديمقراطي، واسلوب اسرائيل يسبب لها كثيرا من الحرج، والثانية لا تكترث كثيرا بذلك اذ انها مشغولة بالدفاع عن مصالحها وبقائها بطرق غير ديمقراطية البتة. والجماعة الامريكية في هذا اشبه بالجماعة اليهودية في انكلترا عند صدور وعد بلفور. فالجماعة اليهودية كانت قد تبنت المثل الليبيرالية الاندماجية المعادية للصهيونية وكانت تكمن مصلحتها في تأكيد انتمائها للمجتمع الانكليزي، ولذا كانت تمارس الضغط ضد اصدار وعد بلفور الذي كانت ترى انه سيعرض وضعها ومكانتها داخل المجتمع الانكليزي للخطر. ولكن المصالح الامبريالية تجاوزت رأي اعضاء الجماعة اليهودية فنصحت الحكومة الانكليزية قيادات هذه الجماعة بتخفيف حدة النقد وصدر الوعد رغم انفهم لا بسببهم (كان الوزير الوحيد في الوزارة الانكليزية الذي عارض اصدار وعد بلفور هو ايضا الوزير اليهودي الوحيد فيها، سيرادوين مونتاجو). وها نحن نجد نفس الوضع بالنسبة ليهود امريكا ان اتفقت مصلحتهم مع مصالح الامبريالية فإن مقدرتهم على الضغط تصبح هائلة، وان اختلفت مصلحتهم عن المصالح الامبريالية فإنهم يصبحون غير مؤثرين.

ان اللوبي الصهيوني والصورة الاعلامية اكاذيب واوهام نخدر بها اعصابنا. ومن يؤمن بهما عليه ان يفسر لي دعم الولايات المتحدة الرهيب للكونترا رغم ان صورتهم الاعلامية في الولايات المتحدة في الحضيض، ورغم انهم ليس لهم لوبي، وعليه ان يفسر دعم الولايات المتحدة لمعظم النظم الفاسدة في العالم! ان توافق المصالح وتوافق الادراك الغربي الصهيوني وميل موازين القوى لصالح اسرائيل، هي سر نجاح اسرائيل الاعلامي ومصدر قوة اللوبي الصهيوني وليس العكس وهي العوامل التي تحدد السلوك الغربي، لا العقل او التراث الديني اليهودي، المسيحي،وهذا ما كشفته الانتفاضة مرة اخرى.

الفصل التاسع

الإنتفاضة في زمن الإعلام والكذابين

ادرك المنتفضون اننا نعيش في زمن يكثر فيه الكذابون،وتبتذل فيه المعاني،وتجهض فيه الكلمات، وقد ادركوا ايضا اننا في عالم المصالح والادراك الذي تسندة موازين القوى. وقد ناديت من قبل في دراساتي بما سميته «الحوار المسلح» وهو مفهوم مرتبط بتعريفي لمحددات السلوك الغربي تجاه العرب، فهو لا يعبر عن مصالح وقوى وحسب،وانما عن ادراك ايضا، فتصوغ المصالحُ والقوى الادراك،كما يشكل الادراكُ عنصرا هاما في تحرك الفاعل صاحب المصالح والقوى. ومن هنا ارى ان الحوار الذي لا تسانده القوة المسلحة سيتحول في الوجدان الغربي والصهيوني الى مؤشر على الضعف العربي والاستعداد للتسليم،فهو عقل لا يؤمن بالعقل، ونسقه الاخلاقي لا يستند الا الى القوة، وهكذا يفسر الامور وهكذا يتعامل مع الواقع.

ولكن الكفاح المسلح الدائم دون محاولة لتغيير ادراك الآخر ودون محاولة لطرح اطار للحل قد يطيل الكفاح المسلح ويزيد من التضحيات دون مبرر - وكما اقول الاستشهاد حق علينا، وواجب نؤديه لا رغبة تشتهيها الانفس، وعلى المؤمن الحق ان «يبقى» حتى يمكنه الاستمرار في الجهاد اذ ان ما يريده عدوه هو اختفاؤه من على وجه الارض. والحوار المسلح هو ايضا دعوة لإستخدام كل الاسلحة المتاحة بما في ذلك العنف باعتباره السلاح الذي يفهمه العدو اكثر من اي سلاح آخر.

ولم أتصور في اكثر احلامي تطرفا ان يتحقق هذا النموذج في انتفاضة شعبية كاملة تدخل في حوار ذكي مع العدو سواء في اختيارها للسلاح الذي تحارب بهأوادارتها للصراع اليومي مع العدو او التزامها بحدود معينة بخصوص الرقعة التي يدار فيها الصراع. فالمتفضون باستخدامهم الحجارة قد نجحوا في القضاء على استقرار العدو وعلى سياسة الامر الواقع وخلق الحقائق. والصهاينة في حديثهم مع مموليهم في الولايات المتحدة كانوا يشيرون دائما الى الاستقرار الذي تتمتع به المنطقة، الى السلام الاسرائيلي (اي الامريكي) الذي فرض على الجميع،فلم اذن مؤتمرات السلام او تحريك المشكلة ؟ لم الصراع ان كان ليس في الامكان أبدع مما كان ؟ نجح المتفضون اذن في القضاء على الاستقرار وعلى اعادة طرح القضية، ولكنهم في ذات الوقت لم يلجؤوا للأسلحة النارية (وهي متوفرة) لانجاز غرضين :

1 - حتى لا يستفزوا العدو فيستخدم آلته العسكرية لابادة اعداد كبيرة منهم.

2 - حتى يستمروا في تشويه صورته الاعلامية امام العالم الغربي، وهو العالم الذي يمده بالعون والذي طالما تباهى بواحة الديمقراطية. كما ان الوجود الفلسطيني اليومي على شاشات التلفزيون ترك اثرا عميقا على يهود العالم. وعدم استخدام الاسلحة النارية مسألة اساسية في خلق صورة «العربي المعذب» بدلا من العربي «الارهابي».ولنلاحظ انه لو كان العربي معذبا وحسب لما سببت القضية اي مشكلة فهو معذب منذ عام 1948، ولكنه معذب يحدث ضوضاء ويلقي بالاحجار، اي انه محاور مسلح ! ومثل هؤلاء لا يمكن التزام الصمت تجاههم على عكس المحاورين على طريقة كمب دايفيد.

ويجب علي ان اذكر ان ما دفع المتفضين الى التحرك ليس هدفا اعلاميا او هدفا واحدا وانما مجموعة من الاهداف والعوامل تدل على حسهم الثوري وعلى ذكاء قياداتهم (سواء في الداخل أو الخارج).

ويبدو ان المتفضين ايضا لا يودون ان يحملوا - في الوقت الحالي على الاقل - ثورتهم الى ما وراء الخط الاخضر وفي هذا تحديد للأهداف بما يتفق مع القوة الذاتية ولا داعي للاصرار على الاهداف النهائية الآن، والجميع على اية حال يعرف ما هي هذه الاهداف.

والاحجام عن التوجه للمحد الأقصى فيه محاورة ايضا للاعلام الغربي الذي اجمع على شرعية اسرائيل داخل حدود 1948 ولكنه يختلف بخصوص احتلال الاراضي لعام 1967. كما انه توجد قطاعات داخل المجتمع الاسرائيلي (قطاعات كبيرة للغاية اذ لا يزيد عدد المستوطنين في الضفة عن 50 - 60 الف) ترى ان ضم الضفة والقطاع ليس في صالح الدولة الصهيونية من منظور هويتها،والمتفضون يودون استقطاب كل هؤلاء. وكثيرا ما تدعو المنشورات التي تنظم الانتفاضة الى ضرورة «محاولة التأثير على جنود الاحتلال بوساطة الحوار معهم» بل ويوزع المتفضون منشورات على جنود العدو.

وقد نشرت الجيروزاليم بوست (4 ابريل 1988) نصا كاملا لاحد هذه المنشورات عنوانه «فلنفكر لحظة» :

الى الجندي الذي يحرس مدننا وقرانا ومخيمات اللاجئين المطرودين من ديارهم.
انت ايها الجندي الذي تطارد ابناءنا، وتهرق دماءهم، وتحطم اياديهم وسيقانهم مسببا الحزن والالم في كل منزل.
ايها الجندي ! انظر الى نفسك ! انت تحمل حملا ثقيلا على ظهرك : بندقية وذخيرة، قنابل وهراوات، ولكنك خائف من حجر يلقيه صبي أوشاب على رأسك.
ايها الجندي ! انظر الى نفسك انت تجري في دوائر، تتحرك عيونك يمينا ويسارا، الى اعلى واسفل، والاسلحة العديدة التي تحملها لا تضمن لك امنك او سلامتك.
ايها الجندي ! لم تتحمل كل هذا العناء ؟ ولم تقبل بهذه الحياة الصعبة ؟ لم لا تقضي هذا الوقت على بلاج آمن هادىء جميل ؟
ايها الجندي!ان البندقية التي تمسك بها لا تخيفنا ولن تحولنا عن المطالبة بحقوقنا. ومثل كل الشعوب، لن نستسلم للاستعباد والاستغلال والتهديد من قبل المحتلين.
ايها الجندي! لا نريد ان نلحق بك الأذى، ويقينا لا نريد منك ان تلحق بنا الأذى، لا تطلق النار علينا، لا تضربنا او تعذبنا لأننا لا ننوي قتلك.
ايها الجندي! فلتعد الى منزلك، عد واحرص على حياتك ومستقبلك.
ايها الجندي ! لا تمد يدا الى قادتك الذين تحجروا في الحروب.
ايها الجندي ! مد يدك للسلام والامن.. لنا ولك.

الكلام بثلاث لغات

لقد تعلم عرب فلسطين من الصهاينة الكثير. فالمنشور السابق هو وثيقة اعلامية ذكية حدد كاتبها صورة دقيقة للجندي الاسرائيلي الباحث عن الدنيا والمتعة (الانسان العلماني الذي يحول ذاته الى مركز الكون) والذي يفتقد الى الدافع الاخلاقي للجهاد، فيذكره بفردوسه الارض وحياة الهناء والدعة التي يفتقدها في الضفة الغربية وسط المجاهدين من الشبيبة ويذكره بعبثه وعنائه. ولكنه لا ينسى ايضا ان يتوجه الى ما تبقى عنده من حس خلقي، ويبين له عبث القمع وصلابة العربي ويبين له حدود المعركة : نحن لا ننوي قتلك، فلم لا تشيح بوجهك عن قادتك وتمد بيدك لنا نحن الذين نحب السلام.
وهو يؤكد له ان ثمة اساس لا يتزعزع لسلام مشترك ان هو عاد الى البلاج المشمس اللذيذ آمنا مطئنا. ان مثل هذا النوع من الاعلام الذكي الفعال قد فقدناه بسبب المزايدات اللفظية. (اثناء عملي في الجامعة العربية في نيويورك كنت اشعر ان كثيرا من المتحدثين العرب يتوجهون في خطبهم لا الى الجمهور الامريكي اليهودي وغير اليهودي وانما يترجهون الى رؤسائهم في القاهرة وتونس ودمشق).
والحديث الدائم عن السلام والمحبة والتقدم والرقي المشترك هو جزء من الخطاب الاعلامي الصهيوني. وعرب 48، هؤلاء الذين فقدوا كل شيء، هم من اكثر القطاعات

العربية ادراكا لخصوصية عدوّهم الكفء الشرس ولمراوغته ولاستخدامه معسول الكلام. ولذا حينما نظموا يوم احتجاج وتضامن مع عرب الضفة والقطاع وسموه كما هو متوقع بيوم السلام، وكان المتحدثون باسمهم يؤكدون انهم يضربون ويحتجون لا لشيء الا دفاعا عن سلام الدولة الصهيونية، ومن يقول غير ذلك فهو لا شك كاذب ومدع! فالمضربون (والله اعلم بما في الصدور) يعلنونها عالية مدوّية: ان الدولة الصهيونية الحبيبة ان لم تعترف بحقوق العرب فستستمر حالة الحرب الى ما لا نهاية، وهذا ما لا يرضى به هؤلاء الدعاة للسلام والمحبة. وهذا قول ذكي الى اقصى درجة ان تحتج وتعلن تضامنك وتضرب وتلحق الاذى بعدوك وتتحدث عن السلام امام كاميرات التلفزيون (تماما كما يفعل الصهاينة فهم لا يهاجمون ابدا وانما يدافعون عن انفسهم. حتى حرب 1967 كانت حربا وقائية دفاعية اجهاضية ليس المقصود منها احتلال اي ارض وانما فرض السلم والسلام. والمشروع الصهيوني ككل ليس الهدف منه اغتصاب الارض من الفلسطينيين لا سمح الله فهو يهدف الى اصلاحها وزرعها لانقاذ يهود اوروبا المساكين الغلابة. وضرب المفاعل الذري العراقي لم يكن عملا عدوانيا والعياذ بالله.. وانما هو عمل سلمي انقذ الانسانية جمعاء من حماقة العراقيين!)..

ولذا فاختيار اسم يوم السلام يشبه في كثير من النواحي (في بنيته العامة) الحجر والاغنية والبطيخة،أن تقول ما تريد ان تقول وان تحتج وتفوت الفرصة على العدو ان يبطش بك او ان يبيدك.

ان العرب هنا يقومون بالفعل الثوري ثم يغطونه بالديباجات السلمية. وهذا نقيض ما يفعله العرب خارج فلسطين. فنحن جالسون متربصون الواحد بنا بالآخر نزايد في الاقوال دون ان نفعل شيئا، ونصعّد في الديباجات ونجعلها ديباجات عدوانية شرسة تنجح فقط في الاساءة لنا، دون ان نفعل شيئا،وان حاول احد ان يلجأ لمعسول الكلام لاحراج العدو قمنا بالصياح ضده ونعته بالخيانة واحيانا تصفيته جسديا ولا حول ولا قوة الا بالله!

وقد ادركت الصحافة الاسرائيلية كنه حيلة عرب 48 فقالت صحيفة دافار بالحرف الواحد: «لقد تعلمنا من يوم السلام ان العرب داخل اسرائيل يعرفون التكلم بلغات ثلاث العربية والعبرية ولغة ثالثة يعني السلام فيها الحرب. لقد سمعنا رئيس بلدية أم الفحم هاشم محاميد يتحدث عن السلام في الاذاعة وشاهدناه يرقص رقصات حرب مخيفة في مظاهرة أبناء البلد؟»

ولكن تم كل هذا دفاعا عن الدولة الصهيونية! ان ما يغيظ الصهاينة هو ان العربي اصبح مخادعا قادرا ان يستخدم الخطاب الحديث.. خطاب زمن الكذابين!

وقد كتب حاخام امريكي يدعى جوديا ميللر للجيروزالم بوست (4 ابريل 1988) عن هذه القضية. ويبدو انه حاخام ليبيرالي يؤمن بقوانين اللعبة فإذا كان المنتفضون يجيدون استخدام التغطية التلفزيونية فإن هذا امر معروف استخدمته كل الجماهير المحتجة من قبل.

واشار الى ان مارتن لوثر كنج أجّل القيام بمسيرته الشهيرة على جسر من مدينة سلما في ولاية الاباما ثلاث مرات حتى تحضر كاميرات التلفزيون، الا ان شريف المدينة العنصري اشتكى من ذلك. كما ان حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة وحركة الاحتجاج على الحرب في فيتنام استخدمت الاعلام بكفاءة ايضا. كما ان المستوطنين اليهود استخدموا الوسائل نفسها حينما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني،ثم اشار الى سفينة «خروج» وكيف انها كانت حدثا اعلاميا ـ كانت نوعا من «المسرح النضالي» او «حرب العصابات على هيئة مسرح» GUERRILLA THEATRE "وقد اشتكى البريطانيون من استغلال الاعلام، وها نحن ذا نشكو. وهذا دليل على قوة اسرائيل. فالضعفاء وحدهم هم الذين يستخدمون الاعلام».

ولكن ـ وهذا هو جوهر القضية ـ نحن ان خَدعنا وخادعنا فنحن اصحاب حق، نحن اصحاب الارض الضائعة لا نريد ان نغتصب ارض احد، ولا يمكن بأية حال المساواة بين اجادتنا فن الاعلام للدفاع عن الحق باستخدامهم فن الاعلام للدفاع عن الباطل. فنحن مجاهدون منتفضون نلجأ للحرب والخدعة (اي الاعلام) حتى يعود الحق لأصحابه!

مدفعية النفاق الثقيلة

وقد اتى الحوار المسلح بأكله اذ بدأت السفارات الاسرائيلية (في المانيا الغربية وفرنسا وكندا والولايات المتحدة الامريكية وبلجيكا اي في كل مكان في العالم الغربي ـ تقريبا) تبرق لوزارة الخارجية الاسرائيلية عن السخط العام والاحساس بالاشمئزاز تجاه اسرائيل بسبب ممارساتها ضد الفلسطينيين بل ان اللوبي الصهيوني صاحب النفوذ العريق، ممثلا في ايباك AIPAC،قد صرح بأن ثمة احتمال ان يقوم المرشحون لرئاسة امريكا بفك الارتباط بإسرائيل، بل ان بعضهم قد يلجأ الى تأكيد استقلاله عن المؤسسة الحاكمة باتخاذ موقف معاد لاسرائيل (الجيروزاليم بوست 5 فبراير 1988).

وعلى الرغم من أن هذا لم يحدث إلا أن المسافة بين المرشحين للرئاسة والدولة الصهيونية اوسع منها في اي وقت، كما ان مجرد نجاح مرشح مثل جاكسون في الحصول على كل هذه الاصوات رغم معاداته الصريحة للمؤسسة الصهيونية قد لا يكون له علاقة مباشرة بالانتفاضة ولكن لا يمكن ايضا انكار ان الانتفاضة بتشويهها صورة اسرائيل الاعلامية جعلت من اليسير التخلص بعض الشيء من قبضتها وسطوتها.

ويظهر تأثير الانتفاضة على الاعلام الغربي في غياب المقالات العديدة التي كان قد اعدها اصحابها بمناسبة الذكرى الاربعين لانشاء الدولة الصهيونية. فقد كانت مدفعية النفاق الثقيلة جاهزة للاشادة بالدولة وبالسلام الذي فرضته وبدفاعها البطولي المجيد عن القيم والمصالح الغربية ضد الارهاب والارهابيين واتخيل الآن صور العرب المسالمين التي كان قد تم اعدادها والكتب المصقولة الملونة التي تتحدث عن المشافي في الضفة والقطاع وارتفاع مستوى التعليم وما الى ذلك، مع الاشارة السريعة للارهابيين الذين يعكرون صفو الجميع،اليهود

والعرب على السواء.اتخيل صور الاطباء اليهود الذين يعالجون العرب وصورة عمدة القدس وهو يحتسي القهوة العربية مع العجائز العرب ويبتسم الجميع كأنهم في احد اعلانات الكوكاكولا. كنت اجلس في غرفة مكتبي اعد كل ما اوتيت من برود وهدوء، وكل ما عندي من طاقة عصبية، انتظارا للذكرى الاربعين، حتى يمكنني ان ابتلع الاهانات التي سأطالعها في الصحف الاجنبية في صمت. ثم اندلعت الانتفاضة - اندلعت واكتسحت هذه الاباطيل ضمن ما اكتسحت من اباطيل واكاذيب ولن يجرؤ احد على التصريح بها. وهأنذا اجلس في غرفة مكتبي في زمن الانتفاضة اقرأ عن بطولات الاطفال والنساء والعجائز وارى صورهم فارتدي اكاليل النصر الخيالية. ولعل التحقيق الصحفي الذي نشرته تايم (4 ابريل 1988) بهذه المناسبة هو وثيقة اعلامية في غاية الاهمية وهي تؤيد وجهة نظرنا بأن توازن القوى يصوغ الادراك والسلوك.

فالتحقيق الذي كتبه لانس مورو بعنوان «اسرائيل في الاربعين : الحلم يواجه الغضب الفلسطيني وازمة الهوية» لا يتحدث عن العرب باعتبارهم ارهابيين. ويكذّب شعار «ارض بلا شعب» ويتحدث عن سياسة الحجارة التي تقول للاسرائيليين «نحن هنا : صامدون، موجودون، لا نستسلم». لقد نجح الحوار المسلح ايما نجاح.

ذم الدهر والاعلام

والطريف ان الوضع الجديد الذي خلقته الانتفاضة فرض على الاسرائيليين الدور الذي كنا نلعبه في الزمان القديم حين كنا نذم الدهر والاعلام، ونرى ان الكاميرات هي المسؤولة عما يحل بنا من تجاهل وازدراء. وبدأت الدولة الصهيونية في مطاردة الصحفيين وفي اعلان بعض المناطق مغلقة لا يسمح للصحافيين بدخولها.

وقد اشار آدم جارفنكل، منسق الدراسات في معهد ابحاث السياسة الخارجية، الى ان النخبة الاسرائيلية تصور المشكلة على انها قضية علاقات عامة، اذ ان كل الخيارات المتاحة تتضمن مخاطر لا يمكن تقبلها وتشكل كوارث من الناحية الامنية والسياسية والاخلاقية وانه في نهاية الامر لا يوجد امامهم ما يمكنهم القيام به، ولذا فهم مثل السائر اثناء نومه - يأتي بحركات، يسير ويتحرك، ولكنه فاقد الوعي.

وهذا الاحساس ليس قاصرا على النخبة، وانما هو احساس غامر لدى الجميع. فالمستوطنون الاسرائيليون - كما تقول كولين سميث في الاوبزرفر «سائق اسرائيلي يضرب صحافية امريكية في القدس» - الذين يشعرون ان من حقهم في استعمال رشاش العوزي ضد رماة الحجارة لا يجري تصويرهم بشكل موضوعي في الصحافة الاجنبية، يوزعون شارات تقول : «الشعب ضد الاعلام المعادي»موسوم على الشارة حية (اي الاعلام) بلسان مشعب تهاجم نجمة داود (اي الاسرائيليين)، ودلالة الرسم هو اتهام الاعلام بمعاداة السامية (اي اليهود)، (القبس 5 يوليه 1988).

وقد علق آمنون روبنشتاين ساخرا على هذا الموقف في مقال بعنوان «واخيرا اتفق الاسرائيليون على ان التلفزيون هو سبب الانتفاضة»(هآرتس 9 مارس 1988) بقوله : ان هناك اجماع من ادنى البلاد الى اقصاها، من الشارع وحتى طاولة الحكومة، يؤكد بأن المتهم الرئيسي بتصعيد الاحداث في المناطق هو وسائل الاعلام. وان الانتفاضة هي من تأثير التلفزيون (تماما كما كان يظن بعض العرب ان كره الغرب لنا ناجم عن التغطية الاعلامية السيئة) ولكن روبنشتاين يشير الى ان ما يجري في الضفة الغربية وقطاع غزة واسع النطاق وعميق الى درجة قد ينعدم فيها تأثير التلفزيون عليه، وحتى اذا اغلقت المناطق امام وسائل الاعلام، فإن الكراهية والعنف لن يتلاشياءويبين روبنشتاين ان الانتفاضة لم تتلاش في المناطق التي لا توجد فيها اي تغطية اعلامية، كما ان ثورة الجزائر لم تتمتع بتغطية اعلامية ! (وٌاخيرا اتفق الاسرائيليون على ان التلفزيون هو السبب في الانتفاضة"، هآرتس 9 مارس 1988).

ويحاول الاسرائيليون تحسين صورتهم الاعلامية بأي ثمن، ومن الحيل التي يستخدمها الاسرائيليون دائما هي اظهار اسرائيل بمظهر الديمقراطي المسالم. وقد حاول رابين ان يلعب هذه اللعبة مرة اخرى فصرح بأن رجاله لا يصوبون بنادقهم لقتل العرب وانما لايذائهم وحسب. وقد علقت تايم على ذلك بقولها:ان وزير الدفاع لم يدع مجالا للشك ان حكومته لن تتسامح مع اي شيء يؤدي الى تعريض حياة الاسرائيليين للخطر. وقد اذاعت المحطات التلفزيونية صور الجنود الأسرائيليين وهم يكسرون ايدي المتظاهرين دفاعا عن النفس !

وقد حاول شامير (وهو رجل مخابرات سابق وارهابي سابق وحالي) ان يتفلسف قليلا امام عدسات التلفزيون فقال ان وضع اسرائيل هو مثل وضع العملاق جلفر (في قصة الكاتب الانكليزي سويف الشهيرة) الذي دخل في مواجهة مع عشرات الاقزام بينما كانت احدى يديه موثقة وكذلك قدماه. واستعاره شامير هامة للغاية، فالدعاية الاسرائيلية كانت تتحدث دائما عن داود الصغير الذي قتل جالوت العملاق بالمقلاع. ولذا فالاستعارة تشكل تنازلا اسرائيليا اعلامياً، لا ندري هل كان يدرك شامير ابعاده ام لا ؟ وعلى مكاتب الاعلام العربية في العالم ان تحاول اغتنام الفرصة. وقد علقت التايم على استعارة شامير بقولها ان العملاق جلفر هنا لم يكن يدافع عن نفسه بأن يدفع عنه الاقزام فحسب، وانما كان ممسكا ببندقية، كما تدل على ذلك افلام التلفزيون الوثائقية ! واشارت المجلة الى اعداد الفلسطينيين الذي استشهدوا برصاص الاسرائيليين.

البكاء على اطلال اوشويتس

ومن الحيل الصهيونية المعروفة لصد الهجوم على ممارسات الدولة هو الاشارة الى الهولوكوست. وقد روى الصحافي الامريكي جوناثان راندال عن جولدا مائير انها عندما كانت تجد نفسها في موقف حرج على الصعيد الدولي والغربي فإنها كانت لا تتردد في ارسال العالم بأسره الى اوشويتس. وقد حاولت (الجيروزاليم بوست العدد الدولي ابريل 1988) ان تخرج

بعض ضحايا الهولوكست من الدولاب،فسأل الصحافي هيرب كاينون اثنين منهم عن احساسهما تجاه الانتفاضة. فقال احدهم:لقد جئنا الى فلسطين بحثا عن الطمأنينة ولم نجدها. وقد قام يوسف فيكوس الضحية بالتعليق قليلا وخرج من جوفه اقبح ما في الانسان، فضحية العنف، ان لم يكن عنده اطار اخلاقي انساني عام يتحول الى عنصري رهيب. قال فيكوس : «عندما كنت طفلا اتذكر كيف كان الاغيار يصرخون «اذهبوا الى فلسطين» والآن بعد ان جئنا اليها يريدون ان يلقوا بنا في البحر». ومربط الفرس هنا هي كلمة «اغيار» التي يستخدمها الصهاينة حتى يحملوا العرب مسؤولية ما حاق بهم داخل التشكيل الحضاري الغربي الذي لا يكفون عن التباهي بالانتماء له. فالجميع اغيار - النازيون والمعادون لليهود والعرب، وبالتالي فإن قام الصهيوني بتهشيم عظام عربي في فلسطين الآن فهذا رد فعل طبيعي لقرون طويلة من العذاب في اوروبا، واشويتس تبرر دير ياسين،والهجمة الصهيونية رد فعل طبيعي للهمجية النازية.وهي رؤية لا يشارك فيها العرب الذين تشير اصابعهم الى ان كلا من الصهيونية والنازية نتاج حضارة الغرب في القرن التاسع عشر. . الحضارة التي حولت الانسان الى مادة استعمالية تلقي به في افران الغاز لتهلكه لأنه غير مفيد او تلقي به في فلسطين ليتحول الى مادة قتالية للاستفادة منه.

وتهبط عنصرية فيوكس الى هوة مظلمة لم ار لها نظيرا حين يقول : «حينما ارى في الاخبار الاطفال العرب الصغار يلقون بالحجارة على الجنود [فأنا لا ارى ضحايا ابرياء يحاولون الحصول على الحرية وانما] اتذكر كيف كان النازيون يحرضون كلابهم على اليهود. وكما ان الكلاب كانت لا تعرف الفرق بين الخير والشر، وكانت تقوم بما تؤمر به، كذلك هؤلاء الاطفال !». وهذا مثل درامي كيف يحول الادراك الوقائع وكيف يفرض عليها مضمونا يتفق واهواء المدرك،فلم يخطر لي على بال قط انه من الممكن تحويل صورة المناضلين الاطفال الى كلاب نازية.

وقد عبر فيوكس عن ضيقه الشديد بنفاق العالم الغربي، وما يضايقه على وجه التحديد هو مقارنة الصهاينة بالنازيين.

اما شيمون كلن ضحية الهولوكست الأخر فهو لا يقل عن زميله قبحا : «حينما يلقون بالحجارة على الجنود هل يتوقع العالم منا ان نعطيهم الحلوى ؟ يجب ان نبين لهم اننا جئنا لنبقى» وهي عبارة يفهمها الجميع جيدا !

ولم يكثر الصهاينة هذه المرة من فتح الدفاتر القديمة، ربما لأنها اصبحت قديمة او لأن العالم يتوقع من ضحايا الهولوكست ان يتسموا بحد ادنى من الانسانية لا ان يستخدموا جراحهم في قتل الأخرين. وقد حاول ايلي فايزل محترف البكاء على اطلال او شويتس ان يلعب اللعبة، فجمع بعض الحاصلين على جائزة نوبل واصطحب معه ليش فاليسا زعيم حركة التضامن وقام بزيارة اوشويتس،ولم تحدث الزيارة الأثر المطلوب خاصة ان فايزل كان

قد حاول من قبل تبرير ممارسات اسرائيل القمعية بالاشارة الى تقاليد القمع الغربية ككل، اذ قال في مقال للرد على الانتقادات الغربية لاسرائيل: «ان المستعمرين السابقين في فيتنام والجزائر والهند لا يمكنهم اعطاء الدروس لاسرائيل المهددة بوجودها. فالمستعمرون كانوا مهددين فقط في مستعمراتهم وليس في بلادهم الاصلية». وقد جاءه رد الفعل سريعا من جان دانييل مدير مجلة النوفيل او بسر فاتير الذي اخبره ان الشعوب الغربية التي تنتقد اسرائيل انتقدت حكامها اثناء فترة الاستعمار (اليوم السابع).

وعلى الرغم من ان فايزل قد ذكر تقاليد القمع الاستعمارية في سياق سلبي كمحاولة لاستخدام احساس الغربيين بالذنب لارغامهم على الصمت، فإن بعض المتحدثين الاسرائيليين اشاروا الى تقاليد القمع هذه لتبرير ما تقوم به اسرائيل، اي انهم وضعوا القمع الاسرائيلي في سياقه التاريخي الصحيح. فقد عبر يهودا اولمرت (عضو الكنيست الليبرالي عن الليكود) (نيويورك 25 يناير 1988) عن سأمه من الصورة الاعلامية التي تبرز قبح الاسرائيليين وقال: «الم يقم الامريكيون بضرب المدنيين الليبيين بالقنابل لا لشيء سوى اغاظة القذافي؟ الا يعذب البريطانيون الجنود في شمال ايرلندة؟ على ذقن من هم يضحكون؟». بل ان احد المتحدثين الاسرائيليين اشار الى التجربة الاستعمارية الغربية بأسرها للدفاع عن الممارسات الاسرائيلية. وهو محق في ذلك تماما، فما يحدث في الدولة الصهيونية لا يمكن فهمه الا داخل سياق التشكيل الاستعماري الغربي وممارساته الارهابية العديدة والمستمرة.

وفي نقدهم للاعلام ركز بعض الاسرائيليين على انتقائية الصحافيين فقال حاييم يافين، رئيس التلفزيون الاسرائيلي: ان يوما هادئا في نابلس «لا يشكل حدثا بالنسبة للصحافيين». اما بالنسبة للاعلام الاسرائيلي المستنير فان مثل هذا الهدوء لا يقل في اهميته عن الاضطرابات «فنحن ننظر للموضوع من زوايا مختلفة لا من زاوية العنف وحسب» (الجيروساليم بوست 5 فبراير 1988) اي ان الاعلام الاجنبي يجتزيء من الاحداث ولا يقدم الصورة الكلية، مما ينتج عنه تشويه الرؤية.

وقد حاول رابين هو الاخر ان يقدم نقده للاعلام ففي محاضرة له القاها على طلبة المدرسة الثانوية التي تخرج منها اشار الى ان محطة تلفزيون اجنبية قامت بتصويره في نابلس وساله الصحافي عن رايه في الموقف واجاب بان كل شيء هادىء. ثم اشتكى وزير الدفاع من انهم حينما اذاعوا الفيلم عرضوا في الخلفية فيلما عن الاضطرابات في غزة بينما كان هو في نابلس. وقال التعليق: «عم يتحدث وزير الدفاع؟». وقد علق رابين على ما حدث مستنكرا بقوله: «هل يمكن تخيل مثل هذا الشيء؟» (حداشوت 15 يناير 1988). ويلاحظ ان رابين يقدم نقدا يقف على طرف النقيض من نقد مدير التلفزيون الاسرائيلي. فالاول يصر على ضرورة شمول الصورة العامة بينما يشكو الوزير من ذلك الشمول. ولكن الامر المشترك بينهما انهما يودان ان يريا الاعلام في خدمة صورة اسرائيل الاعلامية، كما كان يفعل في الماضي حينما

كان يعرض صور الهدوء والسلام وحسب، وان عرض صورا للعنف فهو عادة العنف العربي الهجومي او العنف الاسرائيلي الدفاعي المسالم! اما الآن فقد انقلبت الآية فهم يعرضون صور الاضطرابات دون الهدوء،او صور الهدوء مع ابراز جزئيته وعدم شموله.في الماضي كان الصحافيون الاجانب يظهرون مرونة اكبر وتفهما اعمق لمطالب اسرائيل الاعلامية ـ اما الان فقد جعل المنتفضون مثل هذا التعايش السلمي بين الاعلام والصهاينة امرا صعبا، خاصة وان الالة الاعلامية الشرهة في الغرب تود ان تقدم احداثا يومية، احداثا عنيفة، احداثا مباشرة، احداثا متفجرة تسيل فيها الدماء وكأنها فيلم من تلك الافلام التي ندمنها جميعنا. وقد نجح المنتفضون في تزويد هذه الالة الجهنمية بالمادة الخام.

الحقائق والحقيقة

وقد تنبه كثير من المعلقين الاكثر عمقا من رابين ويافين لهذا الجانب، وهو ان الاعلام في الغرب (وفي العالم) يكتفي بتقرير الحقائق المباشرة دون ان يضعها في اي سياق تاريخي. والحقائق المباشرة ليست الحقيقة فانت يمكن ان تعطي مشاهد التلفزيون كما هائلا من الصور والافلام يركز على مناظر الانفجارات والدماء السائلة وعلى عمليات الانقاذ وصراخ الضحايا وغيرها من الحقائق التي لم يتم اختلاقها او تخليقها بل يتم تصويرها وتوثيقها بعناية شديدة ومع هذا فهي لا تعني شيئا.

فقد صرح جوتشاك ـ وهو حاخام امريكي محافظ ـ بأن الاعلام الغربي لا يقدم «بدايات الاضطرابات» (اي اسبابها ومقدماتها) وانما يقدم الاضطرابات ذاتها او نتائجها. واشار الى ان هذا الاعلام يعطي رد الفعل الاسرائيلي («الجانب الانتقامي») ولا يشير الى الفعل العربي ـ وهو القاء الحجارة. ويضيف جوتشاك قائلا : «فلا الصحافيون الذين يغطون الاحداث ولا الجمهور الذي يتلقى التقارير الاخبارية كان عنده السياق التاريخي اللازم. ولذا فقد تمت عملية تعليم هائلة (بالمعنى السلبي) بخصوص اسرائيل قام بها اناس لم يكونوا موجودين عندما تم ضم المناطق، ولا يذكرون لماذا وجدت اسرائيل، ولا كيف ضمت المناطق» (الجيروساليم بوست 29 يناير 1988) ـ اي ان التقارير الاخبارية تسقط البعد التاريخي للاحداث.

وقد كرر بريجنسكي، مستشار الامن القومي للرئيس كارتر، نفس النقد حين اتهم الجمهور الامريكي بانه لا يتمتع بفهم «تاريخي حضاري عميق للقضايا الخارجية»، فهو «جمهور يستجيب اساسا من خلال عواطفه التي يصوغها ادراكه لما يحدث،وكلما تعمق البعد الشخصي للحدث [كأن يرى عجوزا تبكي او اما تصرخ] كلما ازدادت العواطف قوة». واقتبس بريجنسكي القول المشهور:«ان مقتل فرد مأساة، اما مقتل الاف الناس فتاريخ. والجمهور يستجيب للاحداث المأساوية اكثر من استجابته للاحداث التاريخية» (الجيروساليم ـ بوست 5 فبراير 1988)، ومرة اخرى توجه اصابع الاتهام للاعلام الذي يسقط الابعاد التاريخية.

وقد ركز مورتيمر زوكرمان على هذه النقطة فقد اشار الى ان اخبار التلفزيون مكونة من لحظات عظيمة مثيرة تصدم المتفرج وتجذب الانتباه (وهو محق تماما في ذلك فالاخبار في التلفزيون الامريكي اصبحت شكلا من اشكال التسلية، وبدات بعض المذيعات يبعن صورا عارية لانفسهن في اوضاع مختلفة حتى تزداد متعة المشاهد اذ يمكنه ان يستخدم خياله وهو يرى المذيعة الحسناء وهي تتحدث عن اخبار المجاعة في افريقيا). ويقول زوكرمان: «حينما يكون الفعل (او الحركة) هو جوهر الحدث كما هو الامر في كرة القدم والزلازل فان تراكم اللحظات يمكن ان يؤدي الى الحقيقة. اما في الضفة الغربية فان تراكم اللحظات قد ادى الى كذبة».

ثم يذكر مورتيمر قضية في غاية الخطورة: «لقد لوث التلفزيون الحوار مع الجمهور لانه من الصعب للصور ان تعطي سياقا او تاريخا او معنى للاحداث، ومن الصعب ان نطلب من برنامج اخباري يستغرق نصف ساعة ان يلخص احداث 40 عاما من تاريخ اسرائيل او منذ عام 1967 او منذ حرب اكتوبر 1973 او حتى التاريخ الذي ارغمت فيه اسرائيل على احتلال الضفة والقطاع. ان الكلمات (في مقابل الصور) ضرورية، ولكن الكلمات التي تستخدم في البرامج التلفزيونية ليست غير كافية وحسب، وانما هي مثيرة» (يو اس نيوز آندوورلدريبورت 1 فبراير 1988).

وقد يعجب القارىء ان قلت انني اتفق تماما مع النقد الصهيوني والغربي والاسرائيلي للاعلام، واتفق معهم في ان الاعلام في العصر الحديث لا يهدف الى تعميق الادراك او فهم الاحداث وانما يهدف الى سرعة نقلها دون ان يدرك ابعادها، وان ادرك ابعادها فانه لا يشغل باله بتقديم الاطار التاريخي والفكري - فرئيس التحرير قد اعطى الاعلامي بضعة سطور وبضع دقائق وعليه ان يكتب بلغة تلغرافية حقيرة تركز على الحقائق المادية المباشرة، وان يتحدث بسرعة غير انسانية بينما يعرض الشريط الصور الرهيبة عن الاحداث التي تشكل عنصر تسلية اساسي بالنسبة للمشاهد! ولذا فانا من المؤمنين ان الاعلام الحديث قد خلق لدى الجماهير وهم المعرفة، وهو احساس كاذب بالمعرفة وهي ليست بمعرفة وانما هي تخزين للحقائق وهي شيء آخر غير الحقيقة.

اتفق اذن مع الصهاينة في نقدهم وفي ذمهم الاعلام لاسقاطه البعد التاريخي. ولكن - ويا لها من لكن - يجب ان نذكّرهم انهم كانوا اكثر الناس استفادة بهذا، كانت الطائرات الاسرائيلية تحصد العشرات من الفلسطينيين في المخيمات فتذكر الاحصائيات وحسب (وهذا تاريخ)، وتقتل طفلة اسرائيلية اثناء احدى الاشتباكات فتراها ونرى صورتها عند ميلادها وفي المدرسة ونرى جنازتها وبكاء امها وابيها واخواتها ورئيس الوزراء وهو يتوعد للانتقام (وهذه مأساة). وحينما كانت تتم عملية فدائية لم يكن أحد يذكر أسباب وجود هؤلاء الفلسطينيين خارج فلسطين، ولم يحاولون العودة عبر الاسلاك الشائكة حاملين اسلحتهم ويقعون مضرجين بدمائهم؟ هل كانوا يفعلون ذلك لانهم مولعون بالنزهات الخلوية وبالمغامرات

المثيرة على سبيل المثال ؟ لم تكن التلفزيونات الغربية تذكر شيئا عن الاسباب وكانت تكتفي بذكر الاحداث والنتائج وحسب ـ كما تفعل الان مع الاسرائيليين ـ ومن ثم كانت تسمى الفدائيين «ارهابيين»، وتحول انبل افعال التضحية الى مثيرات ومسليات !

الا يستند المشروع الصهيوني باسره الى التركيز على جزئيات وعلى انكار التاريخ ؟ فكل مايكتب عن الهولوكوست يسقط ضحايا النازية من الملايين الاخرى ولا يذكر تعاون الصهاينة مع النازيين ولا يشير الى ان من تبقى من يهود اوروبا اتجه الى الولايات المتحدة لا الى اسرائيل؟ والحديث عن نشاة اسرائيل لا يشير الى دير ياسين وكفر قاسم والمذابح الاخرى، اليس المشروع الصهيوني بأسره هو مشروع لانكار تاريخ فلسطين العربي وهوية الفلسطينيين العربية ؟

وان قمنا باسترداد التاريخ كما يطالب الصهاينة، لم نتوقف عند عشرين عاما وحسب او حتى اربعين ؟ لم لا نسترد ايضا وعد بالفور واحتلال انكلترا لفلسطين وتسهيلها مهمة الصهاينة وطرد الفلسطينيين من ارضهم ؟ ونحن هنا لا نتحدث عن تاريخ البابليين او الاشوريين او الكنعانيين او العبرانيين كما يفعل بعض الصهاينة وإنما نتحدث عما اسميه «بالماضي الحي» اي وقائع تاريخية لا تزال نتائجها الانسانية ماثلة امامنا في مخيمات اللاجئين من 1948 حتى 1965، ثم في ثورتهم ابتداء من ذلك التاريخ.

ان الحضارة التي تستند الى القوة كوسيلة لحسم الصراعات لا يمكن الا ان تستبعد الانسان والتاريخ والزمان وتركز على الاحداث المادية المباشرة، فهذه هي طريق ادراكها. وقد استفادت اسرائيل ايما استفادة بذلك في الماضي. ولكن كما قال بريجنسكي ان ذاكرة الامريكيين (والعلمانيين) ضعيفة ولذا امام احداث الانتفاضة المثيرة (حجارة ودماء وكوفيات ونساء تصرخ وجنود) نسي الانسان الغربي ان اسرائيل هي واحة الديمقراطية، ونسي حكاية التراث اليهودي ـ المسيحي، ونسي ان العالم الغربي هو الذي وضع الصهاينة في فلسطين ليكونوا بمثابة حائط ضد الهمجية، ونسي انه كان يصفق بالامس للانتصارات الاسرائيلية ـ نسي كل هذا وركز على الالوان داخل مربع الشاشة، وكأن الآن وهنا هو الماضي والحاضر والمستقبل.

الصهاينة وقعوا اذن صرعى اللعبة التي اجادوها من قبل. ولو كانت امي ـ رحمها الله ـ على قيد الحياة لقالت شيئا من قبيل «غضب الله» او «الجزاء من جنس العمل» او ما شابه من حكم الاجداد، ولكننا في مجال تقديم دراسة تطمح ان تلتزم بالمقاييس العالمية والغربية ولذا عليّ استبعاد مثل هذا الخطاب حتى لو كنت أؤمن به في اعماق اعماقي !

بين الاحساس بالذنب والاحساس بالعار

ومن المقولات الشهيرة التي طالما تعلمناها من دفاتر علم الاجتماع الغربي التفريق بين الاحساس بالذنب والاحساس بالعار، وكان يقال لنا: ان الانسان الغربي يستبطن القيم

الاخلاقية ولذا فهو عنده احساس بالذنب ـ فآليات الضبط الاخلاقي بالنسبة له داخلية، لا يحتاج الى ردع خارجي. اما الانسان الشرقي فهو ـ والعياذ بالله ـ لا يستبطن شيئا وتظل القيم الاخلاقية بالنسبة له امرا خارجيا، ولذا فهو لا يحس بالذنب وانما بالعار اي بالخوف من الفضيحة. وقد كنت من المقتنعين بهذا النموذج التفسيري الى ان انقطعت الكهرباء ذات مساء في نيويورك في عام 1977 (على ما اتذكر) وفي خلال ساعات كان قد تم نهب بضائع ببلايين الدولارات وتساقط نموذجي التفسيري فورا اذا ادركت ان حكاية الذنب هذه والانضباط الداخلي تحتاج لاعادة نظر.

وقد بينت الانتفاضة مرة اخرى زيف الادعاءات الغربية عن الاحساس بالذنب، فيهود العالم الغربي الذين طالما سكتوا عن اسرائيل وقبلوا بافعالها وشجعوا صولاتها وجولاتها دون احساس بالذنب، بل واستمدوا هويتهم من توحدهم باسرائيل المنتصرة (وعلى كل ثمة تيار نيتشوي قوي في القول الصهيوني يعلي من قيمة القوة والبطش) ولكن مع تزايد الافلام الملونة بدات الزمجرة (كما بينا في فصل سابق) اذا اتسع نطاق الفضيحة وكان الناس ينظرون «لليهود» وهم يضربون العرب ويسالون جيرانهم اليهود ممن كانوا يتباهون بدولتهم فيما سبق عما تفعله هذه الدولة. وهنا بدا الاحساس بالعار. وقد سارعت مجموعة من اليهود في فلوريدا بتقديم طلب للدولة الصهيونية بمنع الصحافيين الاجانب من دخول المناطق المحتلة منعا للعار لا محوا للخطيئة. وكما قالت الجيروساليم بوست (27 يناير 1988): ان تزايد تملص اليهود من الصهيونية بعد الانتفاضة لا يعود لاسباب اخلاقية مثل استيقاظ الضمير او نقد الذات او الاحساس بالذنب بسبب التورط في سياسات اسرائيل اللاأخلاقية، وانما هو حزن عميق بسبب الافلام الملونة التي يعرضها التلفزيون والتي تسبب الحرج [العار] ليهود امريكا لانهم يقرنون باسرائيل. واضافت الجريدة عن حق «وهم لذلك لا يستحقون سوى التجاهل من الناحية الاخلاقية».

وقد عبرت القارئة الين فريشاور في خطاب لها في الجيروساليم بوست (27 يناير 1988) عن الموقف الاعلامي النفعي البرغماتي الذي يخاف العار ولا يمارس الاحساس بالذنب، اذ قالت «ان البعض يدعي ان صورة اسرائيل القبيحة في الخارج هي نتيجة العداء العنصري لليهود. ولكن العكس صحيح، فصورة الدولة الصهيونية البشعة هي التي تولد العداء نحو اليهود. فالعالم كله كان متعاطفا مع اسرائيل ومع اليهود وقد ولى هذا التعاطف تماما، وربما لن يمكن استرداده بعد الان». ويلاحظ ان خطاب القارئة المذكورة لا يوجد فيه اي حديث عن الاخلاق والضمير او عن القيم العليا او الاحساس بالذنب، وانما هو حديث عن الصورة الاعلامية وتدهورها والاثر السلبي لذلك على يهود العالم مما يسبب لهم من خزي وعار! ان القضية ـ كما أسلفنا ـ لا علاقة لها بالاخلاق والقيم المطلقة والقيم الانسانية فهي نابعة من الاحساس بالضرر الناجم عن تدهور الصورة الاعلامية المصقولة ولعل هذه هي القيم الوحيدة السائدة في زمن الكذابين.

وانطلاقا من الخوف من العار دون اي احساس بالذنب صرح احد الضباط الاسرائيليين بان اطلاق النار افضل بكثير من ان يظهر الجنود على شاشات التلفزيون وهم يضربون شابا عربيا بوحشية، فمن منظور القيم الاعلامية يصبح القتل اهون من الضرب بوحشية (رون بن يشاي : اطلاق النار افضل بكثير من سياسة تحطيم العظام يديعوت احرونوت 12 مارس 1988). بل ان الديمقراطية الاسرائيلية تستند هي الاخرى الى الخوف من العار، فالمتحدثون الاسرائيليون الواحد بعد الاخر حذر من اغلاق الاراضي المحتلة في وجه وسائل الاعلام لا حفاظا على القيم الديمقراطية الغربية ولكن لان هذا امرا غير عملي «ففي كل مخيم كاميرات تصوير مختلفة ومن جميع الانواع، وان الانطباع الذي ستتركه الافلام التي ستهرب خارج البلاد اكبر من الانطباع الذي تتركه التقارير اليومية (يديعوت احرونوت 12 مارس 1988).

وسائل قمعية متحضرة

واستجابة الولايات المتحدة للقمع الاسرائيلي لا تخرج عن نطاق الاحساس بالعار والحرج ولا تدخل باية حال في نطاق الاحساس بالذنب. فالولايات المتحدة مستاءة من اسرائيل لا لانها اخلت بالقيم الخلقية او بحقوق الانسانية فهذه ليست اجزاء من النموذج الغربي، وهي عبارة عن ديباجات تستخدم للهجوم على الاتحاد السوفياتي للحديث عن اليهود السوفيت وتدخل الفريزر على التو بعد ذلك ـ خاصة اذا كان موضوع الحوار هو عشرات الديكتاتوريات العسكرية والحكومات الفاسدة التي لا يمكن ان تقوم لها قائمة دون الدعم الامريكي اليومي الكامل. اقول لا ينبع استياء الولايات المتحدة من الاخلال بالقيم والحقوق وانما من تشويه الصورة الاعلامية لاحد حلفائها وعملائها، ومن قد يضيرها هي الاخرى من الناحية الاعلامية ولذا نجد ان تصريحات المتحدثين باسم البيت الابيض تتصرف الى كمية القمع وشكله لا الى القمع ذاته. فقد اتهمت مارلين فيتزووتر (المتحدثة باسم الرئيس الامريكي) الاسرائيليين باستخدام وسائل امنية فظة، وبالافراط في استخدام الذخيرة الحية ـ اي ان الوسائل الامنية الرشيقة، والاستعمال المعتدل للذخيرة الحية امر مقبول.

والحكومة الصهيونية متفقة تماما مع ذلك فقد صرح بعض المسؤولين ان القوات الاسرائيلية مدربة اساسا على الحروب في الخارج وليست مدربة على قمع المظاهرات في الداخل، وانه سيجري تدريب قوات خاصة يمكنها ان تقوم بالقمع تحت سمع وبصر التلفزيون دون ان تشوه الصورة الاعلامية. وكما قالت فيليس اوكلي (المتحدثة باسم وزارة الخارجية): «يجب الحفاظ على النظام دون استخدام القوة القاتلة وبما انه توجد وسائل لانجاز هذا فنحن نحث الحكومة الاسرائيلية على استخدامها» (تايم 4 يناير 1988). ولا شك ان ترسانة الحرب الامريكية «المتقدمة» قد طورت اسلحة مختلفة وبرامج تدريبية في القمع دون

اراقة الدماء او اراقة الحد الادنى منها او اراقتها دون ترك اثر ودون معرفة المصدر. ولعل ذلك المستوطن الصهيوني الذي كان يطلق النيران على المتظاهرين وهو مرتد الزي المدني والذي ظهر انه احد عملاء الموساد (جهاز الاستخبارات الاسرائيلي) هو تطبيق عملي لمثل هذه الوسائل القمعية الديمقراطية المتحضرة. ولعل السيارة التي قتلت اربعة مواطنين عربا عن «طريق الخطأ» هي مثل اخر. ولا بد ان خبراء القمع المختصين في هذا المجال يمكنهم الاسهام في توضيح هذه النقطة اكثر مني انا الذي اضيع كثيرا من وقتي في قراءة الفلسفة والاشعار.

والولايات المتحدة دولة ملتزمة التزاما عميقا بالقيم (او اللاقيم) الاعلامية ولذا عليها ان تختط طريقا «وسطا». والطريق الوسط هذا يعني ان الحكومة الامريكية نظرا للضغوط عليها من جانب الحكومات العربية الصديقة والراي العام الغربي بل والامريكي نفسه عليها ان تتنازل قليلا فتعبر عن اعتراضها الرسمي على اساليب اسرائيل في القمع وعلى انكارها لحقوق الفلسطينيين في الاراضي المحتلة. ولكن كما يقول وليم بفاف (في الهيرالد تريبيون نقلا عن القبس 28/4/1988):«لا تفعل الولايات المتحدة شيئا لاعطاء هذا الاعتراض قوة عملية».بل ان «ما تفعله الولايات المتحدة هو توفير اساليب لحكومة شامير لقمع الفلسطينيين (اساليب) تثير الهلع في نفوس الامريكيين». بل وعلاوة على هذا وقّع الرئيس ريغن وشامير مذكرة اتفاق جديدة تعيد تأكيد الروابط الامنية والاقتصادية بين البلدين». وقد «يحث» شولتز شامير على تغيير منهجه، وقد يعطي تأييده لبيريز «المعتدل» ولكن «الكلمات في هذا الامر ذات اثر قليل فالمعونة التي تقدمها الولايات المتحدة لاسرائيل هي التي تمكن الاخير من عمل ما تقوم به» والسيف كما يعرف شاعرنا القديم وكما يعرف المنتفضون:أصدق انبأ من الكتب في حده الحد بين الصدق والكذب وبين حقيقة اللئام وصورتهم الاعلامية. وكلنا نعرف ان الفرق بين القمع «المتحضر» والقمع الهمجي هو ان الثاني يتم تحت سمع وبصر التلفزيون اما الاول فيتم بعيدا عنه وهو فارق ينتمي الى القشرة والسطح فالظالم هنا يخشى نور الفلاش ولا يفكر في نور الله. يخشى العار ولا يجول بخاطره اللااخلاقي المحايد اي احساس بالذنب.

الخروج من كادر الصورة

تفترض فكرة الصورة الاعلامية انه ثمة قواعد دقيقة للعبة تحل محل القواعد الخلقية والاعتبارات الانسانية فهي تنتمي تماما لعالم الظاهر والسطح المصقول ولا علاقة لها بعالم الباطن. واهم قواعد هذه اللعبة هو ما يسمى في الخطاب العلماني الغربي الوصية الحادية عشرة التي تجب كل الوصايا العشر التي سبقتها («لا تقتل»، «لا تزن»، «لا تسرق» الخ) وتحل محلها وهي : «لن يكتشف امرك» اي افعل ما بدا لك خارج كادر الصورة، اما داخلها فلتتحرك بأدب شديد ولتتزر عن القيم والاخلاق،وقد كان الاسرائيليون حريصين على هذه الوصية الحادية عشرة اكثر من حرصهم على تعاليم التوراة بأسرها. ولكن الانتفاضة اخرجتهم عن وعيهم نظر لما وقع لستورمي جريتر وهي مراسلة مينيا بوليس ستار تريبيون اذ طلبت من

سائق التاكسي ان يأخذها الى فندق الامريكان كولوني وحين فهم من ذلك إنها صحفية رفض ان يأخذها ثم زجر بكلمات يفهم منها انه يتهمها بالكذب.«ثم دفعها بعد ذلك دفعة افقدتها توازنها وجعلتها تترنح في الشارع. ثم تعرضت للضرب بعد ذلك من السائق واخيه وهي تعاني الآن من رضوض حادة وبعض الاسنان المكسورة وتركت فاقدة الوعي على الرصيف، ولم يتدخل احد لانقاذها وقد اقامت الصحفية دعوى مدنية»(كوين سميث : «سائق اسرائيلي يضرب صحافية امريكية في القدس» الاوبزرفر عن القبس 5 يوليه 1988).

واذا كان السائق الاسرائيلي قد اخل بقواعد اللعبة تماما وبغباء شديد، فإن حكومته حاولت ان توظف الاعلام ذاته في عملية القمع التي يقوم الاعلاميون برصدها اذ تظاهر عملاء المخابرات الداخلية الاسرائيلية (شين بيت) بانهم يعملون في محطة ايه بي سي. وذهبوا الى الشاب الفلسطيني نزار ووجدوه بعد ان نسف منزله يوم 6 يونيه بقنبلة حارقة يقال انه القى بها. وقد قال الاعلاميون المزعومون:انهم يريدون اجراء مقابلة معه هناك وانهم يريدون تصويره امام انقاض داره . ولم يسمع عن نزار شيء بعد ذلك. وقد اشيع من قبل انه طوال السبعة شهور السابقة :ان عملاء المخابرات الاسرائيلية والمستوطنين الصهاينة كانوا يدعون انهم صحفيون ويستخدمون هذا ستارا لتنفيذ بعض مآربهم. الا ان هذه اول مرة يصدر فيها اتهام رسمي. وقدم رئيس شبكة التلفزيون الامريكية احتجاجا رسميا الى الحكومة الاسرائيلية وبين في احتجاجه ان مثل هذا العمل من شأنه ان يعرض للخطر سلامة الصحفيين (الشرق الأوسط 8 يوليه والقبس 7 يوليه 1988).

ان هذا السلوك القبيح العلني «خارج كادر الصورة» والذي يخل بالوصية الحادية عشر لهو دليل على مدى التحدّي الذي طرحته الانتفاضة وكيف انها جعلت قواعد اللعبة القديمة - قديمة.

بين دكتور جيكل والمستر هايد

ولا يمكن ان اختم هذا المقال دون ان ألخص للقارىء مقالين يجسدان هذه العقلية التي تتعامل مع الصورة والسطح، ولا تكترث بالمضمون الاخلاقي وبالتالي لا تمارس اي احساس بالذنب. اما المقال الأول فقد كتبه يحز قئيل درور وهو استاذ للعلوم السياسية والادارية في الجامعة العبرية. ويبدأ المقال بتعريف المشكلة، وهي ليست مسألة إخلاقية ولا علاقة لها بقيام الدولة الصهيونية وبتكسير العظام ودفن الاحياء وانما هي مسألة موقع : «فإسرائيل تقع على الحدود بين حضارات سياسية متنوعة وصلت لمستويات مختلفة من التطور.فمن ناحية يوجد العالم الغربي (المتقدم) الذي وصل الى درجة من الاستقرار النسبي بعد تاريخ طويل من الاستعمارية العدوانية، ومن ناحية اخرى يوجد الشرق الأوسط (المتخلف) الذي يتسم بعدم الاستقرار والحروب والعصبية الدينية. وكيف يمكن لاسرائيل ان تفي بالاحتياجات المتناقضة الناجمة عن وجودها في هذا الموقع بين هذين العالمين ؟ وكيف يمكنها ان تصوغ صورتها

الاعلامية؟ فالغرب من ناحية يحكم على اسرائيل بمعاييره السياسية، وهي معايير لا يمكن تطبيقها في المواجهة مع العرب؟ والغرب لا يضطر للجوء لاجراءات قمعية مثل التي تستخدمها اسرائيل لأنه لا يواجه سوى اضطرابات الطلبة ومظاهرات الاقليات الاثنية والمحافظين على البيئة، اما الانتفاضة فإنها تهدد وجود اسرائيل ذاته ـ ومن هنا لا بد وان تتخذ اسرائيل اجراءات تتناقض مع القيم السائدة في الغرب.»

ومن هنا يجب ان تكون صورة اسرائيل صورة مختلطة ـ صورة جيكل الخير الطيب وهايد الشرير الرديء. وهذا الحل ليس بعبقري ولا جديد، فهو الحل الاستعماري القديم ـ ان يحتفظ الغرب في مجتمعاته بمستوى عال من التقدم الاقتصادي والاستقرار السياسي والديمقراطية (الدكتور جيكل) عن طريق تصدير المتعطلين والمجرمين (واليهود) الى المستعمرات وعن طريق نهبها وهدم المؤسسات التقليدية فيها وقمع اهلها (المستر هايد) فتُنقل الخيرات وفائض القيمة من الشرق الى الغرب وتخف بذلك حدة التوترات الاجتماعية والصراعات الطبقية فيه ويؤسس البنية التحتية التي تضمن وصول المواطنين الى اعمالهم وصناديق الاقتراع في الوقت المحدد! وأعتقد أنه لا بدّ أن تعاد كتابة تاريخ الديمقراطية الغربية بعد تحديد دور الامبريالية والقمع الامبريالي لشعوب العالم الثالث في تحقيق السلام الاجتماعي في الدول المستعمرة وكيف ان التجربة الديمقراطية الليبيرالية مرتبطة ارتباطا عضويا بالهيمنة الامبريالية.

وصياغة مثل هذه الصورة المختلطة التي يقترحها درور واتّباع مثل هذه السياسة مسألة صعبة للغاية، خاصّة أن الجزء الخاص بهايد «غير مقبول للغرب بما في ذلك يهود العالم» على حد قوله. ولكن على اسرائيل ان تتصرف بهذه الطريقة وان تؤكد، ولنترجم حرفيا، «الامكانية الشيطانية» الكامنة فيها، بهدف «تدعيم السلام» بطبيعة الحال. فآلات القمع الشيطانية في المستعمرات كانت تهدف دائما لاحلال السلام. وحتى لا يفوت احدا ماذا يعني المؤلف الجامعي، «بالامكانيات الشيطانية» فقد عرفها بأنها «اظهار القوة الجسدية» ـ اي انه الصراع الدارويني القديم دون زخارف، وهو المنطق الذي تم عن طريقه فتح العالم واستعباد كل الشعوب. ويجب على اسرائيل الا تحصر اهتمامها في الاحداث الحالية وان تركزه على موقع البلد بين عوالم مختلفة وان تؤكد ضرورة تبني مقاييس للسلوك مناسبة لمواقف مختلفة عن تلك التي تواجهها البلاد الغربية.. اي انه يجب على اسرائيل ان تذكّر الغرب انه لا تزال توجد جيوب استعمارية استيطانية يتم فيها المواجهة الجسدية مع شعوب العالم الثالث وان الاصرار على القيم المتحضرة غير مجد ـ اي يجب ان يتذكر الغرب مرة اخرى تراثه القمعي الطويل القديم، وان يتذكر ان السياق الحقيقي الوحيد للقمع الصهيوني هو الاستعمار الغربي. وتتلخص المشكلة كلها حسب هذا التعريف الذي يستعيد الحقائق المبدئية «في ضرورة شرح الحقائق المركبة للجمهور حتى يمكن الحصول على التأييد الديمقراطي (اي

الغربي) لخدمة السلام (اي المصالح الغربية) مع ضمان الامن (اي مع استخدام الوسائل القمعية التقليدية التي تسبب الضيق للغربيين والاحساس بالعار لليهود)»(صورة جيكل وهايد» الجيروساليم بوست 12 ابريل 1988).

ولكن مشكلة درور، مثل مشكلة المستوطن الذي اقترح ذبح العرب بعيدا عن عدسات كاميرات التلفزيون، انهم يرون مشكلتهم في اطار مكاني (والعقل الصهيوني اسير المكان فهو يخشى الزمان والتاريخ ويلغيهما) اذ ان كليهما يرى ان المشكلة مشكلة «موقع» ـ ان اسرائيل «توجد» امام عدسة الكاميرا او بين الشرق والغرب، بينما المشكلة في واقع الامر مشكلة مرحلة اي زمن. وتتلخص المشكلة الزمنية في وجهين:

1 ـ جاء الاستعمار الاستيطاني الاحلالي الصهيوني متأخرا من الناحية الزمنية، بعد ان انحسرت المرحلة الاستيطانية من الاستعمار الغربي التي بدأت في القرن السادس عشر وانتهت مع نهاية القرن التاسع عشر اذ لا نعرف تجارب استيطانية غربية بعد ذلك التاريخ سوى التجربة الصهيونية التي بدأت بشكل تسللي في نهاية القرن التاسع عشر وظلت ضعيفة متهاوية الى ان تم ضم فلسطين للامبراطورية الانكليزية («وضعت تحت الانتداب») والى ان صعد النازي الى الحكم في ثلاثينات القرن الحالي ـ اي ان التجربة الصهيونية في الاستيطان الاحلالي تمت بعد ان كان الغرب قد انتهى من ابادة ما اباد،ونقل ما نقل واستعباد ما استعبد من شعوب وامم، ولم تعد مثل هذه الامور مقبولة لدى امم الغرب المتحضرة! وقد أُعلنت الدولة الصهيونية في اواخر الاربعينات بعد ان كان الغرب قد بدأ يتخلى عن فكرة الاستعمار التقليدي عن طريق الجيوش والقهر الجسدي المباشر لشعوب المستعمرات وبدأ يظهر بدلا من ذلك الاستعمار الجديد الذي يقوم بالهيمنة على اطراف العالم عن طريق الشركات عابرة القارات واجهزة المخابرات والنخب الحاكمة المحلية الفاسدة التي تقوم بدلا منه بعمليات القمع للسكان. ولذا حينما يقوم الاستعمار الاستطياني الاحلالي الصهيوني باللجوء لنفس اشكال القمع المباشر الواضح التي كان يلجأ لها الاستعمار الغربي في الماضي القريب، فإن الغرب يثور ضده ويحتج فمثل هذه الامور تنتمي لمرحلة سابقة (لا الى موقع). ووجود فجوة زمنية بين الوطن الام والجيب الاستيطاني مسألة معروفة لدى دارس تجربة الاستيطان، ولكنها في حال الجيب الصهيوني فجوة كبيرة للغاية.

2 ـ ظهرت اسرائيل كدولة في مرحلة ثورة شعوب العالم الثالث على الاستعمار وهي الظاهرة التي يطلق عليها حركة التحرر الوطني والتي ادت الى تراجع الاستعمار التقليدي وظهور الاستعمار الجديد. واذا كانت هذه الحركة قد تأخرت حتى منتصف الستينات في فلسطين فذلك يرجع لظروف خاصة ناجمة عن كون فلسطين جزءا من الكل العربي واجه ظاهرة الاستيطان الاحلالي الفريدة في القرن العشرين! وقد التقط الفلسطينيون انفاسهم وبدؤوا نضالهم الذي وصل الى احدى قممه في الانتفاضة، الامر الذي يزعزع الاستقرار السياسي والاقتصادي للجيب الصهيوني.

هذه الفجوة الزمنية (لا الموقع) هي سبب مشكلة اسرائيل الاعلامية والاخلاقية والسياسية ولا اعتقد ان صورة مختلطة ذات رأسين (تشبه حكومة الائتلاف الحاكم) قادرة على حل هذه المشكلة.اذا كلما ازداد الفلسطينيون انتفاضا يزداد الاسرائيليون قبحا وسيبرز وجه هايد القبيح المختبيء، مما سيسبب شيئا من الاشمئزاز لشعوب الغرب المتحضرة التي لا تقبل غير المتحضر الواضح والذي ينتمي لمرحلة تاريخية سابقة منذ قديم الزمان ـ اي ما يزيد عن ثلاثين او ربما خمسين عاما!

العظام المكسورة والمجندات الفاتنات

اما كاتب المقال الثاني فهو ديفيد برنباوم وهو من رجال الاعمال الامريكيين قام بتدريس الاستراتيجية في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية، وهي معهد تعليمي في نيويورك له احترامه وهيبته. وعنوان المقال (الذي نشر في الجيروساليم بوت 21 فبراير 1988) «في المعركة من اجل الرأي العام الامريكي : فلنتذكر القصة في كلمات لكن لا تتجاوز العشرة». وهو يقترح حل المشكلة الاسرائيلية الاعلامية بطريقة اعلامية فيرى ضرورة الربط بين المنتفضين وزملائهم في بيروت وطهران ! بحيث يضطر الامريكي البسيط ان يختار بين واحة الديمقراطية او الارهاب العربي. ولكن مع هذا توجد مشكلة بسيطة وهو ان هذا الامريكي البسيط لا يوافق على الضرب ولذا يقترح استاذ الاستراتيجية ما يلي على الاسرائيليين (وسأنقل للقاريء حرفيا) :

«ولذا يا اخواني الاعزاء اقبضوا على الذين يلقون بالحجارة لتسحبوهم امام محاكم عسكرية محلية ولتحاكموهم بسرعة ولتضعوهم في الحافلات ولتلقوا بهم وباطرهم المحترقة وحجارتهم عبر الحدود. لا تلوثوا ايديكم وان كان عندكم عدد من سيارات الجيب مليئة ببعض اقارب ضحايا ارهاب منظمة التحرير الفلسطينية لتصاحب هذه الشخصيات (الارهابية) فهذا امر حسن وان تبع (هذا الموكب) عدد آخر من سيارات الجيب المحملة بعدد من المجندات الاسرائيليات الجميلات اللائي لا يزيد عمرهن عن 18 عشر عاما فهذا احسن واحسن». ان استاذ الاستراتيجية يفكر بأسلوب اعلانات «اولد سبايس» التي تستخدم «السيكس ابيل» فإن وضعت قطرة من هذا العطر لوجدت كل اناث العالم في احضانك.وهو يتصور ان العالم كله في تفاهته وانحطاطه، وان الانسان الغربي حينما يرى عويل امهات ضحايا الجهاد الفلسطيني مضافا اليه ارداف المجندات الاسرائيليات الجميلات فإنه سينسى العظام التي تتحطم يوميا على الشاشة. وقد يكون الاستاذ برنباوم محقا في توقعاته البرغماتية بخصوص توظيف مبدأ اللذة في خدمة مبدأ المنفعة، ولكن لا اعتقد ان مثل هذه الحيل ستنسينا نحن الوطن السليب. ولا اعتقد ان الحجارة التي اتت بالصدق في زمن الاكاذيب ستتوقف عن الانهمار والتطهير.

الفصل العاشر

الصهيونية الخالدة ونكات أخرى

بعد 40 عاما من اعلان الدولة،ومئة عام او يزيد من الاستيطان لا يمكن القول ان الدولة الصهيونية تشكل قصة نجاح كبرى او صغرى. فالصهيونية قد طرحت نفسها على انها الحركة القومية التي تعبر عن كون اليهود «شعبا واحدا» يطمح لـ «العودة» لأرضه وانها ستنهي حالة «المنفى» وستقوم بـ «تسويه اليهود» اي جعلهم مخلوقات سوية. وقد فشلت الصهيونية في تحقيق اي من هذه الاهداف بدرجات تتفاوت في حدة اخفاقها.

اتهامات متبادلة

فاليهودي ـ هذا المكون الاساس للمشروع القومي الصهيوني ـ لم يتم تعريفه بطريقة ترضي كل الاطراف اليهودية المعنية. وهذا الشعب الواحد لا تجمعه ثقافة واحدة ولا تراث واحد ولا مصالح واحدة ولا ارض واحدة ولا دولة واحدة. وبعدما تم تأسيس الدولة يرفض اعضاء «الشعب» العودة، الامر الذي يخلق ازمة سكانية وفضيحة استيطانية. والشخصية اليهودية التي يزعم الصهاينة انها طفيلية هامشية، وانهم سيقومون بتقويمها لا تزال كما هي ـ فالاسرائيليون قد انخرطوا في السمسرة والمضاربات، والمجتمع الصهيوني يعتمد على الدعم الامريكي لوجوده واستمراره ولذا فهو لا يملك مقومات الاستقلال الاقتصادي او السيادة السياسية.

وقد عبرت ازمة الصهيونية عن نفسها في الاتهامات المتبادلة بين صهاينة الخارج والمستوطنين الصهاينة، اذ يلقي كل منهم بالتبعية على الآخر. فالمستوطنون يرون ان مشكلتهم تكمن في رفض اعضاء الشعب اليهودي العودة الى الوطن القومي. اما يهود العالم فهم يوجهون قائمة طويلة من الاتهامات تصلح كأساس لادراك مدى عمق الازمة الصهيونية. فيهود العالم يرون ان الدولة الصهيونية قد خلقت لهم توترات داخل مجتمعاتهم بتدخلها في شؤونهم. ويرى المتدينون منهم ان الدولة تزايدت فيها معدلات الاباحية والفساد الخلقي، وانها بدأت تحل محل الدين اليهودي. ويرى اليساريون ان اسرائيل تحولت الى بائع سلاح يعمل لصالح الولايات المتحدة. وقد وصفت وثيقة صادرة عن المؤتمر اليهودي العالمي (عام 1981) الدولة اليهودية بأنها «دولة ذات نزعة مادية متزايدة حدث فيها قضم في المثل والقيم اليهودية الخاصة بالعدالة الاجتماعية». واشارت الوثيقة الى فشل نظام الحكم في اسرائيل والى الاحتكار الديني الذي تمارسه المؤسسة الارثوذوكسية وهو احتكار يستبعد معظم يهود العالم.

وبخصوص قضية اساسية مثل الاستيطان عبرت الوثيقة عن ان السياسة التي تنتهجها حكومة اسرائيل غير مقنعة ويصعب الدفاع عنها. وكما اسلفنا نجد كثيرا من قطاعات المجتمع الاسرائيلي ذاتها لا تؤيد الاستيطان على الرغم من صمتها، وان المواطن الاسرائيلي العادي يشعر بهذا التآكل في القيم وهذا الفشل في تعريف الاتجاه.

الة القول الصهيونية

وعبرت الازمة عن نفسها ايضا في النشاط غير المعتاد لآلة القول الصهيونية، فظهرت دعوة القيام «بالثورة الصهيونية الثانية» والى اقامة حركة جديدة تسمى حركة الصهيونيين الملتزمين (اي الصهاينة الذين يودون الهجرة فعلا).

وينادي ثالث بأن تتحول الحركة الصهيونية الى حركة اجتماعية شعبية تتجاوز الدولة الصهيونية ذاتها وتتحرك داخل القواعد الجماهيرية («هل هناك حاجة لحركة صهيونية» كيفونيم نوفمبر 1985، نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية يناير 1986)، ولكن حينما تحلل مضامين القول الصهيوني الجديد نجد انه يتضمن كل التناقضات الكامنة في القول القديم، وانها محاولات لتجديد الاسفنجة واستعادة ما فقدته من هلامية وصمت.

بل ان واحدا من اهم علماء الاجتماع في اسرائيل وفي العالم وهو شموئيل ايزنشتدات طرح صيغة لحل ازمة القول الصهيوني سببت لي كثيرا من الدهشة وعدت الى المقال والى التعريف بالمؤلف للتأكد من انه العالم المشهور وليس مجرد مأفون صهيوني. اذ ان البروفسور المذكور استخدم مصطلحات سوسيولوجية محترمة ترمي الى تطبيع ازمة الصهيونية بقوله: «ان كل مجتمع ثوري يمر بمسار من هذا النوع. فبعد مرحلة التأسيس يظهر واقع جديد فجأة فيضعف النمط الاول، ويصبح دون مفعول او قدره على جذب الجيل [الجديد]».

ثم يطرح البروفسور سؤالا لا ادري مدى جديته اذ يقول: «هل هناك مجال لهوية

اسرائيلية ـ عربية جماعية ؟» ويضيف بوقار العلماء: «ومن المحتمل ان هذه هي المرة الأولى منذ عهد الهيكل الثاني [اي منذ عام 529 ق.م حتى عام 70 ميلادي في المصطلح التاريخي الذي يسقطه الخطاب الصهيوني] يضطر المجتمع اليهودي الى مواجهة هذه المسألة».

وبعد دهشتي الاولية وصلت الى ما يشبه القناعة ان ترسانة القول الصهيوني لا تنضب ابدا، وان العقل الاسرائيلي قادر على افراز الاسطورة تلو الاسطورة بكفاءة غير عادية وقادر على ان يخر صريع هواها. ولكن حتى هذه الاسطورة الجديدة، حكاية الهوية العربية الاسرائيلية، «قديمة» (بكل دلالات الكلمة في العامية المصرية) فبوروخوف مؤسس الصهيونية ذات الديباجات الاشتراكية كان يتصور ان العرب سيتم دمجهم في الاقتصاد الاشتراكي الصهيوني المتقدم، كما فكر بن جوريون في تهويد بدو النقب لزيادة الكثافة السكانية اليهودية. ولعل البروفسور الاسرائيلي يفكر في شيء من هذا القبيل الذي يقف بين الملهاة الرخيصة والمأساة العبثية.

الوجه الكئيب:
كاهانا وجوش ايمونيم

وفي المجتمعات التي تعاني من ازمة عميقة تطرح اقوال جديدة تعطي اجابة جديدة للأسئلة وتحل مشكلة المعنى وتحاول ربط المقدمات بالنتائج. وهذا ما تفعله الصهيونية الجديدة الحقيقية صهيونية جوش ايمونيم وكاهانا. فهي تحل كل التناقضات القديمة، وتقبل منطق الاسطورة المنفصلة تماما عن الواقع،فأرض اسرائيل تمتد بوضوح تام من النيل الى الفرات ولا يمكن التفريط في شبر منها (فهذا امر الهي، بل هو عبء يحمله اليهود) ويجب طرد الغرباء منها. ويمكن سد الهوة بين الاسطورة والواقع عن طريق السلاح والعنف. ونحن نطلق على هذا القول الصهيوني الجديد «الصهيونية العضوية» (في مقابل كل الصهيونيات الاسفنجية الصامتة التي سبقتها) فهي صهيونية صفت كل الازدواجات والانشطارات على حد قول هارولدفيش اهم منظّري الحركة في كتابة الثورة الصهيونية (مطبعة سانت مارتين، نيويورك، 1978) وسدت كل الفراغات ووضعت النقط على الحروف فاتضح معنى القول وما كان كامنا ساكنا اصبح صريحا واضحا. ونسميها ايضا بالصهيونية الحلولية اذ ان الخالق يحل في المستوطن الصهيوني وتصبح ارادة الواحد من ارادة الآخر، وتصبح رغبة المستوطن ارادة إلهية، وكل ما يرتكب من افعال امور مقدسة.

ونفوذ هذه الحركة وتصاعدها لا يظهر في عدد ممثليها في الكنيست وانما في استيلائها على اهم النشاطات الصهيونية اي الاستيطان (مصدر شرعية ونفوذ المؤسسة العمالية) اذ يتم الاستيطان تحت راية القول الديني/ الاثني بعد تساقط شعارات العمل العبري والعمل اليهودي وتسوية الشخصية اليهودية، وبعد تحول المؤسسات الاستيطانية الريادية الى مؤسسات حكومية روتينية ممولة لم يعد هناك مجال للديباجات الاشتراكية او لتفسير الاستيلاء

على الارض وطرد اصحابها على انه من قبيل تخليص الذات من ادران المنفى البورجوازية، واصبح الضم هو تنفيذ للميثاق مع الرب ! وبدلا من العمل العبري الاشتراكي ظهر العمل العبري المقدس. وبدلاً من الحديث عن العودة للطبيعة والبراءة اصبح الحديث عن ارض اسرائيل لشعب اسرائيل حسب توراة اسرائيل . واختفى بوروخوف (والهمس الاشتراكي عن ابادة العرب او تذويبهم او ترحيلهم) وظهر يوشع بن نون الذي اباد الكنعانيين بأمر صريح من الرب كما ظهر كاهانا الذي حول ذلك الى قول صهيوني علني واضح وصريح.

انفراط العقد الاجتماعي الصهيوني

كل هذا ليس سوى تغطية لما يمكن تسميته بانفراط العقد الاجتماعي الصهيوني نتيجة الادراك انه لا يوجد اتفاق على المقولات الاساسية ونتيجة للاحساس ان الواقع بعيد كل البعد عن النظرية. وقد ترجم هذا التآكل نفسه الى عدم اكتراث بالمشروع الصهيوني الذي ترجم نفسه بدوره الى عدم الايمان بالقيم الصهيونية الريادية المبنية على التقشف وتأجيل الاشباع. وبدلا منها ظهرت عقلية «الرأس الصغيرة» وصاحب الرأس الصغيرة في المصطلح الاسرائيلي، هو الانسان ذو المعدة الكبيرة الذي لا يفكر الا في مصلحته ومتعته واحتياجاته الشخصية (التايمز 5 آب 1985). وينصرف تماما عن خدمة الوطن أو حتى التفكير فيه فهو يضفي معنى على حياته من خلال الاستهلاك الشره لا من خلال الانتاج أو غزو الأرض أو العمل (وقد عبّر ناحوم سولن عن نفس الفكرة بالاشارة إلى الاستهلاك الفردي المبالغ فيه، الذي أفرغ تماما خزينة الدولة). إن الروش قطان هو إنسان استهلاكي مادي علماني لا يؤجل متعة اليوم إلى الغد ويحب لنفسه ما يدخل البهجة عليها ولا يكترث بالآخر.

والروش قطان ظاهرة ليست قاصرة على الجماهير وإنما هي متغلغلة في أعضاء النخبة فقد وصلت إلى الكيبوتسات التي استخدمت بالتدريج العمالة العربية وتحولت إلى خلايا من الترف في مجتمع يخوض أزمة اقتصادية، كما أن عمانوئيل فالد أشار في تقريره إلى أن ظاهرة الرأس الصغيرة منتشرة أيضا بين الضباط (زئيف شيف «اتهامات عمانوئيل فالد» هآرتس 13 ديسمبر 1987 الملف 45، ديسمبر 1987).

ولعلّ ما حدث لصورة موشيه ديان العامة وضموره التدريجي قبل وبعد وفاته هو تعبير عن تصاعد قيمة الروش قطان. فديان هو رمز المجتمع الاسرائيلي بالدرجة الأولى رمز الروش جادول (الرأس الكبيرة) إن صح التعبير وهو رمز جيل الصابرا الذي حقق الانتصار تلو الانتصار. وقد نشرت يديعوت أحرونوت (20 مايو 1986) مقالا بعنوان «الموت الثالث لموشي ديان» لميخائيل بارزوهار تؤرخ فيه لتحول الروش جادول إلى روش قطان. «فقد مات المرة الأولى في حرب 1973 حين أصبح رمز الكارثة التي حاقت بإسرائيل ثم مات للمرة الثانية حينما مات مريضا يملؤه الاحساس بخيبة الأمل. وها هو ذا تموت ذكراه بعد موته فابنه

البكر كتب حوله أقوال سخرية وإذلال» وابنته (المقربة إليه) كتبت عنه كتابا يتضمن مقاطع تثير الألم والارباك. ثم قامت زوجته ببيع مجموعته الأثرية (التى قام بجمعها عن طريق سرقة الآثار) قامت ببيعها إلى متحف إسرائيل بمبلغ مليون دولار لتضمن مستقبلها المالى بدلاً من أن نعيد إلى الدولة والشعب الإسرائيلي ـ الأصحاب الشرعيين لهذه المجموعة الأثرية ـ قسما منها. وحتى لو تخلى ديان عن احترامه لنفسه، ألم يكن على أقربائه ومحبيه المحافظة على هذا الاحترام؟». ويمكن القول: إن هذه العقلية هى حالة لا تصيب الصهاينة وحدهم وإنما تصيب عضو أى مجتمع يفتقد الاتجاه ولا يحل مشكلة المعنى، ولتنظر من حولك.

بين النكبة والنكتة

ويعبّر إحساس الإسرائيليين بورطتهم التاريخية (نكبتهم إن شئت) عن نفسه عن طريقة النكتة. انظر مثلا إحساس الاسرائيليين المذل باعتمادهم الاقتصادي والسياسي على الولايات المتحدة الأمر الذي يفت في عضد الشرعية الصهيونية المزعومة. فعندما طرح يعقوب أريدور خطة «دولرة» الشيكل أي ربطه بالدولار (وهي خطة رفضت نظريا في حينها وإن كانت نفذت عمليا) اقترحت غيئولا كوهين، عضوة الكنيست، أن توضع صورة إبراهام لنكولن على العملة الإسرائيلية جنبا إلى جنب مع صور زعماء إسرائيل ونجمة داوود وأن يُدّرس التاريخ الأميركي للطلاب اليهود بدلا من «التاريخ اليهودي». وقد أوردت الجيروساليم بوست الحوار الخيالي التالي بين أريدور وشخص آخر:

أريدور ـ الخطوة الأولى هي أن نخفّض الميزانيّة، أما الثانية فهي تحطيم الشيكل واستخدام الدولار؟

الاخر : وما هي الخطوة الثالثة؟

أريدور : الأمر واضح للغاية، ننتقل كلنا إلى بروكلين (أحد أحياء اليهود في نيويورك).

وبعد حادثة بولارد واعتراض الولايات المتحدة على ترقية بعض الضباط الاسرائيليين المتورطين في الحادث ورضوخ إسرائيل اقترح أحد الصحافيين الاسرائيليين أن تنتقم الدولة الصهيونية بتعيين بولارد نفسه سفيرا لاسرائيل لدى الولايات المتحدة ـ أي أن تنتحر الدولة الصهيونية تماما.

ومن أكثر النكت شيوعا النكت الخاصة بأداء الاسرائيليين الاقتصادي وشراهتهم الاستهلاكية. فقد أشار الصحافي الإسرائيلي مكابي دين (في الجيروساليم بوست) إلى أن الإسرائيليين يعملون مثل شعوب أمريكا اللاتينية (أي لا يعملون) ويعيشون مثل شعوب أمريكا الشمالية (أي يتمتعون بمستوى معيشي عال) ويدفعون الضرائب مثل الايطاليين (أي يتهرّبون منها) ويقودون السيارات مثل المصريين (أي بجنون). وقال آخر: ان المجتمع

الإسرائيلي كان المفروض فيه أن يصبح نورا ساطعا للأمم ذا «فولت» عال، ولكنه أصبح مجتمع الثلاثة فية *(3 V)* الفولفو والفيديو الفيلا.

وتغلغل العمالة العربية في المجتمع الإسرائيلي وقيام العزب بالأعمال الانتاجية وتحوّل اليهود إلى وسطاء هو محط سخرية الاسرائيليين أيضا. فمثلا يقول الإسرائيليون تعليقا على العمالة العربية والقطاع الزراعي: «لماذا نطالب منظمة التحرير الفلسطينية باسترجاع الأراضي الفلسطينية. فقد استعادها الفلسطينيون بالفعل». والأرض - كما يعرف الصهاينة جيدا - لمن يزرعها. أما النكته الثانية فهي عن عجوز يهودي يتصفح ألبوم الصور مع حفيده ويشير إلى صورته في الثلاثينات حين كان يبني بيته بنفسه فيجيبه حفيده: «هل كنت عربيا في الماضي؟» إذ أن مهنة البناء لا يقوم بها سوى العرب، واستخلص الطفل نتائجه تأسيسا على تجربته لا تأسيسا على الادعاءات الصهيونية.

فنــدق صهيــون

وتنطلق النكت أيضا على يهود العالم الذين يرفضون العودة لوطنهم القومي. فيقول الإسرائيليون إن أهم دولة يهودية في العالم هي دولة نيويورك اليهودية *(the Jewish State of new york)* وفي هذا لعب على الألفاظ. فكلمة *State* الانكليزية تعني «دولة» و«ولاية» في ذات الوقت). كما يشيرون إلى يهود أميركا باعتبارهم *(Jewish Wasps)* وكلمة واسب *Wasp* والتي تعني «دبور» هي اختصار للعبارة الانكليزية *(white Anglo - Saxon Protestant)* أي «بروتستانتي أبيض من أصل انكلوساكسوني»، فكأن يهود أميركا هم أميركيون لحما ودما يتمسحون بالهوية اليهودية اسما.

ويرى بعض الإسرائيليين أن يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها «ديزني لاند» يهودية أو مدينة ملاه يهودية يقصدونها بهدف الترويح عن النفس. وقال آخر إنها بمثابة «متحف قومي يهودي» يدخلونه ويقضون فيه بضع سويعات ويخرجون مليئين بالحماس الوطني ويعودون بعدها إلى بيوتهم وأوطانهم الحقيقية. وقد استخدم أحد المثقفين اصطلاح «فندق صهيون» ليصف علاقة يهود العالم بإسرائيل فهم لا يحضرون إلى إسرائيل إلا حينما يكون الجو حسنا في الربيع والصيف، ويتركونها في الخريف والشتاء لعمال الفندق (من المستوطنين الصهاينة) ليغلقوا الأبواب والنوافذ وليقوموا بأعمال الصيانة والتحسينات إلى أن يعود السياح من أحباء فندق صهيون (وعلى كل يعود اصطلاح «صهيونية» لفعل «يصون» - حسب أحد التفسيرات. ولذا إذا قام الصهاينة بأعمال الصيانة فإن هذ أمر منطقي).

أما دفع المعونات لإسرائيل فهو قد يتم خوفا منها لا حبا فيها. ومن هنا سمى آرثر هرتزبرج يهود الولايات المتحدة بيهود النفقة أي أنهم يدفعون التبرعات للدولة الصهيونية لا حبا فيها وإنما اتقاء لشرها ولشراء سكوتها عنهم. وقد استخدم إسرائيلي آخر استعارة مغايرة

تماما حينما قال:إن يهود الخارج يغدقون الأموال على إسرائيل مثلما يغدق الرجل الأموال على عشيقته التي تعطيه بضع سويعات من السعادة الملونة، ولكنه يعود في نهاية الأمر لزوجته الاميركية ـ الحقيقية الدائمة!

والصهاينة التوطينيون الذين لا يهاجرون رغم كل حملاتهم من أجل جمع الدعم لاسرائيل هم أيضا محل السخرية. فقد عُرف الصهيوني على أنه يهودي يجمع المال من يهودي ثان لارسال يهودي ثالث إلى أرض الميعاد. ويقال إن البارون أدمون دي روتشيلد سئل عن المنصب الذي يريد أن يتبوأه في الدولة الصهيونية، فقال إنه سيختار بالتأكيد منصب سفير الدولة في باريس أو لندن!

الصهيونية الخالدة

وقد كتب صحافي إسرائيلي خبيث، مقالا فكاهيا في باب «العمود الخامس» من الجيروساليم بوست (وهي عبارة يمكن ترجمتها أيضا إلى الطابور الخامس) معلقا على الصهيونية ووضعها وما آلت إليه. وعنوان المقال هو «الصهيونية الخالدة» والمقال عبارة عن حوار بين متشائم ومتفائل ويعلن الأول عن موت الصهيونية ولكن الثاني يؤكد له خلودها ويقدم له الأدلة والبراهين. «فالهجرة الصهيونية من الولايات المتحدة لا تزال على قدم وساق» ويبين له أن «القنصلية الاسرائيلية في نيويورك أرسلت مئة نعش ـ إذ أن يهود أميركا يحبون أن يدفنوا في إسرائيل» (وهذه ليست نكتة وإنما حقيقة تشكل استمرارا للتقاليد الدينية اليهودية). المهاجرون يحضرون إذن ـ كما يقول المتفائل ـ ولكن في قسم البضائع، والتظاهرات الصهيونية لا تزال تعقد ولكن في مكاتب الجنازات، وهي تطرح الشعار التالي: «اعطوني المؤمن عليهم، الموتى، المومياءات، التي تود أن ترقد حرة» (وهذه معارضة ساخرة للشعار المكتوب على قاعدة تمثال الحرية في أميركا). «ورغبة يهود أميركا أن يدفنوا في إسرائيل تقوم دليلا على أنهم قد يعمدون بوجودهم الزمني أو الدنيوي للولايات المتحدة، ولكن حينما يختص الأمر بالابدية فإنهم يعرفون أن وطنهم الحقيقي هو إسرائيل. ومن هنا «الصهيونية الخالدة». كان بوسعهم أن يدفنوا في إحدى المناطق الكثيفة الأشجار في الولايات المتحدة، ولكنهم يفضلون الريادة في أرض الميعاد بين شعبهم في تابوت خشبي... ويا لهم من مهاجرين مخلصين.. لا تراهم قط يتألمون من مفارقة أوطانهم ولا من أنه لا يوجد «كنتاكي فرايد تشيكن» في إسرائيل، بل إنك لا تراهم على الاطلاق، حمدا للسماء كنا نظن أن الهجرة من الولايات المتحدة قد انتهت... ولكننا نعرف الآن الحقيقية.. أن الأمريكيين يموتون من أجل الحضور لإسرائيل».

كنعان أم كندا ؟

ومن أكثر النكت دلالة تلك النكتة العبثية التي أطلقها يعقوب أجون المسؤول عن احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس إسرائيل، وهي مناسبة كانت تهدف للاعلان عن إسرائيل وإذلال العرب. وها هي الانتفاضة المباركة تفشل ذلك وتحول هذه الذكرى إلى يوم حزن وحداد (تماما كما فعل عبور 1973 مع يوم كيبور أو عيد الغفران). ويقول أجون:إن المشروع الصهيوني كله يستند إلى سوء فهم وإلى خطأ إذ كان من المفروض أن يتم في كندا بدلا من فلسطين. ويرجع هذا إلى تعثّر لسان النبي موسى، إذ أنه حينما سأله الله أي بلد تريد قال : «كاكاكا ـ نانانا» بدلا من أن ينطق كلمة «كندا» مرة واحدة. فأعطاه الله «أرض كنعان» (أي فلسطين) بدلا من كندا. فهاج عليه بنو إسرائيل وماجوا وقالوا له : «كان بوسعك أن تحصل على كندا بدلا من هذا المكان البائس، الخرب، هذا الوباء الشرق أوسطي الذي يحيط به الرمال والعرب». (تايم 4 نيسان ـ أبريل ـ 1988). والنكتة هنا تعبّر عن إحساس عميق بالورطة التاريخية وبالطريق المسدود الذي يؤدي إلى العدمية الكاملة.

ونجد نفس الاحساس في هذه القصيدة القصيرة التي خطها مستوطن صهيوني على حائط دورة المياه في الجامعة العبرية.

ليذهب السفارد لى اسبانيا
والاشكناز إلى أوروبا
والعرب إلى الصحراء،
ولنعد هذه الأرض إلى الخالق ـ
فقد سبب لنا من المتاعب الكفاية
بوعده هذه الأرض لكل الناس.

والقصيدة مثل نكتة أجون تعبير فكاهي عبثي عن رفض فكرة الوعد الالهي التي يستند إليها الخطاب الصهيوني.

الخروج الأخير

ومن النكات الشهيرة التي ذاعت في إسرائيل في منتصف الستينات حينما كان عدد النازحين يفوق عدد المهاجرين نكتة عن وجود لافتة في مطار اللد كتب عليها : «على آخر المغادرين أن يطفيء النور» باعتبار أنه كان من المتوقع أن تقفر الأرض من سكانها اليهود بمرور الوقت.

وقد طرحت الانتفاضة موضوع الخروج الأخير مرة أخرى فقصيدة الشاعر حاييم حيفر بعنوان «سنرحل جميعا إلى أمريكا» تدور حول هذا الموضوع.وقد أشرت من قبل كيف أن صورة الطائرة المروحية (التي تحمل من يؤثرون السلامة) قد حلت محل قلعة ماسادا (التي تضم

من يؤثرون الانتحار) ونجد أن نفس الصورة هي الصورة الاساسية هنا.

تبدأ القصيدة بالتصويت في الكنيست على الخروج الأخير ولذا «فلنرحل إلى أمريكا الآن / فلقد لملمنا حقائبنا وأمانينا». ويتدافع الجميع دون نظام («لا تتزاحموا... لكل مكانه / عفوا لا تضغطوا هكذا»). ويتصور رئيس الوزراء عملية الخروج السريع هذه وهو يجلس في مقعده في الطائرة «ويروق له المقام/ يعلن أن لا مكان للباقين» هنا«فلسان حاله وحال وزرائه هو «نحن ومن بعدنا الطوفان». إن الصورة السائدة هنا عكس صورة البطل في ماسادا الذي يهلك مع رفاقه :

وبسرعة أخذت الطائرة... تطير

أما الدولـة

فقد هجـرت

وحيدة.. تركت... إسرائيل.

وبعد بضعة بيوت وعظية احتجاجية ركيكة (أفلا يمكننا أن نحاوِل ثانية ؟ / أم أننا لسنا مواطنين مخلصين ؟) نكتشف أن الطائرة قد طارت بالوزراء والاحلام :

فإن كنا حقاً هكـذا..

وعليه حزمت حكومتنا لأمريكا حقائب الرحيل

فإنا جميعا كذلك

في الرحيل إليها... راغبين.

بعيدا عن ماسادا المتهالكة، بعيدا عن صهيون التي اشتعلت فيها النيران، إلى الولايات المتحدة الوطن القومي الآمن وربما الحقيقي.

وقد كتب الشاعر افرايم سيدون قصيدة رفض التليفزيون الإسرائيلي إذاعتها، وهي تعد من أهم الوثائق الأدبية الإسرائيلية التي وصلتنا عن الانتفاضة وتعبّر عن استجابة الإسرائيليين لما يحدث. والقصيدة (التي نشرت في هآرتس 19 فبراير 1988) تصف بدقة موقف النعام والتضمينات الفكاهية لهذا الموقف. وتدور أحداث القصيدة في غرفة صالون يجلس فيه أربعة أشخاص، الأب والأم والطفل وبطبيعة الحال الجندي، وبالتالي فهي خلية استيطانية ـ سكانية مسلحة. وقد اندلع خارج المنزل حريق (من الجدير بالذكر أن القصيدة كتبت ونشرت قبل اندلاع حرب النيران) وبدأ الدخان يدخل البيت عبر النافذة. وعلى الرغم من اندلاع الحريق (الانتفاضة) إلا أن الأربعة يجلسون بهدوء ويشاهدون مسلسلة تليفزيونية ولا يكترثون بشيء. واختيار الشاعر للموقف النعامي يتفق مع رصدنا لاستجابة المستوطنين للانتفاضة حين اكتشفنا أن النعام هو أكثر الطيور الادراكية انتشارا.

ثم ينشد الجميع :

هنا نجلس جميعا

في بيتنا الصغير الهادىء
نجلس في ارتياح وجذل.
وهذا أفضل لنا، أفضـل حقا.
ـ الأم : وضعنا العام جيّد.
ـ الجندي : أو باختصار ايجابي.
ـ الأب : والوقت عامل لصالحنا.
ـ الطفل : إذا كان الوقت عاملا فهو بالتأكيد عربي.
(الأب يصفع الطفل ويقول : «اسكت يا وقح»).

وتعليق الطفل هو إشارة فكاهية للحقيقة المرّة وهو تغلغل العمالة العربية في الكيان الاحلالي الصهيوني. ثم تبدأ الأسرة تتحدث عن الحريق ـ أو تنكر وجوده :

ـ الأب : وإذا كانت هنا جمرة تهدد بالحريق.
ـ الأم : طفلي سينهض لاطفاء الحريق.

وتأخذ النيران في الانتشار وتتساقط بلاطات من السقف، ولكن الأب يحتفظ بهدوئه فالوضع العام ـ حسب رأيه ـ جيّد.

ـ الأب : وإذا اندلعت هنا وهناك حرائق صغيرة.
ـ الأم : سيسرع ابني لاطفائها بالمراوة.
ـ الأب : انهض يا بني اضربها قليلا.
ـ الأم : سنريها عصا النبوت.

ويخاطب الأب النار فيخبرها أنها مسكينة وأنها لن تؤثّر فيه من قريب أو بعيد وأنه سيطفئها في النهاية. وحينما تأكل النيران قدميه فالأم لا تضطرب «فالأمر ليس خطيرا، إذ لديه «قدم صناعية» فالوقت ـ كما يقول الأب ـ يعمل لصالحنا.

فيصيح الابن :

ـ الطفل : بابا، بابا، لقد حرقنا الوقت [الزمن].
ـ الأب : اسكت.
ـ الأم : إن من ينظر حولنا ويراقب يرى كم أن الأب كعادته لا ينطق إلا بالصدق.
ـ الأب والأم : لقد اثبتنا للنار بشكل واضح . . . من هو الرجل هنا، ومن هو الحاكم.
ـ الطفل : ولكن بابا. . .. البيت. . . (المستوطن الصهيوني).
ـ الأب : اترك الأوهام ولا تشغلنا بالحقائق. .
(لازمة) لا شيء مستعجل، لا شيء مستعجل، فلا تنهضوا ولا تسرعوا.
ـ الجندي : ولأنك كبير ومسؤول ومجرّب.
ـ الطفل والجندي : شعاري : اجلس بصمت ولا تتعب.

ـ الرجال : لا تتحرك، لا تتزحزح، ولا تفقد أعصابك.
ـ الجميع : فهكذا نحارب النار..

وهكذا يحارب المستوطنون الانتفاضة بالصيغة النعامية المريحة.

وهذه القصيدة الفكاهية مثل النكت تخبيء رؤية متشائمة بخصوص مستقبل المستوطن الصهيوني الذي يستقر في المكان (أرض بلا شعب) وينكر الزمان ـ فتحرقه الحقيقة وهو جالس يراقب مسلسلة تليفزيونة في هدوء وسكينة!

هوليخ باطل

ورنة الحزن الكامنة في النكت والقصائد الفكاهية تصبح واضحة في الأغاني الإسرائيلية فهي مليئة بالعدمية وبالحديث عن الدمار والفقدان والضياع والعزلة. ففي أعقاب انتصار عام 1967 لاحظ افنيري أن من أكثر الأغاني شيوعا أغنية تقول ويفرح شديد، «العالم كله ضدنا». والفرح هنا تعبير عن إحساس المستوطن الصهيوني بمفارقة موقفه، فهو بعد انتصاره (الذي يعبّر عن «اختياره») يجد نفسه معزولا عن العالم، فالأغنية تشبه تلك العبارة :«الحمد لله فأنا مكروه تماما من كل الناس!».

وقد ازداد الاحساس بالضياع بعد عام 1973، ولنأخذ على سبيل المثال أرييل زلبر، المغني الذي انضم إلى يهودا ادر وشالوم هانوخ وكونوا جماعة غناء روك تسمّى تموز. والصورة العامة التي تشيعها هذه الجماعة هي صورة الشاب الشريد. وزلبر نفسه فقد ساقه وهو يلعب بقنبلة يدوية حين كان صبيا. وأهم أغانيه «هوليخ باطل» (حرفيا : سار أو راح باطلا أو أصبح غير مجد أي بالعامية المصرية «ما فيش فايدة») وتتحدث الأغنية عن متشرد يبحث عن المخدرات والجنس وقطع غيار السيارات المسروقة. كما تتحدث الأغاني عن أبطال العهد القديم وأنبيائه بطريقة تنم عن الاستخفاف الشديد، وهؤلاء الابطال والانبياء هم الرموز القومية اليهودية الصهيونية الأساسية. ففي أغنية داني ساندرسون يتحدث عن داود يهزم طالوت «وتخرج أسفار موسى الخمسة لتشجع.. إن كنت تريد أن تصبح ملكا علينا، في سن السادسة فلتصنع لنا حلبة صراع». وتسخر أغنية زلبر الأخرى من شمشون وتشير إليه باعتباره «عاملا في عربة قمامة». ومعظم المغنين من نتاج الكيبوتس وقد ظهروا بعد عام 1972 مع ادراك الصهاينة لبداية أزمتهم وتم توزيع أعداد كبيرة من الاسطوانات تصل إلى 100 ألف نسخة، وهذا عدد هائل في بلد يقل عدد سكانه عن 4 مليون، (زئيف شافتس : **أبطال وقوادون، عمال وقديسون : داخل إسرائيل الجديدة** ص 175 ـ 178).

ومن أشهر الأغاني الآن في إسرائيل أغنية مائير باناي وهي أغنية جميلة حزينة تعبّر بشكل دقيق عن تساقط الشرعية الصهيونية وإحساس المستوطنين بذلك :

كلهم ذاهبون إلى مكان ما،

يرنون للمستقبل العذب،
أما أنا، فاستيقظ في الصباح
واركب الحافلة رقم 5 المتجهة للشاطىء»،
الحافلة مليئة بالدخان،
وعجوزتان،
والكمساري.

وهناك كتابة على حائط اسمنتي:
ماذا حدث للدولة؟
انظر إلى الدولة وانظر إلى الاسمنت!
تغنّي الطيور «صباح الخير»
لعلّه يمكنني أن أطير معها بعيدا، بعيدا، ولا أسقط.

إن فراغ الحافلة رمز جيد لأزمة المستوطن الصهيوني السكانية، فليس فيها سوى عجوز (لعلها رمز «للشعب اليهودي» المسن). ويتساءل المغني عما حدث للدولة المكتوب اسمها على الاسمنت، وهو رمز للجمود والموت. في مقابل كل هذا هناك غناء الطيور التي تبشّر ببداية جديدة، خارج الحافلة الفارغة والاسمنت الصلب. ويود المغني أن يطير بعيدا، أن ينزح عن كل هذا، ولكن الأغنية مع هذا تعبّر عن عدم اليقين من امكانية الفرار - فالسقوط احتمال وارد! أي أنه لا يمكن التقدم للامام ولا التراجع للخلف!

التبسيونوت والهجص

ثمّة احساس إذن بفشل المشروع الصهيوني وخيبة أمل فيه واحباط نتيجة لهذا، وهي أحاسيس عبرت عن نفسها في مجموعة من النكت الساخرة، والأغاني الحزينة والتي تحاول كلها الافصاح عن وضع تاريخي مركب للغاية لا مخرج منه. فالصهيوني غير قادر على الخروج من وضعه وأثبتت الأيام أنه غير قادر على الحاق الهزيمة بالعرب.

وإذا كان الوضع كذلك فلا غرو أن كلمة «صهيونية» ذاتها والتي تشير إلى مجموعة الأفكار التي تهدي المستوطنين في ممارساتهم وأفعالهم التي وضعتهم في هذه الورطة التاريخية، لا غروّ أن الكلمة فقدت كثيرا من جلالها ورومانسيتها، بل ودلالتها. فقد أصبحت دالا دون مدلول، كلمة فارغة من المعنى. وهذا ما يشير له كاتب مقال «الصهيونية الخالدة» إذ يوضح المتشائم أن كلمتي «صهيونية» *Zionism* و «زومبي» *Zombie* (وهو الميت الذي أعيدت له الحياة بعد أن دخلت جسده قوة خارقة، ولذا يمكنه الحركة ولكنه لم يستعد لا القدرة على الكلام ولا حرية الارادة)، يوضح أن الكلمتين تردان في نفس الصفحة من المعجم الانكليزي مما يدل - حسب تصوره - على ترابطهما، وأن الصهيونية إن هي إلا زومبي - أي

جسد متحرّك لا حياة فيه ولا معنى له. والمتشائم لم يجانب الحقيقة كثيرا فكلمة «صهيونية» (تسيونوت بالعبرية) أصبحت تعني «كلام مدع أحمق» (الجيروساليم بوست 26 نيسان ـ أبريل 1985) وتحمل أيضا معنى «التباهي بالوطنية بشكل علني ومبالغ فيه»، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسة (الايكونومست 21 تموز ـ يوليو 1984 وكتاب برنارد أفيشاي مأساة الصهيونية، ص 26). ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالي أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر : صهاينة الخارج الذين يحضرون إلى فندق صهيون ويحبون أن يسمعوا الخطب التي لا علاقة لها بالواقع ولذا فهي ساذجة، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهي العلني بالوطنية. وتشير في ذات الوقت إلى المستوطن الصهيوني الذي عرف أن الخطب التي عليه أن يعطيها إن هي إلا خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معنى لها، ولكن عليه أن يعطيها حتى يجزل له الضيوف العطاء. والمقصود الآن بعبارة مثل «اعطه صهيونية» هو «فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معنى» أو حياة (زومبي)، أو كما نقول بالعامية المصرية : «هجّص» فالمسألة «هجص في هجص» ويمكن أن تضيف لزيادة الدلالة «والارزاق على الله». أو فلنُعلِين العبارة ونقول : «والأرزاق على الولايات المتحدة ويهود الدياسبورا».

ومن الشعارات الصهيونية الأخرى التي تغيّر مجالها الدلالي بفعل تحرّك الفلسطينيين هي شعار «أرض بلا شعب». وقد طرح هذا الشعار في أوروبا في القرن التاسع عشر من قبل الاستعماريين الانجليز كإطار للتخلص من اليهود ولتحويل فلسطين إلى مستعمرة غربية. وقد تبنته بعد ذلك القيادات الصهيونية. والشعار يجسّد النموذج الادراكي السائد في الغرب والذي يضفي على الغرب مركزية في الكون بحيث يختفي كل ما لا يتفق مع مصالحه ورؤيته. والفلسطينيون العرب، بوجودهم في الأرض المقدسة، كانوا يتحدون هذه الرؤية الادراكية، ولذا كان يحسن بهم الاختفاء، وهكذا أصبحت فلسطين «أرض بلا شعب»، مجرّد مكان دون تاريخ، موضوع دون ذات.

وصدر وعد بالفور عن هذه المقولة، وبدأ الاستيطان الصهيوني انطلاقا منها، ومن تصادف وجوده في فلسطين فقد تقرر مصيره مسبقا. وقد تأسست الدولة الصهيونية وحاولت استيعاب الأقلية العربية في اطار الدولة كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة، عمالة رخيصة ليس لها هوية مستقلة، وكاد الشعار يتحول إلى حقيقة من خلال العنف دال له مدلول، أو هكذا كانوا يظنون.

فالعرب ـ كما أسلفنا ـ ازدادت هويتهم بروزا واتحد عرب 1948 مع عرب 1967 وكونوا كتلة بشرية تجعل من الصعب تصديق حكاية «أرض بلا شعب». ثم جاءت الانتفاضة، حين قام الشعب الذي قيل إنه غير موجود بالتقاط الأرض ذاتها على هيئة حجر وألقاها في وجه من ينكر وجوده واتحدت الذات الفلسطينية بالموضوع الفلسطيني وتم استنطاق الحجر واستصراخه، وهكذا أصبح الشعار أرض بلا شعب أكذوبة كاملة دال ودون مدلول، حينما يشير إلى العرب.

وفي ذات الوقت ازداد انكماش اليهود واتضح احجامهم عن الاستيطان وتحولت المستوطنات إلى بيوت أشباح، . مما حدا بأحد الصهاينة أن يقول متهكما : إنها حقا «أرض بلا شعب». وهكذا تحول المجال الدلالي للشعار تحولا كاملا وأصبح دالا له مدلول بالاشارة لليهود ودالا بلا مدلول بالاشارة للعرب، وقد ترجم هذا التحول نفسه إلى مفارقة لفظية مفعمة بالسخرية، ومثال درامي على الطريقة التي تتحول بها دلالات الألفاظ والعبارات من خلال الفعل الانساني.

الفصل الحادي عشر

بواكير الحصاد
بعض النتائج الأولية للإنتفاضة

لعله قد يكون من السابق لأوانه الحديث عن نتائج وثمرات عملية تاريخية لا تزال جارية أو لا تفصلنا عنها فسحة زمنية كافية. ولكن يمكننا أن نضع أيدينا على بعض الثوابت ــ أي النتائج التي لا يمكن لأي تطورات لاحقة أن تغيرها، أو إن عدلت منها فهي لن تعدلها بشكل جوهري. وأذكر أنني كتبت مقالا في الأهرام أثناء حرب أكتوبر تناولت فيه ما تصورته آنذاك أهم النتائج الثابتة لواقعة العبور أي اهتزاز نظرية الأمن الاسرائيلية التي انطلقت من مفهوم مكاني جغرافي لا تاريخي (الحدود الطبيعية الآمنة)، وأسقطت البعد الزماني والتاريخي. وكتبت أن العبور العربي يوم 6 أكتوبر 1973 ــ بغض النظر عما قد يحدث بعد ذلك ــ قد استعاد مرة أخرى الزمان العربي وزلزل نظرية الأمن الاسرائيلية (ومن هنا كان عنوان المقال «لا نهاية للتاريخ»).

فلنحاول إذن رصد النتائج المماثلة بالنسبة للانتفاضة. والتي وردت متناثرة في طي الدراسة. يمكن رؤية النتائج على ثلاث مستويات : المستوى العربي والمستوى الدولي والمستوى الصهيوني. وغني عن القول ان نفس النتيجة قد يكون لها فعالية على أكثر من مستوى بأشكال مختلفة أو بنفس الشكل، ومن هنا تكرار بعض النتائج.

المستوى العربي: الفلسطينيون

1 ـ "جسدت الانتفاضة شعار (الوحدة على أرض المعركة) فانجزت الوحدة الوطنية حول هدف انهاء الاحتلال، والتأم شمل جميع الفصائل والقوى على أن المرحلة (مرحلة تحرر وطني) بأوضح خصائصها، واستقطبت كل من له مصلحة حقيقية في تحرير الوطن، وذلك بعد أن كانت الصورة من قبل قائمة إلى حد ينذر بأفدح العواقب.

2 ـ" تحققت وحدة الشعب في المحتل من الوطن عام 1948 والمحتل منه عام 1967، وأخذت تتحقق وحدة الكفاح المسلح بينهما، فالحجارة والزجاجات الحارقة والتظاهرات والاضرابات والاعتصامات لم تعد وقفا على الارض المحتلة عام 1967، والشعارات التي ترفع في القدس وغزة ونابلس والخليل، غدت ترفع في المثلث والنقب والجليل، بل وتعدتها إلى الجولان.

3 ـ" تجاوزت «الانتفاضة» مرحلة «الثورة من الخارج للداخل»، وبدأت مرحلة «الثورة من الداخل في الداخل» بمعنى أنها حلت مشكلة «قاعدة الانطلاق». [ولكنه «داخل» كما بينا على علاقة وثيقة بالخارج الذي يضمن له البقاء والاستمرار من خلال أشكال الدعم المختلفة (المال والعتاد والرجال) ويحاول ترجمة انتفاضة الداخل إلى انتصارات سياسية].

4 ـ"وانتزعت الثورة عامل الخوف من نفوس المواطنين وأعلت من روحهم المعنوية وارتفعت بوتائر العطاء على كل مستوى وفي كل ميدان تحت شعارات الاستشهاد وفداء فلسطين بالروح والدم، وبالمقابل ـ وهو الأهم ـ إنها أسكنت عقدة الخوف والرعب في نفوس الصهاينة، حتى أصبح منظرا مألوفا أن تجد الفتيان والنساء يركضون صوب مجندي العدو ويصلونهم بالحجارة، بينما يولي أولئك الادبار جزعا، وهم يعتمرون الخوذ ويحملون التروس الواقية وفي أيديهم الرشاشات والهراوات والقنابل، لقد بدا واضحا عقم ما سمي بـ«القبضة الحديدية» كأسلوب لاجهاض الانتفاضة، ففي حرب كهذه، الصراع فيها صراع إرادات، يظل مخزون الارادة أمضى من مخزن العتاد" (عبد العزيز السيد، «الأبعاد السياسية الحاضرة والمستقبلية للانتفاضة» القبس 30 مارس 1988).

5 ـ قضت الانتفاضة على البقية الباقية من أي اعجاب بالنموذج الإسرائيلي باعتباره نموذجا علميا كفئا، منظما وديمقراطيا. فالانتفاضة أثبتت عدم كفاءة التجمع الصهيوني وضعفه وعجزه، مما اضطره للكشف عن وجهه القبيح الذي كان يغطيه التسامح إزاء العرب المستأنسين.

6 ـ اكتشف الفلسطينيون مقدرتهم على الابداع خارج الاطر الغربية في التفكير والادراك والابداع، وقد أيقنوا أن مثل هذا الابداع المحلي قادر على تدويخ العدو والحاق الهزيمة به رغم تفوقه العسكري الواضح.

7 ـ ظهور يقين فلسطيني هادىء بأن العودة ليست حلما ثوريا بعيد المنال، وإنما هو

حلم يمكن وضعه موضع التنفيذ. وستنشأ الأجيال الجديدة تؤمن بهذا الحلم الواقعي، ولذا ستكون رؤيتها مختلفة عن رؤية الأجيال السابقة فهم قد ذاقوا طعم النصر على إسرائيل بينما ذاق آباؤهم طعم الاقتلاع والقمع والهزيمة على يديها.

المستوى العربي: العالم العربي

1 ــ أخمدت الانتفاضة الأصوات الانهزامية الواقعية التي كانت ترى أن التحرر قد يكون حلما جميلا ولكنه يقع داخل نطاق الاوهام وحسب، وبالتالي لا مجال سوى الرضوخ للآخر والتفاوض وانتظار الضغوط الدولية ومحاولة اقناع الولايات المتحدة التي تمسك بكل أوراق اللعبة (أو 99٪ منها على الأقل) وتملك ناصية الحل! طرحت الانتفاضة بدلا من ذلك بديل الكرامة وهو امكانية أن يجاهد العرب دون انتظار لانتخابات الكونجرس الأمريكي أو الكنيست الإسرائيلي أو استيقاظ الرأي العام العالمي. وهي لم تطرحه قولا وإنما فعلا مكتوبا بالدماء، الأمر الذي بعث الأمل في النفوس. ويمكننا الحديث عن عودة الحلم العربي وعودة الايمان بالارادة العربية والثقة بالنفس وهي كلها خطوات لازمة للنهوض والحركة.

2 ــ انكشف أمام العرب كثير من الأساطير الصهيونية التي كانت تخيفهم مثل «ماسادا» و«المخطط الصهيوني الرهيب» و«الجيش الذي لا يقهر» و«واحة الديموقراطية» مما يعني اختفاء الاعجاب بالنموذج الاسرائيلي.

3 ــ اكتشاف أن العنصر الفلسطيني عنصر فاعل لا يمكن الهيمنة عليه أو التحكم في مستقبله ومصيره من خلال الترتيبات التي قد تتخذها بعض الحكومات العربية الصديقة مع صديقاتها من حكومات الغرب!

4 ــ أثبت نموذج التكامل غير العضوي أنه من الممكن اشتراك عناصر غير متجانسة في الفعل الثوري، وأنه لا ضرورة لتحقيق الوحدة الكاملة وإنما يمكن الاكتفاء بالحد الادنى من الوحدة والاتفاق.

5 ــ أبرزت الانتفاضة امكانية استخدام العنصر الديني دون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى الاصطدام بين أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقلية الدينية أو بين دعاة القومية العلمانية ودعاة الدين، إذ تم تجنيد الجميع في الهجوم على العدوّ.

6 ــ أبرزت الانتفاضة امكانية استخدام التراث والعناصر المحلية وتوظيفها بشكل حديث وبذلك تكون قد ترجمت الانتفاضة فكرة الخصوصية ــ التي طالما نادى بها بعض المفكرين ــ إلى مشروع ثوري له انجازات ضخمة لم تتمكن الأمة من تحقيقها من خلال المشروعات ذات الطابع الغربي العام، مما يعني أنّ الخصوصية ليست أنتيكة وإنما نموذج معرفي يمكن استخدامه لحث الجماهير على النهوض، وهي يمكنها أن تستجيب بسرعة له لأنه مألوف لديها ويمكنها الإبداع من خلاله. أما النماذج العامة (الغربية) فمن الواضح أنها تستبعد الجماهير ولا تبقي إلا من لهم خلفية غربية أساسا.

المستوى الدولي

1 ــ سقط القناع الديموقراطي عن إسرائيل وبالتالي ظهرت حقيقتها أمام العالم باعتبارها دولة عنصرية استيطانية من نمط جنوب إفريقيا.

2 ــ نقشت الانتفاضة الشعب الفلسطيني على وعي العالم كشعب أعزل قادر على الدفاع عن حقوقه وأن الفلسطينيين ليسوا كيا مهملا ولا مجموعة من الارهابيين وإنما شعب يودّ الحرية.

3 ــ لكل هذا يمكن القول: إن الانتفاضة غيّرت جزءا من صورة العالم الادراكية لإسرائيل إذ تحولت من داود إلى جوليات الذي يوسع داود ضربا. وقد زعزعت كثيرا من الشرعية التي كانت تتمتع بها إسرائيل في المجتمع الدولي.

4 ــ أما بالنسبة للولايات المتحدة فمما لا شك فيه أن أحداث الانتفاضة قد هزت من دور إسرائيل كوسيط. فهي كانت تطرح دائما نفسها باعتبارها حاملة الطائرات زهيدة التكاليف. ولكن الانتفاضة بينت أنها مكلفة من الناحية الاعلامية والاقتصادية والسياسية وأنها قد يمكنها أن تقوم بعمليات اجهاضية سريعة (دور الفتوة) وأن تضرب في العمق العربي ولكنها غير قادرة على الاحتفاظ بالأمن والسلام الأمريكي (دور الشرطي) والدفاع عن الداخل الاسرائيلي، وبالتالي ففائدتها محدودة وتكلفتها باهظة..

المستوى الصهيوني

بالنسبة للصهاينة فيمكننا أن نبدأ بصهاينة الخارج ويمكن القول: ان الانتفاضة قد رجحت الكفة لصالحهم في محاولتهم القديمة للتملص من الهيمنة الصهيونية إذ لم يعد يمكن لاسرائيل أن تتحدث عن ضمان أمنهم وهي موحولة في الدفاع عن نفسها، كما أن تدهور صورتها الاعلامية قد ألحق بهم الضرر وأصبح من صالحهم الاحتفاظ بمسافة بينهم وبينها. بل انهم أصبحوا من القوة بحيث أمكنهم أن يقترحوا على إسرائيل الطريقة التي ينبغي أن تتعامل بها مع الأرض المحتلة.

أما بالنسبة للصهاينة المستوطنين فإن عمق أثر الانتفاضة على التجمع الصهيوني قد يفوق أي توقعات. فالجيوب الاستيطانية جيوب عضوية تتسم بالتماسك الشديد والتمركز حول الاسطورة والتخندق داخلها، ومن هنا صلابتها وهشاشاتها في ذات الوقت، ومن هنا استجابتها المتطرفة المتشددة حتى لحظات قبل السقوط. ومن المعروف أن هتلر كان متماسكا حتى آخر لحظة في خندق تحت الأرض والدبابات الروسية على بعد بضعة كيلومترات، وأنه كان يجند الصبية للاستمرار في الحرب ويقلدهم النياشين؛ ثم انهار كل شيء! وهذا عنصر لا بدّ من أخذه في الإعتبار حينما نرصد أثر الانتفاضة على الاسرائيليين.

1 ـ كما بينا ستعمّق الانتفاضة كل جوانب أزمة التجمع الصهيوني سواء المجال الاقتصادي أو السياسي. وتعميق الأزمة الاقتصادية والسياسية يترجم إلى مزيد من الاعتماد على الولايات المتحدة وتآكل السيادة الاقتصادية والسياسية.

2 ـ سيزيد التفسخ في المجتمع الصهيوني وتزايد مظاهر العنف فيه وكل مظاهر الشذوذ الأخرى.

3 ـ تعميق أزمة التجمع السكانية بزيادة النزوح وتساقط المهاجرين السوفييت وتزايد العزوف عن الانجاب بسبب الاحساس بعدم الأمن. وسيؤدي هذا إلى سقوط الوهم بأنه يمكن السيطرة على الأرض الفلسطينية وتحييد أهلها داخل أشكال الحكم الذاتي وروابط القرى والمشاريع الأخرى.

4 ـ زيادة تخثر المادة القتالية الاسرائيلية وهبوط مقدرات الجيش الاسرائيلي العسكرية.

5 ـ الخلخلة النهائية لنظرية الأمن الإسرائيلية وفكرة الحزام الأمني والتعريف الجغرافي للأمن الذي يتجاهل التاريخ وإرادة الشعوب المحكومة.

6 ـ انتهاء حلم إسرائيل الكبرى تماما إذ أثبتت الانتفاضة أن السيطرة على الضفة والقطاع أمر مستحيل. فكيف يتأتى الحلم بأرض ممتدة من النيل إلى الفرات؟

7 ـ انقسام المجتمع الاسرائيلي تجاه الاستيطان وجدواه وسقوط الاجماع القومي بخصوصه.

8 ـ سقوط مجموعة من أساطير الشرعية ورؤية الذات بلا عودة. فلم يعد العقل الإسرائيلي يتحدث عن «ماسادا»، بل أصبح يتحدث عن الطائرة المروحية، ولم يعد يتحدث عن ملايين المهاجرين الذين سيحلون محل ملايين العرب. بل أصبح يتحدث عن سحب المستوطنين من الضفة ونقلهم إلى الجليل، ولم يعد الحديث عن تحويل المستنقعات إلى أراض خضراء وإنما كيف يمكن الحصول على عمالة أجنبية رخيصة لتحل محل العمالة العربية، ولم يعد الحديث عن صهيون منارة القيم الاخلاقية وإنما عن كيف نحارب العنف والجريمة، ولم يعد الحديث عن واحة الديموقراطية وإنما كيف يمكننا ضرب الفلسطينيين بعيدا عن الاعلام وهكذا. والانسان إذا جرّد من أساطيره ومن نموذجه الادراكي أصبح هشيما تذروه الرياح.

ولكن كل العمليات والنتائج السابقة هي مجرد إطار لانجاز الانتفاضة الأكبر.

شرعية الوجـود

لو قارنا تآكل معنى كلمة «صهيونية» وانفصالها كدالّ عن أي مدلول وتحوّل الحقل الدلالي لشعار «أرض بلا شعب» بما حدث بكلمات كانت قولا وأصبحت فعلا، وبعبارة مثل «ثورة حتى النصر» كانت صيغة لفظية جاهزة تقال لملء الفراغات أو لاختتام الحفلات الحماسية، وأصبحت شعارا يحرّك الألوف، وتحددت دلالاتها وتعمّقت معانيها من خلال

الانتفاضة، نقول لو قارنا هاتين العمليتين اللغويتين اللتين هما في جوهرهما عملية تاريخية انسانية واحدة لاكتشفنا مدى تآكل الشرعية الصهيونية وتزايد الشرعية العربية مما أدى إلى طرح شرعية الوجود مرة أخرى. فانفراط العقد الاجتماعي الصهيوني وتصاعد نشاط آلة القول الصهيونية وظهور الصهيونية العضوية أو الحلولية هو في واقع الأمر سقوط لقناع كثيف هش،فما يسمى بالشرعية الصهيونية والمشروع الصهيوني لتقويم الانسان اليهودي هو في واقع الأمر محاولة لاخفاء أزمة الشرعية الاعمق وهو أن «إسرائيل» إنما هي «فلسطين» وان «العمل العبري» هو في واقع الأمر «الاحلال العبري» وان السيطرة على الانتاج تعني «طرد العرب منه» وان استعادة السيادة السياسية يعني سلب العرب إياها تماما. كما أن «اعلان استقلال إسرائيل» هو محاولة «إعلان اختفاء فلسطين»، وأن الشعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» هو في واقع الأمر «أرض يُطرد شعبها منها ليحل محله شعب آخر» وهذا ما سميناه بالعربي الغائب أو العربي المغيب، وكان لا بدّ أن تطلق السحابة الكثيفة من الاقوال عن «الشرعية الصهيونية» وعن النجاح والفشل في إطار هذه الشرعية حتى لا يواجه المستوطنون مشكلة الشرعية الأعمق (وهذه استراتيجية انسانية عامة - أن يخلق الانسان نوعا من المشاكل يمكن حلها أو قابلة للحل حتى يخبىء المشاكل التي لا حل لها)، وهذه المشكلة بالنسبة للمستوطنين الصهاينة هي أن العربي الغائب ليس غائبا وان حقوقهم المقدسة المجردة مهما حققوا من نجاحات،كثيرا ما تنبهت بجوار الحقوق العربية المباشرة، وخاصة إذا كان الاسرائيلي يعيش في منزل عربي يقرع صاحبه الأبواب.

وحيث أن المؤسسة العسكرية نجحت طيلة هذه الأعوام في قمع العرب فإن عملية التغييب استمرت. وكانت تصدر التصريحات المختلفة عن عدم وجود ما يسمى بالفلسطينيين أو ان الفلسطينيين لهم دولة بالفعل وهي شرق الأردن ومن المفارقات أنه مع نجاح عملية التغييب كان بوسع العدو إظهار شيء من الاعتدال نحو العرب. فالاعتدال الصهيوني ليس تعبيرا عن التسامح أو حب الآخر وإنما هو تعبير عن الاطمئنان الصهيوني بخصوص غيابه أو على الأقل تطبيعه، فهو اعتدال يتم داخل اطار الشرعية الصهيونية التي يقبل بها العربي المغيب ويخضع لها فيكافىء على ذلك مكافأة تتناسب طرديا مع مقدار غيبوبته وتقبله. ولكن إذا ظهر العربي الغائب وأكد نفسه وطرح مشكلة الشرعية الحقيقية والأعمق، أي قضية الوجود الصهيوني ذاته، فإن الاعتدال الصهيوني المزعوم يختفي ويظهر بدلا من ذلك سياسة القبضة الحديدية، وهذا ما حدث مع الانتفاضة إذ أن العربي الغائب ظهر وفي يده حجر يلقي به على الصهيوني وعلى أوهامه فيشج به رأسه ويزلزل الاسطورة. فيتنبه الأخير إلى أن فلسطين أرض لها شعب.

وقد قال نسيم زفيلي رئيس قسم الاستيطان بالوكالة اليهودية: ان هناك حالة فزع وهلع بين المستوطنين (وهذه هي الحالة التي تنتاب الانسان حينما يفقد الوهم فيصبح عاريا أمام الحقيقة) وقد رفض يسرائيل هاريل، رئيس تحرير جريدة نيكودا التي يصدرها المستوطنون هذا الوصف، واعطى تحليلا أعمق وأشمل إذ قال:إن اليقين القديم [أي الاسطورة] الذي شد من أزر جوش ايمونيم قد اهتز لاول مرة. فهناك قلق بخصوص الاحتمالات السياسية وهو قلق لا ينصرف إلى المستوطنات ذاتها وحسب وإنما ينصرف إلى [ما هو أعمق] : إلى ارادة الأمة وإلى جذورها وإلى طبيعة رؤاها. ثم أضاف:«لقد دخلنا مرحلة جديدة من النضال من أجل ايرتس يسرائيل (أي عادت مشكلة الشرعية الأساسية ولم تعد القضية مشكلة الشرعية الصهيونية)، فالعرب لا يريدون الضفة الغربية وحسب بل عكا ويافا أيضا.. والحكومة تعطي العرب إشارات إلى أن مكاننا هنا في الضفة الغربية مؤقت». فكأن الانتفاضة قد همّشت ثم غيبت المستوطنين وطرحت قضية الوجود الصهيوني. وقد عبّر الفيلسوف الاسرائيلي ديفيد هارتمان عن هذه القضية إذ قال إن ثورة الحجارة تقول للصهاينة «نحن لا نخاف منكم» وهي طريقة أخرى للقول:أنتم لستم هنا (نيويورك تايمز 31 ديسمبر 1987).

إن لسان حال المستوطنين الآن يقول «متى سينتهي كل هذا ؟ الا نهاية له ؟ لعل هذا ليس الحاضر وحسب، وإنما هو الماضي والمستقبل ؟ لعلها ليست مجرد أزمة في طريقها إلى الحل وإنما هي أسلوب حياة ثابت. لعل الفلسطينيين والاسرائيليين - بعد كل ما حدث - لم يصلوا بعد إلى المرحلة التي يقبل كل واحد منهم شرعية الآخر القومية، ولعلهم لن يصلوا قط لمثل هذا التفاهم. والمشاهد الخارجي الذي ينظر إلى الفلسطينيين والاسرائيليين ويراهم ينكر الواحد منهم على الآخر شرعيته القومية، مثل هذا المشاهد قد يظن أنه موقف مأساوي. ولكن المأساة ليست كارثة وإنما ضرورة حتمية لأن تبني البديل — أي الاعتراف المتبادل — يعني بالنسبة للجانبين التخلي عن مطالب تاريخية وأخلاقية مطلقة، عزيزة على قلوبهم.. وفي الوقت الحاضر يفضل كثير من الاسرائيليين والفلسطينيين وضوح الموقف الناجم عن الوقوف وراء المتاريس، فعلا وقولا، على الابهام الناجم عن الجلوس على مائدة المفاوضات"(النيويورك تايمز 31 ديسمبر 1988).

لم تعد القضية إذن قضية «هوية يهودية» أو «تقويم الشخصية اليهودية» أو «صورة جيش الدفاع» أو «عدد المستوطنين» أو «الحدود»، وهي كلها تفترض «الوجود الصهيوني» وتنطلق منه، وإنما أصبحت القضية هي قضية الوجود ذاته في مقابل الغياب. من هو الغائب، أو من هو القابل للتغييب، العربي أم الصهيوني ؟ إن المعادلة الصهيونية الأولى : أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض، تفترض هذا الاستقطاب والتبلور، وتخبيء وحشية الصراع وضراوته وراء هندسة الألفاظ والعبارات وتماسك الصيغ المنسقة المنمقة. ولكن المعنى لم يغب على أحد :

كي يوجد الصهيوني لا بدّ أن يغيب العربي، فإن عاد مرة أخرى للظهور، فإن ظهوره غياب للصهيوني.

وقد عبّر شلومو أفنيري عن هذه الفكرة البسيطة بشكل نثري مباشر فوصف الانتفاضة بأنها في الواقع «حرب ضد الوجود الاسرائيلي برمته».. وأكد أن هناك الكثيرين من العرب الذين لا يزالون يؤمنون، بعد أربعين عاما وخمسة حروب، بأنه يمكن ازالة إسرائيل من الوجود (التايمز البريطانية نقلا عن الشرق الأوسط 17 مارس 1988). ويبدو أن هنري كيسنجر يرى نفس الرأي فقد حذر إسرائيل من التراجع، إذ أن التراجع تحت هذه الظروف يعني تهديد الوجود ذاته.

ويوافق اوري أفنيري على هذا الطرح للقضية وإن كان قد عبّر عنه بشكل مغاير تماما ينم عن الذكاء (دون أن يستخدم مصطلح الشرعية) ففي مقال له بعنوان: «الحرب السابعة: ليست اضطرابات وليست مظاهرات، وليست مخالفات» (هاعولام هزة 13 يناير 1988) حذّر من الادعاء بأن ما يحدث هو مجرد «اضطرابات» أو «مخالفات» أو أن الثوار مجرّد «محرضين» أو «جمهور محرض غاضب»، فمثل هذه الأقوال «تخفي الصورة الحقيقية». فالأقوال السابقة ـ والحديث حديثنا ـ تفترض أن الانتفاضة تدور داخل اطار الدولة الصهيونية، أما ما يحدث فقد تجاوز هذا النطاق منذ أمد بعيد: إنها ـ على حد قول أفنيري ـ «حرب بكل معنى الكلمة، إنها مثل حرب فيتنام، ومثل حرب الجزائر». «فالعدو هو الشعب الفلسطيني، إذ يقف وراء هؤلاء الأولاد [الصغار] الجمهور الفلسطيني في المناطق المحتلة، ويقف وراء هذا الجمهور كل سائر أبناء الشعب الفلسطيني» ـ ولذا فهو يسمي الانتفاضة ـ عن حق، بالحرب السابعة.

ولكن ـ وهذا هو مربط الفرس ـ يرى أفنيري أن الحروب من الثانية إلى السادسة (56 ثم 67 ثم حرب الاستنزاف ثم حرب لبنان) هي حروب خاضتها الجيوش العربية نتيجة للصراع العربي-الإسرائيلي على مستواه العام لا على مستواه الفلسطيني المباشر. أما الحرب الأولى والتي تدعى حرب الاستقلال (أي حرب الاستيلاء على فلسطين في مصطلحنا) فقد كانت الحرب الوحيدة التي تمت على هذا المستوى المباشر. وسواء أخذنا برؤيته أم لا للحروب العربية ـ الإسرائيلية، فإن النتيجة التي يخلص لها غاية في الأهمية إذ يقول: «إن الحرب السابعة هي نتيجة لحالة من المواجهة المباشرة» بين المستوطنين والفلسطينيين، «وكأننا في حلقة مفرغة، عدنا من خلالها إلى بداية حرب الاستقلال» استقلال اسرائيل وتغييب فلسطين ـ أي أن ما يوضع موضع التساؤل الآن هو شرعية الوجود، لا مدى النجاح أو الفشل الصهيوني. فالأسئلة تطرح من خارج نسق القول الصهيوني لا من داخله.

ولعل هذا هو انجاز الانتفاضة الأعظم ـ انها استعادت للصراع هويته الحقيقية، بعيدا عن أكاذيب الاعلام واحاديث التسوية والتنازل والمرونة والواقعية والتطبيع. وهي بذلك تعبر عن أعمق طموحات الانسان العربي، وتعد معلما أساسيا على مسارنا في التاريخ الحديث.

الملحق

في المصطلح

سببت الانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة دهشة عامة في النخبة الحاكمة الإسرائيلية والرأي العام الذي يقال له «عالمي» أي الغربي، وفي بعض قطاعات النخبة الحاكمة العربية. والسؤال الآن لم الدهشة ؟ ولا شك أن هناك تفسيرات سياسية وإعلامية عديدة، فعلى سبيل المثال يمكن القول:إن تفاصيل ما كان يحدث داخل فلسطين المحتلة لم يكن متاحا لدى الرأي العام العالمي،ولذا حينما حدث ما حدث فإنه ظهر وكأنه نتائج بلا مقدمات. كما أنه يمكن القول:إن كثيرا من أعضاء النخب الحاكمة العربية قد أسسوا سياساتهم على أساس أن الشعب الفلسطيني لن ينتفض فينهض ويسير، ولذا حين اندلعت الانتفاضة فقد سببت عميق دهشتهم.

وفي تصوري إن مثل هذا التفسير يتجاهل حقيقة أن كم المعلومات المتاح للعالم الغربي عن فلسطين هائل، وربما يزيد عن كم المعلومات المتاح لدينا. أما بخصوص أعضاء النخب الحاكمة العربية فأعتقد أنهم حينما كانوا يشجبون الفلسطينيين لعدم نهوضهم، فهم كانوا يثرثرون ويزايدون،فهؤلاء الحكام لا يتشوقون إلى لحظة الثورة ولا يترقبون اندلاعها ليباركوها ولينضموا لها فهم أبناء السكون والاستكانة وثمرة الأمر الواقع والتكيّف والمرونة، ونتيجة توقف مسار التاريخ العربي. وكما نقول بالعامية المصرية «الماء يكذب الغطاس»، فها هي ذي قد اندلعت الانتفاضة واستمرت وانجزت، ولم يحرك أحد ساكنا. وقد استخدمت الميكرسكوب والتلسكوب لأجد استجابة للانتفاضة، ولكنني والحق يقال قد عجزت عن ذلك تماما. ولعل هذا يعود إلى جهلي بالشؤون العربية ! ولذا لا يمكن أن نفسر الدهشة على أساس الافتقار للمعلومات، ومن هنا قد يكون من المفيد أن نعود لفكرة النماذج الادراكية أو المعرفية ومدى سيطرتها على الانسان وعلى فهمه لواقعه وبالتالي على استجابته لهذا الواقع وسلوكه نحوه.

الانسان/ السر، والانسان/ المادة

وسنقوم ابتداءً بالتمييز بين رؤيتين للإنسان يعبران بدورهما عن نموذجين معرفيين كامنين. أما الرؤية الأولى (وهي الرؤية الشائعة في عصرنا الحديث) فهي تنظر للإنسان باعتباره كيانا مركبا، يختلف عن كل الكائنات الأخرى لا في نوعه وإنما في درجة تركيبيته، التي يمكن تفسيرها «في نهاية الأمر» بما هو مادي وطبيعي - أي أنه يمكن تفسير الانسان، كل

الانسان، من خلال قوانين الطبيعة. وهذا التصور للانسان هو ما سنطلق عليه مفهوم أو صورة الانسان / المادة. وهناك رؤية أخرى ترى الإنسان باعتباره كيانا فريدا مركبا مختلفا عن كل الكائنات الأخرى اختلافا عميقا في النوع والدرجة. ومن الممكن ولا شك تفسير كثير من جوانب ظاهرة الانسان بالعودة للمادة وللطبيعة وقوانينها، ولكن الانسان مع هذا ـ حسب هذه الرؤية ـ يظل شامخا، يستعصى في كليته على التفسير المادي الكمي (والتفسير المادي في معظم ـ إن لم يكن كل ـ أحواله تفسير كمي أو ينحو نحو الكم)، وسنطلق على هذا التصور للانسان مفهوم أو صورة الانسان / السر.

وأعتقد أن النموذج الذي يسيطر على إدراك المندهشين هو النموذج المادي الذي يرد كل الظواهر الانسانية، مهما بلغت من تركيب، إلى حركة المادة وقوانين الطبيعة. فكل ما هو موضوعي، حسب هذه الرؤية، مادي، يفسر بالعودة لقوانين المادة والطبيعة والتي يطلق عليها أحيانا قوانين الحركة.

فعلماء الاقتصاد الماديون (من الشرق والغرب) يرون الانسان على أنه مجموعة من الحاجات التي تشبع. قد تُعرّف هذه الحاجات بشكل كمي سوقي أو بشكل شبه كيفي معقول، لكنها تترجم نفسها «في نهاية الأمر» إلى أرقام، وإلا لما أصبح علما. وفي علم النفس الحديث تفسر الدوافع النفسية في نهاية الأمر إما تفسيرا سلوكيا سوقيا أو تفسيرا أكثر صقلا عند فرويد مثلا. ولكن كل شيء، كل شيء، لا بدّ أن يُردّ إلى مقولة ما قبلة للفحص والقياس. وعند الماركسيين يفسّر الانسان في ضوء العناصر المادية التاريخية ولذا نتحدث عن «الحتمية التاريخية» وعن «الاقتصاد» كمحرّك لها، وعن «قوى الانتاج» و«أدوات الانتاج» وهي كلها عناصر قابلة للفحص والقياس. ولا تفسر حركة التاريخ المادية هذه بالعودة للانسان، اللهم إلا باعتباره عنصرا ماديا (أحد عناصر الانتاج مثلا) داخل كل مادي يزداد بساطة وتركيبا حسب مدى سوقية أو ألمعية المفكر الماركسي. وعبارة «في نهاية الأمر» عبارة عن غاية الأهمية في النسق المعرفي الماركسي، فبعد الصقل والتحولات نكتشف أن كل شيء «في نهاية الأمر» *in the last analysis* (أو في نهاية المطاف واللف والدوران) يرد إلى عناصر اقتصادية مادية طبيعية.

ويمكن الحديث عن قيم «روحية» داخل النماذج المادية التفسيرية ولكن كلمة «روحية» في مثل هذا السياق هي من قبيل المجاز وحسب (كما يقول الأمريكان مثلا «يا لها من تجربة روحية رائعة» بعد أكل الآيس كريم أو مضاجعة النساء) لأن النموذج المادي لا يقبل بما وراء المادي ـ أي الروحي.

إن الانسان / السر يختفي، بل لا بدّ أن يختفي، وتظهر مكانه الأرقام الباردة التي لا تستعصي على القياس أو الحلول الهندسية ـ أي أن النموذج المادي يسقط ذاتيا (في نهاية المطاف) في قوانين الطبيعة والمادة والهندسة والميكانيكا والجبر أو الصيغ البسيطة التي تقترب

منها أو تطمح أن تصل إليها وتبذل قصارى جهدها لتحقيق ذلك. فالنموذج المادي يفسر ما هو إنسان بما هو غير إنساني ويفسر ما هو حي بما هو ميت، ويفسر ما هو سر بما يقاس ويحسب.

التطبيـــع

نموذج الانسان / المادة إذن في جوهره مادي كمي، ويقال له «علمي» ويسميه البعض «دنيوي» أو «علماني». ومهما كانت التسمية فهو نموذج «عام» ينظر إلى الواقع الانساني وكأنه واقع طبيعي يخضع للقوانين الطبيعية والعلمية العامة. وما لا ينصاع لهذه القوانين يصنف على أنه غير موجود، أو موجود بشكل شخصي لا يستحق الدراسة أو يجري الضغط عليه ليدخل في النسق المادي. وهذا أمر متوقع ومفهوم، فالطبيعة مادة والانسان جزء من الطبيعة ولذا من الطبيعي أن يتم استبعاد ما هو ليس بطبيعة.

ومن هنا نجد الدلالة العميقة لكلمة «تطبيع» أي محاولة ترشيد الانسان وتدجينه وتحويله إلى مخلوق طبيعي يؤمن باشباع الحاجات الطبيعية وينسى الأمور غير الطبيعية (غير المادية وغير العلمية) الشاذة مثل الكرامة والعزة والهوية وما شابه ذلك من قيم مطلقة يصعب ردها إلى عالم المادة الطبيعي الذي لا يعرف مستوى التغيير والحركة. وهذا النموذج المعرفي لا يهتم بخصوصية الانسان وبابعاده الفريدة وبما يحوي في داخله من أسرار ورغبات روحية فهو ينظر له باعتباره منتجا ومستهلكا، بائعا أو مشتريا، أي وحدة اقتصادية. فهو نموذج يحول الانسان إلى مادة استعمالية (تماما كما حول العالم بأسره إلى مصدر للمادة الخام) بحيث يصبح الانسان جزءا من نسق اقتصادي محلي مرتبط بنسق عالمي مترابط بشكل عضوي، تتحرك داخله الوحدة الاقتصادية المسماة بالانسان بكفاءة عالية لا تعوقه عوائق من قيم أخلاقية مركبة أو تركيبية نفسية داخلية. فالانسان / السر المركب الذي يحوي داخله أسرارا والذي يحدد سلوكه حسب قيم أخلاقية لا يمكنه أن يصبح جزءا عضويا من كل، ولذا لا يمكن توظيفه وتحريكه بيسر. وحتى حينما يعترف هذا النموذج المادي بخصوصية ما (مثل الخصوصية القومية) فإن هذا يكون دائما تنازلا من أجل تحقيق الهدف النهائي وهو استيعاب الانسان داخل النسق المادي البسيط.

وفي تعريفي للعلمانية أرفض التعريف الشائع بأنها فصل الدين عن الدولة فهذا تعريف سطحي يحصر المسألة كلها في شكل الحكم. بينما نجد أن الثورة العلمانية ثورة شاملة تشمل حتى أحلام الانسان وعلاقته بجسده وبجسد الآخرين وبالطريقة التي يأكل بها وكيف ينظر للطبيعة،اي لها علاقة بنموذجه المعرفي. وحتى يمكن أن نصف هذه الثورة الشاملة أطرح تعريفا شاملا يتفق مع شمول الظاهرة، فأرى أن العلمانية هي نزع القداسة عن كل شيء (الطبيعة والانسان) وتحويل كل شيء إلى مادة استعمالية يمكن الاستفادة منها أو التمتع بها،

وما عدا ذلك فهي أمور تقع خارج نطاق النسق المعرفي. والمادة الاستعمالية لا تحوي داخلها أسرارا، فهي كم، وإن حوت شيئا ما فهذه الأسرار تصبح أمورا خاصة («مسائل الضمير» في المصطلح العلماني) تستبعد من النموذج المعرفي، ومن الخطوات الاجرائية والممارسات الاقتصادية والسياسية والادارية. وهذا أمر مفهوم تماما إذا كان الهدف مثلا من العملية الاجتماعية هو تعظيم الانتاج وزيادة الدخل. وهي أهداف كمية لا علاقة لها بالأسرار وبالهوية مما يتطلب تنظيم طاقات المجتمع الانسانية تنظيما هندسيا دقيقا يخضع للقياس وإلا أصبح من الصعب إدارة المجتمع لانجاز الهدف.

وقد عرف ماكس فيبر الترشيد عدة تعريفات من أهمها توظيف الوسائل بأكثر الطرق كفاءة (أي رشدا) لخدمة أهداف معينة، فعملية الترشيد تنصرف إلى الوسائل ولا تنصرف بأية حال إلى الأهداف. وهو يرى أن الحضارة الغربية هي حضارة افرزت فكرة الترشيد هذه، وأنها تتسم بمعدلات عالية من الترشيد. وقد أصبح المصطلح يشير إلى «أساليب رفع الكفاية الانتاجية والتقليل من الفاقد في التنظيمات المالية والاقتصادية والصناعية والتجارية. فالترشيد في الصناعة - مثلا - يشير إلى أنشطة تتعلق بالتنظيم والادارة والتخطيط تهدف إلى غاية محددة وهي رفع مستوى انتاجية التنظيم الصناعي» (عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979).

وعلى كل كان فيبر ذاته قد عرّف عملية الترشيد من خلال صورة متمينة حين قال:إن الترشيد هو تحويل العالم بأسره إلى حالة المصنع - أي تحويله إلى نسق آلي منظم يتم استخدام كل شيء فيه بكفاءة، خاضع للحسابات الكمية، فتوظف الطبيعة الخارجية وتتحول إلى مصدر للمادة الخام، وتوظف الطبيعة البشرية ويتحول الانسان إلى وحدة اقتصادية رشيدة تتحرك داخل اطار بيروقراطي لا شخصي، فالعالم يصبح نسقا آليا ينتج سلعا بكفاءة شديدة، ولا يهم المضمون الخلقي او الانساني لهذه السلع، اذ ما يهم هو تعظيم الانتاج. ولا يهم الهدف النهائي من العملية الانتاجية فهذه اهداف اخلاقية انسانية تقع خارج نطاق عملية الترشيد وعلم الاجتماع. ومن هنا اقول متهكما ان عملية الترشيد تعني في واقع الامر ان يفقد الانسان رشده تماما «في نهاية الامر». وما يسميه فيبر بالترشيد نسميه نحن بالتطبيع. واعتقد ان مصطلحنا اكثر دقة لانه اكثر حيادية من مصطلح فيبر، كما انه يوضّح التصور الاساسي لعصر الاستنارة الغربي، وهو خضوع كل الظواهر للقانون الطبيعي، كما انه يبين انعدام فكرة الهدف والغاية تماما اذ ان الطبيعة وحركة المادة لا هدف لها.

والتطبيع (الترشيد) بهذا المعنى هو شكل من اشكال العلمنة. ومن هنا اخلص الى القول:انه اذا كانت العلمانية هي النظرية (اي تحويل العالم الى مصدر للمواد الخام والانسان الى وحدة اقتصادية) فالامبريالية هي الممارسة. وهدف التشكيل الحضاري الغربي هو ترشيدنا جميعا (بما في ذلك الانسان الغربي ذاته) اي تطبيعنا،اي علمنتنا بالمعنى الذي اوردته حتى يصبح

الكون كله ـ طبيعة وبشرا ـ جزءا متكاملا بشكل عضوي يدخل الالة الشيطانية. وقد يرفض القارىء تعريفاتي السابقة، وهذا لا يضير كثيرا (من منظور اطروحة هذا الكتاب) فما اود تأكيده هنا ليس الهجوم على العلمانية بقدر وصفها، او وصف جانب محدد وهام من تلك الثورة الهائلة التي اجتاحت العالم الغربي ابتداء من عصر النهضة ثم وصلت موجاتها الى كل اطراف المعمورة واقتحمت كل المجتمعات البشرية، وهي حركة تهدف الى تحويل العالم الى حالة المصنع ـ اي تهدف الى قتله وتحويله الى مادة ميتة، بهدف زيادة الانتاج بغض النظر عن الهدف النهائي.

هزيمة الحواس الخمس

والآن لنعود الى المندهشين (من العرب والغربيين والاسرائيليين) واعتقد ان دهشتهم انما تعود الى انهم قد تبنوا نموذجا ماديا تفسيريا بسيطا، يرى مسالة التطبيع هذه كمسألة طبيعية حتمية وربما مرغوب فيها، وهم يفكرون على النحو التالي: الانسان ـ كما هو معروف ـ مجموعة من الحاجات معظمها مادي وبعضها معنوي يمكن اشباعه مثل الحاجة للمسكن والملبس والتسلية وما شابه، وان كان هناك بعض الحاجات التي لا يمكن اتباعها فان عملية القمع تقوم بخلق التوازن اللازم. والفلسطينيون العرب هم في نهاية الامر بشر بهذا المعنى المادي، يمكن السيطرة عليهم والتحكم فيهم بالوعد احيانا (اشباع الحاجات) والوعيد احيانا اخرى (القمع الحقيقي او التهديد به).

وللاسف ثمة ترادف في عقل الكثيرين بين النموذج المادي من جهة والنموذج العلمي والموضوعي من جهة اخرى، وهو ترادف مخل للغاية. ففي تصوري ان النموذج العلمي او الموضوعي هو النموذج الذي يتمتع بأعلى درجة تفسيرية من غيره من النماذج، فكلما ازداد النموذج تفسيرية كلما ازداد علمية وموضوعية. واذا كانت النماذج المادية قادرة على تفسير بعض الظواهر وبالتالي فهي «علمية» في هذا المجال، فهي قاصرة عن تفسير ظواهر اخرى في مجالات اخرى، ولذا فهي تصبح غير علمية بالمرة، اذ انه يمكن تبني نماذج اخرى ليست مادية بالضرورة ولكنها اكثر تفسيرية وبالتالي أكثر علمية لا برغم عدم ماديتها وانما بسببها! ويمكن العودة للعلوم الطبيعية الحديثة ليعرف القارىء ان التحليل العلمي الحديث اصبح يتحدث في اطار فرضيات اكثر تفسيرية او اقل تفسيرية، وان مسألة القانون العلمي او القانون الطبيعي البسيط الذي يفسر كل الحالات لم يعد ممكنا او متاحا في العلوم الطبيعية في مستوياتها العليا. نعم يظل الحديد يتمدد بالحرارة في كل زمان ومكان، لكن حركة النجوم وسلوك الذرات هي امور يصوغون الفرضيات لتفسيرها، ثم تظهر فرضيات جديدة تحل محل القديمة لا لأنها قانون جديد وانما لانها فرضية اكثر تفسيرية. وعلم النفس الحديث عند فرويد مثلا يستند الى مجموعة من الاستعارات والاساطير التفسيرية التي راى صاحبها انها تُفسر السلوك الانساني

اكثر من غيرها. ثم يحاول انطلاقا من هذه الاساطير والفرضيات، غير الموجودة بشكل تجريبي، ان يفسر الاحلام والواقع. وهو حسب بعض المؤمنين بهذه النظريات يقدم اطارا ذا مقدرة تفسيرية عالية، لا يدّعون له اي وجود تجريبي محسوس.

وتكمن المفارقة في ان النماذج المعرفية المادية التي يقال لها «علمية» حينما تطبق على ظاهرة الانسان ليست واقعية بما فيه الكفاية، فهي تنكر جانبا اساسيا في الانسان ولذا فمقدرتها على التفسير والتنبؤ قوية على المستوى القريب، ضعيفة على المستوى البعيد، منعدمة تقريبا في نهاية الامر... ومن هنا كانت «دهشة» اصحاب هذه النماذج : دهشتهم في الجزائر، وفي فيتنام، ثم في افغانستان ـ اذ ان الحسابات الكمية العلمية الدقيقة تقول:ان الفرنسيين كانوا لابد ان ينتصروا في الجزائر، وان الامريكان كانوا لا بدّ أن ينتصروا في فيتنام، وان السوفيت لا بدّ أن ينتصروا في افغانستان.ولتضع كل المعلومات في اي حاسوب «كومبيوتر»، وستجده يهز راسه مؤكدا لك انتصار من يشبع معظم الحاجات ويقمع البشر

وأذكر حينما سئلت عن دلالة عبور قواتنا المسلحة عام 1973 أجبت : انها هزيمة الحواس الخمس، اي انها هزيمة لكل من يتصور ان الانسان انما هو حواسه،وان محيطه هو محيطها، وان الوجود الانساني هو الوجود الجسدي المادي وحسب. انها هزيمة الانسان/المادة وانتصار الانسان/الانسان... او الانسان/السر. فالصهاينة عام 1967 كانوا قد أعلنوا وصولهم للحدود الجغرافية الآمنة، الحدود الطبيعية، وقرروا التخندق هناك حتى استسلام العرب او حتى نهاية الزمان ان لزم الأمر، وشيدوا خط بارليف العتيد الذي كانت تطالعنا الصحف العربية والغربية كل يوم بما يؤكد، بعد الحسابات الدقيقة بالغة الدقة، ان اقتحامه امر مستحيل، ولكن القوات العربية في مصر وسوريا اثبتت نقيض ذلك تماما. ومن المعروف ان تحطيم خط بارليف تم عن طريق التفكير المحلي الذي لا يهاب تكنولوجيا الغرب العسكرية ويتعامل مع البيئة باحترام واحتراس وفهم، وكان العبور دلائل تعبير عن استعادة للثقة في الذات وايمان بأنه من الممكن الحاق الهزيمة بالمغتصب.

الثورة والانسان/السر

وما يحدث في الضفة الغربية والقطاع وكل فلسطين المحتلة هو هزيمة اخرى للحواس الخمس، وهو انتصار اخر للمؤمنين بان الانسان ليس مجرد دوافع ورغبات مادية ومعنوية يمكن تفسيرها ماديا. فهو اكثر عمقا من ذلك ولذا لا يمكن تفسير الانتفاضة، وهي ظاهرة انسانية مركبة تعبر عن رفض الانسان للقهر، بالعودة للنموذج المادي المحض، فهو ولا شك قاصر عن ذلك. ولابد من طرح نموذج مركب قادر على تفسير سلوك الانسان. ولا يمكن انجاز ذلك الا باستعادة الانسان/السر، اي الانسان الذي لا يرد الى عنصر مادي (ويجب ان نتذكر ان احمد الزعتر في رائعة درويش يقول : «جسدي هو الاسرار»، اي انه لا يُرد الى المادة ولذا فهو يحاصر محاصريه).

والنموذج التفسيري الذي نقترحه يصدر عن فكرة ان الظاهرة الانسانية فريدة ومركبة لأقصى حد، وان القانون الطبيعي لا ينطبق على كلية الانسان كما أسلفنا، ومن هنا فنحن نرى ان العالم ليس كلا عضويا، وان اشباع الحاجات لا يمكن ان يحل محل الهوية، وان الانتماء للوطن والاسرة امر حيوي وهام للانسان، وان القيم الروحية والايمانية هي مصدر اساسي للسلوك الانساني، وان هذه القيم «واقعية» اي انها جزء من الواقع الانساني، على الرغم من انها لا مادية ولا كمية، وانه لا يمكن فهم سلوك الانسان ككيان متعين دون أخذ هذه القيم والدوافع السلوكية في الاعتبار.

هذا لا يعني اننا نستبعد العناصر المادية من نموذجنا التفسيري، فنحن لو فعلنا ذلك لصرنا في احادية النموذج الآخر، وسوقيته.

فأنا لست من دعاة المثالية الفلسفية (اي الانفصال الكامل عن الواقع المتغير) تماماً،كما انني لست من دعاة النسبية المادية (اي الانفصال الكامل عن المثل العليا الثابتة التي تحرك الانسان)، ولذا فنحن لا ننكر ان كثيرا من الاسباب الاقتصادية والسياسية والديمغرافية مثل احساس الفلسطينيين بالحصار العسكري الصهيوني المضروب حولهم والذي استمر لفترة زمنية طويلة ومثل ادراكهم ان العالم الخارجي قد تركهم ومصيرهم وانه يحاول قدر طاقته ان ينساهم ويمحوهم من ذاكرته، وتفاقم الازمة الاقتصادية بعد عودة الكثيرين من الخليج وظهور جيل جديد من الشباب الفلسطيني الذين وُلدوا بعد 1967 واصبحوا هم الغالبية العظمى، وقد أوردنا كل هذه الاسباب في طي الدراسة واوردنا الحقائق والاحصائيات. ولكننا نرى ان هذه الحقائق والاحصائيات ضرورية ولكنها مع هذا ليست كافية، فهي في حد ذاتها قاصرة من الناحية التفسيرية، ونحن لا ننكر فاعلية مثل هذه العناصر وضرورتها بل اننا نرى انها تساهم في تشكيل الادراك الانساني. بل ولا ننكر مقدرة العناصر الاقتصادية على خلق جيوب منتفعة من الاستعمار تشكل طابورا خامسا له وعلى اشاعة الاحساس بوهم الراحة بين الجماهير. ولكن كما اننا لا يمكن ان نرد الواقع لادراك الانسان له، لا يمكن ان نرد الادراك (في نهاية الامر) للواقع المادي، اي انني اقترح الاستقلال النسبي للادراك الانساني عن الواقع، وللواقع عن الادراك، ووجود مسافة بينهما، حتى لا يتطابق الواحد مع الاخر وحتى يتفاعلان.

نحن نقترح نموذجا تفسيريا جدليا بمعنى الكلمة - جدل الانسان/السر مع المادة، فالجدل يتطلب اختلافا جوهريا بين عنصريه والا توقف، الامر الذي لا يتوفر في النماذج المادية التفسيرية حيث يتفاعل الانسان/المادة وهو جزء لا يتجزأ من الطبيعة، مع المادة والطبيعة. والجدل هو جوهر الثورة والاساس الحق لاستمراريتها وكأن الجدل المنفتح الحق لا يمكن ان يتم داخل النسق المادي الخالص، وانما لا بد أن يتم داخل نسق يشكل الانسان السر عنصرا اساسيا فيه.

والانسان السر يفترض وجود نقطة تقع وراء الطبيعة، هي اساس اختلاف الانسان

عن واقعه المادي، اي انني افترض ان النموذج الثوري الحق لا بدّ ان يكون نموذجا ايمانيا لا يسقط في تفسير ما هو انساني بما هو مادي كما يفعل النموذج المادي الزمني، وانما يفسر جوهر الانسان بالعودة الى ما هو غير مادي، وهل يمكن ان نفسر هذا الجوهر الا بهذه الطريقة ؟ ان الفكر العلماني قد ازاح الله من النموذج المعرفي وجعل الانسان مركزا للكون لا حدود له. ولكنه حينما فعل ذلك ازاح الله كحد للانسان، وحينما حاول ان يجد حدودا جديدة للظاهرة الانسانية فانه لم يجد سوى المادة والطبيعة فاصبحت حدود الانسان طبيعية مادية، اي ان الحدود اللانهائية قد تقلصت تماما وتحولت الى نقيضها اي حدودا مادية غير انسانية تضيق عن تركيبية الانسان وفرادته، وهذا هو التناقض الاساسي الكامن في كل النماذج المعرفية العلمانية. لقد اعلن نيتشه موت الله حتى يخرج السوبرمان من تحت عباءته، وحينما فتحها خرج هتلر والمحرقة وتحول الانسان الى رماد، فبموت الله يموت الانسان او يتحول الى جماد.

في السكون والحركة

وحتى لا يؤخذ حديثي على غير محمله، لا بدّ ان اوضح ان ما وراء الطبيعة كما ندركه، سكوني في حد ذاته ومطلق، ولكنه يعبر عن نفسه من خلال الحركة والحياة والتحولات والتركيبية الانسانية. ولعل اكبر دليل على ذلك هو نجاح المسلمين الاوائل في القضاء في فترة زمنية وجيزة على اكبر امبراطوريتين في عصر صدر الاسلام. فلو ان الايمان بالله وهو السكون والمطلق ترجم نفسه الى سكون وحسب لكان المسلمون الان اقلية صغيرة تجلس في احد اطراف الجزيرة العربية او حول الحرمين الشريفين. ولكن هذا الايمان ترجم نفسه الى دولة وجيش وخطط وفنون ومدن وقصائد - اي الى ثورة بمعنى الكلمة، ثورة (لا انتفاضة) قام بها بشر تحركهم أنبل العواطف والغايات. ويحاول النموذج المادي التفسيري ان يبين ان الامبراطورية البيزنطية، والامبراطورية الفارسية، كانتا منهكتين من الحروب، وان الذي دفع المسلمين من الجزيرة هو احدى نوبات الجفاف في الجزيرة العربية وان الظاهرة الاسلامية «في نهاية الامر» يمكن تفسيرها لا بالانسان وانما بالعناصر المادية. ولكن لو نظرنا حولنا لوجدنا جفافا والحمد لله في مصر وفي القارة الافريقية ولوجدنا ان الامبراطوريتين الاساسيتين في العالم الآن تعانيان من ازمة عميقة، فالعناصر المادية متوفرة ولكن هل يتوقع احد ان تخرج الجيوش لتعلي كلمة الحق ! هل يتوقع احد ان يصل الى ميدان التحرير في موعده ؟ وأبشر بطول سلامة يا مربع.

وارجو الا يفهم مما اقول ان تبني النموذج الايماني يقود حتماً الى الحركة والثورة، اذ لا حتميات بخصوص الانسان/السر، فالحتميات من صفات المادة التي تتحرك حسب قوانين مسبقة، اما الانسان/السر فهو يختار ويجتهد ويصيب فله اجران ويجتهد ويخطىء وله اجر واحد، وقد يتحول الايمان عنده الى تواكل وتقاعس، فهو ليس مادة صماء تتحرك داخل مسار محدد.

وقد يرى بعض القراء ان حديثي عن «النموذج الايماني» كإطار تفسيري ليس له ما يسانده في «الواقع المادي». وهم محقون في ذلك تماما، بل وهذا هو جوهر الاطروحة - ان تركيبية الانسان لا تفسر بالعودة «للواقع المادي»، وانما تفسر بالعودة «للواقع الانساني» الذي لا يمكن ان يرد بأية حال الى ما هو ادنى من الانسان، اي المادة والطبيعة، وانما يمكن تفسيره بالاشارة الى ما هو اعظم منه، الله (او سر الكون ان كانت كلمة «الله» تسبب لك شيئا من الحرج).

ومع هذا ارى ضرورة محاولة تجاوز الخلاف بين المبشرين بالنموذج الايماني (امثالي) والمنادين بالنموذج المادي العلماني حتى يتسنى لنا وضع اساس لعلوم عربية انسانية قادرة على التعامل مع واقع الانسان العربي. ويمكننا الاتفاق على ان ظاهرة الانسان ظاهرة فريدة في الكون، وان الانسان جزء من الطبيعة ولكنه لا يرد لها، وانه قد يمكن تفسير بعض جوانب سلوك الانسان بالعودة الى البيئة الطبيعية او المصلحة الاقتصادية او الدوافع الجنسية وما شابه من عناصر مادية ولكنه لا يمكن تفسيره في كليته بهذا المنهج - اي ان الرقعة المشتركة المقترحة هي تركيبية الانسان اللانهائية كأساس للبحث العلمي وللثورة وللامل. وهذه التركيبية هي الاساس المعرفي للخصوصية (العربية والاسلامية) اذ بدونها يعود الانسان الطبيعي العام الخاضع للقوانين الطبيعية العامة للظهور فان جاء احد وقال: ان هذه التركيبية يمكن ردها في نهاية الامر والمطاف للمادة، فليعرفن اذن انه يتحدث عن تركيبية هي في نهاية الامر بسيطة بساطة المادة غير الانسانية وان التركيبية التي يتحدث عنها هي في واقع الامر وهم مبدئي يسم عملية الملاحظة المباشرة التي يتجاوزها الدارس بعد قليل ليصل الى البساطة المادية الحقيقية التي يؤمن بها، وأننا لا نتحدث عن هذا النوع من التركيبية الوهمية وانما نتحدث عن تركيبية لا يمكن تجاوزها. وكل ما نطمح له هو فهم بعض جوانبها ورصد تجلياتها لنرى كيف يبدع الانسان ويبني وكيف يخرب ويدمر - وبهذا نكون قد استرجعنا فكرة «الطبيعة البشرية»هذا المفهوم الذي أخذ في الضمور في العلوم الانسانية الغربية الى ان اختفى تماما في كتابات البنيويين والتفكيكيين وغيرهم ممن يبشرون (وبفرح شديد) باختفاء ظاهر الانسان باعتبارها ظاهرة غير طبيعية،ومجرد اقتحام على دورات الطبيعة. وهم في فرحهم هذا محقون من منظورهم فوجود الانسان كمقولة لا يمكن ردها للمادة تعني وجود ثغرة ضخمة في النسق المعرفي (المادي والعلمي والعضوي) الذي يتحركون في اطاره، الامر الذي لا يمكن للكثيرين قبوله. ومن ثم يحاولون سد الثغرات للوصول الى التناسق الداخلي النهائي حيث يتماسك النسق ويختفي الانسان. ومن هنا زعم الكثيرون، من المبشرين بالنموذج المادي، ان العلم دائما يتقدم، وانه سيصل الى المعرفة الكلية، وان ما لا نعرفه الان سنعرفه في المستقبل لا محالة، وأننا سنصل الى معرفة لا ثغرات فيها فنعرف كل شيء بما في ذلك الانسان ذاته ظاهره وباطنه، وبالتالي سيمكننا التحكم في كل شيء، بما في ذلك الانسان بطبيعة الحال. وهذا هو

الحلم العلمي المطلق ـ وهو ايضا الكابوس النهائي.ويمكننا ان نرى هذه العملية على انها عملية تطبيع (ترشيد وعلمنه) للمعرفة الانسانية ذاتها بحيث يستبعد تماما كل ما هو سر، حتى تنار كل جوانب الظواهر (وهذا حلم العقلانيين من عصر الاستنارة !).

واذا كان هذا هو الحلم (او الكابوس) النهائي، فان اصحاب النموذج المادي يدورون في اطاره ويحاولون ان يفسروا ظاهرة مركبة مثل الثورة، مهما بلغت من تركيب انساني، كأن تكون ثورة من اجل التماسك الاجتماعي والطمأنينة النفسية والتعبير عن الهوية والكرامة، وملايين الاشياء الاخرى، الى عنصر او اثنين ـ وهما عادة العنصر الاقتصادي والعنصر السياسي، وهما عادة الحرمان الاقتصادي والاحباط السياسي.

واصحاب النموذج المادي يفسرون الثورة على هذا النحو لأن الخطاب المادي خطاب كمي ومسائل مثل «الكرامة» و«الطمأنينة» و«الهوية» مسائل كيفية ولذا عليه استبعادها تماما مثلما يستبعد الانسان البدائي الألوان الكثيرة التي لم يسمها باسمها،فهي ليست جزءا من خطابه او نموذجه المعرفي. تماما مثلما لم تر أنت تلك الغابة من الالوان الصاخبة قبل ان يبينها لك الناقد الخبير الافتراضي الذي اشرنا له في الفصل السابق. وهم ان ابقوها فانهم يبقونها وكأنها عناصر مادية توضع الى جوار العناصر الاقتصادية والسياسية، وكأن الاحساس بالكرامة، في نهاية الامر، افراز للغدد او مادة تدور في عروق الانسان مع الدم. كما ان اصحاب النموذج المادي قد يذكرون العناصر غير المادية من قبيل «الموضوعية» فيشيرون لها وحسب دون ان يمنحوها اي مركزية، فترد اشارات عابرة «لكرامة لانسان» أو «الصحوة الاسلامية» ثم يلتفون بعد ذلك لتفسير هذه الامور ذاتها تفسيرا ماديا، او يتراجعون عما قالوا واشاروا اليه بالحديث عن «نهاية الامر المادية».

الجدوى الاقتصادية لبيع المقدسات

وهذا ما حدث في تفسير الانتفاضة، فقد تبارى المعلقون السياسيون في الحديث عن الاحباط واليأس اللذين هيمنا على الفلسطينيين العرب، نتيجة لأوضاعهم الاقتصادية والسياسية المتردية («الاقتصادية اساسا»)، وأصروا على ان مؤتمر قمة عمان كان هو القشة التي قصمت ظهر البعير وما شابه من قوالب لفظية ادراكية جاهزة، هي نتيجة عمليات تأمل عقلية، رغم ماديتها المزعومة، لا نتيجة لدراسة متأنية مركبة للواقع الفلسطيني. واعتقد ان القضية لو كانت اقتصادية وحسب لأغرق العدو الصهيوني الفلسطينيين بملايين الدولارات. واعتقد انّ الولايات المتحدة التي تدفع ثلاثة بلايين دولار سنويا للكيان الصهيوني يمكنها ان تضيف الى ذلك «بقشيشا» صغيرا يغير من الصورة الاقتصادية العامة ويغرق الفلسطينيين.

والعدو الصهيوني يفكر بهذا المنطق التجاري (وهو جانب متأصل في الحركة الصهيونية بسبب تجربة الجماعات اليهودية في العالم الغربي حيث اشتغلوا بالربا والتجارة مئات السنين).

وفي اوائل القرن الحالي كان الصهاينة يفكرون في شراء فلسطين او الجزء الاكبر منها، كما فكروا في شراء حائط المبكي (البراق) بسعر مغر للغاية، يجعل المرء يحار قليلا في تفسير سلوك الانسان الذي يرفض بيع مقدساته ! . وقد لخص ديان هذا الموقف بقوله : «ان ما يمكن للعرب ان يحبوه في اسرائيل ليس الصهيونية ولا «الشاعر الصّهيوني» بياليك [اي الامور الفكرية والادبية، والعقائدية، فهذا ترف يترك ولاشك للسادة]، وانما حقيقة ان قرأهم بها كهرباء» (اي الامور النافعة العملية) (الكسندر شولش وآخرون، الفلسطينيون عبر الخط الاخضر، ترجمة محمد هشام، دار الفكر، القاهرة 1986).

ولو كان الامر اقتصاديا وحسب لأدت المعادلة الى السكون الفلسطيني. ولكنه ليس كذلك ولذا نجد ان مراسل «نيوزويك» (25 يناير 1988) بعد ان عدد انجازات الاسرائيليين الاقتصادية يضيف : «ان التبعية الاقتصادية زادت من السخط»، وهي معادلة غير مادية بالمرة، فالنجاح الاقتصادي امر مادي ملموس ويؤدي عادة الى الرضا اما التبعية فهي حالة شعورية كيفية اخلاقية. فلم يتغلب الرضا الناجم عن ذلك النجاح على السخط النابع من التبعية، مع ان النجاح مادي يقاس والتبعية كيفية ولا تقاس ؟ وقد عبر احد المواطنين الفلسطينيين عن هذا الموقف ببساطة متوحشة : «نحن نريد الاستقلال حتى يمكننا ان نحكم انفسنا. . . ان الحرية اكثر اهمية من النقود». (الجيروساليم بوست «هدوء قلق» 7 نوفمبر 1988). ورغم سذاجة العربي ونبله، فنحن لا نضع الحرية في مقابل النقود، وكأن علينا ان نختار بين الواحد والاخر، الا انه وضع يده على نموذجه المعرفي المركب بطريقة فشل فيها الفكر السياسي العربي. وموقفه هذا يفسر لم فشل مائير كاهانا رئيس حركة كاخ في حث العرب على الهجرة. فقد قامت هذه الحركة بتمويل رحلات جوية في اتجاه واحد للعرب الفلسطينيين الذين يرغبون في ترك اسرائيل ووعدت بترتيب ايجاد اماكن عمل لهم في الولايات المتحدة. واعلن مصدر بأن ثمة اشاعات تفيد بأن كاخ تلتزم لكل من يوقع على وثيقة الهجرة بدفع مبلغ 75 الف دولار ومبلغ مماثل لدى وصوله الهدف. وتهدف هذه الحركة اخراج نصف مليون عربي، وستكون العملية ذات اتجاهين «فمثلا اذا رغب دكتور يهودي في الهجرة من الولايات المتحدة يجب اخلاء مكانه لصالح دكتور فلسطيني» اي ان الاتجاه احلالي تماما شعب بلا ارض (اي الطبيب اليهودي) لأرض ستخلى من شعبها (اي الطبيب الفلسطيني). (معاريف 1 اكتوبر 1987). وغني عن القول ان كاهانا قد فشل في مخططه مثلما فشل الصهاينة الأوائل في شراء حائط المبكي. ان العنصر الاقتصادي لا يفسر بأية حال الانتفاضة، والا لم نجد كثيرا من العرب الذين لا يتجاوز دخلهم 500 دولار سنويا في حالة نوم كاملة دون احلام سعيدة ؟

وفي مقال لايفور موفتشان (مندوب وكالة نوفوستي السوفيتية) بعنوان «تحت نير الاحتلال» (الوطن 3 ابريل 1988) نجد مثلا جيدا لهذا النموذج المادي الاقتصادي الذي

يرصد الواقع من خلال الحاسب الآلي، فيفشل تماما في ادراكه وتفسيره. يبدأ المقال بالحديث عن «التردي الملحوظ في الوضع الاقتصادي» وعن البطالة بين العرب وعن اضطرارهم للسفر من الارض المحتلة يوميا الى اسرائيل. والمشكلة بالنسبة للكاتب «انهم محرومون من جميع الحقوق التي تمنحها تشريعات العمل الاسرائيلية للعاملين، وينفذون أقذر الأعمال واصعبها وادناها اجرا»: ويضيف الى كل هذا، بدقة بالغة، الساعات التي يقضونها في السفر. ويضيف اخيرا ان متوسط اجر العامل في اليوم بين 15 و18 دولارا يوميا (في الواقع الاجر ادنى من هذا! قليلا، لكن اعتراضنا هذا ليس جوهريا باعتبار انه لا يتحدى النموذج التفسيري). ثم يحدثنا الكاتب عن مكاتب العمل التي تخصم 20 ٪ من الاجر ترسل كمدفوعات للدولة لتمويل صندوق الضمان الاجتماعي للعرب. واعتراضه على هذا الوضع هو ان «قلة من الافراد هي التي تستفيد» منه. هذا هو كل ما جاء في المقال فلم يتحدث الكاتب عن اي شيء سوى عن الارقام والزيادات والخصومات واختلاف العامل العربي عن الاسرائيلي في الاجر. . . وفي اخر اربعة سطور يفيق الكاتب من غيبوبته وحتمياته وتبسيطاته ويشير الى ان «دوس السلطات الاسرائيلية حقوق الفلسطينيين السياسية والمدنية والاقتصادية هو سبب الانتفاضة» ! ان النموذج التفسيري المادي الاقتصادي نموذج قاصر، يحمل في طياته الهزيمة والسكون والرجعية، فهو يطرح احتمال او ربما حتمية ان تقوم الدولارات الامريكية او التشكيلات الاسرائيلية بالقضاء على الانتفاضة والحياة والثورة.

الخوف من الاخر

وتبني العرب لهذا النموذج بحتمياته ادى الى اهتزاز الايمان بالنفس وبالمستقبل كمجال للحرية والحركة والى استلاب كامل للذات الانسانية الفاعلة والى استبعاد هذه الذات المركبة كمصدر للحياة والحرية والحركة. وقد ترجم كل هذا نفسه في نهاية الأمر الى خوف عميق من العدو حتى اصبحنا لا نكف عن الاشادة به وعن التشهير بأنفسنا، ونفعل كل ذلك تحت ستار «الموضوعية»، واصبح الوقوف على اطلال الذات هو قمة العلمية. وان اشرت الى بقعة نور هنا وحديقة خضراء هناك تعالت الاصوات تتهمك بالتفاؤل غير العلمي وبالتخاذل في النضال.

وقد دأب الاعلام العربي تحت شعار «اعرف عدوك» وباسم التحلي بالموضوعية على نشر معلومات عن العدو مستقاة من تصريحاته واجهزته الاعلامية، وتقديم هذه المعلومات والتصريحات على انها الحقيقة النهائية والمطلقة. وقد وصلت هذه المرحلة الى ذروتها في الفترة الممتدة من يونيه 1967 حتى اكتوبر 1973 حين كانت لا تخلو الصحف العربية من الحديث عن خط بارليف المنيع، والنابالم الفاتك، والحواجز الترابية الهائلة، والمعونة الامريكية للدولة الصهيونية التي لا تنتهي، وقوة الفتك الاسرائيلية، وذراع جيش الدفاع الاسرائيلي القوية التي

تصل الى اي مكان، دون الاشارة الى امكانية ان يتآكل العدو من الداخل الى الخارج، وان ننمو نحن ايضا من الداخل الى الخارج.

وقد تم نشر كل هذه العبارات المخيفة بعد تصنيفها بعناية فائقة تحت شعار التحلي بالموضوعية. واذكر انني ألقيت محاضرة في احدى الاكاديميات العسكرية العربية في ابريل 1973 (اي قبل العبور بعدة اشهر) وذكرت لمستمعي من كبار الضباط عدة اخبار قرأتها في الصحافة الاسرائيلية كان اهمها خبر عن عدة قنابل وضعت في سينما في حيفا ولم تنفجر، ومع هذا اجتمعت الوزارة الاسرائيلية لمناقشة الامر! كما انني لاحظت انه كلما كان ينشب حريق عادي في اسرائيل كان يحتل الصفحة الاولى ويشغل العناوين الرئيسية، وكانت الحكومة الاسرائيلية تبذل اقصى جهدها لطمأنة المواطنين والتأكيد لهم بان ما حدث لم يكن من فعل المخربين العرب، وهكذا. وقد اخبرت المستمعين ان سلوك النخبة الحاكمة في اسرائيل ينم عن عدم الثقة بالذات وعن عدم الطمأنينة، مما يجعلني اشك فيما يقولونه عن جيش الدفاع الاسرائيلي الذي لا يقهر، الى اخر هذه العبارات، واخبرتهم انه من الواضح لدي ان الاسرائيليين يعرفون ان ثمة نقط قصور في موانعهم وتحصيناتهم، ولكنهم يشيعون المعلومات المبالغ فيها والجزئية ليبثوا اليأس في قلوب الناس، فنخسر المعركة قبل دخلوها، بل ونحجم حتى عن دخولها.

ومع الاسف لم يقتنع كثير من المستمعين بوجهة نظري، بل واتهمني احدهم بالخيانة بسبب موقفي. وفسر اجتماعات الوزارة الاسرائيلية المتكررة على انها قمة العلمية. فاقترحت عليهم ان هذا الوضع ذاته يمكن توظيفه كسلاح في ايدى العرب. اذ يمكن تدريب سكان فلسطين المحتلة على وضع قنابل لعبة في كل مكان بحيث يضطر هذا العدو العلمي الى رصدها والاجتماع المستمر لمناقشة أمرها فتزيد تكلفة المجتمع الاسرائيلي وتنهك طاقته بأقل التكاليف او التضحيات البشرية العربية. ولكن المستمعين أخبروني اننا يجب ان نتحلى بالروح العلمية والا ندخل حربا الا بعد دراسة علمية تستغرق ما لا يقل عن عشرين عاما على الاقل، نعرف خلالها كل شيء عن العدو معرفة دقيقة - وهكذا وظف العلم ووظفت الموضوعية في خدمة الهزيمة، وليس العكس كما هو مفروض. واعتقد ان العلم الذي يتحدثون عنه هو عملية رصد بليدة للواقع تظل تدور في اطار الحواس الخمس والمادة ولذا فهي لا يمكنها تجاوز الحاضر - اي لا يمكنها تجاوز الهزيمة. فعملية التجاوز في نهاية الامر لا بدَّ أن تستند الى ايمان بمقدرات الانسان التي تتجاوز بدورها الحسابات المادية.

وقد تصورت انه بعد العبور سيختلف الامر قليلا، وسيستعيد الاعلام العربي ثقته في نفسه، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، فلا تزال الامور تنسج على نفس المنوال - اي اقتباس اقوال العدو ومزاعمه عن نفسه باعتبارها مرادفة للحقيقة، وباعتبار ان اي «مخطط» يضعه يصبح خطة قابلة للتنفيذ لا محالة. دون اي دراسة لمدى واقعية المزاعم، وحدود الامكانيات

المتاحة لتنفيذ المخطط. وقد دأبت مراكز البحوث الاستراتيجية العربية على «تحليل مضمون» تصريحات العدو وتجريد ما يتصورونه «حقيقة» العدو، مع ان هذه التصريحات لا تعدو ان تكون مزاعمه عن نفسه ـ جزء منها صادق وجزء منها مناف تماما للواقع، تهدف الى التخويف والتضليل. وقد بلغ الامر درجة انه حينما تنشر الصحف الاسرائيلية اخبارا سلبية عن الكيان الصهيوني، فان كثيرا من الصحف العربية تتجاهل مثل هذه الاخبار بحجة انه أمر غير علمي مرة اخرى، باعتبار ان عوامل الازمة في اسرائيل ليست عوامل حقيقية، وانما امور هامشية لا تستحق التسجيل او الرصد. وحتى ان ذكرت فتذكر بشكل عابر وكأنها بعض الطرائف او الملح من قبيل «صدق او لا تصدق».

ان خوفنا من العدو قد وصل الى درجة اصبحت هزلية.وليقارن القارىء العربي تغطية الصحافة العربية لاستقالة بيجين من رئاسة الوزراء واعتزاله الحياة السياسية وتغطية الصحف الاسرائيلية لنفس الواقعة. فبينما تحدثت كثير من الصحف العربية عن حالته النفسية الكئيبة بعد موت زوجته، قالت الصحف الاسرائيلية دون لف او دوران : ان سبب الاستقالة والاعتزال هو هزيمة اسرائيل في لبنان (وهي عبارة لاترد الا بحذر شديد في الصحافة العربية، وكأن الكتاب في حالة ذعر من استخدام كلمة «الهزيمة» للاشارة لاسرائيل). كما ان عزرا وايزمان اثناء حملته لانتخابات الكنيست الأخيرة سئل عن سبب صمته بخصوص لبنان وما حدث فيها، فقال : انه ليس الوحيد الذي التزم الصمت حيال هذه الكارثة (ملمحا بذلك الى بيجين).

الشيء الاخر

في مقابل هذا النموذج المادي الذي لا يتجاوز الواقع من خلال الايمان بمقدرات الانسان اللامتناهية والذي ينتهي بالدارس في عالم اليأس والقنوط والهزيمة وعالم الحسابات التي تتحول الى سجن رهيب نطرح فكرة الانسان/السر الذي يدخل في علاقة مع المادة ولكنه يتجاوزها دائما. في داخل هذا الاطار نجد ان العوامل المادية آنفة الذكر وغيرها لا تصلح كنموذج تفسيري للثورة، فسبب الثورة ليس العوامل في حد ذاتها وانما التفاعل المركب الغامض داخل الانسان وعملية التفاعل هذه يشار اليها بعبارات مبهمة مثل «رفض الانسان للقهر» «واعظم ما في الانسان» و«هذا الشيء الاخر»وغيرها من العبارات التي تشير في نهاية الامر الى شيء ما يتجاوز المادة.

وبعض الاسرائيليين في رصدهم للانتفاضة لم يقنعوا بالحديث عن هذا السبب او ذاك وانما تحسسوا طريقهم نحو نموذج تفسيري مركب. ففي مقال ليهودا ليطاني (الجيروساليم بوست 9 ديسمبر 1987) بعنوان «من صراع مدني الى تمرد» يحاول هذا الكاتب الاسرائيلي ان يعدد اسباب الانتفاضة فقال: انها ثلاث،اولها: حادثة التصادم التي راح ضحيتها اربعة

فلسطينيين في قطاع غزة وقد سمى هذا بالسبب المباشر وهو ـ في تصوره ـ غير هام. ونحن بطبيعة الحال نتفق معه فهذه الحادثة تشبه حادثة المالطي والحمار والشجار الذي قام في الاسكندرية بسببه مما ادى الى تدخل الامبراطورية الانجليزية ففضت الشجار واحتلت مصر ! . اما السبب الثاني فهو قمة ريجان وجورباتشوف اذ حاول الفلسطينيون ان يوجهوا الانظار لهم ويرى المؤلف ا هذا سبب هام. ولكن اكثر الاسباب اهمية هو عملية قبية لماذا ؟ . . . لان العملية شجعت الفلسطينيين، خاصة الشباب، على الشعور بأنه من الممكن الحاق الهزيمة بالاسرائيليين وبجيش الدفاع الاسرائيلي. ونحن نتفق مع الكاتب في اهمية عملية قبية، ولكننا نرى انها ليست السبب وانما تتويج لعملية طويلة مركبة متزايدة الثقة كانت تنتظر لحظة التتويج هذه.

وقد تنبه يحزقئيل درور (الجيروساليم بوست 2 فبراير 1988) الى فشل النموذج المادي المباشر فقال : ان دراسة مقارنة للجماعات الاثنية الكبيرة تحت الحكم الاجنبي تبين «أن تصاعد المقاومة لا يمكن تحاشيها تقريبا رغم الازدهار الاقتصادي، وتصاعد المقاومة محتمل بشكل خاص حينما يصل جيل جديد مرحلة النضوج، فتأخذ صورة عصيان ومقاومة مدنية ضخمة ولذا فدهشة اسرائيل من سلوك العرب ينبع من افتقار للمنظور التاريخي». (ويمكن ترجمة عبارة «المنظور التاريخي» الى «الطبيعة البشرية» او العنصر الانساني او رؤية مركبة للانسان كما عبر عن نفسه عبر التاريخ، ولكن معظم الكتاب السياسيين يفضلون عبارة «المنظور التاريخي» لانها توهم بوجود شيء موضوعي هناك، مع ان كلمة «منظور» تفيد الراي والرؤية وكلمة «التاريخ» تشير الى الانسان كفاعل).

وقد عبر ميتيتياهو بيليد عن نفس الفكرة («تلقين الدرس هو اكبر الاخطاء» هآرتس 3 فبراير 1988) حين اشار الى انه لا يمكن ان يخمد عصيان مدني الا بأقصى الوسائل قسوة. ولكن هذا يؤدي الى ان الانتفاضة التي تليها سيكون من الاصعب اخمادها. ثم يضيف «وحتى لو اخمدت هذه [الاخيرة] فيستبعها انتفاضات اخرى حتى يضطر المضطهد ان يعطي الثوار حريتهم». ولم يذكر بيليد السبب وراء هذا، ولكن يمكن ان نفترض انه يرى ان ثمة شيء ما في الانسان يجعله يرفض عمليات التطبيع والترشيد والتدجين.

الفلسطيني فوق المئذنة في يوم مطير

وأهم محاولة اسرائيلية لفهم دوافع الانتفاضة هو ما صرح به شلومو افنيري وهو استاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية ومن كبار المفكرين السياسيين الاسرائيليين، ولكن الاهم من هذا كله انه عضو بارز في النخبة الحاكمة الاسرائيلية وشغل عدة مناصب سياسية هامة. ويلاحظ ان النموذج التفسيري الذي يتبناه هذا الكاتب لا يقنع بالحديث عن العناصر المادية الخارجية، وإنما يدخل في اعماق النفس، كما فعل ليطاني، ولكن بطريقة اكثر شمولا وتركيبا فيقول : «ان اسرائيل تتعلم الان ان القوة لها حدودها وان الحديد يهزم الحديد ولكنه لا يمكنه

ان يهزم يدا غير مسلحة». (وهذه معادلة غير مادية بالمرة. فالحديد الذي يهزم الحديد يمكنه - حسب القوانين العلمية الصماء - ان يهشم الايدي العزلاء). «ان العسكريين يحصون البنادق والدبابات والطائرات والصواريخ، لكن هذا الذي لا يمكن ان يحصى او يعد مثل ارادة شعب فانه بكل بساطة لا يظهر في خريطتهم الكمية للعالم». وهذا الكلام لو كتبه عربي مثلي لاتهم بالغيبية والصوفية. فالعقل العربي قد تعلم فن الهزيمة واحصاء قنابل العدو وصواريخه حتى يصاب بالحسرة ويعود للنوم والكوابيس. ويختتم افنيري مقاله بالحديث عن حدود القوة باقتباس كلمات تاليران لنابليون : «سيدي يمكن ان تصنع بسونكي البندقية اشياء عديدة الا ان تجلس عليه» («حدود القوة» الجيروساليم بوست 20 فبراير 1988).

ويتحدث جندي اسرائيلي عن عدوه العربي بنفس الطريقة فيتجاوز النموذج الاصم في التفسير ويتحدث عن الفاعل العربي، وعن كيف تتحول «قوة الضعيف» الى اداة «لتغيير الواقع» اذ يزول عنه «الخوف المقيد» ويخرج من «ذهول العجز» و«يعرف القدرة» فلا «يرتدع عن مواجهة اذرعة الامن» «فلا ينكص ولا يتراجع ولا يختفي - حتى حينما يتم اغراقه بالغاز المسيل للدموع وبزخات الرصاص المطاطي بل وبالرصاص الحقيقي !» ومن «يتذوق الاحساس بالقوة لا يتنازل سريعا، وانما يواصل وقوفه في اختبارات اخرى اكثر صعوبة» !! ويتحدث الجندي عن الارادة القومية الفلسطينية التي تقف في مواجهة الارادة الاسرائيلية وكيف يستخدم الفلسطيني قوته الكامنة التي تنبعث من خلال ارادته، اما الاسرائيلي فهو «لا يستخدم سوى قوته الفعلية ذلك اذا كانت له المقدرة النفسية على استخدامها» - اي ان القوة الصماء لا تكفي وانما يساندها شيء اخر يقع خارج حسابات القوة وهو الارادة، وهو شيء صعب صيده داخل شبكة الحسابات المادية الباردة.

وقد لخصت على همشمار الموقف بقولها : «ان الجيش الاسرائيلي يعيش حالة حرب ليست من النوع الذي اعتاد عليها او جربها ولم يقم بمثلها من قبل. وهي حرب لن تكون بدايتها ولا سيرها ولا نهايتها متوقفة على حجم السلاح ونوعيته والقوة التي في ايدي القوات العسكرية الاسرائيلية كما هي العادة، وانما على شيء اخر». وفي تصوري لم يستوعب احد الروح الحقة للانتفاضة، هذا «الشيء الاخر»، مثلما استوعبه هذا الضابط الاسرائيلي الذي اشار في حوار مع جريدة حداشوت (نقلا عن القبس 26 ابريل 1988) الى ان «المواطنين العرب في الارض المحتلة لديهم حافز اكيد وعندما يتلقون الضربات والنار والعقوبات الاقتصادية، فان ذلك يزيد من تصميمهم وعزيمتهم اكثر فاكثر في مواجهة القوات الاسرائيلية». واوضح انه شاهد احد الاشخاص من المواطنين العرب في احدى الليالي الممطرة والباردة يتسلق مئذنة مسجد ارتفاعها 12 مترا ورفع في اعلاها علما فلسطينيا، متسائلا في هذا الصدد : «كم واحدا من الاسرائيليين على استعداد للتسلق في ليل ماطر وبارد ليرفع علم اسرائيل». ان هذا الفلسطيني على قمة المئذنة رافعا علم فلسطين في يوم ممطر هو رمز

لهذا الشيء الاخر، هذا السر الذي يحرك الانسان. ولا يمكن ان نسمي كل هذا ردة فعل ـ وكأن الانسان جماد. وهذا ما اكده اميل حبيبي حين قال :«ان ما يحدث هنا ليس رد فعل يائس [وكأن كل فعل انساني له رد فعل انساني اخر مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه]، اليأس لا يحرك انتفاضة شعبية. الناس يخرجون للشارع لأنهم وجدوا الامل، ووجدوا انهم يمكنهم الوصول الى اهدافهم» (ليبراسيون الفرنسية عن الوطن 7 فبراير 1988).

أرقى واعظم ما في الطبيعة الانسانية

والدكتور فضل النقيب (في القبس 29 مارس 1988) من المعلقين العرب القلائل الذين رفضوا التفسير المادي الآلي، فهو يرى ان القمع الصهيوني عنصر سلبي، واليأس العربي عنصر سلبي آخر، والتفاعل يحدث دائما بين عوامل سلبية واخرى ايجابية. ولولا توافر العوامل الايجابية التي قادت لعملية النهوض الوطني على يد جيل جديد متحرر من الخوف والاوهام لأدى تراكم العوامل السلبية للقنوط واليأس والاحباط ـ اي ان المعادلة الميكانيكية السلبية لا تكفي لتفسير الانتفاضة، بل هناك داخل الانسان شيء ما يسميه الدكتور النقيب «أرقى ما في الطبيعة الانسانية» هو الذي فجر الوضع وغير المعادلة.

وارجو ان يلاحظ القارىء ان عبارة «ارقى ما في الطبيعة الانسانية» هذه لا تشير الى شيء مادي تجريبي محسوس، وانما تشير الى «شيء ما» يؤمن الدكتور النقيب بوجوده، وان هذا الشيء غير المادي هو الاساس الوحيد لتفسير الانتفاضة ـ اي ان الظاهرة المادية، وهي الانتفاضة، لا تستند في وجودها الى عنصر مادي مثلها، وانما الى عنصر غير مادي. ان «الانتفاضة» كما يقول الدكتور النقيب لم تحدث عندما عم اليأس النفوس، وانما اندلعت «عندما اصبح من المستحيل تعايش الدرجة العالية من النهوض الوطني (الذي يعبر عن اعظم ما في الانسان)،من الدرجة العالية من الطغيان (التي تعبر عن احط واوضع ما فيه)». وعظمة الانسان وضعته ليست خصائص تشريحية او فسيولوجية وانما هي اشياء ما داخل الانسان،وان هذه الاشياء لا تستند الى عناصر اقتصادية ولا ترد اليها حتى حينما تعبر عن نفسها من خلالها انما هي صفات ثابتة في الانسان، خالدة، تميزه عن الحيوان والطبيعة، وما لا يرد للطبيعة يرد الى ما ورائها ـ ومن هنا حتمية النموذج الايماني كنموذج تفسيري لظاهرة انسانية مركبة مثل الانتفاضة، بكل ما تحمل داخلها من ابداع وحياة.

نموذج غير عضوي

فرقنا بين نموذج الانسان/ السر،والانسان/المادة ، وقد رأينا ان السمة الاساسية للنموذج الاول انه يرى:انه لا يمكن رد الانسان بكليته الى المادة،ونحن نعبر عن نفس الفكرة بطريقة اخرى فنقول ان ثمة ثغرة اساسية داخل هذا النموذج، وهي ثغرة لن تسد بمرور

الزمن، اي أن هناك جوهرا ما غير معروف، وهو لن يعرف فيما بعد، وانما سيظل غير معروف، فهو غير قابل للخضوع للقوانين المادية. قد تعرف هذا الجانب او ذاك وقد تعرف معظم جوانبه ولكن تظل هناك جوانب غير معروفة. ويقف هذا على طرف النقيض من النموذج الثاني حيث ثمة افتراض ان كل شيء في نهاية الامر سيتم تفسيره، وما هو غير معروف سيتم التوصل الى قوانينه ولذا فلا توجد اي ثغرات فيه. ولذا فالنماذج المعرفية المادية تكون عادة متكاملة بشكل عضوي (او متناثرة بشكل ذري او آلية) ومن هنا شكلها فهي لا تحوي ثغرات داخلها ويظل للقانون فعالية دائمة. اما نموذج الانسان السر فهو نموذج ينطوي على التكامل غير العضوي. واعتقد ان النماذج العضوية في التفكير نماذج في نهاية الامر بسيطة ومتماسكة بشكل غير انساني استوردت من عالم النبات والحيوان ثم طبقت على عالم الانسان، بحيث تقوم برد الجزء (الانساني) الى الكل العضوي الطبيعي بحيث يصبح هناك قانون واحد ينطبق على الكل العضوي الذي يتسم بالوحدة العضوية (ومن هنا يتحول النموذج العضوي حين يطبق على ظاهرة الانسان الى نموذج آلي).(قمنا باعداد دراسة مطولة في الموضوع، ستنشر خلال هذا العام باذن الله.فنرجو ان يقبل القارىء هذا الجزء من الكتاب على مستواه التعميمي الحالي، اذ ان مجال هذه الدراسة يضيق عن الدخول في التفاصيل).

ويمكنني القول:ان التراث الاسلامي العربي تراث قد ترد فيه النماذج العضوية (وهي لا بدّ أن ترد داخل اي تشكيل حضاري) الا انها لا تتمتع باي مركزية فيه اذ يشغل المركز نموذج التكامل غير العضوي (لا التلاحم العضوي). فلننظر على سبيل المثال الى الحديث الشريف: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». فعلى الرغم من ان مضمون الاستعارة هنا هي الجسد، وبالتالي يمكن ان نطلق عليها «استعارة عضوية» الا ان بنيتها غير عضوية نظرا لاستخدام اداة التشبيه (كذا مثل كذا) التي تحتفظ بمسافة (او ثغرة) بين طرفي التشبيه وتقلل من عضوية المجاز. فالمؤمنون في تعاطفهم ليسوا جسدا وانما هو مثل الجسد وحسب. فاداة التشبيه تخفف من حدة الترابط وتدخل قدرا من التراخي. ولعل الحديث الشريف الاخر عن نفس الموضوع تظهر فيه فكرة الترابط غير العضوي الرخو بشكل اوضح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» ثم شبك الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ اصابعه. فالاستعارة هنا في مضمونها غير عضوية وتعبر عن تكامل وترابط ولكنه ترابط البناء غير العضوي الذي تتخلله الثغرات (تماما مثل اصابع اليد المتشابكة).

ويمكن ان اضرب عشرات الامثلة الاخرى من القرآن والسنة (والتراث الديني وغير الديني) على فكرة الترابط غير العضوي. فمثلا مفهوم النفس المطمئنة هو مفهوم فريد تماما، فهو ليس النفس الرومانسية التي تلتحم عضويا بالاخر، ولا هي بالنفس الذرية المغتربة التي تحتفظ بحدودها وانغلاقها،وانما هي نفس تكتسب المقدرة على الابداع والبقاء (الطمأنينة) من

خلال التوكل على اللهدون الاتحاد به ومن خلال التوكل على الاخرين دون الالتحام بهم او الانفصال عنهم. واعتقد ان النموذج الاكبر (نموذج النماذج، ان صح التعبير) هو المفهوم الاسلامي لله وعلاقة الانسان به : فالله ليس كمثله شيء ولكنه قريب يجيب دعوة الداعي (دون ان يحل فيه)، وهو مفارق تماما للكون (للطبيعة والتاريخ) متسام عليهما ولكنه لا يتركهما دون عدل او رحمة، فهو اقرب الينا من حبل الوريد (دون ان يجري في عروقنا!). فثمة ثغرة تفصل بين الله والانسان والطبيعة، تماما مثل تلك الثغرة التي تفصل بين الانسان والطبيعة. وهذه الثغرة هي ضمان استقلال الانسان عن الارادة الالهية، ولكنها ليست بهوة تعني ان الله قد هجر الانسان وتركه في عالم الفوضى والصدفة. فالانسان يحمل رسالة الله في الارض، ويحمل الشرارة الالهية داخله.

وفي تصوري ان العقل العربي الاسلامي يتحرك في اطار هذا النموذج والرؤية للكون على عكس الفكر الغربي الذي يشغل النموذج العضوي فيه مكانا مركزيا ابتداء بأرسطو ومرورا بالفكر الغربي الوسيط الى ان يصل الى قمته في الفكر الرومانسي عامة، والفكر الرومانسي الالماني على وجه الخصوص وهو الفكر الذي افرز النازية والصهيونية، وكلاهما يتسمان بعضويتهما الحادة. وقد شجع ظهور العلم والعلمانية على تزايد العضوية في التفكير اذ يحاول العلم الطبيعي تفسير كل الظواهر بقانون واحد، وهو ينحو نحو سد الثغرات دائما وافتراض ان ما هو غير معروف لا بدّ أن يعرف. اما العلمانية فهي تشجع التفكير العضوي باستبعادها الله كعنصر اساس في النموذج المعرفي (اذ يتحول الله الى امر خاص في القلب او في اي جزء اخر من الانسان، ويظل المصدر الوحيد للمعرفة هو التجريب).

وفي تصوري ان النموذج غير العضوي نموذج اكثر نضوجا من الناحية النفسية واكثر تركيبية من الناحية المعرفية واكثر تفسيرية من الناحية التحليلية من النموذج العضوي. وهو نموذج يسمح بقدر من الترابط والتناسق الداخلي، ولكنه، لأنه ليس ترابطا عضويا كاملا، فانه يسمح بقدر من الحرية والمسؤولية، فالنموذج الذي يحوي ثغرات داخله هو نموذج يفترض امكانية حرية الحركة والابداع. ومن الناحية التصنيفية نجد ان النماذج العضوية تدفع بنا عن غير وعي الى الثنائيات المتعارضة، اذ تنقسم كل الاشياء الى سالب وموجب، قابل ورافض، ناجح وساقط، صقور وحمائم الخ، مع ان الواقع بما فيه من ثغرات وتركيب وعدم استمرار لا يمكن رصده بهذه الطريقة. والنموذج غير العضوي يشجع على رصد الواقع من خلال مجموعة من المقولات ليست بالضرورة سالبة أوموجبة وانما بين بين. والمقولات الوسطية عادة اكثر تركيبا ودلالة من المقولات المتطرفة. ونموذج الترابط غير العضوي يسمح بتجنيد اعداد كبيرة من البشر غير متجانسة في الاعمار ولا الثقافة ولا في درجة التنظيم، كما يمكن ان يتم التنسيق بين الوحدات المختلفة دون وجود قيادة مركزية اما نموذج التكامل العضوي فيتطلب حدا اقصى من الاداء بحيث يؤدي كل جزء وظيفته بالتنسيق مع الاجزاء الاخرى، ولذا لابد من

. لتجانس العناصر المختلفة من ناحية العمر والطاقة ومستوى الاداء . ولاشك ان كفاءة مثل هذا النموذج قد تكون مرتفعة على المستوى القصير، ولكن على المستوى البعيد نجد ان استمراريته دائماً مهددة، وانه يستنفد طاقته بسرعة، وهو دائماً مهدد بالتوقف ان تعطلت احد اجزائه (فهو مثل الالة). اما الترابط غير العضوي فان مستوى ادائه ليس عاليا، ولكنه مع هذا يضمن الاستمرارية ويسمح بأن تعمل الاجزاء على مستويات مختلفة من الكفاءة، بل يسمح بان تتوقف بعض الاجزاء بينما يعمل البعض الاخر. ولانه يسمح بقسط من الحرية فهو يستخدم التخطيط ويوظف الارتجال في ذات الوقت.

وفي دراسة سابقة لي («شعر المقاومة الفلسطيني : العروبة والجماليات» فكر (القاهرة) اكتوبر 1985) حاولت ان ابين ان جماليات شعر المقاومة الفلسطينية ليست بعضوية، ويمكنني الان القول ان الانتفاضة ترجمة مدهشة لهذا النموذج الذي نحاول اكتشافه داخل تفاصيل التاريخ العربي الاسلامي،وهو نموذج يعبر عن نفسه في البناء التنظيمي للانتفاضة وفي اسلحتها المختلفة، ابتداء بالحجارة والمنشورات والاضرابات ومرورا بالاغاني (وهو ما بيناه بالتفصيل في الفصل الخامس).

مشكلة المعنى

وتشكل دراسة «أزمة» مجتمع ما تحديا خاصة لعالم السياسة والاجتماع لان الاصطلاح يتعامل مع عالم الذات والموضوع، ومع الادراك والواقع،ومع الحالة العقلية والتجربة المعاشة، ومع التوقعات والاداء، اذ ان الحكم على مدى نجاح او فشل مجتمع ما لا يمكن ان يتم بشكل موضوعي اى خارجي مادى، اذ ان النجاح، شأنه شان الفشل، مسالة مرتبطة بدوافع الفاعل وبتوقعاته ورؤيته ـ وبما نسميه «المعنى» ـ اي الدلالة الداخلية التي يراها الانسان فيما يقع له من احداث وفيما يحيط به من ظواهر. ولنضرب مثلا على ذلك. اذا حدث وتقدمت دولة عربية لعضوية السوق الاوروبية المشتركة وقُبلت عضويتها، فهل يعد هذا نجاحا ام فشلا ؟ وبعد مرور عدة سنوات من انضمامها ارتفع انتاجها بنسبة مذهلة وزاد مستوى معيشة معظم طبقات الشعب وتم استيعابهم تماما في المحيط الثقافي الغربي بحيث بدؤوا يتحدثون الفرنسية والاسبانية والانجليزية ـ فهل هذا نجاح ام فشل ؟ لا يمكن الحكم على مثل هذه التجربة بالنجاح الا اذا كنا ماديين آليين نقيس الظواهر الانسانية بمقاييس خارجية نفعية صماء ونرصد الظواهر الانسانية من الخارج تماما مثلما نرصد الظواهر الطبيعية، ونسجل سلوك الانسان، كفرد وجماعة، كما نسجل سلوك النملة وجماعات النمل. ومثل هذه الرؤية، بغض النظر عن لا انسانيتها العميقة، هي رؤية غير دقيقة لان الدوافع واشكال الوعي (مهما كان زيفها وانفصالها) تشكل جزءا اساسيا من الواقع الانساني. فالفاعل الانساني ليس مثل الفاعل الحيواني، اذ انه ليس مجموعة من الخلايا والاعصاب والرغبات المادية، وسلوكه ليس مجرد

افعال وردود افعال مشروطة، وانما هي اكثر تركيبا من ذلك. ولذا فنجاح هذه البلد العربية التي فقدت هويتها ووعيها بنفسها ففقدت ماضيها وضميرها هو في جوهره «اخفاق» وما اكتسبته هو فقدان، وهما اخفاق وفقدان معنويان سيترجمان نفسيهما الى حقائق عملية كمية فيما بعد مع تآكل النسيج المجتمعي وانحلال الاسرة واحساس اعضاء هذا المجتمع بالغربة العميقة امام واقعهم الذي سيواجههم كمعطيات حسية متناثرة لا ينتظمها معنى كلي، او اذا كان لها معنى فهو معنى خارجي كمي سطحي لا يشبع البتة كل تطلعاتهم الانسانية - الجسدية والمعنوية (او الروحية ان شئت)، وسيظل اعضاء هذا المجتمع يفتقدون المعنى الكلي لوجودهم ولعلاقتهم ببيئتهم الطبيعية والاجتماعية ولحياتهم ومماتهم.

واعتقد ان كثيرا من الدراسات العربية تسقط هذا البعد الهام للظاهرة الصهيونية باعتبارها ظاهرة اجتماعية، وباعتبار ان الاسرائيليين بشر. ولذا يتم الحكم على مدى نجاح او فشل الظاهرة الصهيونية بمقاييس كمية خارجية عامة مثل مدى «تقدم المجتمع» من الناحية الاقتصادية و«معدلات الدخل القومي» ومدى اتساع حدود الدولة الصهيونية او ضيقها دون ان يؤخذ في الاعتبار ادراك المستوطنين الصهاينة انفسهم لهذه الظواهر وكيفية تفسيرهم لها وانعكاساتها المتعينة (في مقابل النظرية والمنطقية المجردة) عليهم، ودون تحديد لطبيعة «توقعاتهم» من مجتمعهم الصهيوني سواء من الناحية المادية او المعنوية. وكما قال لي احد الاصدقاء: «كيف تتحدث عن ازمة المجتمع الصهيوني، وقد نجح الصهاينة تماما فيما شرعوا فيه - اي تأسيس دولة صهيونية»، وفي هذا القول تبسيط واي تبسيط، فهو يفترض ان هذا هو الهدف الاساسي بل والوحيد للحركة الصهيونية، والامر بطبيعة الحال ابعد ما يكون عن ذلك.

التطبيع المنهجي للنسق السياسي الاسرائيلي

ونحن لو قمنا بتحليل مقولة صديقي هذه لاكتشفنا انه قد قام «بتطبيع» منهجي للكيان الصهيوني - اي نظر اليه باعتباره كيانا سياسيا عاديا طبيعيا مثل الكيانات السياسية الاخرى. فجميع حركات التحرر الوطني في العالم الثالث كانت تهدف الى انشاء دولة تشكل الثمرة الاخيرة لسنوات طويلة من النضال والكفاح، وهذا هو الحال ايضا في اوروبا مع الحركات القومية التي كانت تترجم نفسها في نهاية الامر الى الدولة القومية. ونفس القانون - حسب قولهم - تنطبق اذن على الظاهرة الصهيونية.

وطريقة الادراك العامة هذه للكيان الصهيوني تفقده خصوصيته وتخفي كثيرا من ديناميانه الخاصة وتطبيقه من الناحية المعرفية والمنهجية - اي تنظر اليه باعتباره كيانا سياسيا عاديا طبيعيا مثل الكيانات السياسية الاخرى. فيتم الحديث عن «نظام الحزبين في الديمقراطية الاسرائيلية» وعن ان انجلترا واسرائيل لا يوجد فيها دستور وان النظام السياسي الاسرائيلي

يتبع النمط الانجلو أمريكي (الثنائي) لا النمط الاوروبي. وعلم السياسة الصهيوني يشجع هذا الاتجاه. وعلماء السياسة العرب الذين يتبنون مثل هذه الرؤيا يخطئون مرتين : من الناحية المعرفية، اذ ان تصنيفهم غير دقيق البتة، فهو لا يمكنه ان يفسر ظاهرة مثل المنظمة الصهيونية ودور الوكالة اليهودية التي تساعد سكان الدولة الصهيونية من اليهود وحسب، وتستبعد العرب، فهذه المؤسسة ليس لها نظير في اي «ديمقراطية» اخرى. كما انهم يخطئون من الناحية النضالية والاخلاقية اذ انه كيف يمكن الحديث عن ديمقراطية تستند الى حادثة اغتصاب للارض وذبح لبعض سكانها وطرد للبعض الاخر واستبعاد لمن تبقى من العملية السياسية ذاتها. فالفشل المعرفي التفسيري هنا هو ذاته الفشل النضالي الاخلاقي. اذ ان التطبيع يخفي عن الانظار (وعن الضمير) الظروف الخاصة بالكيان الصهيوني ككيان استيطاني احلالي، وحقيقة ان استيطانيته واحلاليته هما القانون الاساسي الذي يحكم ديناميته ومساره في الماضي والحاضر. فهذه الاستيطانية الاحلالية هي التي تفسر عدم وجود دستور حتى الان في اسرائيل، وهذه الاستيطانية الاحلالية هي التي تجعلنا نكتشف ان الاحزاب الاسرائيلية ليست اساسا احزابا وانما مؤسسات استيطانية استيعابية تضطلع بوظائف لا تضطلع بها الاحزاب السياسية في الدول الاخرى ويتم تمويلها عن طريق المنظمة الصهيونية العالمية ! واسقاط هذه الابعاد الخاصة يجعل من عملية التطبيع المعرفية المنهجية عملية تسويغ وتبرير غير واعية للوجود الصهيوني واضفاء درجة من الشرعية عليه.

وأرجو الا يتصور القارىء انني احاول تأكيد خصوصية المجتمع الصهيوني واهمية دراسة دوافع المستوطنين الصهيونيين وتوقعاتهم حتى يتسنى فضحه، فهذه - كما أكرر دائما - مسالة لا تعنيني البتة، فالفضح تشهير، وهناك من هو اكفأ مني في هذه العملية، فما اود ان انجزه هو تأكيد الخصوصية وقضية الدوافع والمعنى كمقولات معرفية وكوسائل تحليلية، فالخصوصية والدوافع والمعنى، رغم انها ليست مقولات كمية، تشكل جزءا أساسيا من الواقع الصهيوني الذي لا يتسنى رصده بشكل مركب الا بأخذ هذه العوامل الذاتية في الاعتبار.

وتأكيدنا لخصوصية الكيان الصهيوني ولأهمية دراسة دوافع اعضائه وتوقعاتهم لا تعني اننا نرى انه «كيان فريد» يتحدى الفهم او انه طلسم عجائبي لا يخضع لقانون او ان له «خصوصية يهودية» ميتافيزيقية او ان دوافع اعضاء التجمع الصهيوني «دوافع شريرة» وانهم يهدفون الى هدم بلاد العرب والمسلمين فمثل هذه الاوهام البروتوكولية (نسبة الى بروتوكولات حكماء صهيون) غير جديرة بالاحترام لا لأسباب اخلاقية وحسب وانما اساسا لأسباب معرفية منهجية ايضا، فالصيغة العامة تفسر كل شيء، وما يفسر كل شيء لا يفسر اي شيء. كما انني ارى ان «يهودية» الكيان الصهيوني (الحقيقية او المزعومة) لا تشكل سوى جزء من كل ولا يمكن تفسير الكل عن طريق الجزء.

وأرجو ألا يتصور القارىء ايضا انني ارى ان كل الامور نسبية وان الفاعل وحده هو

القادر على تحديد نجاحه او فشله او سعادته وبؤسه، فهناك من المؤشرات والقرائن ما يقع خارج وعي الفاعل ذاته، مما يجعل بوسعنا ان نصدر حكما موضوعيا مركبا يأخذ وعيه ودوافعه في الحسبان كعناصر مكونة لواقعه دون ان نرد هذا الواقع لذلك الوعي، ويظل الواقع في نهاية الامر هو الكل المركب الخاضع للتقييم والتقنين.

وعلماء السياسة الصهاينة، بعد اضفاء صبغة الطبيعية على النمط الصهيوني يؤكدون اهمية فكرة المعنى الذي يبحث عنه الصهاينة والذي يجدونه في افعالهم السياسية. فالقومية - حسب تعريفهم - ليست مجرد انشاء دولة قومية بل هي شيء اعرض من ذلك (الجيروساليم بوست 26 يناير 1985). ويؤكد شموئيل ايزتشتدات:ان الصهيونية ليست مجرد حركة تحرر قومي وحسب،وانما هي حركة حاولت ان تخلق نسقا سياسيا اجتماعيا جديدا يستند الى رؤية جديدة للذات - هي ثورة على الواقع اليهودي في شرق اوروبا بشقيه الاندماجي والأرثوذكسي. فالاندماج يؤدي الى الذوبان، اما الرؤية الارثوذكسية فتفضل اتخاذ موقف سلبي وانتظار الماشياح المخلص،في مقابل ذلك ترى الصهيونية ضرورة ان يأخذ اليهود مصيرهم الجمعي في ايديهم (الجيروساليم بوست 26 ابريل 85). فالوقوف عند تأسيس الدولة يتجاهل كثيرا من العناصر التي يحكم بها الصهاينة على انفسهم وعلى مقدار نجاحهم وفشلهم، اذ ما فائدة تأسيس الدولة ان لم يمسك اليهود بمصيرهم الجمعي في ايديهم، اليس هذا هو الهدف النهائي وما الدولة سوى الوسيلة ؟ اليس هذا هو المعنى الذي عنه يبحثون ومن اجله يكدون ويتعبون ؟

وارجو ملاحظة انني استخدم كلمة «تطبيع» لا بالمعنى الفلسفي الذي اوردناه في بداية هذا الملحق (اي رؤية الانسان كجزء من طبيعة) وانما بمعنى ان ينظر المرء لظاهرة كما لوكانت ظاهرة عادية تشبه الظواهر الاخرى،«فطبيعي» هنا ليست نسبة الى «طبيعة» وانما نسبة الى «عادي» و«متكرر» وتتبع الانماط المألوفة.

الاستعارة والصورة

سيلاحظ القارىء انني في هذه الدراسة كثيرا ما تناولت الاستعارات والصور الكامنة والواضحة في اقوال العرب والصهاينة، كما انني لم احجم عن استخدام الاستعارات في التعبير عن بعض الافكار. وكثيرون يظنون ان الصور زخرفة وان الاستعارات اضافة ومحسنات لفظية،ولكننا نعرف تماما انها ابعد ما تكون عن ذلك، فهي وسيلة ادراكية لا يمكن للمرء ان يدرك واقعه او ان يعبر عن مكنون نفسه دونها. فالاستعارة اذن مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج المعرفية والادراكية وخير وسيلة للتعبير عنها. وان كان الدارس يريد ان يصل الى هذه النماذج ويعرف هويتها فلا يمكنه قط ان يطرح الاستعارات والصور جانبا باعتبارها زخارف. بل اننانعرف ان الاستعارة جزء اساسي من نسيج اللغة ذاتها وعملية التفكير الانسانية. ومن هنا

تناولي الاستعارات بالتحليل واستخدامي اياها. فحللنا استخدام شامير لصورة «عملاق جلفر» وبيّنا انها مقلوب الصورة الصهيونية القديمة داود وجالوت. وأشرنا الى التحوّل الذي دخل على الراي العام العالمي بحيث اصبح يستخدم صورة داود للادراك العربي وظهور الطائرة المروحية كصورة اساسية في الوجدان الاسرائيلي بدلاً من قلعة ماسادا. ونحن اذا كنا نحاول دراسة السلوك الانساني وان نرصد الانسان في كل تركيبيته فاننا لا بدّ أن نرصد المعنى، والمعنى يتجلى دائما في الاستعارات والصور اكثر من الخطاب المباشر.

وقد اشرت الى صورة الفلسطيني فوق مئذنة وهو يرفع علم فلسطين في يوم مطير والتي شاهدها الضابط الاسرائيلي وتركت اثرا عميقا في نفسه ورؤيته للفلسطيني، كنقيض للمستوطن الصهيوني.وقد تصادف ان بعض المعلقين السياسيين العرب المهتمين بالانتفاضة استخدموا نفس المقال الذي وردت فيه هذه الواقعة كأحد مصادرهم. وقد فوجئت انهم اسقطوا كلمة «مئذنة» وحولوها الى «برج عال» (اي انهم علمنوها وطبعوها وجعلوها جسما عاليا والسلام). وانا هنا لا اتحدث عن عدم التزامهم الدقة العلمية فالمئذنة في نهاية الامر برج عال. ولكن ما يهمنا في عملية الرصد الدقيقة ان الاسرائيلي شاهد فلسطينياً يتسلق مئذنة وان هذا هو ما رآه في احلامه تلك الليلة، وهذا ما رواه لاصدقائه وهذا ما سيحدد سلوكه. ولذا فاسقاط الواقعة التي تحولت الى استعارة وصورة محددة في ذهنه (نموذج ادراكي) ستقلل من مقدرتنا على تفسير سلوك هذا الاسرائيلي وبالتالي التنبؤ به.

وقد قمت بتحليل بعض المصطلحات السياسية السائدة لأبين الجانب المجازي فيها مثل «رجل اوروبا المريض»، والحمائم والصقور. و اكتشفنا أن الحمائم والصقور مجاز (اي ان المسالمين مثل الحمائم والمتشددين مثل الصقور) ونحتنا استعارتين أخرتين، دجاج ونعام، وولدنا استعارات مختلطة مثل الدجاج والنعام التي تأخذ هيئة الصقور. ان الاهتمام بالمجاز والصور هو في نهاية الامر اهتمام بالدوافع وبالسلوك المتعين للانسان وبتركيبيته التي تعجز اللغة الاخبارية المباشرة عن نقلها.

بين الازمة والانهيار

قد يقول قائل انني ركزت بشكل «غير موضوعي» على ازمة الصهيونية وعلى ايجابيات الانتفاضة، وان الصورة التي اقدمها ليست متزنة او متوازنة. وهو اعتراض وجيه في حد ذاته ولكنه لا علاقة له بهذه الدراسة وبما تحاول ان تنجزه.فالدراسة الحالية تحاول ان «تفسر» الدوافع وراء الانتفاضة، ولم اندلعت الان وليس من قبل، ولم تأخذ هذا الشكل دون سواه وهي محاولة للتفسير تستخدم نموذجا تفسيريا مختلفا عن الاطروحات السائدة التي اصفها بانها تسقط مشاكل المعنى الداخلي والدوافع والانسان (العربي والصهيوني) كفاعلين. ويمكنني الزعم ان نموذجي اكثر تفسيرية من النموذج السائد فهو يفسر عددا اكبر من التفاصيل بعدد اقل من

الفرضيات او بفرضية واحدة موجزة. كما انه يفسر الشكل الخاص ولا يقنع بالعموميات الاحصائية والصيغ التفسيرية الجاهزة. وفي الواقع بدات اجد ان مصطلحات مثل «اكثر تفسيرية» و«اقل تفسيرية» اكثر جدوى من المصطلحين الشائعين «موضوعي» و«ذاتي»، فمصطلح «موضوعي» يفترض اختفاء الذات ومصطلح «ذاتي» يفترض اختفاء الموضوع، اي انهما يضعان الواقع الموضوعي الخام في مقابل الذات المنغلقة على نفسها، وكلاهما نقطتان افتراضيتان مستحيلتان، بينما «اكثر تفسيرية» و«اقل تفسيرية» يفترضان وجود «ذات» واعية تدرس وتفسر و«موضوع» لا يوجد في ذاته، اذ انه موضوع التفسير. اي اننا هنا نستعيد النفس الانسانية والفاعل الانساني مرة اخرى ولا نتصور الدارس كآلة صَمّاء تسجل موضوعيا ما حولها بدون اختيار وبدون قيم مسبقة فهذا ادعاء نعلم كلنا مدى زيفه، ومن الاجدى ومن «الموضوعية» ان نسمي الاشياء باسمائها حتى يتحرز القارىء ولا يتصور ان ما يُقدم له هو «الموضوع» و«الواقع» ويعرف انه محاولة للوصول وحسب، فنجتهد ونُصيب وقد نجتهد ونخطىء، والله في نهاية الامر اعلم. وكما يلاحظ القارىء افترض هنا مرة اخرى وجود ثغرات فمصطلح «اكثر تفسيرية» و«اقل تفسيرية» هو جزء من النسق المعرفي الذي اعمل من خلاله وهو نسق التكامل غير العضوي (وعلى كل هذا الموضوع سنتناوله في دراستنا عن النماذج العضوية والالية).

الى فضل هذا-كما بينا في طي الدراسة-يمكن أن نجرد من الانتفاضة نماذج لحث الجماهير على النهوض .يمكنها ان تبدع من خلالها، وهذا ما احاول انجازه الى حد ما في هذه الدراسة.وعملية التجريد في نهاية الامر هي عملية انتقاء وابقاء واستبعاد. ويمكن ان نرى هذه الدراسة باعتبارها محاولة لتحديد النمط المثالي للانتفاضة، والنمط المثالي هو محاولة لعزل بعض جوانب الواقع بهدف ابرازها حتى يتسنى ادراكها بوضوح،ومعرفة اثرها على الواقع. ومن الواضح ان ثمة عنصر «ذاتي» في مفهوم النمط المثالي الذي يفترض ان ثمة اختيار،وان الباحث لذلك قد حدد ما هو اساسي وما هو فرعي،وما هو حقيقي وجوهري وما هو عرضي وزائل. وحسب ما يصلنا من معطيات اجد ان نقط القصور في الانتفاضة ثانوية للغاية وانها يمكنها تجاوزها بل ان بعض النقائص مثل الارتجال (من منظور النموذج العضوي) تصبح فضائل من منظور النموذج غير العضوي.

واخيرا أميز دائما في كتاباتي بين الازمة والانهيار وان ازمة الصهيونية لن تؤد بالضرورة الى انهيار العدو.ويعلمنا التاريخ ان بعض النظم الظالمة يمكنها ان تعيش في حالة ازمة عدة قرون بسبب غياب الفاعل الانساني الذي يمكنه ان يصعد الازمة من الداخل او يقضي عليه بضربة من الخارج. وقد كنت أبين ان «ازمة الصهيونية» في حد ذاتها [كواقع خام] لا تبشر بأي خير بالنسبة لنا نحن العرب، بل انها علامة على غيابنا الكامل. اذ كيف يتأتى لمجتمع طفيلي تسوّلي متآكل ان يعيش طيلة هذه الفترة وان يلحق بنا الهزيمة تلو الاخرى، الا اذا كنا اكثر ضعفا

وتخاذلا منه؟ ان ازمة الصهيونية الطويلة قد تكون دليلا على تآكل الفاعل الصهيوني ولكنها تنهض دليلا على غياب الفاعل العربي وهزيمته الداخلية.بل انني بينت اننا لم ندرك ابعاد ازمة العدو بسبب افتقادنا للهوية وللثقة في انفسنا ولذا لم يمكننا ان نوظفها لصالحنا، واكتفى بعضنا بالحديث عن «انهيارهمن الداخل»، هذا مثال جيد على التفكير الالي المادي، الذي يخلص الى انه من الممكن ان تتفاعل العناصر المادية بعضها مع بعض ثم تظهر النتائج. وقد بين المنتفضون ان الانسان العربي ان تحرك امكنه ان يعمق من ازمة العدو وان يصيب مجتمعه بالتشققات وان يبث في قلبه الشك وعدم اليقين.

في القول والديباجة

استخدم في دراساتي للظاهرة الصهيونية كلمتين هما «قول وديباجة». اما «القول» فكما جاء في المعاجم فهو «الكلام» وهو ايضا «الراي والمعتقد». ولم اجد في اللغة الانجليزية كلمة تؤدي معنى كلمة قول بل وجدت عدة كلمات منها «ايديولوجية» وايضا كلمة *discourse* التي نترجمها عادة بكلمة «خطاب». وكلمات اخرى مثل «اقوال» *sayings*.وساشير الى القول الصهيوني باعتباره الصياغات اللفظية الصهيونية التي تشكل الاقوال والنظريات والافكار والديباجات الصهيونية. والديباجات هي المسوغات التي يأتي بها القائل لتبرير اقواله، وقد تكون هذه الديباجات متفقة مع الواقع وقد تكون مختلفة عنه. ونحن نضع القول في مقابل الفعل.

نحن نقترح الكلمتين لا كبديل لكلمات انجليزية وانما كنقط انطلاق لمشروع معرفي مستقل. وعلى كل فان كلمة مثل «ايديولوجية» كلمة مختلطة الدلالة تماما في لغتها الاصلية، وتعني الشيء وعكسه. وفي احدى دراسات المفكر العربي عبد الله العروي نحت فعل «يؤدلج» من «ايديولوجية» وهو فعل في صيغته الانجليزية او الفرنسية مبهم مختلط الدلالة اما في صيغته العربية فلا يعني شيئا على الاطلاق، وكي ندرك شيئا من معناه علينا ان نلم باحدى اللغات الاوروبية.ومثل هذا الاتجاه سيحكم علينا بتبعية ازلية للغرب وعزلة دائمة عن جماهيرنا. كما ان نحافة مثل هذا المصطلح يقف سدا منيعا ضد اي ابداع عربي حقيقي في مجال العلوم الانسانية. ولنقارن عمق كلمة «يقول» بمعنى «يتكلم ويظن ويؤمن ويعتقد» بتهافت كلمة «يؤدلج». ولقد تركنا كلمة «يقول» لاننا حددنا مجالها الدلالي والادراكي بمجال الكلمة الانجليزية *to say*، اي اننا نترجم حتى حينما نفكر. ثم ألقينا بالكلمة العربية في سلة المهملات لانها لا تؤدي المعنى الذي نهدف اليه!

المصادر والتوثيق

كتبت هذه الدراسة على عجل وكان المفروض فيها ان تظهر في 15 ايار/ مايو ودفعت بها الى احد الناشرين الذي غرر بي واستغرق ثلاثة شهور دون ان ينجزها فقمت باضافة ما

استجد من احداث (حرب النار ـ المعطيات الاقتصادية الجديدة الخاصة باثر الانتفاضة ـ وضوح الانقسام داخل التجمع الصهيوني الخ). ونظرا للظروف التي كتب تحتها الكتاب يوجد احيانا عدم اتساق في بعض الاحصائيات ولكننا حاولنا قدر استطاعتنا ان نبقي الاحصائيات التي نتصور انها اكثر دقة،كما اننا حاولنا دائما ان نأتي بآخر الاحصائيات الا في بعض الاحيان حين تعذر ذلك. وفي بعض الحالات توفرت احصائيات اكثر حداثة ولكن ادراجها في الدراسة كان يعني اعادة كتابة اجزاء كثيرة من الدراسة فاستبعدناها بعد ان تأكدنا انها لا تختلف كثيرا في دلالتها عما ورد في الدراسة.والمصادر الاساسية في الدراسة هي الصحف اليومية خاصة :الجيروساليم بوست والقبس التي يجمع الكثيرون على انها في تغطيتها للانتفاضة قد فاقت كثيرا من الصحف العربية كمًّا وكيفا. وقد آثرنا ان نضع الهوامش في المتن نفسه لان هذا قد يسر عملية تحرير الكتاب. واملنا ان يغفر لنا القارىء الهنات والهفوات.

شكر وتقدير

احب ان اتوجه بالشكر لكل الاخوة الفلسطينيين الذين عاونوا في تحرير هذا الكتاب واخص بالشكر المجموعة التي عقدت جلسة حوار بخصوص «بواكير الحصاد» والتي سميناها النتائج الثابتة للانتفاضة. واخيرا اتوجه بشكر خاص للصديق الفلسطيني الذي قضى معي عدة ايام في تحرير الكتاب ليأخذ شكله النهائي قبل دفعه للمطبعة، ولم اذكر الاسماء لاسباب لا تخفى على القارىء.

وقد قضى معي افراد اسرتي (ياسر المسيري، ود. هدى حجازي) عيد الفطر يحرران الكتاب في طبعته الاولى (التي لم تصدر) ثم عيد الاضحى لنقل هذه الطبعة، فلهما منّا الشكر، وارجو من الله عز وجل ان يكافئهما على ما ادياه من خير. .

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٨٦٥ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 7025 - 9